Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



دكتور قاسم عبده قاسم

عصر سلاطين المماليك

التاريخ السياسى والاجتماعى

Bibliotheca Alexandrina
0016428


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عصر سلاطين المماليك

التاريـخ السياسـى والاجتماعـى

تأليف

دكتور قاسم عبده قاسم

الطبعة الأولى

١٩٩٨



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبوطالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون ٣٨٧١٦٩٣

ص . ب ٦٥ خالد بن الوليد بالهرم - رمز بريدى ١٢٥٦٧

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإهداء

إلى زمن جميل مضى ... وإلى زمن أجمل يأتي

قاسم



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عصر سلاطين المماليك من الفترات المثيرة فى تاريخ المنطقة العربية والعالم الإسلامى عامة، ومصر الشام خاصة . إذ إن تلك الفترة الحاسمة تمثل منعطفًا هامًا فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، كما أنها تقع بين نقطتى بداية ونهاية فارقتين فى تاريخ المنطقة وفى تاريخ العالم كله . فقد كانت البداية مصحوبة ببروز القوة الفرنجية الكاثوليكية فى هجومها الصليبى على المنطقة العربية ، والهجوم التترى الوثنى القادم من الشرق على المنطقة نفسها ، وكان دورها التاريخى مرهونًا بنجاحها فى التصدى لهذين الخطرين ، وهو ما حدث فعلاً : إذ نجح سلاطين المماليك فى استكمال المهمة التاريخية للدولة الأيوبية حتى تم لهم القضاء على الكيان الفرنجى تحت سماء الشرق العربى ، وفوق أرضه ، فى العقد الأخير من القرن الثالث عشر بعد ذلك بسنوات عشر، كما تمكنوا من ترويض العنف المغولى بحيث تحو الفترة إلى الإسلام ، وباتوا قوة حيوية مضافة إلى الحضارة العربية الإسلامية أمها نهاية الدولة، فكانت مصحوبة بحدثين عالميين غاية فى الأهمية ؛ أولهما بداية حركة الاستعمار الأوربى التى خرجت من جلد أوربا الضيق تحاول نزع الوجود الإسلامى من طرق التجارة العالمية ومراكزها البحرية والبرية ؛ بداية بالالتفاف حول العالم الإسلامى من خلال الطريق البحرى الدائر حول أفريقيا وصولا إلى المحيط الهندى وشرق آسيا- والذى شاعت التسمية الأوربية له «طريق رأس الرجاء الصالح»، بمساعدة أحمد بن ماجد الملاح الملم الذى كان يعرف الطريق الذى استخدمه المسلمون دائمًا فى عصور السيادة البحرية الإسلامية فى تلك الأرجاء ؛ فضلاً عن محاولاتهم لاقتحام البحر الأحمر الذى ظل ذلك الحين (بداية القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى) بحيرة عربية إسلامية لاتدخلها سفن غير المسلمين . أما الحدث الثانى، فكان تحول الدولة العثمانية من قوة إقليمية فى آسيا الصغرى إلى قوة عالمية كبرى بعد نجاحها فى فتح القسطنطينية وتحويلها إلى عاصمة لدولة إسلامية ، ويمتد جناحها الثانى فى النطاق الأوربى شاملاً البلقان حتى يصل إلى وسط أوربا . وقد تولت الدولة العثمانية حماية المنطقة العربية من أطماع الاستعمار الأوربى حتى نهاية القرن الثامن عشر على أقل تقدير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن ناحية أخرى ، حلت القوة العثمانية محل دولة سلاطين المماليك ، وإن اختلف الدور التاريخي لكل منهما بطبيعة الحال. إذ أن تفكك عرى البناء السياسى والاقتصادى لدولة سلاطين المماليك ، والذى انتهى بسقوطها السريع أمام القوة العثمانية البازغة ، كان بمثابة الثمرة المُرّة التى أثمرتها بذرة البناء السياسى لتلك الدولة منذ بداياتها الأولى- أعنى قيامها على أساس من القوة العسكرية والشرعية الصورية . فقد كانت القوة هى السبيل الأوحد للوصول إلى العرش وبذلك فتحت أبواب الصراع فى سبيل السلطة السياسية على مصراعيها . وكان العرش جائزة السباق الرهيب بين الطامعين والطامحين على طريق تفوح منه رائحة الدم والغدر والتآمر . ومن مفارقات التاريخ أن العرش الجائزة بات فى نهاية عصر سلاطين المماليك عبئًا قيلاً يتهرب منه كبار أمراء المماليك . فقد أدت عيوب البداية إلى أمراض النهاية ؛ إذ تصدع النظام الإقطاعى العسكرى الذى قامت الدولة على أساسه ، وفشلت الدولة التى بنيت على أساس عسكرى فى القيام بإدارة البلاد إدارة مدينة . وبعد نهاية الخطر الخارجى (القضاء على الكيان الفرنجى الصليبى، وتحول التتر إلى الإسلام) تحولت دولة سلاطين المماليك إلى عبء سياسى واقتصادى ونفسى على رعاية فى مصر والشام ، وكلما مرت عليها السنون تحولت إلى وحش لايستحق الإنقاذ . وتقلقت الثمرة المرة لمبدأ «الحكم لمن غلب» فى صراعات طوائف المماليك فى الشوارع ، والإنقلابات العسكرية ، وحالات التمرد والعصيان ، وانهيار هيبة الدولة ... وما إلى ذلك مما تعج به صفحات المصادر التاريخية لعصر سلاطين المماليك فى سنواته الأخيرة .

أما الشرعية الصورية الزائفة ؛ فقد تمثلت فى الحصول على تفويض بالحكم من الخليفة العباسى بالقاهرة ، (وهو خليفة بائس لم يكن يملك من أمره شيئا) كما تمثلت فى مساندة أهل العمامة لسلاطين المماليك ابتغاء مرضاتهم واتقاء لشرهم فى غالب الأحوال . ولأن كل الأطراف كانوا يعرفون مدى صورية هذه الشرعية وزيفها فإن أحداً لم يأخذها مأخذ الجد ؛ سواء من الجالسين على عرش السلطنة أو الخاضعين لسلطة السلطان الحاكم . وفى ظنى أن هذا هو ما أدى إلى بروز النفاق السياسى على سطح الحياة السياسية فى المنطقة العربية- وهى ظاهرة ما زلنا نعانى آثارها الوبيلة حتى اليوم .

وقد انعكس الوضع السياسى ، بطبيعة الحال، على أحوال المجتمع المصرى فى ذلك العصر. فالجزء الأول من تاريخ دولة سلاطين المماليك يمور بالحيوية الدافعة وقد انعكس ذلك على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجتمع زاهى الألوان فى أسواقه وأعياده وعاداته وتقاليده ، فالمدن المصرية كانت آنذاك مدنا كبيرة واسعة تقطنها أعداد كبيرة من السلطان ، ويقصدها زوار كثيرون ويهاجر إليها الفارون من وجه الظلم أو المتاعب الاقتصادية ، أو المضايقات السياسية فى مشارق الأرض ومغاربها فالقاهرة لعبت دور المعقل الأخير للحضارة العربية الإسلامية ؛ قصدها العلماء والحجاج والتجار وطلاب العلم وآحاد الناس ؛ ففيها كان رغد العيش والأمن والطمأنينة ، وفرص الرزق الواسعة أمام الجميع . ثم تغيرت الصورة بداية من عصر المماليك الجراكسة، وتراجعت المساحات والألوان الزاهية على خريطة المجتمع المصرى لصالح مساحات الظل والألوان القاتمة . وبدأت الدولة والمجتمع رحلة الأفول والغروب .

* * *

هذا الكتاب يحاول رسم صورة للدولة والمجتمع فى عصر سلاطين المماليك ، وقد جعلته قسمين : قسمًا يعالج التاريخ السياسى للدولة ؛ بالمعنى الحقيقى للتاريخ السياسى من حيث البحث فى النظرية السياسية ، ومؤسسات الدولة ، وعلاقات القوى السياسية ببعضها البعض، وبالحاكم ، وبالرعية ، ثم اتجاه التراث السياسى نحو بلورة البناء السياسى من خلال منظور سياسى يحتكم إلى القوة العسكرية والشرعية الصورية .

أما القسم الثانى فقد عرضت فيه لصور من حياة المجتمع المصرى خلال ذلك العصر . وقد نشرت دراسات هذا القسم فى كتاب مستقل قبل ذلك . وقد تصورت أن جمع القسمين بين دفتى كتاب واحد ربما يكون مفيدا للقارئ والباحث فى آن معًا . والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

الهرم سبتمبر ١٩٩٨م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الأول

التاريخ السياسى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

الظروف التاريخية لقيام
دولـة سـلاطين المماليك

أيام الأيوبيين الأخيرة – حملة لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة – بروز القوة العسكرية والسياسية للمماليك – نهاية وبداية – توران شاه وشجر الدر (آخر الأيوبيين وأول المماليك)

على الرغم من أن دولة سلاطين المماليك (٦٤٨ هـ / ٩٢٢ هـ - ١٢٥٠/١٥١٧ م) ورثت ممتلكات دولة الأيوبيين ومسئولياتها السياسية والعسكرية ، فإن المتأمل فى تاريخ الدولتين يشعر بحق أنهما جاءتا استجابة سياسية / عسكرية لظروف العالم الإسلامى عامة ، والمنطقة العربية منه خاصة ، فى فترة حرجة من التاريخ الطويل للحضارة العربية الإسلامية . ومن المثير حقًا أن دولة الأيوبيين انتهت – وقامت علي أنقاضها دولة المماليك – لنفس السبب الذى أدى إلى قيامها على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى ؛ أى مسئولية التصدى لأعداء الأمة الذين احتلوا القدس وأجزاء من فلسطين وبلاد الشام وباتوا يهددون بقية المنطقة العربية . فقد فشل الأيوبيون الأواخر في استكمال الدور التاريخى الذى أفرز دولتهم ، وبدلاً من اهتمامهم بالجهاد ضد العدو الفرنجى ، وجهوا طاقاتهم وقدراتهم السياسية والعسكرية للاقتتال فيما بينهم ، بل وصل الأمر ببعضهم إلى درجة الاستعانة بالفرنج ضد البعض الآخر . وبسبب حال التشرذم السياسى والتناحر العسكرى فيما بين ملوك الأيوبيين الصغار تراجع دورهم التاريخى أمام دور المماليك الذين رباهم الأيوبيون ليكونوا عدتهم العسكرية ضد بعضهم البعض .

ومن رحم الظروف التاريخية التى أحاطت بالأيوبيين الأواخر ، خرجت دولة سلاطين المماليك التي نجحت فى انتزاع الدور التاريخى من الأيوبيين . بيد أنها واجهت مسئولية هذا الدور التاريخى أيضًا ؛ فقد تعين علي سلاطين المماليك مواجهة خطر مزدوج من جانب سادتهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السابقين من بنى أيوب ، ومن الفرنج والغرب الأوربي المتربص بالعالم العربى . لقد اشتعلت الحروب الداخلية بين ملوك الأيوبيين بالشكل الذي أغرى القوى الفرنجية الصليبية بالتدخل لصالح فريق ضد فريق . وتجمعت القوى الأيوبية المتناثرة فى بلاد الشام فى حلف بائس مع الصليبيين ضد السلطان الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر وكبير الأيوبيين .

لقد انضم الملك الصالح اسماعيل حاكم دمشق والملك الناصر داود حاكم الكرك والملك المنصور ابراهيم حاكم حمص إلى الصليبيين فى تحالف غريب ضد الصالح نجم الدين أيوب حاكم مصر . وتنازل أولئك الحكام الثلاثة ، مرة أخرى ، عن منطقة المسجد الأقصى وقبة الصخرة للفرنج ، كما وعدوا الفرنج بأن يملكوهم جزءاً من مصر عندما يتمكن هذا الحلف من هزيمة الصالح نجم الدين أيوب .

هكذا ، تحتم على الصالح أيوب أن يواجه أقاربه بالسلاح ، وكفلت له موارد مصر الهائلة أن يجند جيشًا يفوق الإمكانيات العسكرية الهزيلة لهذا التحالف البائس . وجند عدداً من الجنود الخوارزمية الذين كانوا قد وفدوا إلى المنطقة العربية بعد أن دمر المغول دولتهم يبيعون خدماتهم العسكرية لمن يدفع أكثر . ونجح جيش الصالح نجم الدين أيوب والخوارزمية فى الاستيلاء على دمشق وبيت المقدس ونابلس وضموها إلى أملاك الملك الصالح . وتم تدمير جيوش التحالف سنة ١٢٤٤ م فى المعركة التى اشتهرت باسم « معركة غزة » [١].

بعد ذلك غير الخوارزمية ولاءهم وانقلبوا ضد الصالح نجم الدين أيوب ؛ ومن هنا بدأ اعتماده يتزايد على المماليك مما مهد السبيل لظهورهم قوة عسكرية ثم سياسية في المنطقة لم تلبث أن سيطرت على مقاليد الأمور . ومن خضم الأخطار التى واجهها العالم الرسلامى ، والمنطقة العربية منه خاصة ، خرجت دولتهم لتحكم المنطقة قرابة ثلاثة قرون من الزمان ...

ولنتابع قصة الصراع الذي خاضه الصالح نجم الدين أيوب ضد مخاطر الأيوبين والصليبيين فى بلاد الشام وأوربا . فبينما كانت جيوش الصالح أيوب تواصل انتصاراتها فى بلاد الشام وفلسطين جاءت الأنباء تسعى إليه عن حشود تتجمع تحت راية الصليب فى قبرص بهدف غزو

---

١ - استمرت هذه المعركة عدة ساعات فقط وخسر التحالف الصليبى الأيوبى آلاف القتلى والأسرى ، انظر : المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ص٣٢٢ ، جـ ١ ، ص ٣١٧ ؛ أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص ١٧٨ ؛ أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص ١٧٢ - ١٧٥ ؛ ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ٦ ، ص٣٢٢ - ص ٣٢٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر والاستيلاء عليها . وعلي الرغم من مرضه عاد السلطان الصالح نجم الدين إلى مصر بعد أن عقد صلحًا مع الملك الناصر يوسف صاحب حلب بوساطة الخليفة العباسى وبدأ فى ترتيب أوضاعه العسكرية للدفاع عن مصر ، ودمياط تحديداً ، ضد الهجوم الصليبى المرتقب . وتحكى المصادر التاريخية أن الإمبراطور فردريك الثانى ، صديق الأيوبيين وعدو البابوية اللدود ، أرسل واحداً من رجاله متخفيًا في زى تاجر ليحذر الملك الصالح من الحملة الصليبية التى كانت آخذة فى التجمع بقيادة الملك الفرنسى لويس التاسع[٢] .

هذه الحملة كانت الاستعدادات تجرى لها فى الغرب الأوربى بالتنسيق بين البابا إنوسنت الرابع والملك الفرنسى لويس التاسع منذ استرداد المسلمين لمدينة بيت المقدس سنة ١٢٤٥م . ولم يكن هدف هذه الحملة إعادة الاستيلاء على بيت المقدس فقط ، وإنما كانت تهدف أيضًا إلى تكوين حلف مسيحى / وثني بين الصليبيين والمغول لهدم الدولة الأيوبية فى مصر والشام ووضع المنطقة العربية الإسلامية بين شقى الرحى . وقد يؤدى هذا - على نحو ما تصورت البابوية والقوى الأوربية - إلى القضاء على الإسلام ونشر المسيحية من ناحية ، والاستيلاء علي ثروات العالم الإسلامي والسيطرة على طرق التجارة الدولية من ناحية أخرى . والواقع أن فكرة الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا جاءت مصاحبة للفكرة الداعية إلى تطويق العالم الإسلامي بحلف مغولى/صليبى على نحو ما يشير المؤرخ الفرنسي جوانفيل كاتب سيرة لويس التاسع والذى أرخ لحوات الحملة الصليبية السابعة ؛ فقد ذكر هذا الرجل الذى كان من ضباط الحملة الصليبية أنه بينما كان الملك فى قبرص يستكمل استعداداته لغزو مصر أرسل له « ملك التتر العظيم » رُسُلاً يحملون رسائل ودية " ... توضح أنه على استعداد لمساعدته في غزو مصر وتخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين ... "[٣] ولكن مشروع التحالف المغولى / الصليبى فشل لأن المغول كانت لهم أحلامهم الخاصة بالسيادة علي العالم ، ولم تسفر السفارات المتبادلة والرسائل الكثيرة التى تبادلوها عن شئ حقيقى[٤] .

---

٢ - ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ ٢ ، ص ٤٥ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٣١ ، هامش ٣ .

٣ - Joinville , The life of Saint Louis , (transl. with an introduction by M.R.B. Shaw 0, Penguin 1975 , pp. 197 - 198 .

٤ - عن تفاصيل السفارات والرسائل المتبادلة بين خان المغول والبابا إنوسنت الرابع ، انظر : عادل هلال ، العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامي، (مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٦م) ، ص ٥٨ - ٨٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت خطة البابوية الكاثوليكية تقوم على أساس أنه يمكن للحملة التي يقودها لويس التاسع أن تهاجم المنطقة العربية من سواحل البحر المتوسط ، بعد أن تبدأ باحتلال ميناء دمياط أهم موانئ الحوض الشرقي للبحر المتوسط آنذاك ، على حين تتقدم القوات المغولية لتشن هجومها على المنطقة من الشرق بعد اجتياح الجناح الشرقى من العالم الإسلامى ؛ وبذلك يصفو الجو للبابوية بحيث تحقق أحلامها (٥). وأرسل البابا إنوسنت الرابع سفارتين لهذا الغرض ، بيد أن خان المغول الأعظم كان يرى الأمور من جانب معاكس لأحلام البابوية الكاثوليكية ، فقد أرسل يطلب من البابا أن يعترف له بالسيادة ويعلن خضوعه هو وملوك أوربا بحيث يقدمون جميعا فروض الولاء والطاعة ، كما طالبه بأن يأتى جميع ملوك أوربا إلي بلاطه لتقديم الجزية له باعتباره الخان العظيم للتتر وسيد العالم كله .

هكذا فشل مشروع التحالف بين المغول وأوربا الكاثوليكية بزعامة البابا لأن كلاً من الطرفين كان قد وضع خططه وتصوراته على أساس استغلال الآخر ؛ بيد أن المغول والصليبيين أخذوا يهاجمون العالم الإسلامى من المشرق والمغرب في آن معًا وكل من الفريقين يعمل لحسابه. فقد استمرت هجمات التتر تطوى بلدان الشرق الإسلامي حتي وصلت إلى حدود مصر- على نحو ما سنري في الفصول القادمة - بينما كان المشروع الصليبي يحاول تنفيذ مراحله الأولى بالهجوم على مصر فى الحملة التى قادها لويس التاسع وعرفها المؤرخون بالحملة الصليبية السابعة .

ومن المثير أن دولة سلاطين المماليك قد خلقت فى رحم هذه الأخطار ؛ وبينما كانت معركة المنصورة الظافرة ضد جيوش الحملة الصليبية السابعة بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك ، كان انتصار الجيش الإسلامى بقيادة السلطان المظفر سيف الدين قطز بمثابة تأكيد هذا الميلاد وتدعيمه . فقد كان الأيوبيون قد تخلوا عن دورهم التاريخي (سبب وجود دولتهم ومبرر بقائها) في التصدى للصليبيين ، وآثروا الالتزام بسياسة المهادنة حتى يتفرغوا لمنازعاتهم الداخلية ؛ ومن ثم فإن دولتهم التى جاءت استجابة ناجحة للتحدى الذى فرضه العدوان الصليبى على المنطقة لأن صلاح الدين الأيوبى مؤسس الدولة التزم بسياسة الجهاد ضد

---

٥ - Atiya (A.S>), The Crusades in the Later Middle Ages , (London 1938), p.234; Runciman, A Hist. of the Crusades, III, pp . 258 - 90.

الصليبيين ، فقدت مبررات وجودها منذ أخذ ملوك بنى أيوب وسلاطينهم يعزفون عن الجهاد ضد الصليبيين ويميلون إلي سياسة المهادنة والتعايش السلمى .

وفي خضم أحداث الحملة الصليبية السابعة برزت قوة جديدة أثبتت قدرتها علي التصدى للصليبيين وقيادة المنطقة العربية الإسلامية فى مواجهتهم - تلك هى قوة فرسان المماليك . ومن ثم فإن أحداث هذه الحملة تستحق قدراً من التفصيل فى تناول أحداثها ووقائعها . بيد أننا ينبغى أن نلاحظ أن سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية لم يغير من اتجاه الحركة التاريخية فى المنطقة ؛ فالواقع أن الدولة المملوكية جاءت امتداداً لدولة بنى أيوب ، بيد أن المماليك نجحوا فيما فشل فيه الأيوبيون - أعنى توحيد المنطقة العربية فى مواجهة الخطر الصليبى والخطر التترى . وعلي الرغم من جهود العادل ثم الكامل فالصالح نجم الدين أيوب العسكرية ضد الصليبيين ؛ فالواضح أنها كانت جهوداً دفاعية تأتى رد فعل للهجمات والحملات الصليبية[٦] ومثلما ولدت الدولة الأيوبية فى خضم الصراع ضد الفرنج الصليبيين ، فإن سقوطها فى مصر - ثم فى بلاد الشام بعد ذلك - جاء نتيجة ظهور قوة بديلة أثبتت أنها أقدر من الأيوبيين على القيام بالدور التاريخى للدولة العسكرية التى يقودها ملك محارب . وكان المماليك (والسلطان المظفر سيف الدين قطز من أوائل سلاطينهم) هم الذين يجسدون هذه القوة الجديدة . وبسبب نجاحهم فيما فشل فيه الأيوبيون احتلت دولتهم مكان الدولة الأيوبية ، بيد أنها كانت امتداداً لها فى بنائها ، وطبيعتها العسكرية ، والأسس السياسية الاقتصادية التى قامت عليها .

وكانت أحداث الحملة الصليبية السابعة التى انتهت سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م بأسر الملك لويس التاسع نفسه ، وتبدد فرسان جيشه وجنوده ما بين قتيل وأسير ، عقب الهزيمة المخزية التى أوقعها به الجيش المصرى فى المنصورة بمثابة إرهاصات الميلاد لدولة سلاطين المماليك . وقد برز زعماء فرسان المماليك البحرية من أمثال " فارس الدين أقطاى " و " عز الدين أيبك " و " ركن الدين بيبرس البندقدارى " ... وغيرهم خلال المعارك ضد الحملة الصليبية السابعة ، وأظهروا شجاعة وقدرة عسكرية فائقة[٧].

---

٦ - Hamilton A.R. Gibb, " The Ayyubids ", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades, II, pp. 714 - 716.

٧ - عن المماليك البحرية ودورهم في تلك الفترة ، انظر :

أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولي في مصر والشام، (بيروت ١٩٨٦)، ص ٩٦ ص١٠٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ففى خريف سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨م أبحر الأسطول الصليبى بقيادة لويس التاسع من ميناء مرسيليا الفرنسى إلى جزيرة قبرص ، وهناك كان على الملك الفرنسى أن ينتظر فترة من الوقت حتى تتكامل قواته . وفى ربيع العام التالي (٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م) أقلعت سفن الحملة تجاه الشواطئ المصرية لتصل بعد أقل من شهر أمام ميناء دمياط . وفى العشرين من شهر صفر سنة ٦٤٧ هـ / ٤ يونيو ١٢٤٩م بدأ الإنزال الصليبى أمام دمياط وتقدمت قوات الصليبيين وأمامهم لويس التاسع يخوض المياه الضحلة قرب الشاطئ وهو يرفع سيفه ودرعه فوق رأسه . وعلى الجانب الآخر انسحب المدافعون عن المدينة بسرعة بعد أن ظنوا أن سلطانهم الصالح نجم الدين أيوب المريض قد مات . وإذ خرجت الحامية العسكرية فر السكان المذعورون من دمياط[٨].

وهكذا سقطت دمياط فى أيدى قوات الحملة الصليبية السابعة دون قتال ... دمياط التى دوخت قوات الحملة الصليبية الخامسة بمقاومتها الشرسة استسلمت فى وداعة مذهلة لقوات الملك لويس التاسع . وما أن تأكد الصليبيون من حقيقة النصر السهل ، ومن أنه ليس فى الأمر خدعة أو كمين ، حتى أخذوا يدعمون وجودهم فى المدينة الأسيرة التى سقطت بأيديهم دون جهد[٩] . واستقبل السلطان المريض أنباء سقوط دمياط ، التى بذل جهداً مضنيًا فى سبيل تحصينها ، بمزيج من الألم والمرارة . وأعدم عدداً من الفرسان الهاربين . بيد أنه تحامل على نفسه وتجاهل آلامه ونقل معسكره إلى مدينة المنصورة التى كانت قد خرجت إلى الوجود قبل ثلاثين سنة فقط من ذلك التاريخ . ومن هناك بدأت حرب عصابات ساهم فيها المصريون إلى جانب المتطوعين الذين وفدوا من فلسطين وبلاد الشام وبلاد المغرب الإسلامى . وبمرور الوقت تزايدت أعداد الأسرى الصليبيين الذين خطفهم المجاهدون من معسكراتهم ، وتعددت مواكب أسرى الفرنج في شوارع القاهرة بالشكل الذى زاد من حماسة الناس ورفع معنويات

---

٨ - قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، (مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٣م) ، ص ١٦٣ - ص ١٦٥ .

٩ - ذكر المقريزى مانصه : " أصبح الفرنج يوم الأحد ، لسبع بقين من صفر ، سائرين إلى مدينة دمياط ، فعندما رأوا أبوابها مفتحة ، ولا أحد يحميها خشوا أن تكون مكيدة فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها . فدخلوا المدينة بغير كُلفة ولا مؤونة حصار .." ، انظر : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ، ص ٣٣٥ - ص ٣٣٦ ، وقارن بما ذكره جوانفيل عن توزيع الغنائم بين الملك وأمرائه :

Joinville, The Life of Saint louis, pp. 206 - 207 .

المقاتلين . ومن ناحية أخرى قامت البحرية المصرية بدورها في حصار قوات الحملة وتدمير خطوط إمدادها في فرع دمياط [١٠].

وأخيراً جمع الملك لويس التاسع مجلس الحرب لتقرير خطة الزحف صوب القاهرة ، وكشفت المناقشات عن انقسام شديد فى الرأى بين الصليبيين بخصوص خطة الزحف . وعلى الرغم من هذا الإنقسام خرجت القوات من دمياط فى يوم السبت ١٢ شعبان ٦٤٧ هـ / ٢٠ نوفمبر ١٢٩م وسارت بحذائها فى فرع النيل أعداد كبيرة من السفن . وفى دمياط بقيت حامية صليبية قوية كما بقيت زوجة الملك مرجريت البروفنسالية .

وربما كانت وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب التي حدثت فى ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ / ٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩م من أهم أحداث تلك المرحلة . إذ أن وفاة ذلك السلطان أفسحت المجال لظهور قوة المماليك ، كما كشفت عن عجز الأيوبيين بشكل مثير .

ويبدو أن السلطان كان قد رتب أمور الحكم مع زوجته شجر الدر قبل وفاته . وتولت شجر الدر ترتيب أمور الدولة ، وإدارة شئون الجيش في ميدان القتال وأخفت نبأ موت السلطان وأعلنت أن الأطباء منعوا زيارته. وفى الوقت نفسه أرسلت إلى توران شاه ، ابن الصالح نجم الدين أيوب تحثه على مغادرة حصن كيفا بالقرب من حدود العراق وعلى سرعة القدوم إلى مصر لكى يعتلى عرش السلطنة[١١] .

فى تلك الأثناء كانت قوات الحملة الصليبية السابعة تخوض فى أوحال الدلتا بعد موسم الفيضان ، ثم دخل الفرنج مدنة فارسكور دون مقاومة تذكر . وتسرب خبر وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب علي الرغم من كل احتياطات شجر الدر . وعلى الجانب المصرى بدأت

---

١٠ - عن تفاصيل الكثيرة لهذه الأحداث ، انظر :

محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة ، ص ١١٦ - ١٦٤ .

١١ - أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٨٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦، ص ٣٢٨ . وقد ذكر المؤرخ جمال الدين أبو المحاسن ابن تغرى بردى أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب كان أهم سلاطين بنى أيوب بعد صلاح الدين نفسه مبرراً ذلك بقوله : " ... ولو لم يكن من محاسنه إلا تجلده عند مقابلة العدو بالمنصورة ، وهو بتلك الأمراض المزمنة ، وموته على الجهاد ، والذبِّ عن المسلمين ، ماكان أصبره وأغزر مروءته ... " . انظر النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٣٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإمدادات من الرجال والمؤن والعتاد تتدفق على معسكر الجيش فى المنصورة[١٢] وبدأت حرب عصابات ضد معسكر الفرنج على الشاطئ المقابل كبدتهم خسائر كثيرة كما سببت لهم قدراً كبيراً من الفزع والقلق. وقد دفع ذلك الملك لويس التاسع إلى قرار الهجوم على المعسكر المصرى. وبعد عدة تطورات تفصيلية جرت المعركة داخل مدينة المنصورة بين طلائع الجيش الصليبي بقيادة كونت أرتوا ، شقيق لويس التاسع ، وفرقة الداوية ، وفرقة من الفرسان الإنجليز من ناحية ، والجيش المصري والمتطوعين بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى من ناحية أخرى .

كان بيبرس قد أعد خطة ماكرة لقتال الفرنج فى رحاب مدينة المنصورة ، ووافقت شجر الدر علي الخطة ؛ وكانت هى صاحبة النفوذ الفعلى بعد موت الصالح نجم الدين أيوب . فقد أعد بيبرس عدة كمائن من الفرسان داخل المدينة ، وطلب من الأهالى البقاء بمنازلهم دون حركة مع الاستعداد للإنقضاض علي فرسان العدو عند اللحظة المناسبة . وكانت فرقة من الصليبيين بقيادة شقيق الملك تتسابق مع فرسان الداوية الذين اشتهروا بقسوتهم ووحشيتهم وفرقة من الفرسان الإنجليز الذين استفزتهم غطرسة الكونت أرتوا وكلماته الجارحة ، لكي يفوزوا بشرف اقتحام المدينة . ودخل هؤلاء جميعًا إلي المدينة الصامتة ، وأخذوا يتجولون فى شوارعها الخالية وظنوا أن الحامية والأهالى قد فروا منها . وبينما هم فى زهوهم وخيلائهم يبحثون عن الغنائم والأسلاب تحدوهم الرغبة فى ارتكاب واحدة من المذابح البشرية التى اشتهروا بها ، فُتحت عليهم أبواب الجحيم ، وأطبق عليهم فرسان المماليك وأهالى المنصورة والمتطوعون من كل ناحية ، وتبعثرت قوات الصليبيين المذعورين فى ثنايا المدينة . وقد وضع الأهالى المتاريس الخشبية والحجرية والطينية لعرقلة فرسان الصليبيين ، كما قذفوهم بشتى « القذائف المنزلية » من فوق أسطح المنازل ومن الشرفات والنوافذ . وانقشع غبار المعركة عن عدد كبير من القتلى الصليبيين بينهم شقيق الملك نفسه « الكونت أرتوا » وعدد كبير من النبلاء . ولم ينجح فى الهرب من المذبحة سوي عدد قليل من الفرسان هربوا علي أقدامهم ليلقوا بأنفسهم فى مياه النيل حيث غرقوا بعد أن طاردهم المصريون بالسهام والحراب والسيوف[١٣] .

---

٢١ - ذكر جوانڤيل ما نصه : " كان المسلمون يدخلون معسكرنا كل ليلة ويقتلون رجالنا عندما يجدونهم نائمين ، وقد تصرفوا بهذا الشكل لأن السلطان كان يعطى قطعة ذهبية فى مقابل كل رأس لرجل مسيحى .. " - انظر . Joinville, op . cit . pp.209 - 210

١٣ - Joseph R . Strayer, " The Crusades of Louis IX", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades , II, pp. 487 - 518 .

انظر أيضًا : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٦٦ .

وفى مكان آخر بالقرب من أشموم طناح كان الجيش الصليبى الرئيسي بقيادة الملك لويس يستعد للقاء الجيش المصرى الذى تولى قيادته آنذاك الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ولم تكن أنباء الكارثة التى جرت على طليعة الجيش الصليبى فى المنصورة يوم ٤ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ / ٨ فبراير ١٢٥٠م قد وصلت إلى أسماع الملك لويس وجيشه . وفى اليوم التالي لمعركة المنصورة عقد فارس الدين أقطاى الصالحى ، القائد العام للجيوش المصرية ، مجلس حرب عرض فيه على ضباطه معطفًا قصيراً عليه شارة البيت الملكى الفرنسى كان يرتديه الكونت أرتوا شقيق الملك الذى قُتل فى المنصورة ، ظنًا منه أنه معطف الملك نفسه وأعلن أن مقتل الملك يستوجب مهاجمة الجيش الفرنجى بلا تردد . وبدأ الهجوم الذى تمكن الفرنج من صده بعد أن تكبدوا خسائر فادحة [١٤]. بعد هذه المعركة بعدة أيام (أى فى ٢٧ فبراير ١٢٥٠ هـ / ٢٣ ذى القعدة ٦٤٧ هـ) جاء المعظم تورانشاه ابن الصالح نجم الدين أيوب . وتم الإعلان رسميًا عن وفاة السلطان ، وسلمت « شجر الدر » للسطان الجديد الشاب مقاليد الأمور . ولم يلبث أن تولى قيادة الجيوش بنفسه ، وغيّر من جانبه خطط المواجهة العسكرية ضد الصليبيين. فوضع خطة لإجبار الصليبيين علي التسليم ؛ فأمر بحمل عدة سفن مفككة على ظهور الجمال، ثم تركيبها وإنزالها خلف الخطوط الصليبية لمهاجمة الأسطول الصليبى وأسر عدد كبير من سفنه المحملة بالمؤن والأقوات . وساءت حال الفرنج ، وطلب قائدهم الملك لويس التاسع الهدنة وعرض تسليم مدينة دمياط للمصريين فى مقابل مدينة بيت المقدس ؛ ولكن المصريين رفضوا الاقتراح الصليبى وفضلوا الحرب . ومن المثير أن غرور الملك الصليبى جعله يغفل أنه فى وضع لا يسمح له بوضع الشروط فى طلب الهدنة . وقرب مدينة فارسكور دارت معركة رهيبة قضى فيها الجيش المصرى تمامًا على الجيش الصليبى . وضاع الفرنج بين القتل والأسر . وتم أسر الملك لويس نفسه فى قرية " منية عبد الله " شمال مدينة المنصورة ، وتم نقله إلى دار ابن لقمان حيث بقى سجينًا فترة من الزمان[١٥] . ثم أسفرت المفاوضات النهائية عن الإفراج عنه لقاء فدية مالية كبيرة ، وتم الاتفاق على الجلاء الفرنجى من دمياط .

---

١٤ – ابن واصل ، نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٦٦ – ص ٣٣٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٥١ – ص ٣٥٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٦٣؛ Runciman, S., A Hist. of the Crusades (Cambridge 1957), III, P. 267.

١٥ – ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٦٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٤٥ – ص ٣٥٨ ، ص ٣٦٣ – ص ٣٦٤ . وكانت الفدية التي تقررت على الملك الصليبى أربعمائة ألف دينار . انظر Joinville, the Life of Saint Louis , pp . 220 - 264 ; Joseph R. Staryer, " The Crusade of Louis IX", pp . 487 - 518 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى الرغم من الإنتصار الإسلامى الرائع على الحملة الصليبية السابعة ، فإن السلطان الأيوبى تورانشاه كان إخفاقًا أيوبيًا جديداً مهد الطريق أمام نهاية الدولة الأيوبية وصعود الدولة الجديدة التى شادها المماليك ، وكان السلطان المظفر سيف الدين قطز واحداً من السلاطين الأوائل الذين أرسوا لبناتها الأولى . لقد فشل تورانشاه في الاستجابة للتحديات التى كانت تفرضها الظروف التاريخية ، وبدلاً من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبى تمامًا ، بدأ يدبر للتخلص من « شجر الدر » وكبار أمراء المماليك . وبدلاً من أن يحمد السلطان الجديد لزوجة أبيه دورها فى مقاومة الحملة الصليبية وحفظ عرش البلاد له أخذ يضغط عليها ويهددها متهمًا إياها بالاستيلاء على أموال أبيه ؛ فخافت منه وفرت إلى مدينة بيت المقدس حيث بقيت هناك فترة تنتظر ما تسفر عنه الأيام . من ناحية أخرى ، كان تورانشاه يحسد المماليك على المكانة التى حققوها لأنفسهم بفضل سيوفهم وشجاعتهم فى القتال ضد الفرنج فى المنصورة وفارسكور ، وسيطر عليه شعور بأنهم يزاحمونه فى حكم البلاد. وتحكى المصادر التاريخية أن السلطان المعظم تورانشاه كان فتى عنيف الأهواء ، ورث عن أبيه السلطان الصالح نجم الدين أيوب الكآبة والكبرياء مما نفّر منه أمراء المماليك . كذلك أعرض السلطان عن المماليك وأظهر لهم الجفاء على حين أغدق المناصب والعطايا على رجاله الذين جاءوا معه من أعالى الجزيرة[١٦]. وقد وصف أحد المؤرخين المعاصرين هذا السلطان بقوله: " ... كان سيئ التدبير والسلوك ، ذا هوج خفة ... " كما حكى مؤرخون آخرون أنه كان يسكر فى الليل ، ثم يمسك بسيفه ويطفئ به الشموع الموضوعة أمامه واحدة فواحدة ، وهو يقول : " هكذا أفعل بالبحرية " . ومع كل شمعة يطفئها سيفه كان ينطق باسم واحد من زعماء المماليك البحرية . ونقل الخدم هذه الأخبار إلى زعماء المالك البحرية ؛ فعرفوا نواياه وأضمروا له السوء .

وتلاقت مخاوف « شجر الدر » مع مخاوف زعماء المماليك وغضبهم بعد أن حرمهم السلطان الجديد من إقطاعاتهم [١٧]. وهكذا استقر الرأى على ضرورة التخلص من آخر السلاطين الأيوبيين فى مصر وتم تنفيذ المؤامرة بأيدى أربعة من كبار أمراء المماليك البحرية هم: الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، والأمير قلاون الصالحى ، والأمير أقطاى الجمدار .

---

١٦ - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٣٥٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٧١ .

١٧ - ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٣٥٨ - ص ٣٧١ .

وفي صباح يوم الاثنين ٢٧ المحرم سنة ٦٤٨ هـ / ٢ مايو ١٢٥٠م كان السلطان تورانشاه يتناول طعام الإفطار ، وبعد أن فرغ من طعامه فى الخيمة السلطانية بفارسكور تقدم نحوه ركن الدين بيبرس وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده قطعت أصابعه ، وجري تورانشاه ليحتمى ببرج خشبى فى معسكره علي شاطئ النيل ، فأضرم المتآمرون النار فى البرج فنزل يجرى صوب النيل والسهام تناله من كل جانب ، فرمي نفسه فى الماء ، ولحقه أقطاى وقتله . ويقول المقريزى إنه مات "... جريحًا غريقًا محترقًا ... " (١٨).

تبددت دماء السلطان المعظم تورانشاه مع موجات مياه نهر النيل ، ومعها تبددت آخر مظاهر السلطة الأيوبية الحقيقية فى مصر ؛ وإن بقى لها ظل يتوارى خجلاً إلى جانب الأضواء التى فرضت نفسها على مسرح التاريخ آنذاك . إذ كان الأيوبيون الأواخر قد فقدوا كافة مبررات البقاء فى حكم المنطقة العربية بعد أن تخلوا عن دروهم التاريخى الذى بدأه صلاح الدين . وقد أدى فشل الأيوبيين الأواخر فى الاستجابة للتحدى السياسى / العسكرى الذى أفرزه الوجود الصليبى علي الأرض العربية إلى عجزهم عن البقاء على عروشهم . ونشأ عن ذلك نوع من الفراغ السياسى خرج فرسان المماليك من طياته ؛ بفضل كفائتهم العسكرية من ناحية ، وقدرتهم على توجيه دفة الصراع السياسى / العسكرى فى المنطقة من ناحية أخرى .

لقد كانت أحداث الحملة الصليبية السابعة ، التى تحدثنا عنها فى الصفحات السابقة ، فرصة لإظهار أهمية فرسان المماليك البحرية ، كما أتاحت لهم فرصة أخرى لإدراك أهميتهم السياسية . وحين لم يجد المماليك أحداً من الرؤوس الأيوبية المتوجة فى بلاد الشام يستطيع كبح جماحهم ويتولى قيادتهم ، قرروا حل مشكلة العرش علي طريقتهم . وهكذا ظهر في الأفق السياسى للمنطقة مرة أخرى مبدأ « الحكم لمن غلب » الذى قال به السلطان العادل الأيوبى ذات مرة .

كانت الخطوة الأولى في هذا السبيل خطوة انتقالية ؛ إذ اختار المماليك أرملة السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، الأميرة « شجر الدُر» لكي تجلس على عرش السلطنة بعد مصرع توران شاه . ولما كانت السيدة جارية تركية (وقيل أرمنية) اشتراها السلطان الراحل ثم

---

١٨ - أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص ١٨٥ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣ ، ص ١٨١ - ص ١٨٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٥٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعتقها وتزوجها ؛ فقد اعتبرها بعض المؤرخين المعاصرين أولى سلاطين المماليك فى مصر . ويقول المؤرخ " تقى الدين المقريزى " : " .... وهذه المرأة شجر الدر ، هى أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك..."[١٩].

وعلي الرغم من أن " شجر الدر " قامت بدور بطولى بعد موت زوجها السلطان الصالح نجم الدين أيوب ضد الفرنج فى الحملة الصليبية التى قادها لويس التاسع ؛ فإن الرأى العام فى مصر وفى العربي والإسلامى لم يكن ليقبل بقيام إمرأة على كرس الحكم ؛ إذ كان التراث السياسى للحضارة العربية الإسلامية قد استقر على أن يكون الحاكم رجلاً . كذلك رفض الخليفة العباسى الاعتراف بالسلطانة الجديدة ، واتسمت ردود أفعال الأيوبيين الحاكمين فى بلاد الشام بالعصبية والضيق ورفضوا الاعتراف بهذا التتويج وحاولوا القيام بعمل عسكرى للاستيلاء على مصر .

من ناحية أخرى حاولت " شجر الدر " أن تحكم باعتبارها أم ولد ونسبت نفسها إلى زوجها الراحل السلطان الصالح نجم الدين أيوب والخليفة العباسى المستعصم بالله ، ونقشت على العملة عبارة "المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة السلطان خليل أمير المؤمنين"[٢٠]. وقبضت السلطانة الجديدة على زمام الحكم بيد من حديد مما جعل مؤرخًا معاصراً يصفها بأنها " إمرأة صعبة الخلق ، شديدة الغيرة، ذات شهامة زائدة ، وحُرمة وافرة ، سكرانة من خمر التيه والعجب ... " . وقد وجهت شجر الدر جهودها الأولى للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة . إذ كانت الملكة الفرنسية مارجريت ، زوجة لويس التاسع ، تقيم فى دمياط مع الحامية على حين كان زوجها وكبار أمرائه رهن الأسر فى دار ابن لقمان بالمنصورة ، ومعهم إثنى عشر ألفًا ومائة وعشرة من الأسرى الفرنج . ودارت المفاوضات التى انتهت بالاتفاق على فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار يدفع الملك الأسير نصفها قبل رحيله ، والباقى بعد وصوله إلى عكا . وجمعت الملكة مبلغ الفدية ثم رحلت إلى عكا ومعها ابنها . وتم تسليم دمياط للمصريين في السادس من يونيو ١٢٥٠ م وفى اليوم التالى أبحر لويس التاسع إلي عكا[٢١].

---

١٩ – المقريزى ، السلوك ، ج- ١ ، ص ٣٦١ .

٢٠ – المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٦٢ .

٢١ – Joinville , The Life of St. Louis, pp . 220 - 264 .

من رحم هذه النهاية التعسة للحملة الصليبية السابعة ولدت دولة سلاطين المماليك لكى تحكم المنطقة العربية وتدافع عنها طوال مايزيد على مائتين وسبعين عامًا . بيد أن الفترة التى امتدت من بداية سلطنة "شجر الدر " حتى نهاية سلطنة " السلطان سيف الدين قطز " كانت هى الفترة الانتقالية فى عمر هذه الدولة ؛ كما كانت إرهاصًا بالأساس السياسى الذى قامت عليه الدولة . فقد شهدت مصرع ثلاثة من السلاطين الخمسة الذين حكموا أثناءها ، ولم ينج الإثنان الآخران من القتل سوى لأنهما كانا فى سن الطفولة . ويحسن بنا أن نتناول هذه الأحداث بإيجاز حتى نصل إلى الخلفية التى برز منها " سيف الدين قطز" .

أخذت السلطانة " شجر الدر " تتقرب إلى الخاصة والعامة من أهل الحكم والرعية . بيد أن الرأى العام المصرى ، بتراثه السياسى والاجتماعى الذى تشكل في إطار الحضارة العربية الإسلامية ، صدمته حقيقة أن امرأة تجلس على عرش البلاد وتوجه شئون الحكم علنا وبصورة رسمية . وهو الأمر الذى كان يناقض اتجاهات الثقافة السائدة من ناحية والنظرية السياسية الإسلامية من ناحية أخرى . وعبَّر المصريون عن غضبهم من خلال المظاهرات والاضطرابات التى استشرت فى جميع انحاء العاصمة مما اضطر السلطات إلي إغلاق بوابات القاهرة منعًا لامتداد مشاعر السخط والغضب إلي المناطق الريفية . وكان من الطبيعى أن يعارض المتعلمون والمثقفون ، الذين كانت ثقافتهم قد تكونت داخل الإطار المعرفي للحضارة العربية الإسلامية ، اعتلاء شجر الدر عرش البلاد . وألقيت الخطب في المجالس والمحافل ومن فوق منابر المساجد ، كما ألفت الرسائل (وهى نوع من الكتابة فى موضوع واحد كان يشبه الأعداد الخاصة التي تصدرها الدرويات حاليًا حول موضوع يشغل الرأى العام) حول المصائب والكوارث التى يمكن أن تحلّ بالمسلمين إذا حكمتهم امرأة . وكتب الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، أبرز قادة الرأى في مصر آنذاك ، رسالة تعتبر مثالاً صارخًا على اتجاهات الفكر والثقافة السائدة .

من ناحية ثانية ، رفض الخليفة العباسى المستعصم بالله المساندة الشرعية لشجر الدر ، ورد على طلب التفويض الذى وصله رداً يحمل من السخرية والحسم ما أنهى حكم السلطانة بسرعة ؛ إذ جاء فى رد الخليفة " ... إن كانت الرجال قد عدمت عندكم اعلمونا حتى نُسيِّر إليكم رجلاً... " . وهكذا أدرك أمراء المماليك والسلطانة أنهم يحاولون السباحة ضد تيار جارف لابد وأن يغرقهم في طياته . وبعد ثمانين يومًا تنازلت شجر الدر عن الحكم لواحد من أمراء المماليك الصالحية ، هو عز الدين أيبك التركمانى الصالحى الذى تولى عرش البلا تحت إسم "السلطان الملك المعز عز الدين أيبك " .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت الفترة التى حكم فيها المعز أيبك هى الفترة التى بدأ يسطع فيها نجم الأمير سيف الدين قطز الذى لم يلبث أن تولى الحكم ليقوم بإنجاز مهمة تاريخية جسيمة خبأها له التاريخ . وعلي الرغم من أن فترة حكم سيف الدين قطز قصيرة في مداها الزمنى فإن إنجازه التاريخى كان عظيمًا بالقدر الذى حقق له مكانة فى تاريخ المسلمين تفوق كثيراً مكانة أولئك النفر من " الحكام النكرات " الذين يحتلون فى الزمن مساحة كبيرة في مداها ، ولكنهم لايجدون لأنفسهم مكانة في التاريخ وإن صغرت وتضاءلت .

لقد كانت قصة سيف الدين قطز (المملوك والأمير والسلطان والشهيد) تجسيداً لمأساة الإنسان الفرد من ناحية ، وشاهداً على ما يمكن أن يفعله التاريخ بالإنسان وما يمكن أن يفعله الإنسان بالتاريخ من ناحية أخرى . وهذه قصة تستحق أن نستمع إلى فصولها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

دولـة سـلاطين المماليك

الأساس السياسى

من هم المماليك ؟ - التربية والتدريب - العلاقات داخل المؤسسة المملوكية - الوضع السياسى والاجتماعى للمماليك - وظائف الدولة .

" **المماليك** " ، مصطلح فرض نفسه على تاريخ مصر والمنطة العربية طوال فترة تزيد على ثلاثة قرون من الزمان ، لاسيما بعد أن نجح أولئك المجلوبون عبيداً فى طفولتهم فى بناء دولة إقليمية عظمى حكمت مصر والشام والحجاز بشكل مباشر ، كما فرضت نفوذها السياسى وقيادتها للمنطقة العربية ومدت سطوتها إلى كافة مستويات العلاقات السياسية والدبلوماسية فى عالم البحر المتوسط والبحر الأحمر وإفريقيا على السواء فمن هم المماليك ؟.

يشى مصطلح " **المماليك** " (والمفرد مملوك) بالعبودية والرق ؛ لأنه يعنى أن " المملوك " ملكية خاصة لشخص آخر . وقد كان " المماليك " من الرقيق فعلا ؛ بيد أنهم كانوا من نوع خاص من الرقيق إذ كانوا يجلبون أطفالاً من أسواق النخاسة ، ثم يتم تدريبهم عسكريًا ليكونوا عدة حكام المنطقة العربية من الأيوبيين المتنافسين فى غمرة الفوضى السياسية التى أعقبت وفاة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى . فقد كان خلفاء هذا السلطان العظيم من أصحاب العروش الصغيرة المتنافسة فى بلاد الشام ومصر والجزيرة يشترون المماليك صغاراً فى سن الطفولة من تجار الرقيق ، ويعهدون بهم إلى من يعلمهم اللغة العربية ويلقنهم مبادئ الدين الإسلامى ، ثم يعهد بهم إلى من يتولى تدريبهم على فنون القتال والفروسية بحيث يحققون قدراً عاليًا من الكفاءة الحربية وبحيث يضمن قدراً عاليًا من الولاء الشخصى لسيدهم ؛ وبهذا يكونون قوة وسنداً له فى الصراعات والمنافسات الداخلية بين أبناء الأسرة الأيوبية . وفى زمن كان للقوة العسكرية الدور الأكبر فى حسم مصائر الحكام والمحكومين ، زادت أعداد المماليك فى جيوش الحكام الأيوبيين من جهة، كما زادت أهميتهم فى الحياة السياسية الأيوبية ودوائر الحكم فى مصر والشام من جهة أخرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويعتبر السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩م) المسئول عن ازدياد نفوذ المماليك على النحو الذى أدى إلى سيطرتهم على مقاليد الحكم فى خضم التطورات التى أعقبت وفاته . ذلك أن هذا السلطان كان قد جرب الاعتماد على الجنود المرتزقة من الخوارزمية والأكراد ، وعلمته التجارب أن الاعتماد عليهم غير مأمون العاقبة . ويقول المؤرخ تقى الدين المقريزى فى هذا الصدد : "...والملك الصالح هو الذى أنشأ المماليك البحرية بديار مصر ؛ وذلك أنه لما مرَّ به ما تقدم ، فى الليلة التى زال عنه ملكه ، بتفرق الأمراء وغيرهم من العسكر عنه حتى لم يثبت معه سوى مماليكه ، رعى لهم ذلك . فلما استولى على مملكة مصر أكثر من شراء المماليك ، وجعل معظمهم عساكره ؛ وقبض على الأمراء الذين كانوا عند أبيه وأخيه ، واعتقلهم وقطع أخبازهم ، وأعطى مماليكه الإمريات فصاروا بطانته والمحيطين بدهليزه وسماهم البحرية لسكناهم معه فى قلعة الروضة على بحر النيل..."[١] .

كان أولئك المماليك من عناصر عرقية مختلفة من الترك والمغول والتتار والصقالبة والأسبان والألمان والجراكسة ... وغيرهم من العبيد البيض ؛ بيد أن غالبيتهم فى عصر دولة المماليك الأولى (البحرية) كانوا من بلاد القفجاق والقوقاز ، على حين كان معظمهم فى دولة المماليك الثانية من الشراكسة (الجراكسة) .

وفى خضم الصراع ضد الصليبيين الذين ضمتهم الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة لويس التاسع[٢] توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وقامت زوجته " شجر الدر " بإدارة شئون الحكم والحرب بمساعدة كبار أمراء المماليك . وحين تولى " توران شاه " ، ابن الصالح نجم الدين أيوب ، عرش البلاد اصطدم بطموح شجر الدر من ناحية ، وبقوة المماليك ونفوذهم المتصاعد من ناحية أخرى . وانتهى الصدام بمصرعه على نحو مأساوى مروع [٣]. ثم ارتقت

---

١ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٣٩ ؛ قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، (دار الشروق ١٩٩٤) ، ص ٧ - ص ٨ .

٢ - أفضل دراسة مفصلة عن هذه الحملة كتبها أستاذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة ، انظر : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، (القاهرة ١٩٦١م) ، ص ١٤٥ - ص ٢٠١ .

٣ - يذكر المقريزى أن المعظم توران شاه مات " جريحًا حريقًا ، غريقًا " ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٥٩ - ص ٢٦٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العرش " شجر الدر " ـ لتكون أولى سلاطين المماليك فى مصر والشام[٤] وهكذا قامت دولة سلاطين المماليك لتحكم قرابة ثلاثة قرون من الزمان (٦٤٨ - ٩٢٢هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) ومن المهم أن نشير هنا إلى أن ظروف قيام سلطنة المماليك من جهة ، والوضع القانونى لسلاطين المماليك من جهة ثانية ، قد حددت أبعاد النظرية السياسية لتلك الدولة .

وتفسير ذلك أن المفاهيم السياسية لدولة السلاطين المماليك كانت نتاجًا لظروف قيام الدولة، كما كانت من نتائج الحقيقة القائلة بأن أولئك السلاطين المماليك لم يكونوا من سلالة حاكمة ، كما أن أحداً لم ينتخبهم أو يفوض إليهم أمور الحكم ، فضلا عن أنهم قد " مسَّهم الرق" بحيث ينتفى عنهم شرط الحرية الذى يعتبر من أهم الشروط التى يجب أن تتوفر فى الحاكم المسلم .

هذه المفاهيم السياسية التى حكمت دولة سلاطين المماليك منذ نشأتها يمكن بلورتها فى العقيدة السياسية التى جعلت أمراء المماليك يعتقدون أن عرش السلطنة حق لهم جميعًا بلا تفرقة ؛ يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين . هذه المفاهيم السياسية تأكدت منذ البداية وتركت بصماتها على التاريخ السياسى طوال وجود الدولة ؛ إذ كان الطريق إلى العرش مفروشًا بدماء الخاسرين فى الصراع . فقد حكم خمسة من السلاطين قبل الظاهر بيبرس البندقدارى ، لقى منهم ثلاثة مصرعهم فى مؤامرات سياسية هم ؛ السلطانة شجر الدر وزوجها السلطان عز الدين أيبك ، ثم السلطان المظفر سيف الدين قطز الذى خصصنا هذه الدراسة لسيرته . ونجا الإثنان الباقيان لكونهما طفلين لايشكلان خطراً . لقد تأكد منذ البداية مبدأ " الحكم لمن غلب " أساسًا لحكم سلاطين المماليك .

وقد أدى ذلك إلى اعتماد سلاطين المماليك فى حكمهم على قوة ذات جناحين ؛ أحدهما يتمثل فى القوة العسكرية للسلطان والتى يجسدها مماليكه ؛ وهو ما أدى إلى ازدياد أعداد المماليك باطراد طوال عصر سلاطين المماليك . ويتمثل الجناح الثانى لقوة السلاطين فى اعتمادهم على الواجهة الدينية التى حرصوا على التخفى وراءها طوال ذلك العصر[٥] .

---

٤ - راجع الفصل الأول .

٥ - تمثلت هذه الواجهة فى إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة زمن السلطان الظاهر بيبرس والنتائج السياسية والقانونية التى نجمت عنها ، انظر :

المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤٥٣ - ص ٤٥٧ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية فى تاريخ الدولة=

ونتيجة لهذا كان لكل من السلطان والأمراء جيش من المماليك الذين يعتمد عليهم فى تدعيم سلطته ، أو فى صراعاته ضد الآخرين . وفى ظل هذا النظام كانت أقوى الروابط بين المماليك هى رابطة « الأستاذية » ؛ وهى أشبه ماتكون بالعلاقة بين السيد الإقطاعى وأتباعه فى النظام الإقطاعى الذى عرفته بعض مناطق أوربا فى العصور الوسطى فهى علاقة بين السيد (الأستاذ) ومماليكه الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم وتدريبهم ، كما كان يوليهم عناية كاملة . بل إن السيد كان يتناول طعامه مع مماليكه ويحرص على مجالستهم وزيادة أواصر العلاقة بينه وبينهم لكى يضمن ولاءهم .

ونظراً للأهمية العسكرية والسياسية للمماليك كان السلطان يرسل المماليك الجدد الذين يشتريهم إلى الأطباء لفحصهم ، وبعد الإطمئنان على سلامتهم البدنية يتم تسكينهم فى المعسكرات (الطباق) حسب جنسيتهم [٦]. وفى هذا الصدد يذكر المقريزى فى خططه ما نصه " ... (هذه الطباق) عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأسكنها المماليك السلطانية ، وعمّر حارة تختص بهم ، وكانت الملوك تعنى بها غاية العناية حتى إن الملك المنصور قلاوون كان يخرج فى غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ، ويأمر بعرضه عليهم، ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم فى جودته ورداءته ؛ فإن رأى فيه عيبًا اشتد على المشرف والاستادار ، ونهرهما ، وحل بهما منه أى مكروه . وكان يقول : كل الملوك عملوا شيئًا يذكرون به ما بين مال وعقار ، وأنا عمرت أسواراً ، وعملت حصونًا مانعة لى ولأولادي وللمسلمين ، وهم المماليك . وكانت المماليك أبداً تقيم بهذه الطباق لاتبرح فيها .. "[٧].

هذا النص يكشف عن أحد أركان المؤسسة المملوكية والعلاقات داخلها ؛ فالسلطان - وهو مملوك فى الأصل - يدرك أهمية المماليك فى حماية عرشه وأسرته ويصفهم بأنهم مثل الأسوار والحصون المانعة ، كما أنهم عمل يخلد إسمه بين الملوك والحكام . ومن ناحية أخرى يكشف هذا النص عن أسباب قوة رابطة « الأستاذية » التى ربطت برابطة الولاء الشخصى بين السيد

= التركية ، ص ٧٢ - ص ٨٠ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، ص ٩٩ - ص ١١١٠ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جـ١ ، ص ٨٧ ؛ تاريخ الخلفاء ، ص ٣٢٨ - ص ٣٢٩ .

٦ - سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٣) ، ص ١٤ .

٧ - الخطط المقريزية ، (طبعة دار صادر ، بيروت د.ت) ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ .

ومماليكه ؛ فواجبه أن يرعاهم ويغدق عليهم ويعتنى بهم ، وواجبهم أن يحموه وأن يصونوا عرشه ويدافعوا عن أسرته.

بعد ذلك يحدثنا المقريزى عن حياة المماليك بهذا الطباق (الثكنات العسكرية) فيقول : " وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة ؛ أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجر عرضه على السلطان ، ونزّله فى طبق جنسه ، وسلمه لطواشى برسم الكتابة . فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم . وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ فى تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار . وكان الرسم إذ ذاك أن لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار فإذا شب الواحد من المماليك ، علمه الفقيه شيئًا من الفقه ، وأقرأه فيه مقدمة . فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ فى تعليمه الغاية فى معرفة ما يحتاج إليه . وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمى النشاب لا يجسر جندى ولا أمير أن يحدثهم ، أو يدنو منهم . فينقل (المملوك) حينئذ إلى الخدمة وينتقل فى أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء ، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه ، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه واشتد ساعده فى رماية النشاب ، وحَسُن لعبه بالرمح ، ومَرِن على ركوب الخيل . ومنهم من يصير فى رتبة فقيه عارف ، أو أديب شاعر، و حاسب ماهر. هذا ولهم أزمّة من الخدام وأكابر من رؤوس النوب يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافى ، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ، ويناقشونه على حركاته وسكناته ، فإن عثر أحد من مؤدبيه الذى يعلمه القرآن ، أو الطواشى الذى هو مسلم إليه ، أو رأس النوبة الذى هو حاكم عليه ، على أنه اقترف ذنبًا أو أخل برسم ، أو ترك أدبًا من آداب الدين أو الدنيا ، قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديد بقدر جرمه ... " [٨].

هذا النص الذى أورده تقى الدين المقريزى يبين مراحل تربية المماليك وتدريبهم فى الفترة الباكرة من عمر دولة سلاطين المماليك ؛ وهو نظام يتسم بالصرامة والدقة الشديدة . إذ كان المماليك يجلبون صغاراً حتى يمكن تربيتهم وتدريبهم بسهولة [٩]، وكان توزيعهم فى الثكنات

---

٨ - المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ - ص ٢١٤ .

٩ - كان هذا النظام ساريًا حتى نهاية دولة المماليك البحرية وبداية عصر الجراكسة بسلطنة الظاهر برقوق فى بدايات القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى . وبدأ جلب المماليك من الرجال ... " ... الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح سفينة ، ووقاد فى تنور خباز، ومحول ماء فى غيط أشجار ونحو ذلك. واستقر=

العسكرية بالقلعة يتم حسب جنسياتهم . ثم بعد ذلك يتولى الفقهاء تعليمهم أصول الدين الإسلامى ومبادئ اللغة العربية وأركان الشريعة حتى إذا ما تخطى الواحد منهم سن الطفولة بدأ تدريباته العسكرية على النحو الذى أوضحه المقريزى وغيره [١٠]. فإذا ما أتم المملوك تدريبه صار من الفرسان ويتم منحه إقطاعًا من الأرض الزراعية فى احتفال كبير بموكب سلطانى يطوف شوارع القاهرة ثم يقوم الفارس بأداء يمين الولاء لسيده[١١].

على أية حال ، فإن هذا النظام الصارم فى تربية المماليك نتجت عنه نتيجتان غاية فى الأهمية من حيث تأثيرهما علي طبيعة الكيان السياسى لدولة سلاطين المماليك : أولاهما : أن الجمع بين التربية الدينية والتدريب لعسكرى جعلا المماليك فى الفترة الأولى من ذلك العصر يتميزون بالحماسة والغيرة على البلاد والمقدسات الإسلامية ؛ وهو الأمر الذى تجلى واضحًا فى موقف السلطان المظفر سيف الدين قطز ورفاقه من كبار أمراء المماليك من الغزو والتهديد التترى ضد العالم الإسلامى . والنتيجة الثانية تمثلت فى أن رابطة الخشداشية (أي الزمالة) التى كانت تربط بين المماليك كانت من أقوى الروابط القائمة على الولاء الشخصى فى الدولة. وتفسير ذلك أن هؤلاء الذين جلبوا أطفالاً ، ثم عزلوا عن المجتمع فى معسكرات صارمة القوانين ، وعاشوا حياتهم الباكرة حتى سن الشباب سويًا ، لم يكونوا يجدون الأمان والطمأنينة سوى مع بعضهم البعض . ولهذا تميزت الفرق المملوكية بالطائفية القائمة على الولاء الشخصى . فالمماليك كانوا عادة ينسبون إلى السلطان الذى اشتراهم ؛ فالمماليك «الظاهرية » مثلا نسبة إلى الظاهر بيبرس ، و « المعزية » نسبة إلى المعز أيبك ،

= رأى الناصر فرج بن برقوق على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم ، بل يتركون وشأنهم ، فبدلت الأرض غير الأرض ، وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسُّهم قدراً ، وأشحهم نفسًا ، وأجهلهم بأمر الدنيا ، وأكثر إعراضًا عن الدين . ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب ...."
الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ . وعن تأثير ذلك على مصير دولة سلاطين المماليك انظر : قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٧ وما بعدها .

١٠ - انظر ما كتبه ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٨ ، ص ٢٣٨ ، جـ٩ ، ص ٧٣ ، ص ٩٨ حول سلطة الطواشية على المماليك فى الطباق ومهابتهم - قارن : سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٤ - ص ١٥ .١١ - العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٤٦ ؛ عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٩ ؛ قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٤ .

١١- عاشور ، المرجع السابق ، ص١٩ .

و«الناصرية» نسبة إلى الناصر محمد بن قلاون ... ووهكذا . ومن ناحية أخرى أدى هذا إلى زيادة نسبة الصراعات الدموية فى سبيل الوصول إلى الحكم ، وكان قطز ضحية انتمائه للمماليك المعزية من جهة ، وانتقام بيبرس لمصرع فارس الدين أقطاى والهوان الذى حل بالمماليك البحرية الصالحية من جهة أخرى .

بيد أن أهم نتائج هذه التربية المملوكية تجسدت فى الإحساس المتبادل بين المماليك والرعية فى مصر والشام بأن المماليك أغراب يحكمون البلاد على أساس من التفويض الشرعى[١٢] . وانعكس هذا التناقض على العلاقة بين الجانبين . فقد تركزت وظائف الحكم والإدارة العليا فى أيدى المماليك ، كما امتلكوا زمام السلطة السياسية مما جعلهم يتصرفون باعتبارهم أقلية عسكرية تحكم على أساس من القوة والغلبة وتنأى بنفسها عن المشاركة فى حياة الرعية سوى من خلال المواكب السلطانية والأعياد والاحتفالات الدينية والعامة . كما أن المصريين ، من جهة أخرى ، لم يروا فى المماليك سوى طائفة من الغرباء الذين يحكمونهم بتفويض من الخليفة العباسى فى القاهرة . ويغلب علىّ الظن بأن مشاعر الرعية فى مصر وبلاد الشام تجاه المماليك كانت مزيجًا من الكراهية السياسية ، والعداء الاجتماعى ، والولاء الدينى بفضل الواجهة الدينية التى جعلت من المماليك حكامًا شرعيين مفوضين من الخليفة الذى كان دوره قاصراً على إسباغ الشرعية على حكم سلاطين المماليك ، ولم يكن له من الخلافة سوى اللقب [١٣].

واستمرت جموع المماليك الذين كان تجار الرقيق يجلبوهم من شتى بقاع الدنيا تغذى المؤسسة المملوكية بالعناصر البشرية من ناحية ، وتغذى المشاعر الانعزالية فى نفوس أبناء هذه المؤسسة من ناحية أخرى . وكانت هذه الطبقة تقوى نفسها دائمًا بما يجلبه تجار الرقيق إلى البلاد . وعلى أية حال ، كان لفرسان المماليك - وحدهم - حق الحكم فى مصر وبلاد الشام بناء على أنهم تحملوا عبء الدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية ، كما تولوا حماية عرش السلطان القائم ضد المطامع الداخلية . وقد استأثروا بالمراتب العليا فى الجيش والإدارة .

---

١٢ - انظر نص وثيقة تفويض الخليفة العباسى للسلطان الظاهر بيبرس فى : المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ،جـ١ ، ص٤٥٣ - ص٤٥٧ . انظر المناقشة الموسعة للموضوع : قاسم عبده قاسم وعلى السيد على ، الأيوبيون والمماليك - التاريخ السياسى والعسكرى (عين للدراسات والبحوث ، ١٩٩٥م) ١٥٠ - ١٥٣ .

١٣ - ابن الصيرفى ، إنباء الهصر بأنباء العصر ، (تحقيق الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠م) ، ص ١١٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان السلاطين يرون فى المماليك حصونهم وأسوارهم المانعة على حد تعبير السلطان المنصور قلاون فى النص الذى نقلناه عن المقريزى . ولذلك بلغت أعداد المماليك السلطانية أيام هذا السلطان (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) ستة آلاف وسبعمائة مملوك ، وأراد ابنه الأشرف خليل أن يكمل عددهم عشرة آلاف ، كما اشتهر السلطان الناصر محمد بن قلاون بحبه لشراء المماليك " ... من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد . وبعث فى طلبهم وبذل الرغائب للتجار فى حملهم إليه ، ودفع فيهم الأموال العظيمة ، ثم أفاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعه واحدة فى يوم واحد..."(١٤) وكان من الممكن أن تصل مشتروات السلطان فى عصر المماليك البحرية إلى حوالى ثمانمائة مملوك ، على حين أن عدد المماليك الذين كان يشتريهم السلاطين بعد النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى (ق١٥م) لم تزد عن مائتين أو ثلاثمائة مملوك(١٥) بسبب التدهور العام الذى أصاب دولة المماليك آنذاك .

كان مماليك السلطان يعسكرون بالقاهرة حيث تكون القوة الرئيسية فى الجيش المملوكى ، كما كانت أعداد أولئك المماليك السلطانية تتزايد حين يُضم إليهم مماليك السلاطين السابقين ، أو مماليك الأمراء الذين يغضب عليهم السلطان . أما العلاقة بين السلطان ومماليكه الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم فعادة ما تكون أقوى من العلاقة بينه وبين غيرهم من المماليك . ولأن المماليك السلطانية كانت بمثابة الحرس السلطانى الخاص ، كان السلاطين يولونهم عناية فائقة فى التعليم والتدريب على نحو ما أوضحنا . كذلك كان السلاطين يختارون لمماليكهم أعلى الوظائف قدراً وأكبرها إقطاعًا ؛ سواء فى دوائر البلاط أو فى إدارات الجهاز الحكومى . وفى البداية كان السلطان يقرر راتبًا نقديًا وعينيًا (من اللحوم والتوابل والخبز والأعلاف والزيت وغيرها) لكل مملوك من مماليكه فى كل شهر . وبعد أن يدخل الفارسى المملوكى فى زمرة الأمراء أصحاب الإقطاعات يمنحه السلطان إقطاعًا من الأرض الزراعية تزداد مساحته زيادة طردية مع صعود الأمير المملوكى وترقيه فى سلم الرتب العسكرية المملوكية (١٦).

---

١٤ - المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٤ .

١٥ - Ashtor E. , A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages, (Collins, London 1976), p . 282 .

١٦ - قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٤ .

أما الأمراء الكبار ، من ولاة الأقاليم وأصحاب الوظائف الكبرى . فكانت لهم جيوش صغيرة من المماليك تتراوح أعدادهم ما بين ثلاثمائة مملوك وثمانمائة مملوك . وتلك الجيوش كانت تشكل القسم الثانى من الجيش المملوكى العام ؛ ولكنها غالبًا ماكانت تعسكر خارج القاهرة . وكان القسم الثالث من الجيش يتألف من أجناد الحلقة[١٧] .

وقد احتكر الأمراء المماليك الرتب العسكرية ووظائف الإدارة العليا؛ فكانت أعلى درجات الأمراء العسكرية " أمير مائة مقدم ألف " ، ثم يليه أمير طبلخاناه (أى يدق على أبوابه ثلاثة طبول ونفيران) وبعد ذلك رتبة أميرة عشرة ، ثم رتبة أمير خمسة . وفى ذلك يقول القلقشندى: " واعلم أن كل أمير من أمراء المئين أو الطبلخانات سلطان مختصر فى غالب أحواله ... وتوصف البيوت فى دواوين الأمراء بالكريمة ، فيقال البيوت الكريمة ، كما يقال فى بيوت السلطان البيوت الشريفة " [١٨]. وتفسير هذا النص أن الوضع السياسى للأمراء المماليك كان ممتازاً بحيث كان كل منهم يشبه السلطان من حيث ما يتمتع به من مزايا ، وتمثل الفارق الوحيد بين السلطان والأمراء فى حجم الامتيازات من ناحية ، وفى خضوع الأمراء أنفسهم للسلطان من ناحية أخرى .

وكان طبيعيًا أن تكون وظائف الدولة حكراً على أمراء المماليك . وهنا ينبغى أن نشير إلى حقيقة أن نظام الحكم المملوكى فى مصر وبلاد الشام كان نظامًا طبقيًا فى علاقاته واتجاهاته . فقد قسم المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون المجتمع فى مصر فى عصر سلاطين المماليك إلى " سلطان ورعية "[١٩] وهو ما يصدق فى تقديرنا على بلاد الشام أيضًا . والراجح أن ابن خلدون يقصد " بالسلطان " الجهاز المملوكى الحاكم والفئات التى تدور فى فلكه من المصريين ، أما "الرعية " التى قصدها ابن خلدون فهم المصريون بجميع فئاتهم وطوائفهم. ولم تكن العلاقة بين السلطان والرعية قائمة على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة لأن ذلك كان أبعد ما يكون

---

١٧ - هم المقاتلون الأحرار من أبناء المماليك الذين عرفوا باسم « أولاد الناس » فى مصطلح ذلك العصر، ومن البدو والتركمان وبعض فئات المصريين . انظر :

ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، صفحات ٢٣ - ٢٤ ، ٣٣ - ٣٤ ، ٤٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٣ ، ص ٢٠ ، ص ٢٢ ، ص ٢٣ ، ص ٣٧ .

١٨ - القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ ٤ ، ص ٦١ - ص ٦٣ .

١٩ - ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٨٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن مفاهيم أولئك الحكام المجلوبين عبيداً فى طفولتهم . وفى تصورنا أن المجتمع المصرى والمجتمع الشامى فى عصر سلاطين المماليك كانا مجتمعيْن يقومان على بناء طبقى حاد ؛ فثمة طبقة من الحكام العسكريين لهم كافة الحقوق والامتيازات ولهم حق الإدارة والحكم فضلاً عن أن الموارد العامة (من الأراضى الزراعية والمراعى والمصايد والغابات والأحراش والمسطحات المائية) كانت بحوزتهم بحكم القوانين الإقطاعية التى نظمت العلاقات داخل الكيان الإقطاعى العسكرى الذى جسدته دولة سلاطين المماليك .

وقد ذكر القلقشندى الوظائف الكبرى فى دولة سلاطين المماليك تحت عنوان دالٍ ، وقسّمهم إلى أربعة أقسام ؛ إذ قال تحت عنوان " فى ذكر أعيان المملكة وأرباب المناصب الذين بهم انتظام المملكة وقيام الملك " إنهم أرباب السيوف (أي العسكريون من فرسان المماليك) وهم الأمراء الذين قسمهم إلى[٢٠] :

١ - أمراء المئين مقدمو الألوف ، وعدة كل منهم مائة فارس ؛ أى أن كلا منهم يحق له أن يكون جيشًا من مماليكه فى حدود مائة فارس من الفرسان ثقيلى العدة ، وربما زاد على ذلك عشرة أو عشرين فارسًا . ومن ناحية أخرى يكون له حق قيادة ألف فارس - من غير مماليكه - ممن هم دونه من الأمراء على نحو ما يذكر العمرى[٢١] . وأصحاب هذه الرتبة من الأمراء هم أعلى أمراء المماليك قدراً ، ومنهم يكون أصحاب الوظائف الكبرى ونواب السلطان .

٢ - أمراء الطبلخاناه[٢٢] وعدة كل منهم فى الغالب أربعين فارسًا . ويذكر العمرى فى " مسالك الأبصار " أنه ربما كان من حق أمير الطبلخاناه أن يزيد عدد فرسانه إلى سبعين

---

٢٠ - القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٤ - ص ٣٧ .

٢١ - ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار - ممالك مصر والشام والحجاز واليمن ، (تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٥) ص ٢٧ - ص ٢٨ .

٢٢ - الطبلخاناه كلمة فارسية من جزئين ؛ طبل وخاناه ، ومعناه بيت الطبل ويقصد به الطبول والأبواق التى تدق على أبوب الأمراء ذوى الرتب العالية .

ويتولى أمرها أمير عشرة يكون مسئولاً عنها فى المخازن وفى السفر والحرب وتحت يديه عدد من ضاربى الطبول ونافخى النفير (البوق) وضاربى الصنوج النحاس وغيرهم . ويكون من حق أمراء المئين والأمراء الذين يحق لهم تكوين فرقة من أربعين فارسًا أن يكون لديهم طبلخاناه .

انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو ثمانين فارسًا[٢٣] ، ولكن هذه الرتبة لاتعطى أبداً لأقل من أربعين فارسًا . ومن هذه الطائفة من الأمراء تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف بالأقاليم ، وأكابر الولاة حسبما يقول القلقشندى .

٣ - أمراء العشرات ، ويكون لكل منهم إمرة عشرة من فرسان المماليك . وربما كان للواحد منهم عشرون فارسًا ولكنه يظل من أمراء العشرات . ومن هذه الفئة يكون صغار الولاة ومن كان مثلهم من أرباب الوظائف الصغرى .

٤ - أمراء الخمسات ، وكانوا قلة خصوصًا فى مصر ، وربما كان أكثرهم من أولاد الأمراء الذين توفوا ومُنح الأبناء هذه الرتبة رعاية لآبائهم .

وهناك نص هام للعمرى[٢٤] عن الإقطاعات التى كانت تمنح لهؤلاء الأمراء من أرباب السيوف لقاء قيامهم بواجباتهم الوظيفية ، يقول العمرى " ويبلغ بمصر إقطاع بعض أكابر الأمراء المقربين من السلطان مائتى ألف دينار جيشية ، وربما زادت على ذلك . وأما غيرهم فدون ذلك ودون دونه ودون دونه إلى ثمانين ألف دينار وحولها . وأما الطلبخانات فتبلغ الثلاثين ألف دينار ومايزيد ، وينقص عليها إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار . أما العشرات فنهايتها سبعة آلاف دينار إلى ما دون ذلك . وأما إقطاعات جند الحلقة فمنه ما يبلغ ألف وخمسمائة دينار. ومن هذا المقدار وما حوله إقطاعات أعيان الحلقة المقدمين عليهم، ثم ما دون ذلك إلى مائتين وخمسين ديناراً . وأما إقطاعات جند الأمراء فإلى مايراه الأمير من زيادة بينهم ونقص .

" وأما إقطاعات الشام فلا تقارب هذا المقدار ، بل تكون على الثلثين منها ، خلا ما ذكرناه عن بعض أكابر أمراء المئين المقربين..."[٢٥].

هذا النص الهام الذى نقلناه عن العمرى ، بالإضافة إلى ما ذكرته المصادر التاريخية الأخرى [٢٦]، يوضح بجلاء أن المماليك ، بوصفهم الطبقة العسكرية الحاكمة ، قد استأثروا

---

٢٣ - العمرى ، مسالك الأبصار ، ص ٢٨ .

٢٤ - نفسه .

٢٥ - المصدر السابق ، ص ٢٩ .

٢٦ - القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٥٠ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م/١٣٨٧هـ) ، جـ ٢ ، ص ١٣٠ - ص ١٣٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ .

بوظائف القيادة فى الجيش ، كما اختصوا أنفسهم بوظائف الإدارة العليا والوسطى والصغرى . ولما كانت الدولة قائمة على أساس من البناء الإقطاعى العسكرى ؛ فقد تمتع أمراء المماليك وفرسانهم بكل ما يرتبط بالوظائف التى تولوها من مميزات مالية وعينية على النحو الذى اتفقت عليه مصادر عصر سلاطين المماليك .

وفى فلك هذه الطبقة العسكرية الحاكمة كان يدور بعض أهالى البلاد من المصريين والشوام الذين ارتبطوا بالمماليك بحكم خبراتهم المالية والإدارية المتوارثة . أولئك هم " أرباب الأقلام " من أصحاب الوظائف الديوانية الإدارية والمالية والقضائية . ولما كانت العلوم الدينية أساس التعليم فى تلك العصور ، فقد كان أولئك النفر من المصريين والشوام من الفقهاء والعلماء على نحو خاص ، وهو ما جعل بعض مصادر عصر سلاطين المماليك تطلق عليهم مصطلح " المتعممون " أو " أهل العمامة "[٢٧] والواقع أن أبناء هذه الطائفة قد لعبوا دوراً هامًا فى مساندة سلاطين المماليك وحرصوا ، بشكل عام ، على تأكيد ولائهم للسلطان المملوكى الحاكم ؛ إذ كان من المعتاد آنذاك أن يصعد كبار القضاة والفقهاء مع بداية كل شهر لتهنئة السلطان بالشهر الجديد[٢٨]. وتشهد تلك الطائفة الكبيرة من الفتاوى التى وصلتنا من عصر سلاطين المماليك على أن السلاطين اعتمدوا كثيراً على هذه الفتاوى فى كافة تصرفاتهم السياسية والاقتصادية والمالية والإدارية [٢٩].

وهنا ينبغى أن نشير إلى أن سلاطين المماليك كانوا يقربون " أهل العمامة " إليهم ضمن سياسة الاهتمام بالمظهر الدينى التى حرصوا عليها . وسواء كان " أهل العمامة " من الفقهاء والقضاة يعملون فى الوظائف التى عينهم السلاطين فيها ، أو كانوا يقومون بالتدريس فى مختلف المدارس المنتشرة فى أرجاء البلاد ؛ فقد كان عليهم أن يتعاونوا مع المماليك . وكان كبار الفقهاء والقضاة يتقاضون مرتبات نقدية وعينية من السلطان ، ونعموا بمظاهر الحياة الناعمة المترفة كما كانوا يترددون على مجالس السلاطين والأمراء . أما صغار أهل العمامة فكانوا من ضمن الرعية التى حدثنا عنها عبد الرحمن بن خلدون .

---

٢٧ - القلقشندى ، صبح الأعشي ، جـ٤ ، ص ٤١ - ص ٤٢ .

٢٨ - ابن الصيرفى ، إنباء الهصر بأنباء العصر ، ص ٨ - ص ٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٢٤ .

٢٩ - مجموعة وثائق دير سانت كاترين أرقام ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ . انظر أيضًا : المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص ١١٨٩ - ص ١١٩٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٥ ، ص ٣٣٨ .

هذه هى الطبقة الحاكمة فى عصر سلاطين المماليك ، والفئات التى كانت تعيش فى جوارها وتدور فى فلكها من كبار الموظفين فى الجهاز الحاكم . أما الرعية فكانت تشمل بقية فئات الناس فى مصر والشام أثناء تلك الفترة .

وإذا كنا قد عرضنا فى هذا الفصل للمؤسسة المملوكية ؛ من حيث تربية المماليك وتدريبهم والعلاقات بين الزملاء فى رابطة الزمالة أو "الخشداشية " ، ثم العلاقة بين السيد ومماليكه داخل إطار رابطة "الأستاذية " ، وانتقلنا بعد ذلك لمناقشة مسألة الرتب العسكرية ووظائف الإدارة العليا وامتيازاتها - فإن هذا كله كان بقصد كشف الإطار الذى تدرج فيه سيف الدين قطز من مرتبة المملوك إلى عرش السلطان . وفى تصورى أن هذا الفصل يمكن أن يساعدنا على فهم الجو العام الذى تحرك فيه قطز مملوكًا ، وفارسًا ، وأميراً ، ثم سلطانًا ...

وهذا هو موضوع الفصل التالى ....

---

٣٠ - ابن حجر العسقلانى ، إنباء الغُمر بأنباء العمر ، جـ٢ (تحقيق الدكتور حسن حبشى) ص ٢٥٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

قطز : من المملوك إلى السلطان

أصل قطز - العلاقة مع عز الدين أيبك وشجر الدر - الحرب بين الزوجين - الوصي على العرش - سيف الدين قطز السلطان .

مثل غيره من المماليك الذين ارتقوا عرش السلطنة ، تبدو السيرة الباكرة لسيف الدين قطز غامضة ضبابية . وتدور روايات مختلفة حول أصل ذلك المملوك الذى انتقل من إسار الرق إلى عرش سلطنة المماليك فى مصر والشام ، والذى خرج من صفوف العبيد المعروضين فى سوق النخاسة ليقود صفوف المقاتلين ضد التتار فى عين جالوت ويلحق بهم هزيمة أطفأت نارهم التى كانت قد أحرقت مشرق العالم الإسلامى وأكل لهيبها خلافة المسلمين فى بغداد ودمرها شر تدمير . وربما يكون مناسبًا أن نعرض لروايات مختلف المؤرخين حول أصول المملوك قطز .

يقول المؤرخ ابن أيبك الدوادارى :[1] " ... لما كان قطز فى رق ابن الزعيم بدمشق بالقصاعين اتفق أن أستاذه غضب عليه يومًا لشئ جرى منه فلطمه على وجهه ، ولعن والديه وأباه وجده . ثم إنه جلس يبكى وينتحب ، وزاد فى بكائه عن حد القياس . وحضر الطعام فامتنع عن الأكل ، وظل طول اليوم يبكى . { وقال ابن أبى الفوارس الجزرى صاحب هذه الرواية } ثم إن أستاذه ركب إلىّ وضيّفته ، وكان قطز عنده عزيزاً بخلاف غيره من مماليكه ، فأوصى عليه الحاج على الفراش ؛ وكان الحاج علىّ كبيراً فى بيت ابن الزعيم ، فقال : " يا حاج استوصى بهذا المملوك، ولاطفه ، وخذ بخاطره ، واطعمه ، واسقيه " قال الحاج على : فأتيته وهو يبكى بعد ركوب أستاذه . فقلت له : " ماهذا البكا العظيم، من لطشة تعمل هذه العمايل ؟ فلو وقع فيك جرح سيف أو نشاب كيف كنت تصنع ؟ " فقال : " والله ياحاج ما بكائى وغيظى من لطشة ، فإن السيوف والله ما تعمل فىّ ، وإنما غيظى على لعنته لوالدى وأبى وجدى، وهم والله أخير من آبائه وجدوده " فقلت له : " ومن هو أبوك أنت ، ومن جدك ، وأنت مملوك تركى كافر ابن كافر " فقال : " لا تقل كذا يا حاج والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم

---

١ - ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، ص ٣٩ - ص ٤٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن مسلم إلى عشر جدود . أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه السلجوقى ، ولابد ما أملك مصر وأكسر التتار " قال الحاج على فضحكت من قوله وطايبته . وتقلبت الأحوال إلى أن ملك مصر وكسر التتار ، ودخل قطز دمشق وطلبنى ، فأحضرنى وأعطانى خمسمائة دينار، ورتب لى راتب جيد ، رحمه الله..".

هذه هى الرواية الأولى عن أصل قطز ؛ وهى رواية أوردها مؤرخ من أصل مملوكي عارف بالكثير من خبايا المماليك . وعلى الرغم من النبوءة التى تحملها الرواية (وهى نبوءة كتبت بأثر رجعى أى بعد الأحداث وليس قبلها) فإن الرواية تنسب قطز إلى أسرة إسلامية حاكمة هى أسرة السلطان جلال الدين خوارزم شاه الذى استطاع التصدى للمغول واسترد منهم مدن « قُم » و « قاشان » و « همدان » فى بلاد فارس . وكان هو الوحيد القادر على التصدى للتتار آنذاك لولا أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله (ت٦٢٢هـ) استعان بالتتار ضده ، وارتكب ذلك الخطأ القاتل الذى يرتكبه عادة الحكام الذين تعميهم أحقادهم وأطماعهم الصغيرة عن رؤية الواقع السياسى . فقد قضى التتار سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١م على مملكة جلال الدين خوارزم شاه التى كانت تقع فى إقليم كرمان الحالى فى جنوب جمهورية إيران الإسلامية واختفى السلطان هربًا من سيوف التتار [٢] .

على أية حال ، فإن المؤرخ أبا المحاسن يوسف بن تغري بردى كرر الرواية نفسها نقلاً عن المصدر نفسه كما ذكر رواية أخرى هذا نصها : "..قال ابن الجزرى فى تاريخه : حدثنى أبى قال حدثنى أبو بكر بن الدُريهم الإسعردى والزكى إبراهيم أستاذ الفارس أقطاى قالا : كنا عند سيف الدين قطز لما تسلطن أستاذه المعز أيبك التركمانى ، فأمرنا قطز بالقعود، ثم أمر المنجم فضرب الرمل ، ثم قال له قطز أضرب لمن يملك بعد أستاذى المعز أيبك ، ومن يكسر التتار ، فضرب وبقى زمانًا يحسب، فقال : يطلع معى خمسُ حروف بلا نقط . فقال له قطز : لم لا تقول محمود بن ممدود، فقال : يا خوند لا ينفع غير هذا الإسم، فقال: أنا هو ، أنا محمود بن

---

٢ - المقريزى ، السلوك ، جـ١،ص ١٨٥ ، ص ٢٠٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ٤ (تحقيق د. حسنين ربيع ١٩٧٢م) ، ص ٣١٤ - ص ٣٢٩ حيث ذكر أن التتار قتلوا جلال الدين خوارزم شاه ، انظر أيضًا :

Claude Cahen, " The Mongols and the Near East " , in Setton (ed.), A History of the Crusades, vol.II, pp. 615 - 716 .

٣ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٨٤ ، ص ٨٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ممدود ، وأنا أكسر التتار وآخذ بثأر خالي خوارزم شاه ، فتعجبنا من كلامه ، وقلنا ياخوند يكون هذا إن شاء الله، فقال : اكتموا ذلك ، وأعطى المنجم ثلاثمائة درهم " [٤] .

هذه هي الرواية الثانية فى اتجاه تأكيد نسبة قطز إلى بيت خوارزم شاه فى بلاد فارس . بيد أن المؤرخ نفسه يورد رواية تحمل النبوءة بسلطنة بيبرس ولكنها لا تشير إلى انتسابه إلى بيت ملكي . ومؤداها أن أحد أمراء المماليك واسمه " حسام الدين البركة خان " ذكر أن قطز كان مملوكًا لأحد الأمراء زمن السلطان الكامل الأيوبى وكان خشداشه (زميله) حسام الدين هذا الذى تنسب الرواية إليه أنه قال : " ... والله هذا قطز خشداشي ، كنت أنا وإياه عند الهيجاوي من أمراء مصر ونحن صبيان ، وكان عليه قمل كثير ، فكنت أسرح رأسه على أننى كلما أخذت منه قمله أخذت منه فلسًا أو صفعته ، ثم قلت فى غضون ذلك : والله ما اشتهى إلا أن يرزقنى الله إمرة خمسين فارسًا ، فقال لى : طيّب قلبك ، أنا أعطيك إمرة خمسين فارسًا ، فصفعته وقلت : أنت تعطينى إمرة خمسين ! قال : نعم فصفعته ، فقال لى : وألك علة ! إيش يلزم لك إلا إمرة خمسين فارسًا !! أنا والله أعطيك ، قلت : ويلك كيف تعطينى؟ قال : أنا أملك الديار المصرية وأكسر التتار وأعطيك الذى طلبت ، قلت : ويلك أنت مجنون ! أنت بقملك تملك الديار المصرية وتكسر التتار؟ قال : نعم ، رأيت النبى ﷺ فى المنام وقال لى : أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار ، وقول النبى ﷺ حق لاشك فيه ، قال فسكتُ وكنت أعرف منه الصدق فى حديثه وعدم الكذب ... "[٥] .

وثمة رواية أخرى تحمل نبوءة بتولي قطز عرش مصر نقلها ابن تغرى بردى عن القطب اليونينى فى تاريخه الذى ذيّله على كتاب مرآة الزمان، نصُّها : " حكى لى عز الدين محمد بن أبى الهيجاء ما معناه : أن سيف الدين بُلغاق حدثه أن الأمير بدر الدين بكتوت الأتابكى حكى لى قال : كنت أنا والملك المظفر قطز والملك الظاهر بيبرس - رحمهما الله تعالى - فى حال الصبا كثيراً ما نكون مجتمعين فى ركوبنا وغير ذلك ، فاتفق أن رأينا منجمًا فى بعض الطريق بالديار المصرية ، فقال له الملك المظفر قطز : أبصر نجمي ، فضرب بالرمل وحسب وقال : أنت تملك هذه البلاد وتكسر التتار ، فشرعنا نهزأ به ، ثم قال له الملك الظاهر بيبرس : أبصر نجمى ، فقال : وأنت أيضًا تملك الديار المصرية وغيرها ، تزايد استهزاؤنا به ، ثم قالا لي : لابد أن تبصر نجمك ، فقلت له : أبصر نجمى ، فحسب وقال : أنت تخلص لك إمرة مائة

---

٤ - نفسه ، جـ ٧ ، ص ٨٥ / ص ٨٦ .

٥ - نفسه ،جـ٧، ص ٨٧ / ص٨٨ ؛ قارن : ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية، ص ٤١ - ص ٤٢ .

فارس ، يعطيك هذا ، وأشار إلى الملك الظاهر ، فاتفق أن وقع الأمر كما قال ، ولم يخرم منه شئ ، وهذا من عجب الاتفاق " [٦].

هذه الرواية نفسها وردت عند ابن أيبك الدواداري[٧] إلا أنه زاد عليها نبوءة قتل قطز على يد بيبرس .

نحن ، إذن ، أمام روايات تتحدث عن أصل " المملوك " قطز ، وأخرى تتحدث عن النبوءة التى تنبأت باعتلائه العرش . هذا النمط من " النبوءة بأثر رجعى " متواتر فى مصادر عصر سلاطين المماليك بالنسبة لأولئك السلاطين الذين أنجزوا أعمالاً كبرى فى خدمة الأمة الإسلامية مثل سيف الدين قطز والظاهر بيبرس . هذه النبوءة ، فيما أزعم ، أقرب إلى الأدب الشعبى منها إلى التاريخ ؛ فالناظر فى السيرة الشعبية للظاهر بيبرس سيجد النبوءة تتكرر بأشكال مختلفة تبشر بأن هذا الصبى سيكون صاحب عرش مصر وبلاد الشام . بيد أن ما يهمنا هنا هو التأكيد على أن " المملوك " قطز هذا كان من الخوارزمية ، وتروى المصادر التاريخية أن اسمه الأصلى " محمود بن ممدود " ، وأنه ابن أخت جلال الدين خوارزم شاه الذى قضى التتار على مملكته ، وكان " قطز " من بين الأطفال الذين حملهم التتار إلى دمشق وباعوهم إلى تجار الرقيق. ومضت سيرة حياته داخل الإطار العام لحياة المماليك كما أوضحناها فى الفصل السابق . ومعنى كلمة " قطز " الكلب الشرس ، وهى كلمة مغولية أطلقها عليه من اختطفوه وباعوه ، وربما يكون تجار الرقيق هم الذين أعطوه هذا الاسم .

هذه هى بداية المملوك ، ويحسن بنا أن نتابع سيرته حتى جلوسه على عرش السلطان . يتضح من رواية مصادرنا التاريخية أن قطز كان مملوكًا فى دمشق ضمن مماليك ابن الزعيم ، كما يتضح أنه مرَّ بالمراحل التى كان يمر بها أى مملوك فى تلك الفترة الباكرة من تاريخ دولة سلاطين المماليك . وقد ترقى فى الخدمة حتى صار أكبر مماليك الملك المعز أيبك التركمانى[٨] . وربما يكون أول ظهور له على صفحات التاريخ ما ذكرته المصادر عن اشتراكه فى قتل فارس الدين أقطاى الذى كان عز الدين أيبك التركمانى قد أعد المؤامرة للتخلص منه[٩] . وبعد ذلك

---

٦ - نفسه ، جـ ٧ ص ٨٩ .

٧ - ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ٤٣ .

٨ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٨٤ .

٩ - تخلص المعز أيبك من غريمه فارس الدين أقطاى الذى كان زعيمًا =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بدأ قطز يشق طريقه على الطريقة المملوكية صوب العرش الذى جلس عليه سيده عز الدين أيبك .

كان مقتل فارس الدين أقطاى بمثابة علامة البداية لمسيرة قطز نحو عرش السلطنة من ناحية ، كما كان إيذانًا بانقسام المماليك إلى حزبين متناوئين من ناحية أخرى . هذا الحزبان هما المماليك البحرية والمماليك المعزية مما عرض مصير الدولة الناشئة إلى خطر شديد(١٠) . فقد هرب زعماء البحرية طلبًا لحماية أمراء الأيوبيين وملوكهم فى بلاد الشام وحماية سلاجقة الروم، وأخذ المماليك الهاربون يحرضون ملوك البيت الأيوبى على غزو مصر .

وكانت الخصومة ، التى تحولت إلى عداوة قاتلة بين المعز أيبك وزوجته شجر الدر ، بمثابة الفرصة التى سطع فيها نجم قطز ، وعلى الرغم من الدماء التى أريقت فإنها فتحت طريق العرش أمام الأمير الطموح ليصير سلطانًا على البلاد .

انتهى الحكم الأيوبى فى مصر مع تبدد دماء الملك المعظم " توران شاه " بن الصالح نجم الدين أيوب(١١) واختار المماليك أرملة السلطان الصالح نجم الدين أيوب الأميرة " شجر الدر " لتولى عرش السلطنة الشاغر . ولما كانت هذه السيدة فى الأصل جارية تركية أو أرمينية ، فقد اعتبرها بعض مؤرخى عصر سلاطين المماليك " ... أول من ملك مصر من ملوك الترك

= المماليك البحرية ، وقد بالغ فى احتقار أيبك والاستهانة به بحيث كان يناديه باسمه مجرداً من أى ألقاب . ومن ناحية أخرى أنشأ فرقة خاصة من المماليك هم " المماليك المعزية " ، وكان قطز كبيرهم ، لمواجهة نفوذ المماليك البحرية . وكشف أقطاى عن رعونة شديدة ، وسعى إلى الزواج من إحدى أميرات البيت الأيوبى . وفى يوم الأربعاء ٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤م طلب أيبك من أقطاى الحضور إلى القلعة لكى يستشيره فى بعض الأمور ؛ وفى قاعة العواميد ، كبرى قاعات قلعة الجبل ، تم اغتيال فارس الدين أقطاى على يد كل من قطز ، وبهادر ، وسنجر الغتمى " .. فهبروه بالسيوف حتى مات ... " . المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٩٠ .

١٠ - أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، (دار النهضة العربية - بيروت ١٩٦٩م) ص ١٣٤ - ص١٣٥ .

١١ - كان تورانشاه إخفاقًا أيوبيًا جديداً ، إذ فشل فى الاستجابة للتحديات التى فرضتها الظروف التاريخية وبدلاً من الانصراف لتوحيد المسلمين لمواجهة الفرنج الصليبيين بدأ يدير المؤامرات ضد زوجة أبيه " شجر الدر " وبقية زعماء المماليك . وأنتهى الأمر بقتله وتولت شجر الدر عرش البلاد .

انظر : أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص ١٨٥ ؛ أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص ١٨١ -ص١٨٣؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١، ص ٣٥٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص٣٧١ .

المماليك "[١٢] على حين تجاهل المؤرخون من أبناء المماليك الذين عرفوا باسم " أولاد الناس " سلطنة هذه المرأة تمامًا[١٣] .

على أية حال ، قبضت " شجر الدر " على زمام الحكم بيد من حديد ووجهت اهتمامها للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة. ثم أخذت تتقرب إلى العامة والخاصة من رعاياها. بيد أن الرأى العام صدمته حقيقة أن امرأة تجلس على عرش البلاد ؛ وهو الأمر الذى كان يتنافى مع التراث السياسى الإسلامى من جهة ، ويتناقض مع النظرية السياسية الإسلامية من جهة ثانية ، ويجافى الثقافة السائدة من جهة ثالثة[١٤] . واضطربت الأمور على المستوى الشعبى العام ، كما عارض الفقهاء والمتعلمون جلوس " شجر الدر " على عرش السلطنة ، ثم جاء رد الخليفة العباسى برفض المساندة الشرعية لحكم هذه السلطانة ساخرًا حاسمًا تقول كلماته " ... إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسيِّر إليكم رجلاً ... " . عندها أدركت السلطانة وأدرك زعماء المماليك أنهم يسبحون ضد تيار عارم لابد وأن يغرقهم فى موجاته .

وبعد ثمانين يومًا تنازلت " شجر الدر " عن الحكم لواحد اختارته بعناية من أمراء المماليك هو عز الدين أيبك التركمانى الصالحى الذى اشتهر بعزوفه عن الصراع حتى ظن الجميع أنه ضعيف وقبل أمراء المماليك الأقوياء زواجه من شجر الدر وجلوسه على عرش السلطنة ، بل إن بعضهم قال " ... متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته ... " . وتولى المعز أيبك الحكم فى يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ/ يوليو ١٢٥٠م ليثبت من خلال تصرفاته فى مواجهة المشكلات والصعاب التى واجهته خارجيًا وداخليًا ، أن السلطانة " شجر الدر " وزعماء المماليك قد أسرفوا فى الاستهانة به .

كان قطز أحب مماليك المعز أيبك وأقربهم إلى قلبه . وكان اشتراكه فى التخلص من زعيم البحرية " فارس الدين أقطاى " - كما أشرنا - هو أول ظهور له على مسرح السياسة المملوكية ، ثم كانت النهاية المأساوية لزواج سيده من شجر الدر فرصة كاملة لأن يتولى زمام الأمور ويوجهها بالشكل الذى يضمن له العرش ليقود المعركة ضد التتار ولتنتهى حياته على نحو مأساوى أيضًا .

---

١٢ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٦١ .

١٣ - من هؤلاء ابن أيبك الدواداري صاحب " كنز الدُرر وجامع الغُرر " ؛ وابن تغرى بردى .

١٤ - قاسم ، الأيوبيون والمماليك ، ص ١٢٧ - ص ١٢٩ راجع الفصل الأول من هذه الدراسة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم تنته متاعب أيبك فى صراع السلطة بالتخلص من المماليك البحرية ، وإنما انتهت بنهاية حياته فى مؤامرة دبرتها زوجته " شجر الدر" التى وصفها المعاصرون بأنها " ... امرأة صعبة الخلق ، شديدة الغيرة، ذات شهامة زائدة ، وحُرمة وافرة ، سكرانة من خمر التيه والعجب .." فقد كان من الصعب عليها أن تتخلى عن سلطة الحكم ، وزاد من ضراوتها أن علمت أن زوجها يسعى إلى الزواج من إحدى أميرات البيت الأيوبى . وبدأ الزوجان يتسابقان فى نسج المؤامرات للتخلص من الآخر وانتصرت المرأة فى هذا السباق ولقى السلطان مصرعه ، فقد أرسلت شجر الدر إلى أيبك تتلطف به وتدعوه إلى القصر السلطانى وحين دخل الحمام كان هناك مجموعة من الغُلمان تناولوه بسيوفهم حتى أردوه قتيلاً [١٥] .

وحين ذاع الخبر فى صباح اليوم التالى ، وعلم ولده " نور الدين على" ومملوكه " سيف الدين قطز " وكان أكبر مماليكه ، بما حدث أسرعا مع جماعة من المماليك المعزية إلى القصر السلطانى رغبة فى الانتقام من شجر الدُّر . وبالفعل تم القبض عليها وحملها المماليك المُعزية إلى ضرتها، زوجة المعز الأولى وأم ولده على ؛ فأمرت جواريها " ... فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت فى يوم السبت ، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق ، وليس عليها سوى سراويل وقميص ... "[١٦].

هكذا كان العنف والدم هو الطريق إلى العرش منذ بداية عصر سلاطين المماليك . وعلى نفس هذا الطريق سار " سيف الدين قطز "؛ إذ كان على رأس فرقة الانتقام التى قبضت على " شجر الدر " بعد أن اغتالت زوجها وسيده عز الدين أيبك . وبصفته كبير المماليك المعزية بدأ ترتيب المسرح السياسى بالشكل الذى يلائم طموحاته وأحلامه ، وسار الأمير خطوات أخرى صوب العرش ..

فقد صمم المماليك المعزية ، وعلى رأسهم سيف الدين قطز ، على أن يقيموا على العرش الذى بات شاغراً بمصرع أيبك صبيًا فى الخامسة عشرة من عمره هو " نور الدين على " ابن سيدهم المعز أيبك . وتم ذلك فى ربيع الأول سنة ٦٥ هـ / ١٢٥٧م ولقبّوه الملك المنصور على . وقد رفض المماليك البحرية الاعتراف بالسلطان الصبى ، وتجسد رفضهم فى عدة اضطرابات

---

١٥ - عن قصة أيبك وشجر الدُّر ، انظر : المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٩٨ - ص ٤٠٤ ؛ ابن أيبك الدوأدارى ، الدُّرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، ص ٣٠ - ص ٦٥٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٣ .

١٦ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٠٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عاصفة . واستنجدت بعض الفئات المتنازعة بملوك بنى أيوب فى بلاد الشام ، وحاول المغيث عمر صاحب إمارة الكرك (فى الأردن حاليًا) غزو مصر مرتين لكن الفشل كان من نصيبه[١٧] .

بيد أن هذه الاضطرابات كانت فرصة جديدة لظهور نجم الأمير سيف الدين قطز . فقد قام قطز بالقبض على الأتابك سنجر الحلبى وحبسه في الجُب بقلعة الجبل لأنه كان يطمع فى السلطنة بعد مقتل المعز أيبك ولأنه كان يتحين الفرصة للوثوب على العرش[١٨] . وأدى ذلك إلى مزيد من الاضطراب والفوضى ؛ فقد هرب عدد من المماليك البحرية إلى جهة الشام وطاردهم المماليك المعزية وقبضوا على عدد منهم وأودعوهم سجون القلعة [١٩] . وخلا الجو لسيف الدين قطز فصار نائب السلطان " ... وصار مدبر دولة الملك المنصور على " [٢٠] .

كان جلوس السلطان الصبى على العرش مسألة قُصد بها كسب الوقت حتى يمكن لواحد من كبار أمراء المماليك الطامعين فى عرش السلطنة أن يحسم الصراع لصالحه . وكان هذا مشهداً تكرر كثيراً طوال عصر سلاطين المماليك ؛ بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن هذه كانت ممارسة سياسية حظيت باعتراف الجميع طوال ذلك العصر . ومن المهم أن نشير إلى أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثة العرش ؛ إذ أن طبيعتهم العسكرية من ناحية ، وشعورهم بأنهم جميعًا سواء من ناحية أخرى ، جعل كبار أمرائهم يعتقدون أنهم جميعًا يستحقون العرش الذى يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين تحقيقًا لمبدأ « الحكم لمن غلب » . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن ظل عرش السلطنة على الدوام محل التنافس والمنازعات بين كبار الأمراء ؛ لاسيما عندما يخلو العرش بسبب موت السلطان . وكان هذا هو الحال عندما مات عز الدين أيبك . ولم يشأ " سيف الدين قطز " أن يتعجل الأمور ويواجه المنافسين ، فأمسك بيده زمام السلطة الفعلية تاركًا للسلطان الصبى شعائر السلطنة ولقبها ... ولا شئ أكثر من ذلك .

---

١٧ - أقام المماليك البحرية اعتراضهم على أساس صغر سن السلطان الصبى واتفقوا على سلطنة أتابك العسكر علم الدين سنجر الحلبى وحلفوا له ، ولكن المحاولة انتهت بقتله ، انظر :
ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٣٧٦ ؛ جـ ٧ ، ص ٤٢ .

١٨ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٠٥ ؛ أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك ، ص ١٤٠ - ص ١٤١ .

١٩ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٤٢ .

٢٠ - المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤٠٥ ؛ ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ٣٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبات عرش مصر قاب قوسين أو أدنى ، ثم جاءت الفرصة تسعى إلى قطز ...

كان سيف الدين قطز مشغولاً بترتيب الأوضاع السياسية الداخلية لصالحه ، على حين كانت الإشاعات تملأ سماء القاهرة بأن السلطان الصبى يريد خلع قطز ، مملوك أبيه وصاحب اليد البيضاء فى توليه عرش البلاد . واجتمع الأمراء فى بيت أحد كبارهم وتكلموا إلى أن نجحوا فى إصلاح الأمور بين الملك المنصور على وبين مملوك أبيه الأمير قطز " .. وخلع عليه وطيب قلبه " وهكذا توطدت مكانة سيف الدين قطز فى الدولة [٢١].

وفى الوقت نفسه كانت الأحوال متردية تماماً بسبب الفتن التى أثارتها طوائف المماليك فى القاهرة ، كما كان خطر محاولات الغزو الفاشلة التى قام بها المغيث عمر فى ذى القعدة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م ، وفى ربيع الأول سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م يقلق باله بحيث خرج فى المرتين للقاء المماليك البحرية وحليفهم الأيوبى . وبفضل شجاعة " سيف الدين قطز " تم القضاء على هذا الخطر الأيوبى[٢٢]. بيد أنه كان على قطز أن يواصل ترتيب أمور المملكة فى الداخل بعد أن واجه الخطر الخارجى ؛ فقد قبض على جماعة من الأمراء لميلهم إلى " الملك المغيث عمر " فى هذا الشهر نفسه وهم : الأمير " عز الدين أيبك الرومى الصالحى " ، والأمير " سيف الدين بلبان الكافورى الصالحى الأشرفى " ، والأمير " بدر الدين بكتوت الأشرفى " ، والأمير " بدر الدين بلغان الأشرفى " ... وغيرهم . وضرب أعناقهم فى السادس والعشرين من ربيع الأول واستولى على أموالهم كلها[٢٣] .

وبذلك ازدادت القامة السياسية لسيف الدين قطز طولاً . ولكن الدولة التى يحكمها سلطان فى سن الصبا بدت واهنة ضعيفة ، وغير قادرة على تحمل مؤامرات الصغار ولعبهم بأقدار البلاد والعباد . ثم بدأ صدى طبول الحرب التترية يتردد على حدود السلطنة الوليدة . ولم يكن بوسع السلطان الصبى " نور الدين على " أن يفعل شيئاً إزاء هذا الخطر الداهم . فقد كان يقضى وقته فى ركوب الحمير والتنزه فى القلعة "...ويلعب بالحمام مع الخدم "[٢٤] ومع كل خبر جديد عن وحشية التتار كانت الأحوال تزداد اضطراباً والقلق يفترس نفوس الناس .

---

٢١ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٤٣ .

٢٢ - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤٠٩ / ص ٤١١ .

٢٣ - نفسه ، جـ١ ، ص٤١١؛ بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، جـ٩ ، (تحقيق زبيدة عطا) ص٥٥ / ص٥٦ .

٢٤ - ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ٣٣ . وقد وصفه بقوله " كان صبى العقل ،ضعيف الرأى، كثير اللعب " .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقد ملك هولاكو بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم بالله ، وصار المسلمون بغير خليفة للمرة الأولى فى تاريخهم . وخرب التتار الجوامع والمساجد والمشاهد . وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات واستمروا على ذلك أربعين يومًا [٢٥]. ومع ذلك فإن بعض الذين وضعتهم الظروف على عروش بلاد المسلمين كانوا على قدر من الأنانية السياسية وضيق الأفق بحيث حاولوا أن يتفقوا مع هولاكو ضد إخوانهم . فقد أرسل الملك الناصر صاحب دمشق ابنه الملك العزيز إلى هولاكو ومعه هدايا وعدداً من الأمراء ليطلب منه على لسان أبيه قوات تساعده فى أن يأخذ مصر من المماليك [٢٦].

كانت الأحوال على هذا القدر من التردى والتمزق عندما تعين على الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة أن يخطو الخطوة الأخيرة نحو العرش من ناحية ، وتدعيم نفوذه السياسى الداخلى من ناحية ثانية ، والاستعداد لمواجهة التتار من ناحية ثالثة .

وفى بلاد الشام كانت الأمور تزداد سوءاً بسبب رعونة الأيوبيين الصغار . وكان المماليك البحرية بزعامة بيبرس يواصلون الهرب من مكان إلى مكان آخر . وأرسل الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى - الذى صار سلطانًا فيما بعد - إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف - حاكم دمشق يلتمس منه الأمان ، ثم جاء بالفعل ومعه عدد من الأمراء حيث أكرمه الناصر وأعطاه إمرة مائة فارس وأقطعه نصف نابلس وجينين . وعبثًا حاول بيبرس إقناع الناصر بالصمود أمام أخطار التتار . ثم جاء الملك العزيز ، ابن الملك الناصر ، من عند هولاكو ومعه رسالة كتبها رداً على خطابه الذى كان قد أرسله مع ابنه هذا نصها[٢٧] :

" الذى يعلم به الملك الناصر صاحب حلب ، أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى ، وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها ، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ﴾ . واستحضرنا خليفها وسألناه عن كلمات فكذب ، فواقعه الندم واستوجب منا العدم . وكان قد جمع ذخائر نفيسة ، وكانت نفسه خسيسة ، فجمع المال ، ولم يعبأ بالرجال ، وكان قد نمى ذكره وعظم قدره ، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال :

---

٢٥ - انظر تفاصيل الغزو التترى فى الفصل الرابع من هذه الدراسة .

٢٦ - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤١٠/ ص٤١١ . ويذكر المقريزى أن هولاكو أمر بأن يتوجه إليه بعسكر فيه قدر العشرين ألف فارس فطار هذا الخبر إلى دمشق ؛ فرحل من كان بها من المماليك البحرية ، وساروا إلى الملك المغيث عمر بالكرك وحرضوه على أخذ مصر ، لكن سيف الدين قطز استطاع هزيمتهم . قارن رواية ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٧ ، ص ٤٥ - ص ٤٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إذا تــم أمــر دنــا نــقــصــه   تــوقّ زوالا إذا قــيــل تــم

إذا كـنـت فـى نـعـمـة فـارعـهـا   فــإن المـعـاصـى تـزيـل الـنـعـم

وكـم مـن فـتـى بـات فـى نـعـمـة   فـلـم يـدر بـالمـوت حـتـى هـجـم

" إذا وقفت على كتابى هذا ، فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روى زمين { أى ملك الملوك على وجه الأرض } تأمن شره ، وتنل خيره ، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزى الجزاء الأوفى ﴾ ، ولا تعوّق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بحريمهم إلى كروان سراى[٢٨] فإن كانوا فى الجبال نسفناها ، وإن كانوا فى الأرض خسفناها .

أيـن الـنـجـاة ولا مـنـاص لـهـارب   ولـىّ الـبـسـيـطـان الـثـرى والمـاء

ذلّت لـهـيـبـتـنـا الأسـود وأصـبـحـت   فـى قـبـضـتـى الأمـراء والـوزراء"

هذا النص الذى أوردناه كاملاً يكشف طرفًا من الحرب النفسية التى كان التتار يشنونها ضد أعدائهم من ناحية ، كما يكشف عن فداحة الخطر الذى كان على سيف الدين قطز أن يستعد لمواجهته من ناحية أخرى . كذلك فإن هجرة الكثيرين من أهل الشام إلى مصر – على ما تشير رسالة هولاكو – قد سبب رعبًا وقلقًا شديداً فى البلاد المصرية . لقد خاف الناس بدمشق خوفًا كثيراً عندما علموا أن التتر قد قطعوا نهر الفرات فى طريقهم إلى الشام وسار كثيرون منهم صوب مصر ، وكان الوقت شتاء فمات منهم عدد كبير ، ونهب البدو أمتعة كثيرين[٢٩] .

وأفاق الملك الناصر بعد فوات الأوان ، فأرسل المؤرخ والفقيه المعروف كمال الدين بن العديم إلى مصر يستنجد بعساكرها . وهكذا بدأت الحرب تطل بوجهها المرعب على الساحة السياسية فى مصر . وكان نجم تلك الساحة الساطع آنذاك هو الأمير " سيف الدين قطز " . فلما قدم

---

٢٧ – المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤١٥ / ص ٤١٦ .

٢٨ – كان هذا هو الإسم التترى لمصر ، وربما يكون السبب فى ذلك أن مصر كانت منتهى معظم الطرق التجارية العالمية شرقًا وغربًا . انظر :

المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤١٦ ، هامش رقم ٣ .

٢٩ – نفسه ، ص ٤١٦ .

ابن العديم إلى القاهرة عُقد مجلس بالقلعة حضره السلطان الصبى الملك المنصور نور الدين على ، وحضره كبار أهل الرأى من الفقهاء والقضاة مثل قاضى القضاة بدر الدن حسن السنجارى ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام وكان سيف الدين قطز بين الحاضرين . وسألهما الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لإنفاقها على الجنود فقال ابن عبد السلام : " إذا لم يبق شئ فى بيت المال ، وأنفقتم الحوائص الذهب ونحوها من الزينة ، وساويتم العامة فى الملابس سوى آلات الحرب ، ولم يبق للجندى إلاَّ فرسه التى يركبها ساغ أخذ شئ من أموال الناس فى دفع الأعداء ؛ إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم..."[٣٠].

كان العز بن عبد السلام فى هذا القول مثالاً للفقيه الذى يرضى الرعية والسلطان فى آن واحد ؛ إذ قال كلامًا يدغدغ مشاعر الرعية بيد أنه نسفه فى الجملة الأخيرة . وكان هذا الاجتماع من الأدوات السياسية التى أحسن سيف الدين قطز استغلالها للوصول إلى هدفه النهائى : عرش مصر وقتال التتار . وكان ذلك الاجتماع الذى عقد بحضور السلطان الصبى آخر خطوات قطز صوب العرش . فقد زال خطر المماليك البحرية مؤقتًا بعد هزيمتهم أمام جيش مصر بقيادة قطز عندما تحالفوا مع المغيث عمر لغزو مصر ، وتأكد هذا عندما طاردهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام حتى حصن الكرك وصحبته الملك المنصور صاحب حماة ، فأرسل الملك المغيث عمر بن العادل الكامل صاحب الكرك رُسُله إلى الناصر ومعهم عمته الدار القطبية ابنة الملك المفضل قطب الدين بن العادل . وتم الصلح على أساس أن يقبض المغيث على من عنده من المماليك البحرية ، وتم ذلك بالفعل وتسلمهم الملك الناصر ماعدا ركن الدين بيبرس الذى دخل خدمته كما أسلفنا القول[٣١] . وقد فرح الأمير سيف الدين قطز لذلك فرحًا زائداً " ... وزينت مصر لذلك أيامًا وصفا الوقت للأمير قطز ... "[٣٢] على حد تعبير المؤرخ جمال الدين أبى المحاسن بن تغرى بردى .

وبينما كان هولاكو يجتاح أقاليم العالم الإسلامى الشرقية ، كان نجم سيف الدين قطز يزداد سطوعًا وتزداد قامته السياسية طولاً وكأنه على موعد مع التاريخ لكى ينجز مهمته

---

٣٠ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤١٦ - ص ٤١٧ .

٣١ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٥٣ .

٣٢ - نفسه ، ص ٥٤ .

الكبرى فى هزيمة الجحافل التترية الظالمة . ويقول المؤرخون المعاصرون فى هذا الصدد إن قطز صار هو المشار إليه بديار مصر لصغر سن السلطان المنصور على ولكثرة أتباع سيف الدين قطز.

لقد استغل قطز اجتماع القلعة لخلع السلطان الصبى فأخذ يتحدث عن مساوئ المنصور على وقال " لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو ، والملك الصبى صغير لايعرف تدبير المملكة"(٣٣) . كانت تلك هى الفرصة التى انتظرها قطز طويلاً فى رحلته من " المملوك " إلى "السلطان " ، وساعده على ذلك أن مفاسد الملك المنصور على كانت قد زادت حتى انفض الجميع من حوله " ... واستهتر فى اللعب وتحكمت أمه فاضطربت الأمور ... " . وجاءت الفرصة تسعى إلى سيف الدين قطز عندما خرج أمراء المماليك المعزية والبحرية إلى الصيد ، فى منطقة العباسة بالشرقية وفى غزة ، وعلى رأسهم الأمير " سيف الدين بهادر " والأمير " علم الدين سنجر الغتمى " في يوم السبت ٢٤ ذى القعدة سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م . وقبض قطز على الملك المنصور وعلى أخيه قاقان وأمهما واعتقلهم فى أحد أبراج القلعة . فكانت مدة حكم المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام (٣٤).

هكذا اكتملت رحلة المملوك صوب العرش وصار سلطانًا على الديار المصرية . وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل فى نفس اليوم . واتفق الحاضرون على توليته " ... لأنه كبير البيت ونائب الملك وزعيم الجيش، وهو معروف بالشجاعة والفروسية ، ورضى به الأمراء الكبار والخوشداشية ، وأجلسوه على سرير الملك ولقبوه بالمظفر ... "(٣٥) ويعلق ابن تغرى بردى على ذلك بقوله :

" والملك المظفر قطز هذا هو أول مملوك خلع ابن استاذه من الملك وتسلطن عوضه ، ولم يقع ذلك قبله من أحد من الملوك . وتمت هذه السُّنة السيئة فى حاصد إلى يوم القيامة ، وبهذه الواقعة فسدت أحوال مصر"(٣٦).

---

٣٣ - بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، جـ٩ ، ص ٦٣ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية ، ص ٣٩ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤١٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٥٥ .

٣٤ - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤١٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧، ص ٥٥ . ويرى ابن تغرى بردى أن مدة حكم المنصور كانت سنتين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يومًا .

٣٥ - بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، جـ٩ ، ص ٦٣ .

٣٦ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٥٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد أوضح ابن تغرى بردى أن التنافس على العرش المملوكى لم يحترم مبدأ وراثة الحكم ، وإنما أرسى مبدأ " الحكم لمن غلب " ؛ ولكنه رصد أعراض المرض السياسى الذى أودى بدولة سلاطين المماليك فى نهاية الأمر دون أن ينجح فى تشخيص المرض نفسه . ومن ناحية أخرى ، كان ابن تغرى بردى يكتب فى الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك عندما تدهورت أحوال الدولة بسبب بذرة التنافس السياسى الدموى التى صاحبت قيام الدولة . لقد تمثل الداء الأساسى لدولة سلاطين المماليك فى أنها قامت على أساس القوة لا الشرعية . وصارت القوة هى الوسيلة المثلى للوثوب إلى العرش ، ولم يكن قطز هو المسئول عن هذا كما يزعم ابن تغرى بردى وإنما كانت التربية العسكرية للمماليك وظروف توليهم الحكم - بعد مصرع تورانشاه - هى السبب فى سيادة القوة . لقد كان كل من " شجر الدر " و " عز الدين أيبك " ضحية لسيادة مبدأ القوة ، وسار قطز على طريق الدماء صوب العرش . ولكنه اكتفى بعزل السلطان الصبى .

على أية حال ، لم يكن جلوس قطز على عرش السلطنة نهاية لرحلة المملوك إلى عرش السلطان . إذ كان على السلطان المظفر سيف الدين قطز أن يوطد دعائم حكمه فى الداخل قبل أن يتوجه للقاء عدوه فى الخارج . فبدأ بتغيير الوزير ابن بنت الأعز وولى بدلاً منه زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير . ثم كان عليه أن يواجه معارضة كبار الأمراء الذين " ... قدموا إلى قلعة الجبل ، وأنكروا ما كان من قبض قطز على الملك المنصور ، وتوثبه على الملك فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة مصر والشام ... "[٣٧] كان لابد للسلطان أن يميل مع الريح حتى لا تعصف به لاسيما وأنه كان لايزال على خوفه من تحرك الأيوبيين ببلاد الشام ضده وخوفه الشديد من الناصر يوسف صلاح الدين حاكم دمشق . وقال سيف الدين قطز فى سياق تبريره لما حدث " ... وإنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر . ولا يتأتى ذلك بغير ملك ؛ فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو ، فالأمر لكم . أقيموا فى السلطنة من شئتم ... "[٣٨] .

---

٣٧ - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤١٧ / ص ٤١٨ .

٣٨ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤١٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هكذا مرّت العاصفة الأولى على عرش السلطان بسلام ، وأخذ يرضى أمراء المماليك " حتى تمكن " على حد تعبير المقريزى . وما أن شعر أن سلطته قد رسخت حتى أخذ يتخلص من كل من يمكن أن يشكل تهديداً على عرشه . فأرسل المنصور على وأخاه وأمه إلى دمياط ، واعتقلهم فى برج بناه هناك وأطلق عليه اسم برج السلسلة ، ثم نفاهم جميعًا إلى القسطنطينية[٣٩] بعد ذلك قبض السلطان سيف الدين قطز على الأمير علم الدين سنجر الغتمى ، والأمير عز الدين أيدمر النجيبى الصغير ، والأمير شرف الدين قيران المعزى ، والأمير سيف الدين بهادر ، والأمير شمس الدين قرا سنقر ، والأمير عز الدين أيبك النجمى الصغير ، والأمير سيف الدين الدود خال الملك المنصور على بن المعز ، والطواشى شبل الدولة كافور لا لا[٤٠] الملك المنصور ، والطواشى حسام الدين بلال المغيثى الجمدار واعتقلهم . وهكذا تمكن من التخلص من رؤوس المعارضة .

ومن ناحية أخرى ، بدأ السلطان المظفر سيف الدين قطز يختار أركان دولته ويوطد دعائم حكمه ؛ فحلّف الأمراء والعسكر لنفسه . واستوزر الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع ، وأقرّ الأمير فارس الدين أقطاى الصغير الصالحى المعروف بالمستغرب أتابكًا . وفوض إليه وإلى الصاحب زين الدين تدبير العساكر واستخدام الأجناد ، وسائر أمور الجهاد والاستعداد للحرب ضد التتار .

لقد ضمن سيف الدين قطز هدوء الأحوال داخل دولته ؛ بيد أنه كان مايزال متوجسًا من ملوك الأيوبيين فى بلاد الشام خاصة الناصر يوسف صلاح الدين صاحب دمشق وحلب . وعندما علم بخبر قدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر بدمشق ، خاف من عاقبة ذلك وكتب إليه خطابًا رقيقًا يحاول فيه تجنب المواجهة . وأقسم قطز بالأيمان أنه لاينازع الملك الناصر فى الملك ولا يقاومه ، وأكد له أنه نائب عنه بديار مصر "ومتى حلّ بها أقعده على

---

٣٩ - يذكر بيبرس الدوادار (جـ٩،ص٦٣) أن المنصور على بن المعز وأخاه وأمه اعتقل مدة فى أيام المظفر قطز ، ثم اعتقلوا فى الأسكندرية أيام السلطان الظاهر بيبرس ، ومن هناك تم نفيهم إلى القسطنطينية . ويتفق معه فى هذه الرواية ابن تغرى بردى ، النجوم لزاهرة ، جـ٧ ، ص٥٥ . أما ابن أيبك الدواداري (الدرة الزكية،ص٣٩) فيذكر الروايتين دون أن يرجح أيًا منهما .

٤٠ - " لالا " لفظ فارسى معناه الشخص المكلف بالعناية بالأطفال . وكان هذا الطواشى هو المسئول عن تربية المنصور على فى طفولته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكرسى ... " وقال قطز أيضًا : " ... وإن اخترتنى خدمتك ، وإن اخترت قدمت ومن معى من العسكر نجدة لك على القادم عليك ، فإن كنت لا تأمن حضورى سيِّرت لك العساكر صحبة من تختاره ... "(٤١) وهكذا ، استطاع قطز أن يثبت الطمأنينة فى قلب خصمه اللدود . وكان عليه أن يتفرغ تمامًا لإنجاز مهمته التاريخية ضد التتار .

وهذا هو موضوع الفصل التالى ...

---

٤١ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

الخطـر التتـرى

أصل التتار – جنكيز خان وأولاده – الصدام مع العالم الإسلامى – سقوط الخلافة العباسية – التتار فى العراق وشمال الشام – وصول المماليك البحرية إلى مصر – رُسُل التتار فى القاهرة – الاستعداد للمعركة .

قبل حوالى نصف قرن من الزمان سبق أحداث قصتنا ، كان جنكيز خان[1] (ومعنى الإسم ملك ملوك العالم) قد نجح فى بناء إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت حدودها من شواطئ بلاد الصين شرقًا حتى منطقة البحر الأسود وبحر قزوين غربًا . وكان اسمه الحقيقى تيموجين . وبرز اسم هذا القائد المغولى للمرة الأولى حين قاتل التتار على رأس كتيبة جمعها من أرستقراطية الرعاة وانتصر عليهم ثم أعلن جنوده زعيمهم تيموجين خاقانًا ، وبذلك أحيا اسم أسرة المغول الذى كان قد اندثر فى منغوليا نفسها[2] .

وتطلق الوثائق الرسمية الصينية اسم يوان Yuan على المغول والشعوب التى اندمجت فيهم داخل الصين اسم المغول (المنغول) ، على حين أنهم عرفوا فى منغوليا نفسها باسم التتار . وقد بذل جنكيز خان جهداً كبيراً فى توحيد منغوليا وأفاد من بعض التجار المسلمين الذين استخدمهم فى بلاطه والذين كانوا أول معلمى المغول فى مضمار الحضارة [3]. وكانت ديانة

---

١ – اسمه الحقيقى تيموجين (أي الصلب الخالص) ، وتمكن فى بداية القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى أن يفرض زعامته على المغول بعد معارك وحروب طاحنة . وتحت قيادته تحول المغول إلى قوة رهيبة اكتسحت كافة المناطق ما بين بحر الصين شرقًا والبحر الأسود غربًا . وتوفى سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م تاركًا لأولاده مهمة متابعة غزو العالم . انظر :

Claude Cahen, " The Mongols and the Near East " , in Setton (ed.), A History of the Crusades, vol. II, pp. 615 - 716 .

٢ – فاسيلى فلاديميروفتش بارتولد ، تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ، (نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم ، الكويت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) ، ص٥٤٥ .

٣ – نفسه ، ص ٥٤٦ – ص ٥٥٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المغول خليطًا من عبادة الشمس والمسيحية والإسلام والبوذية - ويمكن القول إنهم تفرقوا بين كل الأديان باستثناء اليهودية . وكان التسامح الديني سائداً بينهم .

ومن الناحية العسكرية كانت جيوش جنكيز خان قد خرجت من موطنها بمناطق الاستبس بوسط آسيا ، وأخذت تجتاح البلاد القريبة حتى تمكنت من بناء إمبراطورية امتدت من كوريا إلى بولندا ، ومن تونكين إلى البحر المتوسط .

كان أول صدام بين المغول والعالم الإسلامي سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩م عندما أغاروا على بلاد السلطان " علاء الدين محمد بن خوارزم شاه تكش "[٤] وكان سبب الاحتكاك هو أن الحدود بين المملكتين قد صارت مشتركة . وكان طبيعيًا أن يهتم كل من جنكيز خان وعلاء الدين محمد بتأمين حدود دولته . وعلى الرغم من محاولات الموادعة والمسالمة بين الجانبين فإن أسباب النزاع الكامنة لم تلبث أن فرضت نفسها . فقد أمر السلطان باعتقال قافلة من التجار قادمة من بلاد الخان المغولي على أنهم جواسيس ، وكان عددهم أربعمائة وخمسين رجلاً كلهم من المسلمين فقتلوا جميعًا . واتسم رد الفعل من جانب جنكيز خان بضبط النفس فقد أرسل يطلب تسليم المسئول عن قتلهم . وعلى الجانب الآخر رفض علاء الدين محمد طلب جنكيز خان وزاد على ذلك بقتل الرسول الموفد من قبله ، وأهان رفيقيه بحلق لحية كل منهما ؛ وبذلك صارت الحرب واقعة لا محالة ، وكان لابد لجنكيز خان من قتال سلطان خوارزمشاه[٥].

وقد وصلت قوات جنكيز خان إلى بخارى في فبراير سنة ١٢٢٠م ، ثم دخلوها بعد ثلاثة أيام من الحصار ، وأجبر أهالي المدينة على مغادرتها دون أن يحملوا معهم شيئًا من متاعهم ، وكان القتل مصير من بقي بالمدينة [٦] ثم زحف المغول صوب سمرقند ، كبرى مدن ماوراء النهر ، التي أسلمت مصيرها للمغول بسرعة مماثلة لما حدث في بخارى[٧] . وقد انتهى ذلك النضال بهرب السلطان واختفائه في جزيرة نائية بعد أن قتل الجانب الأكبر من جيشه على يد المغول .

---

٤ - المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ص١٨٥ حيث يذكر أن بداية خروج التتار " من بلادهم الجوانية إلى بلاد العجم ... " كان سنة ٦١٣هـ . ثم يذكر في حوادث سنة ٦١٦ (ص ٢٠٥) أنباء إغارتهم على بلاد السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه .

٥ - بارتولد ، تركستان ، ص ٥٦٤ - ص ٥٧٠ وعن الاستعداد للمعركة وتفاصيلها انظر ص ٥٧١ - ص ٥٨٣ .

٦ - نفسه ، ص ٥٨٤ .

٧ - نفسه ، ص ٥٨٦ - ص ٥٨٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى يناير من عام ١٢٢١م بدأ حصار المغول لعاصمة خوارزم[٨] . كانت مقاومة هذا السلطان للمغول واهنة متخاذلة لدرجة أن الكثيرين نسوه ولم يذكروا سوى اسم ابنه وخليفته جلال الدين الذى استطاع أن يسترد من المغول بعض المناطق التى احتلوها أيام أبيه ، واستطاع أن يلحق بهم عدداً من الهزائم . وظلت الحرب سجالاً دون نتيجة حاسمة حتى مات جنكيز خان فى أغسطس ١٢٢٧م وهو فى سن الثانية والسبعين تاركًا لخلفائه إمبراطورية مترامية الأطراف تم فتحها بحد السيف .

فى تلك الأثناء كان الخلاف قد دبَّ بين السلطان جلال الدين خوارزم شاه والخليفة العباسى الناصر لدين الله ، وهاجم جلال الدين أراضى الخلافة العباسية . وفى الثانى من شهر شوال سنة ٦٢٢ هـ توفى الخليفة العباسى ؛ ولكنه كان قد ارتكب خطأ فاحشًا قبل وفاته ؛ إذ استعان بالمغول ضد السلطان خوارزم شاه . ومن ناحية أخرى ، كان جنكيز خان قد قسَّم إمبراطورية الشاسعة بين أبنائه الأربعة . وبعد هذا التاريخ بسنوات ثلاث كان المغول قد قضوا تمامًا على مملكة جلال الدين خوارزم شاه الذى اختفى هربًا من سيوفهم [٩] .

كان سقوط هذه المملكة نذير شؤم بالنسبة للخلافة العباسية ، وأرسل الخليفة العباسى المستنصر بالله يستنجد بملوك الأيوبيين فى مصر والشام، كما بعث يطلب النجدة من القبائل العربية . بيد أن الظروف التاريخية السائدة فى المنطقة العربية كانت تبدو مواتية تمامًا للطموح المغولى؛ فالخلافة العباسية أشبه بالرجل المريض الراقد على ضفاف الرافدين ، كما أن سلاجقة فارس والعراق قد صاروا جزءاً من التاريخ ولم يعد لهم وجود حقيقى ، أما دولة سلاجقة الروم فكانت متاعبها الداخلية أكبر من قدراتها . كذلك فإن الأيوبيين الصغار فى بلاد الشام كانوا على حال من التشرذم والأنانية السياسية تمنعهم من أى جهد حقيقى . وتبقى دولة سلاطين المماليك التى كانت تعانى مشكلات الشرعية السياسية ، وانتقال السطة ، وترتيب الأوضاع فى الداخل واتقاء الأخطار القادمة من الخارج . وكانت المواجهة مع المغول بمثابة الاختبار الحاسم لقدرات هذه الدولة الوليدة [١٠].

---

٨ - نفسه ، ويذكر المؤرخ النسوى (صاحب كتاب تاريخ السلطان جلال الدين منكوبرتى) أنه عند وفاة السلطان علاء الدين محمد لم يكن هناك ما يكفى لشراء كفن له ، وأن أحد أتباعه كفَّنه بقميصه . راجع : بارتولد ، تركستان ، ص ٦٠٤ .

٩ - ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ٤ (تحقيق د. حسنين ربيع ، دار الكتب ١٩٧٢) ص ٣١٤ - ٣٢٩ وقد ذكر أنهم قتلوا السلطان جلال الدين .

١٠ - Claude Cahen, " The Mangols and the Near East " , pp . 717 - 718 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن ناحية أخرى ، كانت الجيوش المغولية أداة عسكرية ضخمة بالمقارنة مع الجيوش الصغيرة التى يمتلكها حكام المنطقة العربية وكان طبيعيًا أن تطوى بلدان المشرق الإسلامى في سرعة هائلة . ويرجع السر فى تفوق المغول إلى سرعتهم وقدرتهم على شن الهجمات الخاطفة ، وتطور فنون القتال والأسلحة فضلاً عن تنظيم الجيش نفسه[١١] .

على أية حال ، كانت الأحوال ماتزال تتدهور فى الخلافة العباسية . ومرة أخرى أرسل الخليفة يستنجد بالأيوبيين وكان المغول قد هاجموا بغداد للمرة الأولى سنة ٦٣٥ هـ ، ولكن الهزيمة لحقت بهم وهاهم الآن يعاودون المحاولة . ففى سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م اجتمع مجلس رؤساء التتر (القوريلاى) في عاصمتهم (قراقورم) ، وانتخبوا منكوخان بن تولاى بن جنكيز خان ليكون هو الخان الأعظم . وفى السنة التالية أرسل منكوخان حملتين ؛ إحداهما توجهت إلى الصين ، والأخرى توجهت غربًا صوب الأراضى الإسلامية . وكانت هذه الحملة تهدف إلى تحقيق هدفين رئيسيين : القضاء على معاقل طائفة الشيعة الإسماعيلية ، وتدمير الخلافة العباسية فى بغداد .

وتولى هولاكو قيادة الحملة الثانية وسار بنفسه حتى وصل إلى ديار بكر وميافارقين حيث ارتكب المغول مذابح مهولة راح ضحيتها آلاف السكان، وتركوا وراءهم من قصص الرعب والفزع ما جعل المعاصرين يصورونهم فى صورة وحش أسطورى لايمكن قهره . وهنا لابد أن نتابع القصة من بدايتها ؛ ففى فبراير سنة ٦٥٤ هـ كان هولاكو قد دخل بقواته إلى أراضى فارس حيث قضى على قلاع الشيعة الإسماعيلية وأخذ يمهد للقضاء على الخلافة العباسية . وتشير بعض المصادر العربية إلى أنه أرسل عدداً من جواسيسه إلى بغداد حيث عقد أتفاقًا سريًا مع الوزير ابن العلقمى وغيره من الأمراء " ... والخليفة فى لهوه لا يعبأ بشئ ..."[١٢]، ويقول ابن أيبك الدوادارى " ... فيها دخل هلاوون سلطان التتار إلى بغداد فى زى تاجر عجمى ، ومعه ماية حمل حرير واجتمع بالوزير مؤيد الدين ، ضد لقبه ، وبابن الدرسوس نديم الخليفة ، وأكابر الدولة . وكانوا قادرين على مسكه . ولكنهم خانوا الله ورسوله ودين الإسلام ، قاتلهم الله ، ثم خرج بعدما أتفق عمله معهم..." أما المؤرخ تقى الدين المقريزى فيذكر أن هولاكو أرسل جواسيسه فقط إلى الوزير ولم يدخل بغداد بنفسه .

---

١١ - العبادى ، قيام دولة المماليك ، ص ١٤٦ - ص ١٤٧ .

١٢ - ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الذكية ، ص ٢٩ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١، ص ٤٠٠ .

وفى السنة التالية (٦٥٥هـ) قصد هولاكو بغداد وبعث يطلب الضيافة من الخليفة " ... فكثر الإرجاف ببغداد ، وخرج الناس منها إلى الأقطار . ونزل هولاكو تجاه دار الخلافة ، وملك ظاهر بغداد ، وقتل من الناس عالمًا كبيراً ... "(١٣) ثم جاءت الصدمة العظمى فى العام التالى ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م عندما تزلزل العالم الإسلامى بسقوط الخلافة العباسية . فى أول شهر صفر من هذه السنة أمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد . وفى اليوم الرابع من الهجوم استسلم الخليفة العباسى المستعصم بالله ، وسلّم عاصمته للغزاة بدون شرط . وبعد التسليم بعشرة أيام قُتل الخليفة وآل بيته ، " ... وقتل الناس ببغداد ، وتمزقوا فى الأقطار ، وخرّب التتر الجوامع والمساجد والمشاهد . وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات ، واستمروا على ذلك أربعين يومًا ... "(١٤) . هكذا ظلت بغداد الجريحة نهبًا لكل الرغبات الوحشية والتدميرية على مدى هذه الأيام وصارت بعدها أطلالاً تشهد على عنف المغول الذى أحرقوا مبانى بغداد الجميلة ودمروا مكتبتها العامرة . وكانت تلك هى المرة الأولى التى تقع فيها عاصمة الخلافة أسيرة لغير المسلمين (١٥).

كان وقع الصدمة على نفوس المسلمين مريراً وعنيفًا ؛ لأنهم وجدوا أنفسهم بدون خليفة للمرة الأولى فى تاريخهم . وعلى الرغم من كل مظاهر الضعف التى بدت واضحة على الخلافة العباسية فإن مكانتها كانت راسخة فى وجدان المعاصرين بالقدر الذى جعلهم عاجزين عن تصور العالم بدونها . إذ كان العالم ، فى نظرهم ، مرادفًا للخلافة ، وخُيِّل للمسلمين " ... أن العالم على وشك الإنحلال وأن الساعة آتية عن قريب ... " .

أخذ الزحف المغولى يطوى البلاد حتى وصل إلى أطراف بلاد الشام . وفى تلك الأثناء كان أمراء الأيوبيين فى الشام فريسة للعجز والذعر . وسارع الناصر يوسف حاكم دمشق وحلب إلى إرسال سفارة برئاسة ابنه إلى هولاكو معلنًا خضوعه الذى حاول أن يؤكده بالهدايا والتحف الفاخرة، كما طلب مساعدة المغول فى أخذ مصر من أيدى المماليك . ولكن قائد المغول غضب

---

١٣ - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤٠٧ - ص ٤٠٨ .

١٤ - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤٠٩ - ص ٤١٠ .

١٥ - بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، جـ٩ ، ص ٥٨ - ص ٦١ ؛ ابن أيبك الدواداري ، الدُّرة الزكية ، ص ٣٤ - ص ٣٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٤٨ - ص ٥٣ .

من السفارة التى اعتبرها غير لائقة بمقامه[١٦] وطلب من الناصر يوسف الخضوع دونما قيد أو شرط . وعندما أدرك الناصر أنه خسر احترام المسلمين بعث برسالة عنيفة ملؤها السباب إلى هولاكو الذى جعله يدفع ثمن السباب غاليًا عندما اقتحم أملاكه .

واستنجد بالمماليك ، ووعده قطز (الذى كان قد اغتلى عرش السلطنة آنذاك) بأن يساعده[١٧] . وفى شهر صفر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م استولى هولاكو على حلب بعد سبعة أيام من الهول والتخريب وسفك الدماء[١٨] . وأعلن بعض ملوك الأيوبيين خضوعهم لهولاكو فى محاولة لتجنب الخراب الذى حلّ بمدينة حلب . أما الناصر يوسف فقد اضطرب وعزم على لقاء هولاكو ، وضرب معسكره ببرزة « قرية شمال دمشق » وطلب النجدة من الملك المغيث عمر صاحب إمارة الكرك ، والسلطان المظفر قطز ، بيد أن الناصر يوسف قد استسلم للخوف ، كما تخاذل الأمراء من حوله بشكل أغضب الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى (الذى كان قد دخل فى خدمة الناصر) فقد أخذ الأمير زين الدين الحافظى يُعظّم شأن هولاكو ويشير بألا يُقاتل ويُدارى بالدخول فى طاعته . فصاح به بيبرس وسبّه وضربه وقال : " أنت سبب هلاك المسلمين " . وفى الليل حاولت مجموعة من المماليك اغتيال الناصر يوسف ولكنه نجا من الموت . ثم توجه بيبرس إلى غزة ، ومن هناك أرسل يطلب الأمان من سيف الدين قطز الذى حلف له " ... ووعده الوعود الجميلة " . ووصل إلى مصر فعلاً ، فأنزله الملك المظفر سيف الدين قطز بدار الوزارة ، وأحسن معاملته ، ثم أقطعه قليوب ومناطق الريف المجاورة لها[١٩] . أما الناصر فقد سار باتجاه الحدود المصرية حتى غزة على أمل أن تصله النجدة فى وقت مناسب . وفى شهر ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م استولى المغول على دمشق وتوسل

---

١٦ - قاسم ، الأيوبيون والمماليك ، ص ١٣٦ .

١٧ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤١٩ .

١٨ - ابن أيبك ، كنز الدرر ، جـ٨ ، ص ٥٦ - ص ٥٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤٢٢ - ص ٤٢٣ ؛

M.Mustafa Ziada, " The Mamluk Sultans " , in Setton (ed.), A History of the Crusades , Vol . II , pp . 744 - 745 ;

العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٥٦ - ص ١٥٨ ؛ قاسم ، الأيوبيون والمماليك ، ص ١٣٦ - ص ١٣٧ .

١٩ - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤١٩ ، ص ٤٢٠ .

أعيانها إلى هولاكو بعد أن قرروا تسليم المدينة " ... فسير طائفة من التتر وأوصاهم بأهل دمشق ، ونهاهم أن يأخذوا لأحد درهمًا فما فوقه... "[٢٠].

وبينما كانت هذه الأحداث العنيفة تلهب المشهد فى المنطقة العربية ، مات " منكوخان " كبير المغول وكان لابد لهولاكو من العودة إلى بلاده للمشاركة فى اختيار الخان الأعظم الجديد. وعندما تم اختيار أخيه "قوبيلاى " تقبل الأمر ببساطة ولكنه لم يرجع إلى قيادة جيشه الذى تركه ببلاد الشام تحت قيادة قائد تترى مسيحى ، على المذهب النسطورى ، هو كتبغا نوين[٢١] . وعلى الجانب الآخر كانت قوات الناصر يوسف الأيوبى المرابطة بالقرب من غزة قد آثرت الانضمام إلى الجيش المصرى بقيادة المظفر سيف الدين قطز ، سلطان الديار المصرية . وهرب الناصر فى قلة من أتباعه بحثًا عن ملجأ يحميه بعد أن خسر جيشه وعرشه[٢٢]. وعلم القائد المغولى بمكان الملك الناصر يوسف ؛ فأرسل مجموعة من فرسانه لتقبض على الملك الشريد ، وأخذ أسيراً إلى هولاكو ومعه ولده الملك العزيز وأخوه غازى[٢٣] .

فى تلك الأثناء كان السلطان سيف الدين قطز قد رجع إلى قلعة الجبل ليواصل التصفيات ضد خصومه السياسيين ؛ فقبض على الأمير جمال الدين موسى بن يغمور واعتقله بقلعة الجبل . كما أنه صادر ممتلكات كل من وفد إلى القاهرة من حاشية الملك الناصر يوسف " .. وألزم زوجة الناصر بإحضار ماعندها من الجواهر ، فأخذ منها جوهراً كثيراً ... "[٢٤] ثم وصلت رسل هولاكو إلى القاهرة ومعهم خطاب منه يفيض غطرسة تقول كلماته :

---

٢٠ - نفسه ، جـ ١ ، ص ٤٢٣ ، ص ٤٢٤ .

٢١ - كان هولاكو يتصور أنه سوف يُعين خاقانًا للمغول بسبب أهمية فتوحاته وغزواته . ولكنه علم وهو فى تبريز ، التى حلت محل بغداد آنذاك وصارت مقر الحكم المغولى للعراق ، أن الاختيار وقع على أخيه قوبيلاى . وأن أمراء مغول الشرق قاموا بهذا الاختيار خلافًا لقواعد الحكم التى قررها جنكيز خان ؛ بيد أن هولاكو تقبل النتيجة فى هدوء احترامًا لأخيه . انظر :

أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٥٥ - ص ١٥٦ .

٢٢ - Ziada , op . Cit. p . 745 .

٢٣ - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤٢٧ . ويقول المقريزى إن الذى قبض على الملك الناصر شخص من غلمانه يعرف بحسين الكردى الطبردار .

٢٤ - نفسه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

" بسم إله السماء الواجب حقه ، الذى ملكنا أرضه وسلطنا علي خلقه، الذى يعلم به الملك المظفر صاحب مصر وأعمالها ، وسائر أمرائها وجندها وكتابها وعمالها ، وباديها وحاضرها ، وأكابرها وأصاغرها ، إنا جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حلّ به غيظه ، فلكم بجميع الأمصار معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء ، ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى ، فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا بالطلب ، فأى أرض تأويكم ، وأى بلاد تحميكم ، وأى ذلك ترى ، ولنا الماء والثرى ، فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من أيدينا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسيوفنا صواعق ، ورماحنا خوارق ، وسهامنا لواحق ، وقلوبنا كالجبال ، وعديدنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والجيوش لقتالنا لا تنفع ، ودعاكم علينا لا يسمع ، لأنكم أكلتم الحرام ، وتعاظمتم عن ردّ السلام، وخنتم الأيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ بما كنتم تعملون . ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ . وقد ثبت أن نحن الكفرة وأنتم الفجرة ، وقد سلطنا عليكم من بيده الأمور المدبرة ، والأحكام المقدرة ، فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم لدينا ذليل ، وبغير المذلة ما لدنياكم علينا من سبيل . فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا رد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وتورى شرارها ، فلا تجدون منا جاهًا ولاعزاً ، ولا كتابًا ولا حرزاً ، إذ أزتكم رماحنا أزاً . وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية ، وعلى عروشها خاوية ، فقد أنصفناكم ، إذ أرسلنا إليكم، ومننا برسلنا عليكم ، ثم كتب :

ألا قل لمصر ها هلاوون قد أتــــى بحــــــد سيوف تنتضى وبـــواتر

يصيرُ عـــزيز القـــوم فيهـا أذلــة ونلحق أطفالاً لهم بالأكابر "[٢٥]

---

٢٥ - ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية ، ص ٤٧ - ص ٤٨ . وقد أورد المقريزى (السلوك ، جـ١ ، ص ٤٢٧ - ص ٤٢٨) نصًا يبدأ على النحو التالى "من ملك الملوك شرقًا وغربًا القان الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا ... " ثم ذكر مضمونًا قريبًا من مضمون النص الذى أوردناه فى المتن . وقد أورد القلقشندى (صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٨ ، ص ٦٣ - ص ٦٤) نصًا ثالثًا يتطابق مع نص المقريزى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جمع قطز الأمراء وشاورهم فى الأمر ، فاتفقوا على قتل الرسل المغول. وتم فعلاً القبض على الرسل واعتقلوا . وبدأ السلطان فى تحليف الأمراء الذين أختارهم . وأمر بأن يخرج الجيش إلى الصالحية (فى محافظة الشرقية حاليًا) . ولكن الأمراء كانوا يخشون لقاء المغول بعد أن سمعوا عن الأهوال والمذابح التى ارتكبوها ، وبعد أن شاعت حولهم حكايات وأخبار تقترب من الخرافات والأساطير . ثم أحضر السلطان قطز رُسُل التتر ، وكانوا أربعة أفراد[٢٦] . فتم توسيط أحدهم بسوق الخيل تحت قلعة الجبل ، ووَسِّط آخر بظاهر باب زويلة ووسط الثالث ظاهر باب النصر ، ووسط الرابع بالريدانية[٢٧] وعُلِّقت رؤوسهم على باب زويلة . وأبقى الملك المظفر قطز على صبى من الرسل وجعله من جملة مماليكه .

كان هذا التصرف من جانب سيف الدين قطز إعلان حرب ، " ... ونودى فى القاهرة وسائر إقليم مصر بالخروج إلى الجهاد فى سبيل الله ، ونصرة لدين رسول الله ﷺ ... "[٢٨] ويبدو أن الخوف من المغول كان بمثابة القيد الذى أقعد عدداً من الأمراء والجنود عن الخروج لملاقاة العدو. وهناك نص أورده تقى الدين المقريزى يؤكد هذا الاحتمال تقول كلماته[٢٩] :

" ... وتقدم الملك المظفر لسائر الولاة بإزعاج الأجناد للخروج للسفر، ومن وُجد منهم قد اختفى يُضرب بالمقارع . وسار حتى نزل الصالحية ، وتكامل عنده العسكر ، فطلب الأمراء وتكلم معهم فى الرحيل ، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل ، فقال لهم : يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون من بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين . فتكلم الأمراء الذين تخيرهم وحلّفهم فى موافقته على السير ، فلم يسع البقية إلا الموافقة وانفض الجمع .... " .

---

٢٦ - يذكر ابن أيبك الدواداري أنهم " كانوا نيف وأربعين نفراً " ، انظر : الدرة الزكية ، ص ٤٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤٢٩ .

٢٧ - التوسيط وسيلة من وسائل الإعدام فى عصر سلاطين المماليك تتم عن طريق ضرب الشخص بالسيف عند الوسط لقطعه نصفين .

٢٨ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٢٩ .

٢٩ - نفسه ، ص ٤٢٩ - ص ٤٣٠ .

هكذا ، كان الخوف من التتر قد جعل مهمة سيف الدين قطز أكثر صعوبة ، لأن بعض الأمراء رأوا أن لا فائدة من محاربة العدو الرهيب وأرادوا النكوص على أعقابهم . وكان لخطبته الحماسية وإصراره على القتال أثره الواضح في رفع الروح المعنوية لجنوده .

وفي الليل ركب السلطان وحرّك كوساته وقال : " أنا ألقى التتار بنفسي " . فلما رأى الأمراء مسير السلطان وعزمه على الحرب خرجوا وهم في حال من التردد[٣٠] وخرج قطز بجيشه في رمضان سنة ٦٥٨هـ/ أغسطس ١٢٦٠م ، وصحبته الملك المنصور صاحب حماة . وترك نائبًا عنه في مصر الأتابك فارس الدين أقطاي المستعرب . وكان قد أرسل إلى المنصور صاحب حماة ، وهو مايزال بالصالحية من الأراضي المصرية ، رسالة يقول : " لا تحتفل في مد سماط بل كل واحد من أصحابك يفطر علي قطعة لحم في صولقه "[٣١] . وأمر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري أن يقود عساكره ليكونوا مقدمة الجيش إلى غزة لكي يعرف أخبار التتر . وعندما وصل بيبرس إلى غزة لقي طلائع المغول واستطاع أن يلحق بهم هزيمة غير حاسمة ، بيد أنها كانت كافية لدفعهم إلى الرحيل من غزة ؛ وهكذا سيطرت قوات بيبرس على غزة .

في الوقت نفسه وصلت قوات الجيش الرئيسي إلى غزة بقيادة السلطان المظفر سيف الدين قطز ، ولكنه لم يمكث سوى يومًا واحداً ، ثم رحل عن طريق الساحل على مدينة عكا التي كانت ماتزال تحت سيطرة الصليبيين . ويذكر المقريزي[٣٢] أن الفرنج خرجوا إليه بالهدايا

---

٣٠ – يقول ابن تغري بردي " فلما اجتمعت العساكر الإسلامية بالديار المصرية ألقى الله تعالى في قلب الملك المظفر قطز الخروج لقتالهم بعد أن كانت القلوب قد أيست من النصرة على التتار وأجمعوا على حفظ مصر لا غير، لكثرة عددهم واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين وأنهم ما قصدوا إقليمًا إلا فتحوه ، ولا عسكراً إلا هزموه ، ولم يبق خارج حكمهم في الجانب الشرقي إلا الديار المصرية والحجاز واليمن ، وهرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر إلى الغرب ، وهرب جماعة من الناس إلى اليمن والحجاز . والباقون بقوا في وَجَل وخوف شديد يتوقعون دخول العدو وأخذ البلاد ... " انظر :

النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٧٨ .

٣١ – ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٧٨ . والصولق (الجمع صوالق) مخلاة من الجلد كان الجنود يضعونها في الجهة اليمنى من أحزمتهم بحيث يضعون فيها طعامهم الخفيف وقت الحرب .

٣٢ – السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأرادوا أن يرسلوا معه قوات لمساعدته " ... فشكرهم وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه ، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر " . ويذكر المؤرخ ستيفن رنسمان أن بارونات عكا الصليبيين اجتمعوا لمناقشة الموقف وأنهم كانوا يشعرون بالمرارة بسبب نهب المغول لصيدا ، كما أنهم كانوا يخشون هذه القوات الشرقية ذات السجل الحافل بالمذابح الجماعية. ومن ناحية أخرى ، كانت الحضارة الإسلامية مألوفة لديهم ، ولذا كانت غالبيتهم تفضل المسلمين على التتار ؛ بعكس المسيحيين المحليين الذين عاملهم المغول معاملة ودية . ويؤكد ماذكره المقريزى من أنهم عرضوا على السلطان قطز إمداده بقوات مساعدة ، ولكنه يذكر أن مقدم الفرسان التيوتون المدعو آنو السانجرهاوزن Anno of Sangerhausen حذرهم من التمادى فى الثقة بالمسلمين إلى هذا الحد ، لاسيما إذا ما انتصروا وشعروا بقوتهم . ومن ثم استبعدت فكرة التحالف العسكرى ، وقدموا للسلطان وعداً بحرية المرور وتقديم التسهيلات اللازمة [٣٣].

فى الوقت نفسه أخذ الأمير ركن الدين بيبرس يناوش قوات المغول ويراوغها حتى يخفى تحركات الجيش الرئيسى . ثم انضمت قوات الجيش الرئيسى إلى القوة الاستطلاعية التى كان يقودها بيبرس عند عين جالوت على أرض الشام .

من ناحية أخرى ، كان كتبغا وبيدرا نائبا هولاكو فى قيادة قوات الجيش المغولى قد جمعا شراذم القوات المغولية التى كانت قد تفرقت ببلاد الشام فى جيش موحد لمحاربة قوات سيف الدين قطز . وكان كتبغا نوين بالبقاع فى لبنان الحالى ، فاستدعى الملك الأشرف موسى ابن المنصور صاحب حمص ، وقاضى القضاة محيى الدين واستشارهم فى ذلك ؛ فمنهم من أشار بعدم الالتحام بقوات السلطان سيف الدين قطز حتى يجئ المدد من هولاكو ، ومنهم من أشار بغير ذلك[٣٤] ولكن قائد المغول قرر التقدم بجيشه لقتال المسلمين . وكان جيش سيف الدين قطز قد تكاثر بمن انضم إليه من جنود الشام والخوارزمية ؛ فضلا عن أعداد كبيرة من المتطوعين الذين خرجوا من مصر وسائر بلاد المنطقة العربية للجهاد فى سبيل الله .

وهكذا ، باتت القوات الإسلامية والقوات المغولية على وشك الصدام. وتم فعلاً الصدام على أرض عين جالوت فى السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م .

وهذا هو موضوع الفصل التالى .

---

٣٣ - Steven Runciman, A History of the Crusades, (Harper Torch books, New York , 1967) , vol . III , pp . 311 - 312 .

٣٤- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٧٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

معركــة عين جالــوت

الموقف عشية المعركة - المعركة ونتائجها - ما بعد عين جالوت - السلطان المظفر سيف الدين قطز في بلاد الشام .

كانت معركة " عين جالوت " ، التى جرت يوم السادس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ/ ٣ سبتمبر ١٢٦٠م ، واحدة من المعارك الفاصلة فى تاريخ المنطقة العربية بأسرها من ناحية، كما كانت بمثابة تأكيد الوجود العسكرى والسياسى لدولة سلاطين المماليك من ناحية أخرى . وإذا كانت معركة المنصورة ، قبل عشر سنوات ، بمثابة صرخة الميلاد التى أعلنت عن قيام دولة سلاطين المماليك ، فإن معركة عين جالوت كانت شهادة الميلاد الرسمية لهذه الدولة .

فقد كانت غاية ما يهدف إليه أمراء المماليك الذين تولوا قيادة الجيش المصرى أن يدفعوا خطر المغول بعيداً عن حدود دولتهم ؛ بيد أن تداعيات الحرب جعلت الجنود المصريين والشوام ، الذين صحبتهم أعداد هائلة من المتطوعين ، يستأصلون شأفة جيش المغول من بلاد الشام أيضًا . وقد أثبتت هذه المعركة أن الأمن المصرى يبدأ فى بلاد الشام عامة، وفى فلسطين على نحو خاص . وهو أمر تؤكده التجارب التى مرت على المنطقة طوال تاريخها . وكانت النتيجة النهائية لهذه المعركة الحاسمة توحيد مصر وبلاد الشام تحت حكم سلاطين المماليك على مدى مايزيد على مائتين وسبعين سنة .

كانت معركة عين جالوت واحدة من أكثر المعارك حسمًا فى التاريخ . صحيح أنه بسبب الأحداث التى حدثت على بعد أربعة آلاف ميل من ميدان المعركة كان الجيش المغولى أضعف من أن يستطيع إخضاع المماليك . ذلك أن هولاكو اضطر إلى أن يأخذ قسمًا كبيراً من جيشه عندما علم بموت أخيه الخان الأعظم منجو خان رحل مسرعًا صوب العاصمة قراقورم ليحضر اجتماع القورلتاى (أى مجمع زعماء التتار) ، ثم توقف فى تيريز من بلاد فارس عندما علم باختيار أخيه قوبيلاى في منصب الخان الأعظم ، على نحو ما ذكرنا من قبل . لكن الحقيقة أن انتصار عين جالوت أنقذ العالم الإسلامى من خطر فادح لم يواجه مثله من قبل . ذلك أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المغول إذا استولوا على مصر لم تكن هناك دولة إسلامية كبيرة أخرى يمكن أن تواجههم . حقيقة أن المسلمين فى آسيا كانوا من الكثرة بحيث لم يكن ممكنًا أن يقضى المغول عليهم ؛ بيد أنهم لم يعودوا هم الحكام فى تلك المناطق . وعلى الرغم من أن المؤرخين الأوربيين ومنهم ستيفن رنسمان[١] يسرفون فى تصوير ماكان سيحدث من تعاطف مغولى مع المسيحيين " لو " انتصر المغول بقيادة كتبغا نوين المسيحى النسطورى ، فإن التاريخ لايعرف الاحتمالات ، ولا يستخدم "لو " ، لأن مهمة المؤرخ أن يحكى ماحدث بالفعل .

وما حدث بالفعل هو أن معركة عين جالوت أسفرت عن هزيمة ساحقة للمغول من ناحية ، ومن ناحية أخرى جعلت سلطنة المماليك فى مصر وبلاد الشام القوة الرئيسية فى المنطقة على مدى القرنين التاليين على الأقل ؛ أى حتى ظهور الإمبراطورية العثمانية فى القرن الخامس عشر الميلادى . وربما يكون من المناسب هنا أن نشير إلى أننا نرى أن الخطر المغولى على العالم الإسلامى لم يكن بمثل فداحة الخطر الصليبى عليه . حقيقة أن المغول قد زلزلوا أركان العالم الإسلامى بعنفهم المدمر ؛ ولكنهم لم يلبثوا أن ذابوا فى خضم الحضارة العربية الإسلامية . بل إنهم صاروا بعد جيلين من المساهمين فى بناء هذه الحضارة والحفاظ عليها . وكان خطرهم آنيًا مؤقتًا يكمن فى تفوقهم العسكرى الذى جعلهم يطوون البلاد بسرعة عجيبة . أما فرنج الغرب « الصليبيون » فكان لديهم مشروع لا يتحقق سوى بالقضاء على الوجود الحضارى للمسلمين، والعرب (مسلمين وغير مسلمين) . كما أن العنف المدمر لم يكن ينقصهم . وكانت الحروب الصليبية فى جوهرها حروبًا استيطانية توسعية تحت راية الصليب ؛ ومن ثم كانت صراعًا بين الحضارة العربية الإسلامية صاحبة الأرض والحق ، والحضارة الأوربية الكاثوليكية التى قامت بعدوانها على أرض تبعد ألف ومائتى ميل عن مركز الدعوة الصليبية . ولم يحدث من قبل ، أو من بعد ، أن توحدت أوربا فى مشروع واحد مثلما توحدت تحت راية المشروع الصليبى . كذلك كان الصراع صراع وجود على الأرض العربية على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط ، وكان لابد لهذا الصراع أن يسفر عن بقاء أحد الطرفين ، وتدمير الآخر . إذ كان الصليبيون يتحركون بدافع من أيديولوجية عنصرية تنكر حق الوجود على الآخرين ، كما وجهوا اهتمامهم صوب تفريغ المناطق السكانية من أصحابها الأصليين لتوطين عناصر بديلة غريبة جاءت من أنحاء أوربا ؛ وهو ما تقوم به العصبة الصهيونية فى فلسطين حاليًا .

---

١ - Steven Runciman, op . cit , pp. 313 - 314 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أية حال ، جاءت معركة عين جالوت يوم الجمعة بعد طلوع الشمس " ... وفى قلوب المسلمين وهم عظيم من التتر ... " [٢].

وعين جالوت إسم لبلدة صغيرة فى الريف الفلسطينى تقع بين بيسان ونابلس . واسمها يرتبط بالأسطورة التى تقول إن داود قتل جالوت فى هذا المكان . وقد أسماها الفرنج بعد احتلالهم فلسطين طوبانيا Tubanéa [٣]. وفى صباح يوم المعركة امتلأ الوادى بالجنود والناس الذين كانوا قد توافدوا متطوعين أو للقيام بالخدمات التى يحتاجها الجنود عادة ، وهو أمر كان شائعًا فى تلك العصور التى لم تعرف جيوشها أسلحة الخدمات التى تعرفها الجيوش الحديثة . وكَثُر صياح أهل القرى من الفلاحين .

ثم بدأت الكوسات والطبول تدق لتجميع قوات جيش المماليك ، وهى الموسيقى العسكرية التى تحمل أوامر يفهمها الجنود ، واتخذ جيش المغول موقعه صوب الجبل على حين كان جيش المسلمين بقيادة سيف الدين قطز ، سلطان الديار المصرية ، فى الوادى .

ويرى بعض المؤرخين العسكريين أن " التجهيز القتالى لقرار قطز الذى اتخذه قبل المعركة ، والذى يتلخص فى أن يزحف بجيوشه بواسطة مقدمة الجيش ، وليس كما كان كالمعتاد بواسطة جواسيس أو طلائع محددة ، حينما أرسل بيبرس على رأس مقدمة الجيش لاستطلاع قوات التتار ودراسة مواقعهم وقواتهم وأسلحتهم وقيادتهم وخططهم كان هو الشئ الجديد فى ذلك الزمن الذى لم يشاهد من قبل فى حروب العرب السابقة ، وهو التطبيق التكتيكى السليم؛ إذ يعنى ذلك دراسة العدو للوصول إلى أفضل أسلوب لتدميره بأقل خسائر ممكنة وهو الأسلوب الجديد ، حيث كان كل أمراء المدن العربية يكتفون بتقوية الحصون عندما تصلهم تهديدات التتار ويؤثرون السلامة فى الدفاع من وراء الأسوار . أما قطز ، قائد الجيش المملوكى ، فقد كشفت خطته عن فهمه الجيد لفنون القتال كما سبق مما تقدم ، والتى حقق بها بيبرس أول مرحلة قتالية من الخطة الاستراتيجية بتدمير الحرس الأمامى للمغول فى غزة ، وذلك قبل موقعة عين جالوت بقيادة « بيدرا » واسترد منهم غزة وطاردهم حتى نهر العاصى" [٤] .

---

٢ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٠ - ص ٤٣١ .

٣ - Encyclopaedia of Islam, Art . Ain Djalut ;

العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٦٤ .

٤ - عميد أ.ح محمود نديم أحمد فهيم ، الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣) ، ص ١٤٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما علم كتبغا نوين ، قائد الجيش المغولى ، بهزيمة بيدرا قائد المقدمة ، تحول إلى كتلة متحركة من الغضب اللاهب . وأقبل بدافع الانتقام من جيش المماليك معتمداً على شهرة جنوده وفكرة الجيش المغولى الذى لا يُهزم . ويمكن أن نستدل من أحداث المعركة [٥] على مدى الوعى فى التجهيز القتالى بكل عناصره ، وكيف طبق الجيش المصرى المبادئ الحربية السليمة حتى تحقق له النصر . فقد تجمع الجيش المصرى عند مدينة عكا حيث عقد السلطان سيف الدين قطز مؤتمراً حربيًا حضره رؤساء الفرق العسكرية لعرض خطة قرار المعركة . وهو أحدث ما وصل إليه الفن الحربى تكتيكيًا واستراتيجيا حيث يعرض القائد قراره على جنوده وضباطه ويستمع إلى آرائهم ويلقن كلاً منهم المهمة العسكرية المنوطة به .

ولم ينس السلطان قطز أن يلهب حماسة جنوده بخطبته التى أوردنا جزءاً منها فى الفصل السابق [٦]، وهذا ما يعرف فى عرف العسكريين بالتجهيز المعنوى للقتال .

وربما يكون مفيداً أن نورد وصفًا تفصيليًا للمعركة حسب شهادات المعاصرين وشهود العيان ، ثم نستكمل العرض التحليلى لمعركة عين جالوت من وجهة نظر العسكريين المعاصرين . وهنا نعرض لرواية " صارم الدين أزبك بن عبد الله الأشرفى " الذى كان أسيراً لدى المغول عندما غزا هولاكو بلاد الشام ، ثم قبل الخدمة فى صفوف جيش المغول وحارب ضمن صفوف هذا الجيش فى معركة عين جالوت ؛ ففى هذا النص الهام رواية للمعركة من وجهة نظر المغول سنقابلها برواية من وجهة نظر المسلمين . تقول رواية صارم الدين أزبك[٧] " ... ولما قدمت الشام ، وجدت التتار مجتمعين على نهر الأردن وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية ، وقد خرج المسلمون للقائهم فلما علمت أن التتار لابد لهم من الديار المصرية ، بعثت غلامًا لى فى

---

٥ - سوف نعتمد فى هذا الجزء على التحليل العسكرى للمرحوم عميد أركان حرب محمود نديم باعتباره مؤرخًا عسكريًا عارفًا . انظر المرجع السابق ص ١٤٠ - ص ١٤٨ .

٦ - انظر : المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٢٩ - ص ٤٣٠ .

٧ - كان صارم الدين أزبك من مماليك الأشرف موسى حاكم حمص ، وعمل ى وظائف الإدارة ببلاد الشام فترة من الزمن ، كما عاش فترة من حياته ببلاد المغول . وقد مكنه ذلك من أن يقدم معلومات دقيقة عن المغول وعاداتهم أملاها على موظف مملوكى آخر هو قرطاى العزى الخازندارى (ت٧٣٤هـ) وقد أورده ابن أيبك الدوادارى فى كتاب " كنز الدرر وجامع الغرر " ، جـ ٨ ، ص ٥٣ - ص ٥٤ .

انظر أيضًا : أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٦٤ - ص ١٦٥ .

صفة جاسوس وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز ، والأمير بيبرس البندقداري وبلبان الرشيدى وسنقر الرومى ، ويعرفهم أن التتار لاشئ فلا تخافوا منهم ، وأن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال ، وعرِّفهم أن التتار فى عسكر قليل . وأوصيته أن يراعى المسلمون أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس . فلما وصل غلامى إلى عسكر المسلمين وجدهم خائفين من التتار خوفًا عظيمًا، فاجتمع ببعض الأمراء الذين عرفته بهم ، وعرَّفهم ما أوصيتهم به . وكنت قلت فى كلامى : قل للأمراء لا تخافوا ، ها أنا وأصحابى والملك الأشرف ، ننهزم بين أيديكم ، والله وكذلك كان . فلما سمع الأمراء كلام غلامى ، قال بعضهم لبعض : " لا يكون هذا معمولية على المسلمين " . فلما كان ملتقى الجمعين على " عين جالوت " ، طلعت الشمس علينا ، وظلت عساكر الإسلام ، كان أول سنجق سبق أحمر وأبيض ، وكانوا لابسين العدد المليحة ، وأشرقت الشمس على تلك العدد ، فطلبنى كتبغا وقد بُهت هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم وجمالهم وهم ينحدرون من الجبل ، وقال لى "ياصارم هذا رُنْك من ؟ "[٨] قلت : سنقر الرومى " ، ثم ظهرت سناجق صفر، قال " هذا رنك من ؟ " قلت " بلبان الرشيدى " ثم تتابعت الأطلاب أولاً فأولاً وانحدروا من سفح الجبل ، ودقت الكوسات والطبلخانات وامتلأ الوادى والبر من العياط . وجاءت الفلاحين وأهل القرى والبلدان من كل جانب وكنت غِراً لا أعرف رنوك المسلمين ، فصار كتبغا يسألنى " هذا رنك من ؟ " فصرت أى شئ طلع على لسانى قلته . ثم إن التتار انحازوا إلى الجبل ، وفتح الله ونصر هذه الملة المحمدية بالمماليك الترك البحرية ، ولم يسلم من التتر من يرد الخبر إلى هلاوون ، ولكن قتل الجميع ، ولم يرد خبرهم إلا من كان مقيمًا بدمشق أو حلب " .

هذه الرواية من الجانب المغولى تقابلها رواية من الجانب الإسلامى أوجزها تقى الدين المقريزى على النحو التالى [٩]:

---

٨ - "رُنْك " كلمة فارسية معناها "لون" ، واستخدمت فى تلك الفترة بمعنى "الشعار " أو الرمز الدال على الأمير أو الأسرة أو الوظيفة . وفى دولة سلاطين المماليك كان لكل أمير رُنْك خاص به يدل على وظيفته ، وكان أمراء المماليك يرسمون هذه الرنوك على أبواب بيوتهم ، ومطابخ السكر الخاضعة لهم ، وشون الغلال والمراكب ... وما إلى ذلك ، كما كانوا يضعون رنوكهم على قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص ، أو على قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة ، وربما تقشوه على أسلحتهم وأسلحة مماليكهم .

انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٦١ - ص ٦٢ .

٩ - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤٣٠ - ص ٤٣١ .

" ... وقد امتلأ الوادى ، وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب الكوسات للسلطان والأمراء ؛ فتحيز التتر إلى الجبل . فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان ، وانتقض طرف منه ؛ فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض ، وصرخ بأعلى صوته : " وا إسلاماه " وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فأيده الله بنصره وقُتل كتبغا مقدم التتر ، وقُتل بعده الملك السعيد حسن بن عبد العزيز وكان مع التتر ، وانهزم باقيهم ، ومنح الله ظهورهم للمسلمين يقتلون ويأسرون ، وأبلى الأمير بيبرس أيضًا بلاء حسنًا بين يدى السلطان " .

" ومما اتفق فى هذه الواقعة ، أن الصبى الذى أبقاه السلطان من رسل التتر وأضافه إلى مماليكه ، كان راكبًا وراءه حال اللقاء . فلما التحم القتال فوّق سهمه نحو السلطان ، فبصر به بعض من كان حوله فأُمسك وقتل مكانه وقيل بل رمى الصبى السلطان بسهمه فلم يخطئ فرسه وصرعه على الأرض ، وصار السلطان على قدميه فنزل " فخر الدين ماما " وأركبه فرسه ، حتى حضرت الجنائب (أى الخيول الاحتياطية) فركب فخر الدين منها " .

" ومرّ العسكر فى أثر التتر إلى قريب بيسان فرجع التتر وصافوا مصافًا ثانيًا أعظم من الأول ، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم . وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعه معظم العسكر وهو يقول : " وا إسلاماه " ثلاث مرات " يا الله ، انصر عبدك قطز على التتار " . فلما انكسر التتار الكسرة الثانية ، نزل السلطان عن فرسه ، ومرّغ وجهه على الأرض وقبلها ، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ثم ركب ، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالغنائم"(١٠).

هكذا ، اقتضى الأمر أن يخوض المصريون معركتين عند عين جالوت وبيسان لكى يجهزوا على القوات المغولية ، وعلى الرغم من شدة القتال فى الحالين فإن النصر حالف الجيش المسلم لأن الإعداد لهذه المعركة كان جيداً . ولقد طبقت القوات المصرية مبدأ المفاجأة على المستوى الاستراتيجى بنقل ميدان المعركة خارج الأرض المصرية ، وتكتيكيًا بإخفاء القوات الرئيسية

---

١٠ - قارن هذه الرواية بروايات كل من :

ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٤٩ - ص ٥٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٧٨ - ص ٨١ ؛ بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، جـ٩ ، ص ٦٩ - ص ٧٠ .

فى التلال والأحراش القريبة من عين جالوت . ولم يظهر للعدو إلا المقدمة التى قادها بيبرس ووقع كتبغانوين فى الفخ لأنه هاجم بكل قواته ضد قوات ركن الدين بيبرس الذى كان يقود طليعة جيش المماليك فقط ، ولم يحتفظ القائد المغولى بأية احتياطيات مما ساهم فى التعقيدات العسكرية التى أدت إلى هزيمته [١١].

لقد هاجم كتبغا ميسرة الجيش المصرى بحيث تمكن جنوده المغول من تشتيت القوات المقاتلة فى هذا الجانب ، ولكن شجاعة السلطان سيف الدين قطز وثباته على رأس جنوده أنقذت الموقف ؛ إذ جعل صيحة الحرب التى أطلقها بنفسه " وا إسلاماه " ، وسرعان ما انقض بجنوده على الجيش المغولى الذى ارتد مذعوراً ، وفرّ الجنود المغول إلى التلال المجاورة بحثًا عن ملاذ يحميهم بعد أن شاهدوا قائدهم كتبغا نوين يسقط صريعًا فى أرض المعركة ، وبعد أن تمكنت قوات المماليك من أسر ابنه[١٢].

كانت تلك هى المرحلة الأولى من الحرب ضد المغول ، وكانت نتائج تلك المعركة حاسمة على المدى البعيد ، ولكن المعركة العسكرية كانت بحاجة إلى أن تحسم ضد فلول المغول الذين ما لبثوا أن تجمعوا عند "بيسان " القريبة من " عين جالوت " ، ثم اشتبك الجيشان فى معركة أشد وطأة من الأولى حسبما تذكر المصادر التاريخية العربية [١٣]ولقى المغول هزيمة كاملة هذه المرة .

كانت تلك هى المرة الأولى التى يلقى فيها المغول هزيمة بهذه الفداحة وبهذا الحجم . وكان من أهم نتائج معركة عين جالوت أن تبدد الخوف منهم ، وتلاشت الأسطورة القائلة بأنهم قوة لايمكن هزيمتها . ومن ناحية أخرى ، تغيرت موازين القوى السياسية والعسكرية فى المنطقة العربية بشكل كامل ، وعلى مدى عدة قرون قادمة . فقد ذابت فى طيات الموجات المغولية القوة السياسية والعسكرية للخلافة العباسية من ناحية الشرق ، كما اختفت التيجان الأيوبية الصغيرة ببلاد الشام فى خضم الصراع ضد المغول . أما أكثر النتائج السياسية والعسكرية أهمية على الإطلاق ، فقد تجسدت فى ظهور دولة سلاطين المماليك ، وريثًا شرعيًا لكل من الأيوبيين والعباسيين على السواء . فبعد عين جالوت مباشرة ، استولى السلطان الملك المظفر

---

١١ - محمود نديم ، الفن الحربى ، ص ١٤١ .

١٢ - أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص ٢٠٧ ؛ انظر : العبادى ، قيام دولة المماليك ، ص ١٦٦ ؛ محمود نديم ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ . وكان الذى قتل كتبغانوين قائد المغول هو الأمير جمال الدين آقوش الشمسى . انظر : ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٧٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سيف الدين قطز على بلاد الشام كلها "...من الفرات إلى حد مصر ... "[١٤] وكان قطز هو "... أول من ملك البلاد الشامية واستناب بها من ملوك الترك ... "[١٥] وهكذا ، توطدت أركان دولة سلاطين المماليك باعتبارها القوة الإقليمية الكبرى فى المنطقة العربية ، كما تم توحيد مصر والشام تحت حكمها فى خضم الصراع ضد المغول . ذلك أن انتصار الجيش المملوكى فى عين جالوت أنهى المقاومة الأيوبية لحكم سلاطين المماليك إلى الأبد ، كذلك فإن السلطان الظاهر بيبرس البندقدرى أعاد إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة مما جعل هذه المدينة العاصمة السياسية والعسكرية والثقافية للعالم العربى على ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان .

كان انتصار المسلمين بقيادة سيف الدين قطز فى " عين جالوت " بمثابة المسمار الأخير فى نعش الوجود المغولى ببلاد الشام من ناحية ، كما كان نذير شؤم بالنسبة للوجود الصليبى فى هذه البلاد من ناحية أخرى [١٦].

لقد وصل خبر هزيمة المغول إلى دمشق يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م . وبدأ النواب والولاة الذين كان التتار قد عينوهم لحكم بلاد الشام فى الفرار خوفًا من بطش الناس " ... ففر الزين الحافظى ونواب التتار من دمشق وتبعهم أصحابهم ، فامتدت إليهم أيدى أهالى الضياع ونهبوهم ، فكانت مدة استيلاء التتر على دمشق سبعة أشهر ، وعشرة أيام "[١٧] .

---

١٣ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣١ .

١٤ - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤٣٣ ؛ بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، جـ٩ ، ص ٧٠ .

١٥ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٨٣ .

١٦ - تولت دولة سلاطين المماليك ، منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس - خليفة قطز - حتى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاون ، مهمة القضاء على الكيان الصليبى فى فلطسين وكان الاستيلاء على عكا سنة ١٢٩١م هو الحدث الأخير فى هذا السبيل .

انظر : قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٣م) ، ص ١٦٨ - ص ١٦٩ .

١٧ - المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٢ .

فى نفس هذا اليوم نزل السلطان سيف الدين قطز بجيشه على طبرية، وكتب رسالة يبشر الناس فى دمشق بالنصر الذى حققه المسلمون على المغول وهزيمتهم أمام بسالة جيشه " ... وهو أول كتاب ورد منه إلى دمشق ... " ولدينا نص نقله القلقشندى(١٨) ، ربما كان من إنشاء القاضى الفاضل ، جاء فيه :

" .... أما النصر الذى شهد الضرب بصحته ، والطعن بنصيحته ، فهو أن التتر خذلهم الله تعالى ، استطالوا على الأيام ، وخاضوا بلاد الشام ، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام :

سعى الطمع المردى بهم لحتوفهم ومن يسكن ذيل المطامع يعطب

فأقلعت بهم طرائق الضلال ، وسارت مراكب أمانيهم فى بحار الآمال، فتلك آمال خائبة ، ومراكب للظنون عاطبة ... هذا وعساكر المسلمين مستوطنة فى مواطنها ، جاذبة عقبانها فى وكور ظباها ، رابضة آسادها فى غيل أقناها ، ماتزلزل لمؤمن قدم إلاّ وقدم إيمانه راسخه ، ولا ثبتت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة ناسخة ، ولا عقدت برجمة ناقوس إلاّ وحلّها الآذان ، ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن .

ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار ، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين ، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل ، وصار اليوم كأمس ، ونُسخت آية الليل بسورة الشمس ، واكتحلت الأعين بمرور السُّبات ، وخاف كل من المسلمين إصدار الأبيات :

ينـــام بإحـــدى مقلتيه ويتقى بأخرى الأعادى ، فهو يقظان نائم

إلى أن تراءت العين بالعين ، واضطرم نار الحرب بين الفريقين ، فلم ترْ إلاّ ضربًا يجعل البرق نضواً ، ويترك فى بطن كل من المشركين شلواً ... وقتل من المشركين كل جبار عنيد ، ذلك بما قدمت أيديهم ﴿ وما ربك بظلاّم للعبيد ﴾ .

هذا الكتاب الذى يحمل بشارة النصر على المغول كان له وقع إيجابى شديد على الناس فى بلاد الشام . فقد سُرُّوا به سروراً كبيراً . وترجموا سرورهم إلى مجموعة أعمال انتقامية ضد نصارى بلاد الشام لأنهم "...فى مدة استيلاء التتر هموا مراراً بالثورة على المسلمين وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم ، وأعلنوا بضرب الناقوس وركبوا الصليب ، وشربوا الخمر

---

١٨ - صبح الأعشى ، جـ ٧ ، ص ٢٦٠ - ص ٢٦٢ .

فى الطرقات ورشوه على المسلمين ... "[١٩] وامتدت أيدى الانتقام إلى اليهود فنهب أهل دمشق ممتلكاتهم . وباتت الفوضى تهدد الحياة فى بلاد الشام لولا أن بادر الجنود بمنعهم . ثم وصل الأمير جمال الدين المحمدى الصالحى بمرسوم السلطان قطز فى نهار اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان بتأمين الناس وتوطينهم وبذلك هدأت الأحوال فى دمشق التى صارت من أملاك سيف الدين قطز .

وفى يوم الأربعاء آخر شهر رمضان من تلك السنة وصل السلطان المظفر سيف الدين قطز إلى ضواحى دمشق حيث عسكر هناك حتى ثانى شوال ، فدخل دمشق وأقام بقلعتها[٢٠] .

وهكذا ، استولى المظفر قطز فى غضون عدة أيام على عاصمة الشام واستتب الأمن والنظام بسرعة . وفى غضون أسابيع قليلة تمكن من الاستيلاء على سائر بلاد الشام حيث أقيمت له الخطبة فى مساجد المدن الكبرى حتى حلب ومدن الفرات فى أعالى بلاد الشام[٢١] ويحكى ابن أيبك الدواداري[٢٢] نقلا عن القاضى عز الدين بن شداد أن الملك المظفر قطز ، عندما ملك دمشق كان عازمًا على التوجه إلى حلب ليكشف أحوالها ويصلح ما خرب منها على أيدى التتار " ... فوشى إليه واش أن الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى مع جماعة من الأمراء البحرية متنكرين له ومتغيرين عليه ، فضرب وجهه إلي ناحية الديار المصرية..." .

علي أية حال فإن السلطان سيف الدين قطز أخذ يعمل علي إعادة الأمن إلي نصابه فى جميع مدن بلاد الشام . ويبدو أنه لم يكن مطمئنًا تمامًا إلى أنه قد أمسك بزمام الأمور السياسية فى يديه ؛ فعمل على ترتيب أحوال الشام بسرعة حتى يتمكن من العودة إلى مصر. فأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام . وجعل نائبه فى دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبى ومعه الأمير أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الأزكشى الكردى[٢٣] .

---

١٩ - ابن ايبك الدوادارى ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٥٢ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤٣٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٨١ ، وقد طالت هذه المذابح شراذم التتار الذين وجدهم الناس بالشام، كما راح ضحيتها أولئك النفر من المسلمين الذين كانوا يساعدون التتار أثناء فترة احتلالهم للمدينة .

٢٠ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٢ .

٢١ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٨٢ - ص ٨٣ .

٢٢ - ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٦٠ .

٢٣ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن مفارقات التاريخ فى تلك الفترة أن السلطان المظفر سيف الدين قطز أعاد ملوك الأيوبيين أصحاب العروش الصغيرة إلى عروشهم ملوكًا تابعين لسلطان مصر المملوكى بعد أن كانوا يحاولون محاولات مستميتة عزل سلاطين المماليك . فقد بعث إليه الأشرف موسى ، حاكم حمص ، والذى كان هولاكو قد عينه نائبًا له فى حكمها وفى بلاد الشام، يطلب الأمان فاستجاب قطز وأمنّه وأقره على عرشه . كذلك بعث بالملك المظفر علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ ، صاحب سنجار ، ليكون نائبًا للسلطان فى مدينة حلب ، ووزع الإقطاعات فى المناطق الريفية المحيطة بحلب على الأمراء الموالين له . كذلك قام سيف الدين قطز ببعض التعديلات الإدارية البسيطة فى بلاد الشام ؛ فأقر الملك المنصور على حماة وبارين ، وأعاد له المعرة التى كانت بيد حكام حلب منذ سنة ٦٣٥هـ . ومن ناحية أخرى ، أخذ منه سلمية وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب . وعين الأمير شمس الدين آقوش البرلى العزيزى أميراً بالساحل وغزة ومعه عدد من أمراء العزيزية . وكان هذا الأمير قد فارق الناصر يوسف ، صاحب دمشق وحلب ، وانضم إلى قوات السلطان قطز فى القاهرة ، ثم خرج فى جيش السلطان وحارب معه فى عين جالوت [٢٤].

هكذا قام السلطان قطز بترتيب حكم الشام ، وأعاد إلى ربوعها الأمن والاستقرار الذى كان مفقوداً منذ غزاها المغول . وفى تلك الأثناء كان الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى يطارد شراذم المغول فى أعالى بلاد الشام حتى لحق بهم فى حمص ، وطلب المغول الفرار بحياتهم و"...ألقوا ماكان معهم من متاع وغيره ، وأطلقوا الأسرى وعرجوا نحو طريق الساحل فتخطف المسلمون منهم وقتلوا خلقًا كثيراً وأسروا أكثر ، فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كتبغا عظم عليه ، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك ورحل من يومه ... "[٢٥] .

وفى اليوم السادس والعشرين من شهر شوال توجه السلطان سيف الدين قطز بجيشه الظافر صوب مصر ، وبينما كانت القاهرة تتزين لاستقبال القائد المنتصر كان القدر يخبئ له مصيراً مأساويًا على يد أبرز قادة جيشه وغريمه الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى .

---

٢٤ - نفسه . والمماليك العزيزية ، ومنهم شمس الدين آقوش ، هم مماليك الملك المعز محمد صاحب حلب ، وبعد وفاته انتقلوا إلى خدمة ابنه الناصر يوسف . وقد غير هذا الأمير ولاءه عدة مرات حتى أعتقله الناصر يوسف بقلعة عجلون ، ثم أطلق سراحه عندما غزا التتار بلاد الشام . فلجأ البرلى وأصحابه إلى مصر حيث أكرم قطز وفادتهم .

راجع : أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ٢١٥ - ص ٢١٦ ؛ العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٧١ .

٢٥ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٤ .

الفصل السادس

نهـايـــة بطـــــل

الاستعداد للعودة إلى مصر - بداية المتاعب - مقتل السلطان سيف الدين قطز - الأسباب والنتائج - ملاحظات ختامية .

بينما كان السلطان المظفر سيف الدين قطز يستعد للعودة إلى مصر ، التى أعدت زينتها لاستقبال البطل المنتصر بما يليق وما حققته جيوشه من انتصارات باهرة ضد عدوٍ مخيف ، تطورت الأحداث بالشكل الذى جعل السلطان قطز يلقى حتفه قبل أن يرى الزينات التى أعدها رعاياه لاستقباله .

كان السلطان قد رتب الأمور فى بلاد الشام ، وعين النواب والولاة والشادين ، ثم خرج من دمشق عائداً إلى مصر . وكان قد قرر التوجه إلى حلب ولكن بعض الوشاة أبلغوه أن الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى وجماعة من الأمراء البحرية قد تنكروا له وأنهم يضمرون شراً[١] .

ثم خرج المظفر قطز من دمشق عائداً إلى مصر حتى وصل إلى بلدة القصير[٢] . وبقى السلطان بهذه البلدة مع عدد من خواصه على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية بإقليم الشرقية فى مصر . وهناك أقيم الدهليز السلطانى (الخيمة السلطانية) . وفى الوقت نفسه بلغت مسامع الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى أنباء عن أن السلطان قطز يضمر له السوء؛ فبالغ فى الحرص والحذر . وبات الغريمان يتربص كل منهما بالآخر . ولكن بيبرس البندقدارى ، بما عرف عنه من جسارة ودهاء بادر إلى العمل ضد السلطان " ... وحدث بيبرس جماعة من الأمراء فى قتل السلطان : منهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، والأمير سيف الدين بهادر المعزى ، والأمير بكتوت الجوكندار المعزى والأمير بيدغان الركنى، والأمير بلبان

---

١ - ابن أيبك الدوادارى . كنز الدُرر ، جـ٨ ، ص ٦٠ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٨٢ .

٢ - هى اليوم قرية الجعافرة إحدى قرى مركز فاقوس بمحافظة الشرقية فى مصر. انظر : هامش رقم ١ ، جـ ٧ ، ص ٨٣ من النجوم الزاهرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهاروني ، والأمير بدر الدين أنس الأصبهاني "[٣] وأخذ أولئك الأمراء يتحينون الفرص لقتله إلى أن وصل إلى القصير " ... وقالوا متى فاتتنا هذه المنزلة وصل إلى القلعة ، وأعجزنا مرامه ، ولم نأمن انتقامه ... " [٤] .

هكذا ، عقد المتآمرون العزم على قتل السلطان سيف الدين قطز وحرمانه من التمتع بثمار النصر الكبير الذي أحرزه على جحافل المغول . وقد تنوعت روايات المؤرخين المعاصرين حول الأسباب التي أدت إلى هذا الموقف من جانب ركن الدين بيبرس البندقداري ورفاقه ، ويحسن بنا أن نحاول مناقشة هذه الأسباب :

يقول ابن أيبك الدواداري [٥] : " وحكى لي والدي - رحمه الله - عن مخدومه الأمير سيف الدين بلبان الدوادار الرومي ، قال : إن يوم المصاف هربت جماعة من الأمراء من خشداشية الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري . فلما انتصر الإسلام ، تنمر عليهم السلطان المظفر ، ووبخهم ، وشتمهم ، وتوعدهم . فاضمروا له السوء ، وحصلت الوحشة منذ ذلك اليوم . ولم تزل الحقايد والضغائن تتراءى في صفحات الوجوه وغمزات العيون ، وكل منهم يترقب من صاحبه الفرصة ... " .

أما المؤرخ تقي الدين المقريزي[٦] فيقول إن سبب ذلك أن الأمير ركن الدين بيبرس طلب من السلطان المظفر قطز أن يوليه نيابة حلب ، فلم يرض فأضمرها في نفسه " ... ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ... " .

أما بيبرس الدوادار ، وهو أقربهم إلى الأحداث فيقول[٧] :"...وذلك أنه { قطز } رحل من دمشق عائداً إلى الديار المصرية وفي نفوس البحرية منه ومن أستاذه ما فيها لقتلهما الفارس أقطاي ، واستبدادهما بالملك وإلجائهم إلى الهرب والهجاج ، والتنقل في الفجاج ، إلى غير ذلك من أنواع الهوان التي قاسوها ، والمشقات التي لبسوها . وإنما انحازوا إليه لما تعذر عليهم المقام بالشام ، والتناصر على صيانة الإسلام ، لا لأنهم أخلصوا له الولاء ، أو رضوا له الاستيلاء .

---

٣ - المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ص ٤٣٥ .
٤ - بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، جـ٩ ، ص ٧٣ .
٥ - كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٦٠ .
٦ - السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٤ .
٧ - زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، جـ٩ ، ص ٧٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هى"

هذه هى الأسباب الرئيسية الثلاثة التى ساقها مؤرخو عصر سلاطين المماليك[٨] ، وربما اختلفت تفاصيل الروايات قليلاً أو كثيراً . والراجح عندى أن السبب الذى ساقه المؤرخ بيبرس الدوادار هو الأقرب إلى منطق الأمور ومفاهيم ذلك العصر .

فربما تكون رواية ابن أيبك الدوادارى عن هروب بعض الأمراء من خشداشية بيبرس (أى زملائه) صحيحة ، ولكن استقراء أحداث المعركة وما حدث أثناءها من تفكك قسم من الجيش المصرى تحت وطأة الهجوم المغولى تجعل مثل هذا الهروب أمراً مفهومًا . ومن ناحية أخرى، فإن عودة أولئك الأمراء إلى ميدان القتال كانت كفيلة بأن تهدئ من نفس السلطان المزهو بانتصاره . ومع التسليم بأن السلطان قد وبخ أولئك الأمراء وشتمهم وتوعدهم ، فإن رجلاً فى مثل شخصية ركن الدين بيبرس لا يقبل على قتل السلطان لمثل هذا السبب .

أما نيابة حلب ، التى كان السلطان كان قد وعد بها بيبرس ثم أعطاها لغيره ، فإنها أيضًا لايمكن أن تكون السبب الأساسى فى مصرع السلطان على هذا النحو المأساوى . وربما تكون هذه الحكاية من مظاهر العلاقة السيئة بين الغريمين ، بيد أنها لم تكن فى تصورى سبب سوء هذه العلاقة . فحلب ذات موقع استراتيجى هام فى شمال الشام ، وتتحكم فى طرق التجارة وممرات الجيوش . وفى هذا الصدد ينبغى أن نتذكر أن محور الموصل / حلب تحت قيادة آل زنكى هو الذى نجح فى استرداد الرها من الصليبيين فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى . ومن ثم ، فربما يكون بيبرس قد طلبها لتكون نقطة إنطلاق لتحقيق طموحاته السياسية ، وربما يكون قطز قد أدرك هذا فضّن بها عليه .

يبقى السبب الثالث الذى تحدث عنه بيبرس الدوادار . وفى تصورى أنه السبب الرئيسى لما حدث . فقد كان سيف الدين قطز أكبر مماليك السلطان عز الدين أيبك وكان من أهم الذين شاركوا فى قتل الأمير فارس الدين أقطاى ومطاردة المماليك البحرية من خشداشيته . كما أن البحرية عاشوا سنوات منفيين فى بلاد الشام ، ولم يمر عليهم الوقت دون مشكلات وحروب

---

٨ - يقول ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ،جـ٧، ص٨٢) إن السلطان المظفر قطز كان قد وعد ركن الدين بيبرس بنيابة حلب " .فلما انتصر على التتار انثنى عزمه عن إعطائه حلب ، وولاها لعلاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحل الموصل ..." .

وسجن ومطاردات ساهم فى بعضها سيف الدين قطز بشكل مباشر أو غير مباشر . ومن المهم هنا أن نتذكر أن رابطة الخشداشية ، التى كانت تجمع بين المماليك ، كانت رابطة قوية للغاية . ومن ثم فإن بيبرس ورفاقه من المماليك البحرية كانوا يحملون رغبة الثأر لزميلهم أقطاى من ناحية ، ولزملائهم الآخرين الذين قتلوا على يد قطز، أو بسببه ، من ناحية أخرى ، فضلاً عما نالهم من الهوان والمذلة فى منفاهم من ناحية ثالثة .

ومن المهم أن نتذكر أيضًا أن الدم كان الطريق إلى عرش سلطنة المماليك منذ البداية ؛ فقد اعتلت شجر الدر العرش بعد اغتيال تورانشاه آخر سلاطين الأيوبيين فى مصر . كما أنها هى وزوجها عز الدين أيبك لقيا حتفهما بسبب الصراع على السلطة . وبسبب طبيعة الحكم العسكرى فى دولة سلاطين المماليك ، وتطبيقًا لمبدأ « الحكم لمن غلب » الذى قام عليه البناء السياسي لهذه الدولة ، كان طبيعيًا أن يفكر الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى فى إزاحة السلطان سيف الدين قطز من طريقه صوب عرش سلطنة المماليك . والراجح عندى أن بيبرس ظن أنه أحق بالعرش من قطز لاسيما وأنه صاحب دور كبير فى هزيمة الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع قبل عشر سنوات فى المنصورة ، كما أنه لعب دوراً كبيراً فى هزيمة المغول فى عين جالوت ، كما أنه كان أول من يلحق بهم هزيمة عندما دمر طليعة الجيش المغولى، ثم طارد فلوله المنسحبة حتى أعالى بلاد الشام . لقد كان بيبرس ابن عصره وكانت تلك هى الأفكار السياسية السائدة آنذاك .

ولا يجب أن يظن أحد أن هذا دفاع عن بيبرس ؛ فالتاريخ لايجب أن يفسر على أساس من أحكام القيمة ، وإنما يجب دائمًا أن نبحث فى طيات أحداثه عن العلاقة السببية التى تربط بين هذه الأحداث . كما أننا لا ينبغى أن نحاكم عصراً تاريخيًا ما بناءً على مفاهيمنا السياسية أو نظامنا القيمى والأخلاقى ، لأن ذلك العصر التاريخى الذى نتناوله فى هذه الدراسة لم يكن يحمل مثل هذه المفاهيم ، ولم تكن تصرفات الناس فيه محكومة بمثل هذا النظام القيمى والأخلاقى .

ولايعنى هذا ، من ناحية أخرى ، أننا نقول إن السلطان سيف الدين قطز كان يستحق هذا الغدر والاغتيال . فالرجل بطل من أبطال تاريخ المسلمين . وعلى الرغم من قصر المدة التى قضاها على عرش السلطنة ، فقد استطاع أن يحفر لنفسه مكانة فى تاريخ أمته عجز الكثيرون ، ممن قضوا سنوات طويلة فى الحكم ، أن يحققوا لأنفسهم أى قدر منها . بل إن كثيرين من الحكام كانت سنوات حكمهم المديدة فراغًا فى تاريخ أمتهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولنتابع الآن قصة النهاية لبطل عين جالوت ...

ولنقرأ القصة كما ترويها المصادر التاريخية . يقول بيبرس الدوادار ، صاحب كتاب " زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة " :

" ... واتفق أنه { أى السلطان سيف الدين قطز } انفرد عن المواكب لتصيد الأرانب ، وساق خلف أرنب عرض له وهم يرمقونه ، فلما رأوه قد بعد عن الأطلاب ساقوا فى أثره ركضًا، وجاءوا يتلوا بعضهم بعضًا ؛ فتقدم إليه أنص الأصبهانى كأنه يشفع عنده فى إصلاح حال الركن البندقدارى لأنه قام فى خدمته مدة ولم تعين له ، وخرج إلى الغزاة برمحه، وبذل فيها غاية نصحه ، فأجابه المظفر إلى سؤاله ، ووعده بإصلاح حاله ، فأهوى إلى يده كأنه يقبلها فأمسكها ، فضبطها ضبطًا شديداً ، وعلاه الأمير ركن الدين البندقدارى بسيفه . ثم اجتمعوا على من يملك ، وأعرضوا ذلك على الأمراء ، فاستعف كل منهم واستقال ، واحجم عن الموافقة وسماع المقال . فعند ذلك تقدم الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب وقال : من هو قتل المظفر بسيفه ؟ فقالوا الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ؛ فقال هو أحق بالملك وأولي . فوافقه الأمراء على ذلك ، وأجلسوا المشار إليه "[٩].

ويقدم لنا ابن أيبك الدوادارى رواية ثانية تختلف تفاصيلها ؛ إذ يقول:

«وذلك لما وصل السلطان المرحوم الشهيد ، سيف الدنيا والدين ، قطز إلى منزلة القصير ثار قدامه أرنب ، فساق عليه ، وأرماه ، وتبعوه الأمراء المذكورين . وسبق الأمير عز الدين أنس إلى الأرنب وحصلها ، فأعجب السلطان منه ذلك ، كون هذا الأمير سبق إلى صيده ، وترجل عن فرسه وحصله . فقال له : " إسأل ما تريد يا بيك إذا دخلنا مصر " فقال : "ياخوند، الجارية التى أخذها السلطان من سبى التتار ". فقال : " نعم، وعليَّ جهازها " . فباس الأرض، وتقدم ليقبل يد السلطان فمسك قايم سيفه مع يده . وكانت هذه هى الإشارة بينهم فبادره بكتوت الجوكندار ، وضربه على عاتقه حله ، ثم ثنى عليه أنس ، فأرماه عن فرسه ، ثم رماه بهادر المعزى بسهم ، فقتله ، وعجّل الله بروحه إلى عليين ، وعوضه عن ملكه بملك جوازه الحور العين . وذلك يوم السبت سادس عشر ذى القعدة. وقيل إن أول من ضربه كان الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى، وهو الصحيح والله أعلم» .

---

٩ - بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، جـ٩ ، ص ٧٣ - ص ٧٤ .

" ثم توجهوا إلى الدهليز ، واجتمعوا ، فتقرر الأمر للأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، بعد محاورات كثيرة . فكان أول من تقدم وبايعه الأمير فارس الدين أتابك ، ثم الأمراء على طبقاتهم . و لُقِّبَ الملك الظاهر " (١٠).

أما رواية المؤرخ تقى الدين المقريزى فتقول : " ... فلم يزل السلطان سائراً إلى أن خرج من الغرابى ، وقارب الصالحية ، فانحرف فى مسيرة عن الدرب للصيد ومعه الأمراء . فلما فرغ من صيده وعاد يريد الدهليز السلطانى طلب منه الأمير بيبرس إمرأة من سبى التتار فأنعم بها عليه . فأخذ بيبرس يد السلطان ليقبلها ، وكانت إشارة بينه وبين الأمراء ؛ فبدره الأمير بدر الدين بكتوت بالسيف ، وضرب به عاتقه ، واختطفه الأمير أنس وألقاه عن فرسه ، ورماه الأمير بهادر المعزى بسهم أتى على روحه ، وذلك يوم السبت الخامس عشر من ذى القعدة ، ودفن بالقصير، فكانت مدة ملكه أحد عشر شهراً وسبعة عشر يومًا .

" وحُمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة ، فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقى الدين قبل أن تعمر، ثم نقله الحاج قطز الظاهرى إلى القرافة ، ودفن قريبًا من زاوية ابن عبود .... " (١١).

هكذا كانت النهاية المأساوية للبطل الشهيد السلطان سيف الدين قطز. وبغض النظر عن التفاصيل الصغيرة التى اختلفت فيها المصادر التاريخية الأساسية التى اعتمدنا عليها ، فالواضح أن فكرة اغتيال السلطان كانت فكرة الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى كما أن التنفيذ كان بيده وبأيدى رفاقه المقربين . ولكن الروايات كلها تجمع على أن القاتل حلّ محل القتيل ببساطة شديدة ، وانتقلت السلطة إلى القاتل قبل أن تجف دماء المقتول دون أن يرى كبار أمراء المماليك غضاضة فى ذلك . بل إن أتابك العسكر سأل عن القاتل وحينما علم أنه بيبرس قال له " يا خوند إجلس أنت فى مرتبة السلطنة " وكأن عرش الدولة "مكافأة" لمن تخلص من السلطان القتيل . وهكذا ، مرة أخرى ، ترسخ مبدأ " الحكم لمن غلب " .

أما النتائج التى ترتبت على هذه المأساة ؛ فكانت على الناحية السياسية تكريسًا للقوة والدماء سبيلاً إلى السلطة والعرش . وكانت تلك هى " سُنَّة المماليك فى دولتهم " ، ولم يحدث طوال مائتى وسبعين عامًا ، هى عمر دولة سلاطين المماليك أن وجدنا لهذه السنة تبديلاً

١٠- ابن ايبك الدوادارى ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٦١ - ص ٦٢ .

١١- المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٥ - ص ٤٣٦ . ويذكر ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ٧ ، ص ٨٥ / ص ٨٦) رواية قريبة من رواية المقريزى .

لقدكانت المفاهيم السياسية للدولة المملوكية نتاجًا للظروف التاريخية التى خرجت هذه الدولة من رحمها إلى الوجود ، ويمكن بلورة هذه المفاهيم السياسية فى أن أمراء المماليك اعتقدوا منذ البداية أن عرش البلاد حق لهم جميعًا يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين . وهو الأمر الذى ظهر واضحًا منذ بداية الدولة سواء فى مصرع تورانشاه أو عز الدين أيبك وشجر الدر ، ثم تأكد فيما قام به بيبرس عندما اغتال قطز ، كما تكرر فى سلسلة انقلابات القصر ومؤامرات الحكم طوال سنوات حكم دولة سلاطين المماليك .

أما النتيجة الثانية الهامة فتتمثل فى الحقيقة التاريخية القائلة بأن صعود بيبرس على عرش سلطنة المماليك كان بداية مرحلة هامة فى تاريخ الدولة الناشئة جعلت من هذا الأمير الداهية ، بقسوته وجبروته وحنكته السياسية وبراعته العسكرية ، المؤسس الحقيقى لهذه الدولة بفضل إنجازاته السياسية والإدارية والعسكرية . فقد كانت السنوات العشر السابقة مرحلة سيولة سياسية حكم خلالها خمسة من السلاطين تم اغتيال ثلاثة منهم ، ونجا الإثنان الآخران بسبب صغر سنهما وإنعدام خطورتهما ، ولكن بيبرس استمر يحكم سبعة عشر عامًا . ومن ناحية أخرى ، كانت دولة سلاطين المماليك ، فى السنوات العشر الأولى من عمرها ، تفتقر إلى الشرعية وتبحث عن الأمن فى مواجهة تهديدات الأيوبيين ، وجاء إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بمثابة الحل السعيد لمشكلة الشرعية ، على حين كانت معركة عين جالوت هى الحل السعيد أيضًا لمشكلة الأمن وتهديدات الأيوبيين .

وتجسدت النتيجة الثالثة لاغتيال قطز فى ازدياد اعتماد أمراء المماليك على مماليكهم بحيث يكونون عدتهم فى الصراع الذى يمكن أن يحدث فى أى وقت . فقد كان الأمراء الكبار وولاة الأقاليم يمتلكون جيوشًا صغيرة من المماليك تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمائة وستمائة مملوك ، وربما زادت الأعداد لتصل إلى ثمانمائة مملوك . أما السلاطين فكانت مماليكهم بمثابة الحرس السلطانى الخاص ومن ثم كان السلاطين يهتمون بشراء أكبر عدد ممكن منهم . وبعد عصر بيبرس كان من الممكن أن تصل مشتروات السلطان من المماليك إلى ثمانمائة مملوك بخلاف المماليك الذين ينتقلون إلى خدمته وراثةً عن السلطان السابق ، أو من مماليك كبار الأمراء الذين يتركون الخدمة بالوفاة أو غيرها(١٢) .

١٢- قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى - عصر سلاطين المماليك ، ص ١٢- ص١٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا تكرست الطائفية بين العناصر المملوكية بالشكل الذى ترك آثاره السلبية على البناء السياسى لدولتهم على المدى الطويل ، وربما كانت بذرة هذه الطائفية العسكرية الخطرة قد بذرت فى حوادث الاغتيال الأولى التى شهدتها الدولة ، ومنها بطبيعة الحال حادث اغتيال السلطان سيف الدين قطز .

لقد قتل السلطان وهو عائد بنصره الكبير ، وتم تتويج قاتله خلفًا له فى مكان الاغتيال ولكن القاهرة عاصمة السلطان ، كانت تستعد للقائه. وربما تلخص لنا رواية تقى الدين المقريزى ما حدث : "... وكانت القاهرة قد زينت لقدوم الملك المظفر قطز ، والناس فى فرح ومسرات بقتل التتر . فلما طلع النهار نادى المنادى فى الناس : " ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا لسطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس " ؛ ثم فى آخر النهار للملك الظاهر(١٣) . فغمَّ الناس ذلك ، وخافوا من عودة المماليك البحرية ، وسوء مملكتهم وجورهم ... "(١٤) .

كان ذلك هو المشهد الأخير فى قصة بطل عين جالوت . ويبدو للناظر فى كتب التاريخ التى حفظت لنا هذه القصة أن سيف الدين قطز قد جاء لأداء مهمة تاريخية محددة ، فما أن أنجزها توارى عن مسرح التاريخ بعد أن جذب الانتباه والإعجاب الذى جعل دوره التاريخى ، على الرغم من قصر فترته الزمنية ، كبيراً وباقيًا .

١٣- اتخذ بيبرس لنفسه لقب " السلطان الملك القاهر " ، ولكنه تشاءم منه فغيره إلى السلطان الملك الظاهر " .

١٤ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع

بيبرس وتأسيس الدولة المملوكية

بيبرس – جهوده الداخلية (حركات التمرد : علم الدين سنجر في دمشق ، والكوراني في القاهرة) إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة ومغزاه – الواجهة الدينية (أهل العمامة ، حماية الحرمين الشريفين ، الاهتمام بالقدس) – جهوده الخارجية (الأيوبيون – التتر – العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية وصقلية والأسبان) – الحرب ضد الصليبيين ببلاد الشام – الحرب ضد التتر – ما بعد بيبرس .

يُعتبر السلطان الظاهر بيبرس بحق هو المؤسس الفعلي لدولة سلاطين المماليك التي ظلت تقوم بدور القوة المدافعة عن الحضارة العربية الإسلامية على مدى مايزيد على القرنين ونصف من الزمان . وإذا كان السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي هو مؤسس الدولة الأيوبية ، فان مبررات وجود هذه الدولة جاءت من خلال حقيقة أن صلاح الدين بدأ تاريخه السياسي بتوحيد الجبهة العربية الإسلامية لتنفيذ المشروع العربي الإسلامي للقضاء على الوجود الصليبي على تراب الأرض العربية . وقد كان خلفاء صلاح الدين ، بشكل عام ، قد فقدوا كل مبررات وجودهم السياسي حين تخلو عن هذا الدور الذي أضفى الشرعية على دولتهم . من ناحية أخرى ، يعتُبر بيبرس مؤسس الدولة المملوكية لأنه بدأ تاريخه السياسي ، أيضا ، بالعمل على توحيد الجبهة الداخلية في المنطقة العربية . وإذا كانت معركة المنصورة وفارسكور ضد الصليبيين ، ثم معركة عين جالوت بعد عشر سنوات ضد المغول ، قد أثبتتا قدرة فرسان المماليك في الدفاع عن دار الإسلام ، فان ذلك وحده لم يكن كافياً لإضفاء الشرعية على دولتهم . ومن ثم فان جهود السلطان الظاهر بيبرس في توحيد المنطقة العربية هي التي جعلت دولته تحظى باحترام القوى العالمية المعاصرة على المستوى الخارجي ، كما جعلته شخصياً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يحتل مكانة بارزة فى وجدان المعاصرين بحيث نسج الخيال الشعبى " سيرة الظاهر بيبرس " وفيها حَمّلُوه كل رموزهم وآخلاقياتهم ؛ بل جعلوه عربياً مسلماً فى المولد والنشأة (١).

فمن هوالسلطان الظاهر بيبرس ؟

على الرغم من أن " بيبرس " الفارس والأمير والسلطان ، كان شخصية ملء العين والوجدان ، فان بيبرس الطفل والصبى يتوه بين ضبابية الغموض وأستار الحكايات الأسطورية. ذلك أنه كان من آحاد الناس ، وُلد لأن فقيرا بذات مساء أراد أن يطفىء نار أيامه القاسية فى حضن فقيرة . ولم يكن المؤرخون والتاريخ الرسمى فى تلك الأيام يهتم بالناس الفقراء أو العامة والبسطاء . إذ كان معظم المؤرخين فى معية السلاطين والملوك والحكام ؛ وكان التاريخ يسعى وراء أخبارهم ؛ مؤامراتهم ودسائسهم ، معاهداتهم وحروبهم ، أفراحهم وأتراحهم . أما آحاد الناس والبسطاء فلم يكن المؤرخون يهتمون بهم فى غالب الأحوال . كان الناس ، ومايزالون ، يصنعون التاريخ ويسرقه الحكام .

ومن ثم ، كان من الطبيعى أن يهمل التاريخ شأن مولد طفل فقير يختطفه تجار الرقيق من حضن أمه ليباع فى أسواق النخاسة ، ولكنه حين يكبر ينتزع لنفسه دوراً يجعله محور اهتمام التاريخ والمؤرخين .

وليست مشكلة غموض سيرة البطل التاريخى فى حياته الباكرة قاصرة على السلطان الظاهر بيبرس ، وإنما يشاركه فيها الكثيرون ممن خرجوا من طيات المجهول ؛ ليعتلوا العروش ويقودوا الجيوش . وربما يكون هذا سبباً كافياً لتفسير ذلك التضارب بين روايات المؤرخين حول نشأة بيبرس (٢).

---

١ - قاسم عبده قاسم ، بين التاريخ والفولكلور ، (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، ١٩٩٣ م) ، ص ١٢١ - ص ١٥٤ . حيث توجد دراسة متكاملة عن " الشخصيات التاريخية فى سيرة الظاهر بيبرس ».

٢ - أغفل محيى الدين بن عبد الظاهر ، صاحب سيرة السلطان الظاهر بيبرس المسماة " الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر " الحقائق الخاصة بطفولة السلطان . أنظر مقدمة الدكتور عبد العزيز الخويطر الذى نشر هذه السيرة ، ص ٣٢ . وقد ذكر ابن أيبك الدوادارى (كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ٦١) قصة يُفهم منها أن أصله كان من الرقيق الذين باعهم التجار فى حلب . أما المقريزى (السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٦) فقد ذكر أنه كان تركى الجنس واشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وترقى فى خدمته واستفاد من أخلاقه ، ثم خدم إبنه توران شاه إلى أن قتل ، ثم خرج من مصر بعد مقتل فارس الدين أقطاى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والراجح أنه تركى من قبائل التتر القفجاق فى مناطق الإستبس بوسط آسيا . وربما كانت طفولته الباكرة فى تلك الأنحاء ، ثم خطفه تجار الرقيق وانتقل من تاجر إلى آخر حتى وصل إلى حماة ببلاد الشام حيث أراد صاحبها المنصور الأيوبى شراءه ؛ ولكن أمه حذرته من بيبرس بقولها : " لا يكون بينك وبينه معاملة ، فان شراً فى عينيه لائحاً " (٣). فعدل عن شرائه واشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار ؛ ولهذا نُسب إليه بيبرس وعُرف بلقب البندقدارى.

ثم انتقل بيبرس إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى لم يلبث أن منحه حريته مما أعطاه الفرصة كاملة لإثبات شجاعته وفروسيته . ثم انتقل إلى خدمة ابنه تورانشاه بعد وفاته، ثم صار من زعماء البحرية بعد مصرع تورانشاه . وتقلبت أحوال بيبرس ففر إلى بلاد الشام بعد مقتل فارس الدين أقطاى ، ثم عاد ليشارك فى القتال ضد التتر ، وساهم فى انتصار عين جالوت . وفى طريق العودة اغتال قطز وأعلن نفسه سلطاناً كما أوضحنا من قبل .

كان طبيعيا ، بعد أن تولى بيبرس عرش السلطنة فى قلعة الجبل بالقاهرة ، أن يبدأ فى تنظيم أحوال دولته ؛ داخلياً وخارجياً . كانت أولى خطوات بيبرس فى هذا الصدد إلغاء كافة الضرائب التى كان سلفه سيف الدين قطز قد فرضها لتمويل حربه ضد التتر (٤). وكانت تلك الضرائب بواقع دينار على كل فرد فى مصر ، كما استولى على ثلث إيراد الزكاة ، وثلث قيمة التركات التى مات عنها أصحابها من غير المماليك . وكان صدى هذا الإجراء طيبا فى نفوس المصريين الذين زينوا الطرقات والأسواق ابتهاجا بذلك .

بيد أن حكم السلطان الجديد كان لابد وأن يتأثر بالمفاهيم السياسية التى نمت ورسخت فى غمار الظروف التى صاحبت قيام دولة سلاطين المماليك التى شهدت فى السنوات العشر الأولى من عمرها خمسة من السلاطين يتعاقبون فى إيقاع سريع راح ثلاثة منهم ضحايا الإغتيال ونجا السلطان الأيوبى الطفل الأشرف موسى (الذى شارك المعز أيبك العرش فترة من الوقت) لصغر سنه ، كما نجا المنصور على ابن أيبك لصغر سنه أيضا .

---

٣ - ابن أيبك ، كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ٦١ .

٤ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٨ - ص ٤٣٩ .

كان مبدأ " الحكم لمن غلب " هو الذى جاء بالسلطان الظاهر بيبرس إلى العرش ، وكان يحرك الطامعين فى العرش ؛ ومن ثم كان على بيبرس أن يعانى من هذا المبدأ أيضا فى بداية سلطنته .

فعندما تولى بيبرس العرش نشبت ثورتان داخليتان فى وقت واحد تقريبا . ففى أواخر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م نشبت ثورة فى دمشق قادها الأمير سنجر الحلبى أحد أمراء المماليك ، ونائب دمشق الذى استاء كثيرا من اغتيال قطز ورفض الاعتراف بسلطنة بيبرس . ولم يكتف هذا الأمير المتمرد بالعصيان ، بل بادر باعلان نفسه ملكاً على دمشق فى ذى الحجة سنة ٦٥٨هـ ، واتخذ لنفسه لقب الملك المجاهد ، وركب بشعار السلطنه ، وضُربت السكة باسمه ، ثم حصَّن قلعة دمشق استعداداً للقتال ، وأرسل يستعين ببقايا الأيوبيين ولكنهم رفضوا مساعدته .

لجأ بيبرس إلى استخدام المال لكى ينفض أنصار سنجر الحلبى من حوله ، ثم أرسل جيشاً قضى على التمرد وعاد بالأمير المتمرد إلى القاهرة مكبلاً فى الحديد [٥]. وقد تم القضاء على هذه الحركة فى مطلع سنة ٦٥٩ هـ / ١٩٦١ م .

ولم تكن تلك هى محاولة التمرد الوحيدة على سلطنة الظاهر بيبرس ، فقد حاول شمس الدين البُرْلى الاستقلال بحلب [٦]، ولكن الفشل كان من نصيبه ، ولما أرسل يطلب عفو السلطان الظاهر بيبرس كان كريماً معه . وفى القاهرة حاول بعض أمراء المماليك الإطاحة بالسلطان سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م . وعلى الرغم من أنه تمكن من وأد هذه المؤامرة فى مهدها ، فانه كان كريما معهم أيضا [٧].

ثم كان على بيبرس أن يواجه تمرد قوى أخرى كانت تنكر على المماليك أى حق فى ولاية العرش ؛ إذ حدث تمرد بقيادة رجل شيعى إسمه الكورانى " ... أظهر الورع والتقوى والزهد "

---

٥ – عن تفاصيل هذا التمرد أنظر : ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٩٤ – ص ٩٥ ؛ ابن أيبك الدواداری ، كنز الدرر ،جـ ٨ ، ص ٦٣ – ص ٦٤ ؛ ص ٦٩ – ص ٧٠ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٨ – ص ٤٣٩ ، ص ٤٤٤ – ص ٤٤٥ .

٦ – المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٦٥ – ص ٤٦٦ ، ص ٤٧١ ، ص ٤٧٦ .

٧ – ابن أيبك الدواداری ، كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ٧٠ .

وسكن قبة جبل المقطم المتاخم للقاهرة ، وجمع حوله بقايا الجنود السود الذين كانوا موالين للشيعة ، وبقايا الشيعة . وأخذ يحرضهم على الإطاحة بحكم بيبرس وإقامة حكم شيعى . وفى أواخر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م انسابوا فى شوارع القاهرة وهم يصيحون " يا آل على " ، وفتحوا حوانيت السيوفيين فى بين القصرين بالقاهرة واستولوا على مابها من أسلحة ، كما استولوا على عدد من الخيول من اسطبلات المدينة . وهنا لم يكن بيبرس حليماً مثلما كان مع المتمردين من أمراء المماليك ؛ إذ أنه صلب الكورانى والمتمردين على باب زويلة من أبواب مدينة القاهرة (٨).

كان القضاء على المشكلات والأخطار التى أثارتها حركات التمرد الداخلة الخطوة الأولى والهامة فى سياسة بيبرس لتوطيد سلطنته فى الداخل ، بيد أن هذه الأخطار كانت هينة بالقدر الذى لم يكلفه من الجهد إلا قليلا . وبقى عليه أن يضفى على حكمه رداء الشرعية ، ورأى الحل السعيد فى إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة ، والحصول على تفويض من الخليفة بالحكم . وإذا كان إحياء الخلافة يأتى من جانب الدولة صاحبة الفضل فى وقف الخطر التترى ، وصاحبة القوة اللازمة لمواجهة الخطر الصليبى ؛ فان تأييد الناس لهذه الدولة سيكون بلا حدود . وكانت تلك مناورة سياسية ذكية من بيبرس ؛ إذ جعل الدولة المملوكية تبدو صاحبة الفضل على العالم الإسلامى باحيائها الخلافة العباسية .

وعلى الرغم من أن بيبرس لم يكن أول من فكر فى مشروع إحياء الخلافة العباسية (٩)، فانه أول من نجح فى تحقيق هذا المشروع . والتاريخ تصنعه الأفعال لا النيات . وكان قطز قد فكر فى إحياء الخلافة العباسية سنة ٦٥٨ هـ عندما أرسل يستدعى واحداً من سلالة العباسيين هو أبو العباس أحمد ، بعد انتصار عين جالوت ، وجاء الأمير العباسى بالفعل إلى دمشق وبايعه قطز بالخلافة ؛ ولكن مصرع قطز حال دون إعادة كرسى الخلافة إلى القاهرة .

---

٨ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٤٠ ؛ العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٧٨ - ص ١٧٩ .

٩ - عن محاولات نقل الخلافة العباسية إلى مصر منذ أيام أحمد بن طولون حتى السلطان سيف الدين قطز ، أنظر : العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٨٠ - ص ١٨١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحين جلس بيبرس على عرش السلطنة استدعى أميراً عباسياً آخر هو أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بالله (١٠)، وعلى مشارف القاهرة خرج السلطان الظاهر بيبرس للقاء أبى القاسم أحمد فى شهر رجب سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م ، ومعه الوزير بهاء الدين بن حنا ، وقاضى القضاة ، والعلماء والشهود والأعيان والمؤذنون ، كما خرج اليهود بتوراتهم والنصارى بأناجيلهم ومعهم الشموع الموقدة (١١). وبعد عدة أيام عقد السلطان الظاهر بيبرس مجلساً عاماً فى قاعة العواميد بالقلعة حضره القضاة والعلماء ورجال الدولة وكبار التجار ووجوه الناس . وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام من بين الحاضرين . وبعد أن شهد الشهود بنسب الأمير بويع خليفة واتخذ لقب المستنصر بالله(١٢). وعندما تمت مبايعة الخليفة العباسى الجديد قام هو بدوره بتفويض السلطان الظاهر بيبرس حكم البلاد الإسلامية ، " ... وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله عليه من بلاد الكفار ... " كما حصل على لقب " قسيم أمير الدين " الذى لم يحصل عليه أحد قبله (١٣). وكان المعنى الواضح لهذا أن بيبرس قد كسب شرعية واضحة لحكمه ولدولته ولنفسه .

هكذا نالت دولة سلاطين المماليك البعد الدينى الذى يؤكد شرعيتها فى عيون المعاصرين . لقد كان البعد العسكرى هو الذى أفرز هذه الدولة باعتبارها القوة القادرة على حماية العالم الإسلامى ، بيد أن هذا البعد لم يكن كافياً وحده ؛ بدليل تلك المصاعب التى واجهت المماليك منذ " شجر الدر " ، وحتى بيبرس ، من جانب الرعايا والقوى السياسية الأخرى .

---

١٠ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٤٨ .

١١ - ابن أيبك ، كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ٧٢ - ص ٧٣ .

١٢ - كانت مبايعة الخليفة العباسى المستنصر بالله يوم الإثنين ١٣ رجب ٦٥٩هـ / يونيو ١٢٦١م المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٤٨ - ص ٤٤٩ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٩٩ - ص ١١٠.

١٣ - السيوطى ، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٢٩٩ هـ) ، جـ ١ ، ص ٨٧ ؛ ابن أيبك الدواداری ، كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ٧٢ - ص ٧٩ ؛ النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة) ، جـ ٢٨ ، ق ١٨ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٤٨ - ص ٤٥٧ ؛ السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٢٨ - ص ٣٢٩ ؛ أنظر أيضا

Ziada , " The Mamluk Sultans " , p . 747 . :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أية حال ، كان إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة خطوة هامة جعلت من الظاهر بيبرس حاكما شرعياً يستمد سلطانه ونفوذه من تفويض الخليفة العباسي في القاهرة . وقد أدرك بيبرس خطورة التفويض الذى أعطاه الخليفة له ، وأراد أن يؤكد ذلك لسائر أمراء المملكة فجمعهم فى اجتماع عام بضاحية المطرية القريبة من القاهرة ؛ لكى يسمعوا جميعا تفويض الخليفة السلطان بحكم " ... الديار المصرية والبلاد الشامية والدياربكرية والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً .... "

وهكذا ، حقق بيبرس هدفه بالحصول على السند الشرعى لحكمه ، وحصل على ماهو أكثر من ذلك : حكم المنطقة العربية بأسرها . وتعين عليه أن يحول هذه الولاية التى تضمنها تقليد الخليفة العباسى فى القاهرة إلى حقيقة . وبعبارة أخرى كان عليه أن ينقل سلطته الذى فرضها هذا المرسوم على هذه البلاد كلها من سطور الورق الذى كتبت عليه إلى أرض الواقع ... ولم تكن تلك مسألة سهلة .

عندما حقق بيبرس هدفه باضفاء الصيغة الشرعية على حكمه ، بدأ يخطط للتخلص من الخليفة أبى القاسم أحمد (المستنصر الثانى) ، بيد أنه كان حريصاً على عدم القضاء على الخلافة نفسها . إذ أدرك بيبرس ، بدهائه السياسى ، أن قيام الخلافة العباسية فى القاهرة بشكل حقيقى سوف يحوله إلى مجرد تابع للخليفة . لقد كان يريد الخلافة إسما وواجهة تكسبه الشرعية . وهكذا أرسل الخليفة مع قوة عسكرية صغيرة لقتال المغول . وبالفعل أباد المغول جيش الخليفة العباسى الضئيل وقتلوه هو نفسه (١٤). ولأن بيبرس ، الخبير بالتتر وأساليبهم فى القتال ، أرسل هذا الجيش الهزيل مع الخليفة ، فاننا نرجح أن السلطان أرسل الخليفة فى مهمة بلاعودة ... إلى الموت .

أرسل بيبرس يستدعى أميراً عباسياً آخر لتولى الخلافة ، وتمت مبايعته باسم الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى (١٥). وقلّص بيبرس نفوذ الخليفة الجديد وسلطاته على نحو جعله أشبه بمن

---

١٤ - يذكر المقريزى (السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٦٢ - ص ٤٦٣) أن السلطان كان قد عزم على أن يبعث مع الخليفة عشرة آلاف فارس حتى يستقر ببغداد " ... فخلا أحدهم بالسلطان وأشار عليه ألا يفعل ، فان الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر . فرجع إليه الوسواس ، ولم يبعث مع الخليفة سوى ثلاثمائة فارس " .

١٥ - ابن أيبك ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٩٤ - ص ٩٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يخضعون لأحكام تحديد الإقامة ، على حد تعبيرنا المعاصر . فلم يكن مسموحاً للخليفة العباسي في القاهرة أن يتصل بأحد المسئولين في الدولة ، أو غيرهم ، دون إذن من السلطان نفسه . وبذلك أرسى بيبرس أحد أهم الأسس السياسية التي قامت عليها دولة سلاطين المماليك ؛ أي الاستعانة بالخلافة العباسية واجهة دينية وشرعية دون أن يكون للخليفة سوى الدعاء على المنابر في صلاة الجمعة . وكانت الخلافة العباسية خلافة صورية " ... ليس له منها أمر ولا نهى ، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين " على حد تعبير المؤرخ تقي الدين المقريزي(١٦).

لم تكسب الخلافة العباسية من إحيائها في القاهرة شيئا ؛ إذ هانت مكانة الخلفاء الذين تعين عليهم أن يسعوا إلى حفلات تنصيب السلاطين وولاية العهد ، كما كان عليهم أن يزينوا مجالس السلطان حين يستقبل وفود الدول المعاصرة وسفراءها . ولم يتدخل الخلفاء في شئون السلطنة ، كما أن سلاطين المماليك لم يأمنوا لهم أبداً فأبقوهم بمنازلهم في وضع أقرب ما يكون إلى السجن .

أما الفائدة الحقيقية فقد عادت على السلاطين وعاصمتهم القاهرة ؛ فقد صاروا هم حُماة الخلافة ، ومن ثم حقّ لهم أن يدعوا لأنفسهم مكانة سامية في العالم الإسلامي . وكان ذلك تكريساً لحقيقة توازن القوى في تلك الفترة من تاريخ العالم الإسلامي ؛ وتجسد هذا أيضا في أنهم استأثروا بالحق في لقب " السلطان " . يقول ابن شاهين الظاهري : " ... ولايطلق لفظ سلطان إلاّ لصاحب مصر نصره الله ، فانه الآن أعلى الملوك وأشرفهم لرتبة سيد الأولين والآخرين ، وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطنه له على الوجه الشرعي لعقد الأئمة الأربعة ... " .

هكذا ، صارت القاهرة بمثابة المعقل والحصن للحضارة العربية الإسلامية منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري ، وقصدها الفنانون والعلماء والفقهاء ، كما جاء الصناع ورجال السياسة والباحثين عن الأمن والاستقرار من شتى أرجاء دنيا العرب والمسلمين؛ ونتجت عن ذلك بالضرورة حركة علمية نشطة . وإلى جانب القاهرة نشطت دمشق وبيت

---

١٦ - المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٤٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقدس وغيرها من مدن بلاد الشام والمدن المصرية وزاد سكانها ، وانتعش اقتصادها ، وعمرت مدارسها .

ولكن إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة لم يكن كافياً من وجهة نظر بيبرس لتأكيد زعامة دولته على الخلافة ، إذ كان البعد الدينى للدولة الناشئة مايزال بحاجة إلى عناصر جديدة لاستكماله . والحقيقة التى تفرض نفسها باستمرار على تاريخ المنطقة العربية مؤداها ، أن كل دولة أرادت أن تبنى لنفسها القوة والزعامة كان لابد لها من أن تبسط سلطانها على البحر الأحمر والحجاز ؛ حيث يوجد الحرمان الشريفان فى مكة والمدينة . ولم يكن بيبرس ليشذ عن هذا المنطق الذى يفرضه التاريخ وتحتمه الجغرافيا .

بدأ بيبرس خطته بالقيام بعدة إصلاحات بالحرم النبوى الشريف ، وأرسل الكسوة إلى الكعبة (١٧). وفى سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م قام بأداء فريضة الحج (١٨). وانتهز الفرصة لكى يجعل الخطبة فى الحجاز للخليفة العباسى ثم سلطان مصر من بعده (١٩). وهكذا إزداد البعد الدينى وضوحاً فى دولة سلاطين المماليك . ومن ناحية أخرى قام بيبرس بترميم قبة الصخرة فى المسجد الأقصى ، كما جدد بناء مسجد الخليل عليه السلام (٢٠).

وفى سبيل تأكيد البعد الدينى لدولته ، قام السلطان الظاهر بيبرس بالتقرب إلى العلماء والقضاة والفقهاء ، الذين كانوا طليعة المثقفين وقادة الرأى العام آنذاك . فقد كان القرآن

---

١٧ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٨٩ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥١٢ .

١٨ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٨٠ - ص ٥٨١ .

١٩ - النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، (جـ ٣٠ ، تحقيق محمد عبد الهادى شعيرة ، دار الكتب المصرية ١٩٩٠ م) ، ص ١٦٦ . وقد ذكر النويرى أنه " بقى كأحد الناس بغير حاجب ، ثم غسل الكعبة ، وبقى فى وسط البيت ، ومن رمى له إحرامه غسله بما ينصب من الماء فى الكعبة ورميه إلى صاحبه ، ثم جلس على باب الكعبة وأخذ بأيدى الناس ليطلع بهم إلى الكعبة ... " .

أنظر أيضا : العينى ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨) ، جـ ٢ ، ص ٤٦ - ص ٤٧ .

٢٠ - كان ترميم قبة الصخرة سنة ٦٦٠ هجرية على أيدى صناع من دمشق ، كما أعاد أوقاف مسجد الخليل عليه السلام ، وأضاف إلى أوقافه قرية أذنه . أنظر : ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٨٩ - ص ٩٠ .

الكريم والحديث النبوى والعلوم المرتبطة بهما ركيزة التعليم والثقافة فى ظل الحضارة العربية الإسلامية إلى جانب العلوم الأخرى التى عرفت باسم العلوم العقلية . ومن ثم كان " أهل العمامة " فى ذلك العصر يمثلون عقل الأمة ووجدانها . كما كانوا يحتلون مكانة سامية لدى الحكام والمحكومين . وقد أعاد بيبرس للجامع الأزهر ، أول مساجد القاهرة ، مكانته عندما نزل ليصلى الجمعة فيه فى ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م بعدما أمر بترميمه وعمارته ؛ وبذلك عادت الخطبة إلى الجامع الأزهر بعد أن كانت قد انقطعت فيه مدة تناهز مائة سنة (٢١).

كذلك قام الظاهر بيبرس ببناء المدارس والمساجد مثل " المدرسة الظاهرية " التى بناها بالقاهرة ورتب دروس أهل العلم بها فى صفر سنة ٦٦٢ هـ وحضر السلطان حفل افتتاحها(٢٢) وبنى مسجدا بالقاهرة حمل اسمه (٢٣) كما زار كبار الصوفية مثل الشيخ القبارى والشيخ الشاطبى بالاسكندرية ، وقرب إليه واحداً من الدراويش هو الشيخ خضر الذى كانت له زاوية بميدان قراقوش بالحسينية (٢٤). وبذلك مكّن بيبرس لدولته فى الداخل ، وحاز مكانة واحتراماً وهيبة كفلت له أن ينصرف باهتمامه إلى مواجهة الأخطار الخارجية .

وإذا كان بيبرس قد تسامح مع أمراء المماليك الذين خرجوا عليه وأعلنوا التمرد والعصيان ضده فى بداية حكمه ، فقد انتهج سياسة مخالفة تماماً إزاء غيرهم من القوى التى كانت تشكل خطراً حقيقياً على المماليك وسلطنتهم الوليدة .

كانت أولى هذه القوى تتمثل فى بقايا الملوك الأيوبيين الذين كانوا مايزالون يحكمون فى بلاد الشام . وعلى الرغم من أن المنصور صاحب حماة ، والأشرف موسى صاحب حمص قد أعلنا ولاءهما للسلطان الظاهر بيبرس ، كما أن الملك الصالح صاحب الموصل وصل إلى القاهرة فى شعبان سنة ٦٥٩ هـ ، ولحق به أخوه الملك المجاهد صاحب الجزيرة، ولقيهما السلطان بحفاوة

---

٢١ - العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص ٦ .

٢٢ - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، ص ٩٣ - ص ٩٤ .

٢٣ - نفسه ، ص ١٣٣ - ص ١٣٤ .

٢٤ - ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، ص ١٢٣ .

بالغة ثم كتب تقليداً للملك الصالح ركن الدين اسماعيل بالموصل وولاياتها ، ثم ولى الملك المجاهد سيف الدين اسحق ببلاد الجزيرة وأعمالها ، وكتب لأخيهما الملك المظفر بولاية سنجار وأعمالها [٢٥]- نقول إنه على الرغم من ذلك ، فان الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل الأيوبى ، صاحب الكرك الذى كان يرى فى المماليك مجرد دخلاء اغتصبوا العرش الأيوبى فى مصر ويجب القضاء عليهم ، ظل يحلم باليوم الذى ينتزع فيه مصر من الظاهر بيبرس . وبدأ يشن غاراته على المناطق الخاضعة لسلطان مصر ؛ بل إنه راسل هولاكو وحرضه على غزو مصر. وخرج بيبرس بجيش قوى من مصر سنة ١٢٦٢ م / ٦٦١ هـ بهدف القضاء على خطر هذا الملك الأيوبى ، ولكن أم المغيث عمر أسرعت لتقابل بيبرس عند غزه وتطلب منه الأمان لابنها ، وأحسن السلطان إليها . ثم خرج الملك المغيث من الكرك و " ... خدعه السلطان أعظم خديعة ... " حتى قبض عليه وفضح مراسلاته مع العدو أمام من حضر من الملوك والأمراء ، وقاضى القضاة والشهود والأجناد ورسل الفرنج[٢٦] ثم أرسله إلى مصر حيث سجن بقلعة الجبل وأطلق حواشيه ، وبعث بحريمه إلى مصر " وأطلق لهم الرواتب " [٢٧] وفى السنة نفسها استولى بيبرس على حصن الكرك ؛ وبذلك تم القضاء على المقاومة الأيوبية بشكل نهائى .

على هذا النحو تحددت أبعاد السياسة المملوكية التى اتخذت مسارين أساسين : أحدهما عسكرى يعتمد على قوة الجيش المملوكى لفرض الأمر الواقع ، وثانيهما دينى يستند على قوة دينية عناصرها الخلافة العباسية فى القاهرة ، وأهل العمامة ، والمنشآت الدينية . لقد امتزجت الوحشية بالتقوى فى عصر سلاطين المماليك بشكل مثير ؛ إذ اشتهر أولئك المقاتلون الأفذاذ بقسوتهم فى التعامل مع خصومهم ولكنهم ، أيضا ، خلّفوا تراثاً رائعاً من المنشآت ذات الوظيفة الدينية / الاجتماعية ما تزال قائمة فى مدن مصر والشام تحكى عن عظمة ذلك العصر المظلوم . وهو ما نعتبره انعكاسا للبعد الدينى والبعد العسكرى فى سياسة هذه الدولة التى ظلت تقود العالم الإسلامى على مدى أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان .

---

٢٥ - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، ص ٢٦ - ص ٢٧ .

٢٦ - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، ص ٧٩ - ص ٨١ .

٢٧ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٨٢ .

لقد كان المبرر الوحيد لقيام دولة سلاطين المماليك واستمرارها ، هو قيامها بدور القوة المدافعة عن دار الإسلام . لقد ولدت هذه الدولة من رحم الصراع ضد الفرنج الصليبيين الذين كانوا مايزالون يحتلون بعض أجزاء من الأرض العربية فى بلاد الشام ، وتأكد وجودها من خلال ذلك النصر المدوى الذى أحرزته ضد الفيالق المغولية فى عين جالوت . وعلى الرغم من كافة الجهود المضنية التى بذلها السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى على الصعيد السياسى والدينى والاجتماعى لتوطيد سلطته فى الداخل ، فان بقاء هذه الدولة التى كان يجلس على عرشها ظل رهيناً بأدائها للدور التاريخى المنوط بها ؛ أى بالقضاء على الأخطار الخارجية وحماية العالم الإسلامى .

وإذا كان الخطر المغولى هو الأعلى صوتاً والأكثر ضجيجاً فى صفحات المدونات التاريخية، فقد كان الخطر الصليبى هو الأعمق أثراً والأكثر خطورة . وإذا كنا نقول إن السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى هو المؤسس الحقيقى لهذه الدولة فذلك لأنه فهم الدور التاريخى المنوط بها ، وظلَّ طوال حياته يعمل على تحقيق المشروع الإسلامى الكبير ، وهو طرد الصليبيين من أرض المسلمين . وقد قال عنه أحد الشعراء المعاصرين : -(٢٨)

يومـــاً بمصر ويومـــاً بالحجاز وبالشام يوماً ويوماً فى قرى حلب

وعلى الرغم من ركاكة هذا البيت فانه يلخص حياة السلطان الظاهر بيبرس الذى أحبه المصريون وجعلوه بطلاً شعبياً ، وهو الأمر الذى اعترف به المؤرخون الرسميون أيضاً . بيد أن المصريين جعلوا بيبرس واحداً منهم ؛ شرب من ماء النيل وترعرع على أرض الكنانة وشب فى رعاية رموزها الدينية - على نحو ما تخبرنا السيرة الشعبية للظاهر بيبرس (٢٩).

وقد تميز بيبرس بحصافة وبعد نظر سياسى جعله جديراً بالمكانة التى احتلها فى صفحات التارخ وفى قلوب أبناء مصر والمنطقة العربية . فقد كان يمهِّد لكل عملية من عملياته

---

٢٨ - هو سيف الدولة المهمندار (أى المسئول عن استقبال الرسل والعربان والوافدين على السلطان) ؛ أنظر : المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٣٧ - ٦٣٨ .

٢٩ - سيرة الظاهر بيبرس ، خمسة مجلدات ، طبعة عبد الحميد أحمد حنفى (القاهرة د . ت) وهى تقع فى خمسين جزءاً ألحق بها سجل بسلاطين المماليك وسلاطين الدولة العثمانية وحكام أسرة محمد على حتى الثورة العرابية وماتلاها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العسكرية باستمرار من خلال المعاهدات والإتفاقيات الدولية التي كان يعقدها مع القوى الدولية المعاصرة . وعندما قرر أن يبدأ الجهاد ضد الفرنج الصليبيين سعى إلى التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية التي كانت قد صارت عدواً تقليدياً للمستوطنات الصليبية في الشرق العربي ، لاسيما بعد تجربة الأسر المريرة التي عانتها بيزنطة منذ استيلاء الحملة الصليبية الرابعة عليها سنة ١٢٠٤ م [٣٠]. ولذلك تحالف مع ميخائيل باليولوجوس الثامن سنة ١٢٦٢م ، وأرسل إليه سفارة على رأسها الأمير فارس الدين آقوش المسعودي ، وتضم عدداً من الأساقفة المسيحيين من أتباع المذهب الملكاني (الروم الأثوذكس) الذي كان مذهب الإمبراطورية البيزنطية أيضا . وفي القسطنطينية رحب بهم الإمبراطور البيزنطي وأكرمهم ، كما أطلع الأمير آقوش على مسجد القسطنطينية الذي جدده لكي يصلي فيه المسلمون من التجار وغيرهم من الوافدين على العاصمة البيزنطية أو المقيمين بها [٣١].

ولما كانت المحالفات مع القوى الأوربية المعاصرة مهمة بالنسبة لسياسة بيبرس الخارجية ، لضمان حياد هذه القوى في الصراع الوشيك ضد الكيان الصليبي ، فقد عقد الظاهر بيبرس معاهدة مع الإمبراطور مانفرد ، ابن الإمبراطور فردريك الثاني وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وصقلية ونابولي ، كذلك كانت له علاقات ودية مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة الأسباني بحيث عرض بيبرس الزواج من ابنة هذا الملك ، ولكن طلبه لم يتحقق . وقد استخدم بيبرس كل إمكانياته الدبلوماسية لكي ينفرد بأمراء المستوطنات الصليبية في بلاد الشام وفلسطين .

---

٣٠ - عن الحملة الصليبية الرابعة أنظر :

Villehardouin , The conquest of Constantinople , in : Joinville and Villeherdouin , Chronicles of the Crusades , (translated with an introduction by : M . R . B . shaw , Penguin Books , 1975) , pp - 29 - 160 ; Mayer , H . E . The Crusades (translated by Gillingham , Oxford , 1972) , pp . 183 - 193 , Edgar H . McNeal and Robert Lee Wolff , " The Fourth Crusades " , in Setton (ed.) , Hist , of the Crusades , Vol . II , pp . 155 - 186 .

٣١ - الأسقف الكبير (البطريق) هو الرشيد الكحال . أنظر : العيني ، عقد الجمان ، جـ ١ ص ٣٣٢ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٢٩ ؛ أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢٠٢ - ص ٢٠٣ .

٣٢ - العبادي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ - ص ٢٠٥ .

كانت تلك هى جهود بيبرس الدبلوماسية فى الغرب ؛ أما فى الشرق فقد بسط يد التحالف والصداقة إلى بركة خان ، زعيم القبيلة الذهبية من قبائل المغول ، الذى كان أول من اعتنق الإسلام من أبناء جنكيز خان . وكانت بلاد هذا الخان المسلم تمتد من تركستان شرقا حتى شمال البحر الأسود غرباً ؛ وهى بلاد القفجاق وعاصمتها مدينة سراى . وقد تبودلت الرسل والسفارات بين بيبرس وبركه فيما بين سنتى ٦٥٩ هـ و ٦٦١ هـ / ١٢٦١ م - ١٢٦٣ م . كما تزوج بيبرس من ابنته لكى يزيد من روابط الصداقة والود بينه وبين الخان المغولى بركة خان ، وأمر بالدعاء له على منابر القاهرة والقدس والحرمين الشريفين بمكة والمدينة (٣٣) . وبينما كانت تحالفات بيبرس على الجبهة الأوربية موجهة ضد الصليبيين ، كانت معاهداته ومحالفاته على الجبهة الشرقية موجهة ضد مغول فارس الخاضعين لهولاكو وبنيه .

هكذا كشف السلطان الظاهر بيبرس عن إدراكه لحقيقة الدور التاريخى المنوط بالدولة التى اعتلى عرشها ، وأدرك أن دولته تواجه خطراً مزدوجاً يمكن أن يؤدى إلى حلف بين اثنين من ألد أعدائه وأعداء المنطقة العربية الإسلامية وهم المغول فى فارس والصليبيون فى فلسطين وبلاد الشام . وقد سارت خطط بيبرس باتجاه القضاء على كل من هذين الخطرين على حدة . ولم يكن ممكناً للسلطان الظاهر بيبرس أن يحقق هدفه بدون أن يكون لديه الجيش القادر على إحراز النصر . فقد عمد إلى ضم القبائل العربية القاطنة على حدود العراق إلى جيشه لتكون بمثابة قوات مساعدة ، أو حرس الحدود ، وغمرهم بالأموال والمساعدات والهدايا ، فشنوا هجمات عنيفة ناجحة على قوات هولاكو ووصلت قواتهم إلى أبواب مدينة بغداد التى كان المغول يحكمونها آنذاك (٣٤). كما أعاد تحصين القلاع التى تحمى مناطق الحدود مع دولة مغول فارس ، وشحنها بالذخيرة والأقوات ، وتمركزت بها أعداد كافية من الجنود . وأقام سلسلة من نقاط المراقبة عُرفت باسم " المناثر " لرصد نشاط العدو فى تلك المناطق الحدودية ، وكان تبادل

---

٣٣ - ابن أيبك الدواداري ، الدرة الذكية ، ص ٩٩ ، ص ١٦٧ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٣٩ - ص ١٤٠ ، ص ٢١٤ - ص ٢١٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٧٤ - ص ٤٧٥ ، ص ٤٧٧ ، ص ٤٧٩ - ص ٤٨٠ ، ٤٩٥ .

٣٤ - يذكر المقريزى (السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٧٦) فى حوادث سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م مانصه : " وفيها وفد على السلطان بُعيْد كسرة المستنصر شيوخ عبادة وخفاجة ، من هيت والأنبار إلى الحلة والكوفة ... فأنعم السلطان عليهم وكانوا له عينا على التتار " .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعلومات بين نقاط المراقبة هذه يتم عن طريق الإشارات الضوئية بالنيران ، أو إشارات الدخان(٣٥) .

وفى مصر أعاد الظاهر بيبرس بناء حصن الجزيرة التى كان الملك الصالح نجم الدين أيوب قد بناه لمماليكه ، ثم هدمه الملك المعز أيبك " ... لا لغرض ، ولا لمصلحة ، وأباح رخامها وأصنافها للناس ... " على حد تعبير ابن عبد الظاهر (٣٦). ولما كان ميناء دمياط قد تعرض للاحتلال الصليبى أثناء الحملة الصليبية الخامسة والحملة الصليبية السابعة ، فقد رأى بيبرس ردم مصب فرع دمياط وتضييقه بالحجارة ووضع سلسلة عظيمة لمنع دخول السفن الكبيرة فى هذا الفرع (٣٧).

من ناحية أخرى ، اهتم بيبرس بالتنظيم الإدارى الداخلى ؛ سواء من حيث تنظيم الإدارة المالية ، أو الشئون السياسية الداخلية ، أو تنظيم القضاء . كما اهتم بوضع نظام فعال للمعلومات من خلال نظام البريد المتكامل الذى جعل مركزه قلعة الجبل بالقاهرة ، واعتمد على الخيل ومحطاتها وعلى الحمام الزاجل (٣٨). قد كان هذا التنظيم البريدى على درجة عالية من الكفاءة والفاعلية بحيث كانت الرسالة تصل من القاهرة إلى دمشق فى ثلاثة أيام فقط . وكانت النتائج الإيجابية لهذا البريد المتكامل أن توفرت للسلطان الظاهر بيبرس معلومات

---

٣٥ - أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢٠٩ - ص ٢١١ .

٣٦ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٩٠ .

٣٧ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٤١ .

٣٨ - فى سنة ٦٦٠هـ أعاد تعيين القاضى تاج الدين بن بنت الأعز على القضاء بمصر ، كما أمره أن يتخذ نواباً من المذاهب الثلاثة الأخرى ، الحنفى والملكى والحنبلى لأنه كان من الشافعية . أنظر :

العينى ، عقد الجمان ، جـ ١ ، ص ٣٣٢ - ص ٣٣٣ . وعن تنظيم البريد أنظر :

القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، جـ ١٤ ، ص ٣٧٣ - ص ٣٨٣ ؛ أحمد مختار العبارى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢١١ - ص ٢١٣ . أنظر أيضا : ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٩٥ ؛ إذ يقول عن تنظيم البريد " ... وهذه همة عالية فانه يرتب بذلك أمور الشام والقلاع وأكثر ممالكه فى كل جمعة مرتين ، ويُقطع ويقطع ، ويولى ويعزل فى جميع الشام وحلب . وهو فى مصر لاتخفى عليه أخبار الشام وحلب ، وغير اك من بلاد الفرنجة ... " .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سريعة عن أحوال مملكته التى امتدت من الفرات إلى النوبة ، وهو الأمر الذى انعكست نتائجه فى تحركات السلطان الكثيرة والسريعة فى أنحاء دولته على نحو ما أخبرتنا المصادر المعاصرة، ولا شك فى أن الأخبار العسكرية كانت أهم ما يصل السلطان عن طريق نظام البريد.

كذلك عمل بيبرس على إنشاء أسطول قوى لضمان النجاح لعملياته العسكرية البرية من ناحية ، ولحماية شواطىء البلاد من غارات الصليبيين المحتملة . وقد جاء فى التقليد الشريف الذى أعطاه الخليفة العباسى بالقاهرة ، المستنصر بالله ، للسلطان الظاهر بيبرس ، وفوضه فى حكم البلاد ، ما نصه " ... وكذلك الأسطول الذى ترى خيله كالأهله ، وركائبه سائقة بغير سائق مستقلة ، وهو أخو الجيش السليمانى ، فان ذاك غدت الرياح له حاملة ، وهذا تكفلت بحمله المياه السائلة ، وإذا لحظها الطرف جارية فى البحر كانت كالأعلام ، وإذا شبهها قال : هذه ليال تقلع بالأيام ... " هذه العبارات المسجوعة تكشف عن توجه سياسة بيبرس منذ البداية للاهتمام بالأسطول .

وعلى أية حال ، فان بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقى للأسطول المملوكى ؛ فقد أولى اهتماماً كبيراً بالأسطول ودور صناعة السفن المصرية فى الفسطاط وجزيرة الروضة فى نيل القاهرة ، وفى الاسكندرية ودمياط . وكان يشرف بنفسه على بناء السفن العسكرية لأسطوله ، بل كان هو وأمراؤه يساعدون فى بنائها وتجهيزها وربما يستقبل بعض السفراء فى دار صناعة السفن وهو مشغول بتجهيز سفن أسطوله الحربى (٣٩).

كان الجيش يحتاج إلى رجال مثلما يحتاج إلى أسلحة وعتاد ، وقد حرص بيبرس على الإكثار من شراء المماليك من بنى جنسه القفجاق ، إذ " ... مالت الجنسية إلى الجنسية " على حد تعبير المؤرخ أبى العباس القلقشندى . وربما كانت العلاقات الودية الوطيدة بين بيبرس وبركة خان ، حاكم القفجاق ، هى التى يسرت سبيل الحصول على المماليك القفجاق من ناحية، كما أن الهجرات المغولية الكثيرة إلى مصر كانت مورداً إضافياً من ناحية أخرى . كذلك كانت علاقاته الودية مع الإمبراطور البيزنطى تسهل مرور السفن التى تحمل أولئك المماليك . ولما

---

٣٩ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٧٧ ، ص ٥٩٥ .

كانت بلاد القفجاق بلاداً رعوية شحيحة الموارد ؛ فقد كان أهلها من الرعاة الرحل الذين يمضون الصيف فى منطقة والشتاء فى منطقة غيرها ، وكانت وطأة الفقر والحاجة تجعلهم يبيعون أبناءهم وبناتهم مقابل مبلغ من المال أو كمية من الغلال . ومن ناحية أخرى ، كان أولئك الرعاة الفقراء محاربين جسورين ؛ فكانوا يغيرون على جيرانهم من الجراكسة والروس والمجر واللان ويسبون أعداداً منهم يبيعونهم فى أسواق الرقيق العالمية .

على أية حال ، استطاع السلطان الظاهر بيبرس تكوين جيش قوى بلغت عدته أربعين ألف فارس ، وهو رقم ضخم بمقاييس ذلك الزمان ؛ لاسيما إذا عرفنا أن الفارس المدرع كان له تأثير نفسى على المشاه فى ميدان القتال يشابه تأثير الدبابة فى زماننا ، وقد تكون الجيش المملوكى من عدة أقسام على النحو التالى :(٤٠)

المماليك السلطانية : كانوا يعسكرون بالقاهرة ويصحبون السلطان فى حروبه وأسفاره وكانوا يؤلفون القوة الرئيسية فى جيش سلاطين المماليك . وعادة ما كانت المماليك السلطانية تتألف من مماليك السلطان الذين اشتراهم ، وتتكاثر أعدادهم حين ينضم إليهم مماليك أسلافه من السلاطين ، أو من يقعون تحت طائلة غضب السلطان فيصادر ممتلكاتهم ويضم مماليكهم إلى المماليك السلطانية . بيد أن العلاقة بين السلطان والمماليك الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم كانت أقوى ، بطبيعة الحال ، من العلاقة بينه وبين غيرهم من المماليك . من ناحية أخرى ، كان السلاطين يولون عناية كبيرة لتربية مماليكهم وتدريبهم ؛ لأنهم كانوا بمثابة الحرس السلطانى الخاص . كما كان السلطان يختار لهم أعلى الوظائف قدرا وأكبرها إقطاعاً سواء فى البلاط أو الجهاز الحكومى (٤١) .

جيوش الأمراء : كانت تشكل الجزء الثانى من الجيش المملوكى العام . إذ كانت للأمراء الكبار وولاة الأقاليم جيوش صغيرة تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمئة وثمانمائة مملوك . وغالبا ما كانت جيوش أمراء المماليك تتمركز خارج العاصمة (٤٢) .

---

٤٠ - عن هذا الموضوع بالتفصيل أنظر :
محمود نديم أحمد ، الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى ، (الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٣) ، ص ٦٧ - ص ١٣٣ .

٤١ - قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى - عصر سلاطين المماليك ، (طبعة دار الشروق ١٩٩٤) ، ص ١٣ - ص ١٤ .

٤٢ - ذكر المقريزى ، (السلوك ، جـ ١ ، ص ٥١٩) أن رسل الملك بركة خان شاهدوا عرض الجيش =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أجناد الحلقة : هذا القسم الثالث من أقسام الجيش المصرى فى عصر سلاطين المماليك كان يتألف من المقاتلين الأحرار من أبناء المماليك ، الذين عرفوا فى مصطلح ذلك العصر باسم " ولاد الناس " ، والأعراب والتركمان ، وبعض المصريين الذين انضموا للجيش . والجدير بالذكر ن أجناد الحلقة فقدوا أية أهمية عسكرية فى الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك ؛ بل إن لكثيرين منهم تعرضوا لقطع إقطاعهم أو " جامكيتهم " (أى رواتبهم الشهرية) فى أواخر ذلك العصر (٤٣) . وقد كان أجناد الحلقة بمثابة قوات الحرس الوطنى فى عصرنا الحالى ، كما كانوا أحيانا يقومون بدور قوات الاحتياط التى يتم تجنيدها واستدعاؤها للمعارك الكبرى .

هكذا ، أتم السلطان الظاهر بيبرس بناء الجيش والأسطول ، وتحصين مناطق الحدود ، وتنظيم وسائل الاتصال ونقل المعلومات من خلال نظام البريد ، وبقى أن يبدأ العمل العسكرى ضد الصليبيين والمغول .

اتسمت سياسة بيبرس تجاه الصليبيين بالعنف والشدة . ويقول المؤرخ تقى الدين المقريزى : " لما خلا بال السلطان من هم الملك المغيث (صاحب الكرك) ، توجه بكليته إلى الفرنج..."(٤٠) ولم يكن ممكناً لبيبرس أن ينتهج سياسة المهادنة تجاه الفرنج الصليبيين وإلا فقدت دولته مبرر وجودها ؛ فقد كان الصليبيون هم العدو الأشد خطراً على العالم العربى الإسلامى ، كما أنهم ساعدوا المغول أحيانا ضد المسلمين وإذا كانوا قد ترددوا أحيانا ، ولم ينحازوا تماماً للقوات المغولية فذلك لأن قواهم قد وهنت من ناحية ، ولأن محاولات الغرب الأوربى للتحالف مع المغول قد فشلت من ناحية أخرى . بيد أن هذا لم يمنع بعض الصليبيين من إنزال بعض القوات المغولية فى حصونهم ، ولكنهم ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم خاضعين ، فى حصونهم ، لإرادة الخان المغولى (٤٥) .

المصرى سنة ٦٦٢ هجرية . وهالتهم كثرة العساكر ، فسألوا هل هى عساكر مصر والشام ، فقيل لهم : " هذا عسكر مصر فقط ، غير من فى الثغورمثل اسكندرية ودمياط ورشيد وقوص ، والمجرّدين والذين سافروا فى إقطاعاتهم فكثر تعجبهم من ذلك " .

٤٣ – ابن الصيرفى ، إنباء الهصر بأنباء العصر ، صفحات ٢٣ – ٢٤ ، ٣٣ – ٣٤ ، ٤٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ ٣ (طبعة محمد مصطفى) صفحات ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٧ .

٤٤ – المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٨٣ .

٤٥ – أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢٢٢ .

فى سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥م بدأت عمليات الظاهر بيبرس العسكرية ضد الصليبيين ؛ ففى رابع ربيع الآخر من هذه السنة توجه إلى بلاد الشام ، وهاجم قيسارية وحاصرها حتى تم فتحها عنوة فى ٨ جمادى الأولى ، ثم استولى على أرسوف فى رجب من السنة نفسها (٤٦) . وكانت تلك مجرد بداية لغارات بيبرس وحملاته ضد الصليبيين ، فمنذ تلك السنة بدأ هجوم دولة سلاطين المماليك ضد الصليبيين ، ولم ينته إلا بالقضاء عليهم تماما بعد حوالى ثلاثين سنة فى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون . وكثيرا ما لجأ بيبرس إلى عقد المعاهدات والاتفاقيات مع بعض القوى الصليبية كى يضمن النجاح لعملياته العسكرية ضد البعض الآخر؛ بيد أنه كثيرا ماكان ينقض هذه المعاهدات والاتفاقيات.

وفى العام التالى مباشرة استولى على قلعة صفد ، معقل فرسان الداوية ، وكان بيبرس يقود جيوشه بنفسه فى هذه العمليات . وفى أثناء القتال ضد صفد كان يقوم بالأعمال البدنية لاستثارة حماسة جنوده ؛ إذ كان يجر الأخشاب " .. مع البقر " لبناء المجانيق اللازمة للحصار(٤٧) . وعندما تم الاستيلاء على صفد أمر السلطان باعدام حاميتها من فرسان الداوية الذين ارتكبوا الكثير من المذابح والفظائع فى حق المسلمين (٤٨) ، وعاد بيبرس إلى القاهرة فى أخريات عام ١٢٦٦ م ؛ لكنه مالبث أن غادر العاصمة بعد أربعة شهور فحسب لكى يواصل القتال ضد الفرنج الذين باتوا يرتجفون هلعاً وخوفاً كلما سمعوا بقدوم الظاهر بيبرس بجيشه إلى بلاد الشام . وفى هذه المرة سارعت رسلهم للقاء السلطان فى غزة ، ومعهم الهدايا وعدد من أسرى المسلمين ، فى محاولة لاسترضائه ثم رحل إلى دمشق ليعود بسرعة إلى صفد من أجل تقوية دفاعاتها . ووصل رسل الفرنج إلى السلطان " ... وهو على صفد ، وشاهدوا من أمرها واهتمام السلطان بها ... وأمر السلطان العساكر بالركوب خفية للغارة ،

---

٤٦ - ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية ، ص ١٠٧ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ١ ،ص٣٩٦-ص ٣٩٨

٤٧ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٥٤ - ص ٢٦٣ .

٤٨ - يقول ابن عبد الظاهر ، كاتب سيرة الظاهر بيبرس : " ... وأحضرت خيالة الديوية والاسبتار ، وجميع من أخرج من صفد من الفرنج ، فضربت رقابهم على تل قريب صفد ، فى مكان كانوا يضربون فيه رقاب المسلمين ، ولم يسلم منهم غير نفرين ؛ أحدهما الرسول بحكم أن السلطان كان شرب قمزا فى النقب وخرج إليه هذا الرسول فسقاه منه فعفى السلطان عنه ، وأسلم على يده ... " .

أنظر : الروض الزاهر ، ص ٢٦٠ - ص ٢٦٥ .

وركب السلطان . وكان الفرنج قد أطمأنوا بارسال رسلهم إليه ، فما أحسوا إلا بالعساكر قد وصلت إليهم..."(٤٩) .

هكذا بغت بيبرس الفرنج أمام عكا ، بعد أن تخفى جنوده فى زى فرسان الداوية والاسبتارية الصليبيين . ونتج عن هذا الهجوم توقيع بعض معاهدات الهدنة مع بعض زعماء الفرنج مثل أمير صور ، وأمير بيروت ، وفرسان الاستبارية فى كل من حصن الأكراد ، وحصن المرقب . وفى العام التالى ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م غادر بيبرس القاهرة مرة أخرى لقتال الفرنج حيث تمكن من الاستيلاء على مدينة يافا بفلسطين ، ثم استولى على حصن منيع آخر هو حصن الشقيف أرنون (٥٠) ، الذى أسلم قياده لبيبرس بعد حصار استمر طوال فترة لاتقل عن شهرين.

كانت سياسة بيبرس تجاه الصليبيين فى فلسطين وبلاد الشام تقوم على محاولة الإفادة من منازعاتهم وخلافاتهم الداخلية ؛ ولذا فانه كان يهادن بعض أمرائهم دون البعض الآخر حتى تتوفر له حرية الحركة ضدهم جميعاً . وفى البداية ، ركز الظاهر بيبرس جهوده العسكرية ضد الفرنج ومستوطناتهم وحصونهم على سواحل بلاد الشام الشمالية والجنوبية . وبعد مناورة كبيرة قامت بها جيوش هذا السلطان الداهية ، والقائد العسكرى الفذ ، فوجىء الفرنج الصليبيون بالقوات المصرية تفرض حصارها على مدينة أنطاكية المحصينة تعاونها الجيوش الشامية .

كانت هذه المدينة تحتل مكانة خاصة لدى الصليبيين بسبب مناعة حصونها ، وبسبب تحكمها فى الطرق الواقعة فى مناطق شمال الشام . وقد فشل البيزنطيون فى انتزاعها من الصليبيين الذين استولوا عليها فى خضم أحداث الحملة الصليبية الأولى . وربما يكون من المهم هنا أن نشير إلى أن قوات الفرنج لم تتمكن من أخذ المدينة الحصينة فى الحملة الأولى سنة ١٠٩٨ م بالقوة العسكرية ، وإنما فتح أحد الخونة من حراس أبوابها - بعد أن جنده بوهيموند - أبواب واحد من أبراج المدينة للقوات الفرنجية قبل فجر يوم اقتحامها .

---

٤٩ - المصدر نفسه ، ص ٢٨١ - ص ٢٨٢ .

٥٠ - العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص ١٩ - ص ٢١ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، الدرة المزكية ، ص ١٢٤ - ص ١٢٦ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٦٤ - ص ٥٦٦ .

على أية حال ، تمكنت الجيوش المصرية والشامية ، بقيادة الظاهر بيبرس ، من اقتحام المدينة سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م [٥١]. وفرت حاميتها إلى القلعة حيث طلب الصليبيون الأمان من السلطان ، واستولى المسلمون على المدينة التى ظلت رهن الأسر الصليبى منذ الحملة الصليبية الأولى ؛ أى على مدى أكثر من مائة وخمسين سنة . ويبدو من كلام المصادر التاريخية أن الغنائم كانت وفيرة جدا ، إذ يذكر المقريزى أن غنائم المسلمين فى أنطاكية بلغت من الكثرة أن " ... قُسمت النقود بالطاسات ... " وكان الأسرى كثيرون لدرجة أنه " ... لم يبقْ غلام إلاّ وله غلام ... وبيع الصغير باثنى عشر درهما ، والجارية بخمسة دراهم..."[٥٢].

وعلى صعيد المواجهة بين المسلمين والفرنج كان سقوط أنطاكية بأيدى قوات مصر والشام بقيادة السلطان الظاهر بيبرس أعظم فتح حققه المسلمون على حساب المستوطنين الفرنج منذ استرداد صلاح الدين الأيوبى لبيت المقدس سنة ١١٨٧م . وهكذا أكد بيبرس جدارته وجدارة دولته بالدور التاريخى الذى تعلق بهما ؛ فقد نجحت دولة سلاطين المماليك فى أول اختبار لجدارتها بدور القوة المدافعة عن العالم الإسلامى . لقد كان فرح المسلمين عظيما باسترداد أنطاكية من أسر الفرنج ، وكتبت البشائر إلى بلاد الشام ومصر بهذا الفتح ، وتلقاه سكان هذه البلاد بالأفراح والزينات التى أقاموها فى الشوارع والأسواق . كانت أنطاكية التى استولى عليها الفرنج سنة ١٠٩٨ م ، واستردها المسلمون سنة ١٢٦٨ م ، هى المسمار الذى دقه المسلمون فى نعش الوجود الصليبى على الأرض العربية . كذلك كان سقوط أنطاكية بمثابة إعلان جديد لحركة الجهاد الكبرى ، التى كانت المنازعات الأيوبية الداخلية قد تسببت فى توقفها ، ثم جاءت دولة سلاطين المماليك بقيادة السلطان الظاهر بيبرس لتعاود القيام بها . وهى الحركة التى لم تنته سوى ١٢٩١ م عندما نجحت القوات المصرية تحت قيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاون فى القضاء على بقايا الفرنج الذين كانوا قد تجمعوا فى عكا .

أما الفرنج ، فقد جاءت أنباء سقوط أنطاكية بأيدى المسلمين بمثابة الكارثة على رؤوسهم . ونظراً للوحدة التى تمتعت بها الجبهة العربية الإسلامية آنذاك ، والتى جعلت الجهود الإسلامية بقيادة بيبرس تتسم بالجسارة والإقدام ، فقد كان من الطبيعى أن يشعر الفرنج بالضعف

---

٥١ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٦٧ - ص ٥٦٨ .

٥٢ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٦٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والخوف فى مواجهة المسلمين . ومن ثم ، سارع بعض حكام المستوطنات الصليبية إلى تقديم فروض الطاعة والولاء لسلطان المملوكى فى محاولة واضحة لاسترضائه . إذ أن حاكم عكا أرسل يطلب عقد هدنة مع السلطان بيبرس مقابل أن يتنازل عن نصف أملاك التاج الصليبى فى عكا (٥٣). وعلى الرغم من أن الملك الصليبى لم يُقر هذه المعاهدة بشكل نهائى ، فان سكون الحال بسببها أطلق يد السلطان بيبرس ضد بعض القوى الصليبية الأخرى ؛ فهاجم إمارة طرابلس الصليبية ؛ فاستولى على كافة المنافذ المؤدية إلى مدينة طرابلس نفسها . ولكن الأنباء التى جاءت بخروج حملة صليبية جديدة من فرنسا جعلت الملك يعود مسرعاً إلى القاهرة لكى يستعد لمواجهة الفرنج الذين أحرز النصر عليهم فى المنصورة وفارسكور قبل عشرين عاماً. بيد أن الحملة توجهت إلى تونس حيث مات زعيمها لويس التاسع الذى كان المصريون قد أسروه فى مدينة المنصورة من قبل (٥٤).

وهكذا عاد بيبرس ، مرة أخرى ، إلى بلاد الشام بعد أن انتهت حملة لويس التاسع على تونس بالفشل الذريع . وفى سنة ١٢٧١ م كانت قوات بيبرس تقاتل إمارة طرابلس الصليبية من جديد ، وإزاء تطور الأحوال السياسية بوصول الأمير إدوارد الإنجليزى إلى عكا على رأس قوة صليبية جديدة قوامها ثلاثمائة فارس وثلاثمائة سفينة ، غير القوات التى كانت قد سبقته إلى بلاد الشام ، شدد بيبرس هجومه على طرابلس حتى طلب أميرها الصليبى عقد هدنة مع السلطان ، وتم الاتفاق على ذلك (٥٥). بين السلطان الظاهر بيبرس والأمير بوهيموند السادس أمير طرابلس . وتذكر المصادر التاريخية أن بيبرس سخر من جبن الأمير الصليبى وأمره أن

---

٥٣ - ذكر ابن عبد الظاهر (الروض الزاهر ، ص ٣٣١ - ص ٣٣) مانصه :

" ... وحصل الإتفاق بين السلطان وبين هذا الملك على شيء يسير ، وهو مدينة عكا وبلادها ، وهى إحدى وثلاثون ضيعة ، وتقرر أن تكون صيدا للفرنج ، ولها ثلاث ضياع ، وبقية بلادها مناصفة ، وبلاد الكرمل تكون مناصفة ، وعثليث يكون لها خمس قرى والباقى مناصفة ، والقرين عشر قرايا ، والباقى للسلطان ، وبلاد صيدا ، الوطاة للفرج والجبليات للسلطان ، واتفق الصلح على مملكة قبرص ... " .

٥٤ - Joseph R . Strayer , " The Crusades of Louis IX " , in Setton A History of the Crusades , Vol . II , pp . 509 - 518 .

٥٥ - كتبت الهدنة لمدة عشر سنين ؛ انظر : ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٨٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٩٢ - ص ٥٩٣ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، ص ٣٣١ - ص ٣٣٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يدفع نفقات الحملة التي جردها ، ورفض بوهيموند مما كاد أن يؤدى إلى فشل مفاوضات الهدنة(٥٦) .

بعدها ، لم تعد بيد الفرنج فى بلاد الشام أية قلاع أو حصون فى الداخل . ثم أرسل بيبرس حملة بحرية على قبرص ولكنها فشلت بسبب سوء أحوال البحر (٥٧).

واذا كانت حملة الأمير إدوارد الإنجليزى تعتبر آخر حملة صليبية يقودها أمير أوربى صوب فلسطين(٥٨)، فان اتفاقية بيبرس مع أمير طرابلس كانت خاتمة لجهوده الكبيرة ضد الفرنج الصليبيين ، ففى سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م تم عقد هدنة عامة مع الصليبيين الذين سعوا إلى هذه الهدنة وألحوا فى طلبها (٥٩). وبعد ذلك كانت المعارك التى خاضها بيبرس ضد الفرنج فى بلاد الشام وفلسطين ذات طابع محلى محدود مما جعلها قليلة الأثر والأهمية فى الصراع المستمر بين المسلمين وأعدائهم الفرنج .

ولنتحدث الآن بشىء من التفاصيل عن الحملة البحرية التى جردها السلطان بيبرس ضد قبرص ، والتى أشرنا إليها باختصار . فقد أدرك بيبرس مدى أهمية قبرص بالنسبة للصليبيين فى جبهة أخرى غير بلاد الشام . ففى سنة ١٢٦٩م كان هيو الثالث لوزينيان قد صار ، عن طريق المصاهرة ، ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية فى عكا (٦٠). إذ كان هيو الثالث هذا يرى نفسه جديراً بزعامة الصليبيين ؛ ومن ثم قرر أن يضع هذه الزعامة موضع التنفيذ . ففى سنة ١٢٦٥م ، عندما كان مايزال وصياً على عرش المملكة ، أرسل قوة كبيرة لمساندة الصليبيين بالشام فى مواجهة هجمات جيوش السلطان الظاهر بيبرس ؛ ولكن هذه القوة التى قدرها المؤرخ تقى الدين المقريزى بألف وخمسمائة فارس لم تتمكن من فعل شىء لنجدة قيسارية وحيفا وأرسوف التى استولى عليها الجيش المصرى ، كما أوضحنا من قبل . ومن

---

٥٦ - S . Runciman , " The Crusader States 1243 - 1291 " , in : Setton , A Hist . of the Crusades , Vol . II . , pp . 580 - 582 .

٥٧ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٩٣ - ص ٥٩٤ .

٥٨ - S . Runciman , op . cit . , pp . 582 - 583 .

٥٩ - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

٦٠ - Elizabeth Chopin Furber , " The Kingdom of Cyprus 1191 - 1291 " , in : Setton (ed.) , A Hist . of the Crusades , Vol . II , pp . 613 - 616 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ناحية أخرى ظلت السفن القبرصية تقوم بأعمال القرصنة ضد سفن المسلمين على نحو هدد حركة التجارة والسفر فى البحر المتوسط بشكل خطير .

وبعد أن جمع هيو الثالث لوزينان بين عرش قبرص وعرش مملكة بيت المقدس اللاتينية سنة ١٢٦٩ م ، تصاعد نشاطه العدوانى ضد المسلمين تصاعداً خطيراً . ولم تكن قوات بيبرس فى تلك السنة على استعداد للقيام بأى عمل عسكرى ضد هذا الملك ، فاكتفى بأن وجّه نقداً مريراً لساسة هيو الغادرة ، وهدد زعماء الفرنج فى الشام بتأديب هيو بما يستحق .

فى سنة ١٢٧٠م شن الأسطول المصرى غارة على سواحل قبرص . وكانت القوات المشتركة فى هذه الغارة مكونة من سبع عشرة سفينة بقيادة ابن حسّون ، وعلى الرغم من أن السفن الإسلامية قد عمدت إلى الخداع عندما طلاها قائدها بالقار ورسم عليها الصلبان لتضليل أهل قبرص ، فان عاصفة شديدة دمرت إحدى عشرة سفينة من الأسطول ، وتم أسر من كان على متنها من الجنود والملاحين والقادة على حين عادت السفن الست الباقيات ، بقيادة ابن حسون، إلى الموانىء المصرية [٦١].

وعندما علم هيو بنبأ الغارة البحرية الفاشلة أرسل رسالة شامتة إلى السلطان بيبرس . وجاء فى رد بيبرس على ملك قبرص وبيت المقدس " ... وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب ، والاستيلاء على الحصون المنيعة هو العجب ... وما النصر بالهواء مليح ، وإنما النصر بالسيف هو المليح ... ونحن تُنشى فى يوم واحد عدة قطايع { سفن } ، ولا ينشأ لكم من حصن قطعه ... وكل ما أعطى مقذافاً قذف ، وما كل من أعطى السيف أحسن الضرب به أو عرف ... " [٦٢] ومع ذلك فان بيبرس تمكن من تهريب قادة حملته البحرية التى حطمتها العاصفة من داخل سجن قلعة عكا حيث كان الملك الصليبى قد أمر بسجنهم .

كانت جبهة القتال الثانية التى تولى السلطان بيبرس قيادة جيوش مصر والشام فيها هى جبهة الحرب ضد المغول . وعلى الرغم من أننا نعتقد أن المغول الوثنيين لم يكونوا خطراً حقيقياً على العالم الإسلامى فى المدى الطويل ، بسبب وثنيتهم وبداوتهم التى لم تكن لتصمد أمام

---

٦١ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٨٧ - ص ٣٨٨ .

٦٢ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٩٤ . أنظر هامش ٣ فى نفس الصفحة حيث أورد الدكتور محمد مصطفى زياده نص رسالة بيبرس . أنظر أيضا : العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص ٧٤ - ص ٧٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدين الإسلامى والحضارة العربية الإسلامية ، فان وحشيتهم وروحهم العسكرية كانت بالفعل خطراً داهما على المسلمين فى حينها . ومن ناحية ثانية كان الغزو والحرب محور الحياة المغولية منذ جنكيز خان ، كما أن هزيمتهم فى عين جالوت لم تنهْ خطرهم على حدود دولة سلاطين المماليك الناشئة . والأمر الثالث يتمثل فى حقيقة مؤداها أن سلاطين المماليك ، منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس ، قد باتوا مسئولين عن حماية العالم الإسلامى ؛ ألم يأخذ بيبرس تفويضاً من الخليفة العباسى فى القاهرة بحكم بلاد المسلمين ؟ ومن ثم صارت دولته هى المسئولة عن حماية هذه البلاد ؟ هذه المسئولية هى التى جعلت بيبرس يهتم بمحاربة المغول الذين كان الحال قد استقر بهم فى بلاد فارس والعراق .

من ناحية أخرى ، كان هناك خطر محتمل يخشاه بيبرس . ذلك أن محاولات كانت قد جرت بالفعل للتحالف بين المغول والصليبيين . فقد أرسل أبغا بن هولاكو (١٢٦٥ - ١٢٨٢م) سفراء إلى البابا كليمنت الرابع سنة ١٢٦٧ م ، وإلى الملك جيمس الأول ملك أراجون بعدها بسنتين وإلى مجمع ليون سنة ١٢٧٤ م يقترح القيام بحملات مشتركة ضد سلطنة المماليك عدوهم المشترك . كما أن البابا نيكولاس الرابع التقط الفكرة وخاطب المغول فى شأن التحالف ، بيد أن الأمر لم يتعد حدود تبادل السفارات والمفاوضات (٦٣).

ولمجابهة هذا الخطر الماثل قام بيبرس بالتحالف مع بركة خان زعيم قبيلة الذهبية كما أشرنا من قبل ، وتزوج إبنة هذا الزعيم المغولى المسلم لتقوية أواصر التحالف بينهما هذا الحلف المملوكى / المغولى آتى ثماره عندما أخذ بركة خان يحارب بقية المغول الوثنين . وفى سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م وردت رسالة من بركة خان إلى السلطان الظاهر بيبرس جاء فيها طلب المساعدة ضد هولاكو " ... وأننى قد قمت أنا وأخوتى الأربعة لحربه من سائر الجهات ، لإقامة منار الإسلام ، وإعادة مواطن الهدى إلى ما كانت عليه من العمارة ، وذكر الله والآذان والقراءة والصلاة وأخذ ثأر الأئمة والأمة ... " (٦٤). وقد ردّ بيبرس على رسالة بركة خان بسفارة تحمل خطابات الود والهدايا الثمينة وقد حكى سفراء بيبرس ، عند عودتهم إلى

---

٦٣ - Clude Cahen , " The Mongols and the Near East " , in : Setton : A Hist of the Crusades , Vol . II , pp . 722 - 723 .

٦٤ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٧٠ - ص ١٧١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر، أنهم شاهدوا فى بلاط بركة خان إماماً ومؤذناً خاصاً لكل أمير ، أو أميرة ، فى بلاط بركة خان ، وأنهم شاهدوا الأطفال يحفظون القرآن ببلاد القفجاق (٦٥).

كان هذا التحالف بمثابة خط الدفاع الأول لدولة سلاطين المماليك ضد هجمات مغول فارس الوثنيين ؛ ولهذا السبب اتسمت هجمات مغول فارس ضد بلاد الشام بالسرعة والرعونة كما افتقرت إلى الشمول والعنف الذى ميز الهجمات المغولية التى سبقت معركة عين جالوت .

فى سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م أغار مغول فارس على قلعة البيرة الهامة الواقعة على ضفاف نهر الفرات ، وحاصرت قوات المغول حاميتها بغية الاستيلاء عليها ؛ فجهز السلطان من فوره الأمير بدر الدين الخازندار على البريد ليخرج أربعة آلاف فارس من بلاد الشام . وركب السلطان بيبرس بنفسه متوجهاً إلى القلعة (٦٦). ولكن رسالة وردت إليه لتخبره بفرار المغول عندما شاهدوا القوات التى أرسلها . وعلى الرغم من ذلك ، أمر بيبرس بتدعيم التحصينات فى هذه القلعة الهامة بحيث تصمد للحصار حتى لو امتد عشر سنوات . وعندما أرسل الأمراء يصفون ما تكبدوه من مشقة لتحصين قلعة البيرة ، كان هو يعمل فى هدم أسوار قيسارية التى استولى عليها من الصليبيين كما ذكرنا من قبل ، فبعث إليهم برسالة تقول "... إنا بحمد الله ما تخصصنا عنكم براحة ولادعة ، ولا أنتم فى ضيق ونحن فى سعة . ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار ، وناقل الأحجار ومرابط الكفار . وقد تساوينا فى هذه الأمور ، وما ثم ما تضيق به الصدور " (٦٧).

وفى السنة نفسها مات هولاكو زعيم مغول فارس ، ولكن وفاته لم توقف تيار المشاعر العدائية المتبادل بين سلطنة المماليك فى مصر والشام وبين مغول فارس . ذلك أن ابن هولاكو وخليفته المدعو أبغا كان حريصا على دعم صلاته بالقوى المسيحية ، سواء فى الدولة البيزنطية أو البابوية ودول غرب أوربا ، بقصد تطويق العالم الإسلامى عامة ، ومحاربة دولة سلاطين المماليك على نحو خاص . وفى عهده كثرت السفارات بين المغول والبابوية التى رأت فى

---

٦٥ - العينى ، عقد الجمان ، جـ ١ (عصر سلاطين المماليك) ، ص ٣٦٠ - ص ٣٦٣ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، ص ١٠٥ - ص ١٠٦ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٩٧ - ص ١٠١ .

٦٦ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٢٣ - ٥٢٥ .

٦٧ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٢٤ - ص ٥٢٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المغول أداة تمكنها من تحقيق مآربها وأهدافها التى فشلت الحملات الصليبية فى تحقيقها ، كما شهدت بلاطات ملوك الغرب الأوربى سفراء المغول بملابس الغريبة وملامحهم الصارمة . وكانت أنباء هذه السفارات والاتصالات ، التى كانت مملكة أرمينيا الصغرى طرفاً فيها ، تصل إلى السلطان بيبرس فيأخذ حذره ويُعد نفسه لمواجهة هذه المخاطر مجتمعة أو فرادى .

وقد حاول أبغا بن هولاكو نفسه أن يعقد صلحاً أو هدنة مع بيبرس مرتين ، ولكن بيبرس رفض (٦٨). ثم استأنف أبغا سياسته العدوانية تجاه دولة سلاطين المماليك مرة ثانية : ففى سنة ١٢٦٩ م اتفق المغول مع الصليبيين وشنّت قوات أبغا هجوماً على المناطق القريبة من حلب ، وحين أسرعت القوات المصرية تحت قيادة السلطان إلى بلاد الشام انهزم المغول وارتدوا عن هذه المناطق . وفى سنة ١٢٧١ م عاودت القوات المغولية الهجوم ضد المسلمين فى بلاد الشام، ولكن الهزيمة كانت من نصيب المغول فى هذه المنطقة القريبة من حران على الرغم من أن الصليبيين حاولوا تخفيف العبء عن حلفائهم المغول بالهجوم على بعض المناطق العربية ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم أيضاً (٦٩).

فى تلك الأثناء كانت أحوال الصليبيين متدهورة إلى أدنى حد ، وقد رد المسلمون على فعلة الفرنج بمهاجمة عكا ، وسارع الفرنج إلى طلب الهدنة ووافق بيبرس على طلبهم بعقد هدنة لمدة عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام - كما أوضحنا من قبل - لكى يحرم المغول من حليفهم الصليبى . ولذلك بعث أبغا بن هولاكو رسله يحملون عرضاً جديداً بالصلح . وبعد مفاوضات ومناوشات عسكرية لاستعراض القوة بحيث يتم التأثير على شروط الصلح ، فشلت هذه المحاولة (٧٠) وفى سنة ٥٧١ هـ / ١٢٧٣ م هاجم التتار البيرة والرحبة : فخرج السلطان للقائهم حتى وصل الفرات عند مخاضة تُعرف باسم " مخاضة الحمام " وجرت معركة عنيفة انكسر بعدها جيش التتار شر كسرة (٧١).

---

٦٨ - نفسه ، جـ ١ ، ص ٥٤ .

٦٩ - ٦٩ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٨٤ - ص ٥٨٥ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣ ، ص ١٨٧ - ص ١٨٩ .

٧٠ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٤٠٤ .

٧١ - نفسه ، ص ٤٠٥ - ص ٤١١ ؛ ابن أيبك الدواداري ، كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ١٦٩ - ص ١٧١ .

أدت هزيمة المغول على هذا النحو المشين إلى موقف سياسى وعسكرى جديد ؛ فقد أخذ أبغا يبحث لنفسه عن حليف جديد ، ووجد ضالته فى سلاجقة الروم بآسيا الصغرى . وهكذا انتقل الصراع الإسلامى / المغولى إلى جبهة جديدة فى الشمال حيث قامت مملكة سلاجقة الروم التى كانت تابعة للمغول وتحت حمايتهم منذ أيام هولاكو ، والحاكم فيها هو الوزير معين الدين سليمان البرواناه (أى الحاجب) .

فى سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٧ م وفدت على السلطان الظاهر بيبرس وهو بدمشق عدة من أمراء سلاجقة الروم مغاضبين للبرواناه ، وأكرمهم السلطان . ثم شرع السلطان فى تجهيز جيشه للإستيلاء على مملكة سلاجقة الروم . وورد الخبر على بيبرس بأن عساكر التتار ومقدمهم تتاوون ، وعسكر السلاجقة ومقدمهم معين الدين البرواناه . ودارت معركة عنيفة قرب أبلستين ، وهرب البرواناه بجنوده ، وهُزِم التتار شر هزيمة (٧٢). ثم دخل بيبرس إلى قيسارية عاصمة سلاجقة الروم وجلس على عرشها حيث استقبله الناس بحفاوة بالغة . ولما علم أبغا بالكارثة أسرع إلى الأناضول حيث شاهد جثث الآلاف من جنوده طريحة فى أرض المعركة ، ولم يتمالك نفسه وبكى بمرارة . ثم أمر بنهب تلك البلاد وقتل عدداً كبيراً من سكانها المسلمين لأنهم رحبوا بالسلطان بيبرس الذى قضى على جيشه ، كما قتل وزير البرواناه استجابة لرغبة نساء جنوده القتلى .

كانت هذه هى آخر أعمال السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى .. فبعد هذه الأحداث بوقت قصير توفى السلطان وهو فى قمة حياته الحافلة بالنشاط السياسى والعسكرى، فى الثامن والعشرين من شهر المحرم سنة ٦٧٦ هـ / ٣٠ يونيو ١٢٧٧ م ، بعد أن تجاوز الخمسين من عمره بعد فترة حكم طالت إلى سبع عشرة سنة وشهرين وإثنى عشر يوماً. وكانت وفاته بدمشق فدفن قرب داريا ببلاد الشام حسب وصيته .

هكذا جاءت نهاية بطل من أبطال تاريخ المسلمين ، كان ملء العين والقلب ، أحبه الناس ولهجوا بسيرته ، وأضافوا إليها الكثير من خيالهم لأنه كان يسير على طريق تحقيق أمانى الأمة ومحاربة أعدائها . وقد لخص المقريزى موقف المعاصرين من السلطان الظاهر بيبرس

---

٧٢ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٢٧ - ص ٦٣٠ .

بعبارة بليغة ؛ إذ يقول : " .... وبالجملة ، فقد كان من خير ملوك الإسلام "(٧٣) كما رثاه محيى الدين بن عبد الظاهر الذى كتب سيرته تحت عنوان " الروض الزاهر فى سيرة الملك الناصر " بقصيدة طويلة جاء فيها :(٧٤)

لهفى على الملك الذى كـــانت به   الدنيا تطيب فكل قفر منزل

الظاهر السلطان من كـــانت له   منن على كل الورى وتطـــول

لهفى على تلك العزائم كيف قد   غفلت وكانت قبل ذا لا تغفل

سهم أصاب ومارئى من قبله   سهم له فى كـــل قلب مقتل

ولا شك فى أن اهتمامنا بهذا السلطان الفذ له ما يبرره ؛ فقد تمكن باصلاحاته الإدارية وحكمته السياسية أن ينتزع لنفسه الدور الأساسى فى بناء دولة سلاطين المماليك . فقد مرت قبله سنوات عشر تقلبت فيها أحوال الدولة الناشئة التى كان نفوذها قاصراً على مصر ينازعها فيها الأيوبيون . ومات بعد سبع عشرة سنة فاذا سلطان دولة المماليك ممتد على كل المنطقة العربية ، وصوتها مسموع فى كافة أنحاء العالم المعروف آنذاك . لقد رسم أبعاد السياسة الداخلية والخارجية لدولة سلاطين المماليك ؛ وهى السياسة التى سار عليها خلفاؤه حتى تم القضاء على خطر المغول من ناحية ، واستئصال شأفة الوجود الصليبى على الأرض العربية من ناحية أخرى كما سنرى فى الصفحات القادمة .

لهذا أحبه المصريون وأهل الشام ، واشتهرت سيرته فى مجالسهم ومسامراتهم دون سائر السلاطين ؛ فصاغ الوجدان الشعبى سيرة رائعة لهذا السلطان أحلوه فيها منزلة هامة ورائعة وجعلوا كافة شخصيات تلك الفترة التريخية ، وما سبقها ، شخوصاً ثانوية فى خدمة البطل الظاهر بيبرس (٧٥) لقد صوّر الوجدان الشعبى الظاهر بيبرس فى هذه السيرة الشعبية كأنه

---

٧٣ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٤١ . وقد أورد بيتا قاله أحد الأدباء فى بيبرس :

يوما بمصر ويوما بالحجـــــاز   وبالشام يوما ويوما فى قرى حلب

وقال شاعر آخر :

تدبر الملك من مصر إلى يمن   إلى العراق وأرض الروم والنوبى

٧٤ - العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص ١٨٤ .

٧٥ - أنظر : سيرة الظاهر بيبرس التى سبقت الإشارة إليها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عصر بأكمله ، وليس مجرد إنسان فرد . وهكذا الشعوب ... تمنح حبها وتمجيدها بلاد حدود لمن أعطى وبذل فى سبيل تحقيق أهدافها ومصالحها بلا حدود .

بعد بيبرس ، تولى العرش ابنه " بركة خان " ؛ بيد أن هذه الولاية لم تكن عن إيمان من جانب أمراء المماليك بمبدأ وراثة الحكم . إذ أن نشأتهم العسكرية من ناحية ، والظروف التى ولدت فى غمارها دولتهم من ناحية أخرى ، جعلت المبدأ السياسى الذى يؤمن به الجميع هو "الحكم لمن غلب " . ومن ثم ، لم تكن ولاية الملك السعيد بركة خان ابن السلطان الظاهر بيبرس أكثر من مرحلة انتقالية ريثما يتم حسم الصراع لصالح أحد أمراء المماليك الكبار .

وكان السلطان الظاهر بيبرس قد سعى فى حياته لتوريث السلطنة لابنه الملك السعيد بركة(٧٦) ، وفى سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م ، ركب بيبرس وابنه بشعار السلطنة فى احتفال كبير حضره الأمراء والقضاة والفقهاء . وفى سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م زوج بيبرس ابنه الملك السعيد بركة من ابنة الأمير سيف الدين قلاون لكى يضمن له ولاء هذا الأمير وبقية المماليك بالشكل الذى يؤمن له عرش سلطنة المماليك .

على أية حال تولى ابنه عرش السلطنة ، بعد وفاته ، تحت إسم " السلطان الملك السعيد ناصر الدين بركة خان " فى شهر ربيع الأول سنة ٦٧٦ هـ . وخُطب له فى جميع الجوامع بالديار المصرية (٧٧) ومن خلال الوصية التى تركها بيبرس لابنه قبل وفاته ندرك أنه لم يكن واثقاً من أن أمر وراثة العرش سوف يتم فى سهولة . فقد أوصاه بالعنف ضد كل من يحاول أن يقف فى طريقه ، أو يعارض سلطته ، إذ قال فى وصيته : " ... إنك صبى ، وهؤلاء الأمراء الكبار يرونك بعين الصبى ، فمن بلغك عنه أنه يشوش عليك ملكك ، وتحققت ذلك ، فاضرب عنقه فى وقته ، ولاتعتقله ، ولا تستشر أحداً ، وأفعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك ".

---

٧٦ - فى شوال سنة ٦٦٢ هـ وردت الأخبار بقدوم جماعة من التتار المستأمنين ، وجماعة من الأتراك وأهل بغداد ، قاصدين باب السلطان الظاهر بيبرس . وقد خاف السلطان من أن تكون فى الأمر مكيدة ، فخرج بفرسانه للقائهم . وأشار بعض الأمراء بسلطنة الملك السعيد ، ابن السلطان ، ليكون بالديار المصرية .
أنظر :
ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٠٣ - ص ٢٠٩ .

٧٧ - العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص ١٨٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان عمر الملك السعيد بركة خان ، عندما اعتلى عرش السلطنة سبعة عشر عاماً . ولكن ابن السلطان بيبرس كان على النقيض من أبيه ؛ إذ كان مستهترا يميل إلى اللهو الشراب . وتغير السلطان الصبى على أمراء المماليك فنفرت منه قلوب الأمراء لاسيما الصالحية رفاق أبيه (٧٨)؛ مثل الأمير سيف الدين قلاون والأمير شمس الدين سنقر الأشرف ، والأمير علم الدين سنجر الحلبى وأقرانهم لأنهم كانوا يأنفون من سلطنة الملك الظاهر بيبرس عليهم " ... ويرون أنهم أحق منه بالملك ... " فصار ابنه الملك السعيد يحط من أقدارهم ، وقبض على عدد من كبارهم . ويقول المقريزى " ... واستغرق السلطان فى لذاته ، وبسط يده بعطاء الأموال الكثيرة لخاصكيته ، وخرج عن طريقة أبيه ... " (٧٩).

ثم تطورت الأمور بالشكل الذى أدى إلى حصار السلطان فى قعة الجبل بالقاهرة لمدة أسبوع، وأصر الأمراء المتمردون على أن يخلع السلطان نفسه ، فأذعن لطلبهم وحلف له الأمراء. وكانت مدة ملكه سنتين وشهرين وثمانية أيام (٨٠).

ورفض الأمير سيف الدين قلاون عرش السلطنة حين عُرض عليه خشية من مماليك السلطان بيبرس الذين كانوا يشكلون غالبية فرسان الجيش المصرى آنذاك ، وتظاهر بالزهد وقال : " أنا لم أخلع الملك السعيد شرها فى السلطنة وحرصاً على المملكة ، ولكن حفاظاً للنظام ، وأنفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصاغر ، والأولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر " . ومن ثم اختير الإبن الثانى لبيبرس ، وهو بدر الدين سلامش ، الذى كان فى السابعة من عمره فقط . وكان صغر سن السلطان الطفل هو الستار المناسب لتحركات الأمير سيف الدين قلاون صوب العرش . فبدأ يعيد ترتيب الساحة السياسية ، وتخلص من أعدائه الفعليين والمحتملين بالسجن . وتقاسم عرش دولة سلاطين المماليك مع السلطان الطفل ، ثم ما لبث أن عزله لينفرد بالحكم تحت دعوى أن حكم البلاد لايستقيم إلا برجل كامل (٨١).

---

٧٨ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٤٥ .

٧٩ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٥١ .

٨٠ - ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٢٢٨ - ص ٢٢٩ .

٨١ - العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص ٢٢٥ - ص ٢٢٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، ص ٤٠٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هكذا كان حكم بدر الدين سلامش ، الذى استمر مائة يوم ، مجرد توطئة لحكم السلطان سيف الدين قلاون الذى جاء تأكيدا جديدا لمبدأ " الحكم لمن غلب " . ولم يكن من المنتظر أن يخلص الحكم ، بطريق الوراثة ، لأبناء الظاهر بيبرس الذى انتزع الحكم بجسارته العسكرية وحنكته السياسية . وهكذا مضت دولة سلاطين المماليك على طريق الحكم العسكرى القائم على القوة ، وكان عليها فى الوقت نفسه أن تواصل الاضطلاع بدورها التاريخى فى التصدى للفرنج والمغول تحت زعامة السلطان المنصور سيف الدين قلاون وابنه الأشرف خليل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثامن

حكم أسرة قلاون ونهاية الوجود الصليبى

سيف الدين قلاون الألفى – متاعب البداية (ثورة سنقر الأشقر نائب الشام – القتال ضد المغول – العلاقات مع بقايا الفرنج – استرداد طرابلس – الأشرف خليل والقضاء النهائى على الصليبيين فى عكا – العلاقات مع النوبة – الناصر محمد بن قلاون – أبناء قلاون وأحفاده – بيت قلاون : هل كان حكما وراثيا ؟

تولى السلطان سيف الدين قلاون عرش سلطنة المماليك فى سنة ٦٧٨ هـ ١٢٧٩م . وهو السابع من سلاطين المماليك بالديار المصرية حسبما يذكر النويرى [١] . وهو من القفجاق من قبيلة أوغلى ، وتلقب بالملك المنصور . وكان مملوك الأمير علاء الدين آقستفر الساقى العادلى اشتراه بألف دينار فعُرف بالألفى . وكان واحداً من كبار المماليك البحرية زامل بيبرس فى القتال ضد قوات الحملة الصليبية السابعة فى المنصورة وفارسكور كما رافقه أثناء الهرب إلى بلاد الشام بعد مصرع الأمير فارس الدين أقطاى [٢]. ثم عاد ليقاتل المغول معه فى عين جالوت ، ثم تولى بيبرس عرش السلطنة وعمل قلاون فى خدمته ، ثم زوج ابنته لابنه الأكبر الملك السعيد بركة خان ، وتولى الوصاية على ابنه الأصغر بدر الدين سُلامش ، حتى إذا ما أيقن أن الأمور تجرى على هواه انفرد بالسلطة .

---

١ – النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ ٣١ (تحقيق الدكتور الباز العرينى) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ ، ص ٧ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، جـ ١ (تحقيق الدكتور محمد محمد أمين) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م ، ص ٤٨ .

٢ – أنظر الفصل الأول من هذه الدراسة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وما إن تولى عرش السلطنة حتى عاد مبدأ " الحكم لمن غلب " يطل بوجهه البغيض على الساحة السياسية ، ويفرض نفسه على الأحداث . إذ كان كبار الأمراء من المماليك البحرية يرون أنهم أحق بعرش سلطنة المماليك من سيف الدين قلاون لأن تاريخهم العسكرى لم يكن أقل تألقا من تاريخ قلاون نفسه . ومن ناحية أخرى ، غضب المماليك الظاهرية لأنه خلع بدر الدين سلامش - ابن أستاذهم الظاهر بيبرس - كما قبض على عدد منهم وأبعد البعض الآخر عن مناصبهم .

على أن أخطر عدو واجه قلاون فى تلك المرحلة كان هو سنقر الأشقر ، نائب دمشق ، الذى رفض أن يعترف بسلطنة قلاون ، ورفض أن يحلف له ، ثم جمع الأمراء وأوهمهم أن السلطان قد قتل ، ودعاهم إلى طاعته ، وتلقب بالملك الكامل (٣) وانضم إليه ولدان من أبناء السلطان بيبرس ؛ هما خضر وسلامش . وحاول قلاون أن يستميله بالملاطفة واللين ، ولكن سنقر تمادى فى عصيانه وحاول التحالف مع مغول فارس والعراق (٤) بعد أن هجره جنوده فى أول معركة ضد الجيش المصرى ونجا هو بأعجوبة ، على حين انضم عسكر الشام إلى عسكر مصر الذين حاصروا دمشق ثم فتحت بالأمان ولم يكن ضحايا هذا التمرد أكثر من إثنى عشر فارساً من الجانبين (٥). وعاد سنقر إلى القاهرة فى وقت لاحق ، وبذلك خضعت بلاد الشام لحكم المنصور سيف الدين قلاون بشكل نهائى .

بعد القضاء على الفتنة التى أثارها سنقر الأشقر ببلاد الشام ، تفرغ قلاون لمواجهة خطر المغول والصليبيين ، واستكمال المهمة التى كان بيبرس قد اضطلع بها من قبل . وكان قلاون قد عقد هدنة مع الصليبيين تبدأ سنة ١٢٨١م مدتها عشر سنوات لكى يتفرغ لترتيب أوضاع البلاد الداخلية من جهة ، وإخماد حركة العصيان التى أشعلها سنقر الأشقر من جهة أخرى(٦).

---

٣ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٧٠ .

٤ - يذكر ابن أيبك الدوادارى (كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٢٣٧) أن سنقر الأشقر كاتب علاء الدين الجوينى ، صاحب الديوان ببغداد والمستولى على بلاد العراق ، فكتب الجوينى بخبره إلى أبغا . ومن ناحية أخرى ، بعث إلى سنقر الأشقر " ... يُطيِّب خاطره ، ويعده ويمنيه حتى يعود جواب القان بما يعتمده ... " .

٥ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٧٦ - ص ٦٧٧ .

٦ - فى سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م وصل إلى السلطان رسل الفرنج يطلبون تقرير الهدنة ، والزيادة على الهدنة التى كان بيبرس قد عقدها معهم " ... ومازالوا يترددون إلى أن تقررت الهدنة بين السلطان وولده =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما بالنسبة للمغول فى فارس والعراق ، فقد انتهزوا فرصة الاضطراب الداخلى التى أعقبت وفاة السلطان الظاهر بيبرس وبدأوا يشنون هجماتهم ضد الأراضى الخاضعة لحكم سلاطين المماليك فى بلاد الشام . ولم يكن السلطان المنصور قلاون أقل إدراكا لحقائق الموقف السياسى فى المنطقة العربية من سلفه الكبير ؛ ولذلك سار على منهجه فى عقد المعاهدات مع مغول القفجاق المسلمين ، والإمبراطورية البيزنطية ، وصقلية وجنوة وقشتالة .

وعندما هدأت الأحوال فى الداخل ، استغل المنصور قلاون فرصة الهدنة التى عقدها مع الصليبيين ، وبدأ يخرج إلى بلاد الشام لقتال المغول الذين أغاروا على بلاد الشام بنفس الوحشية التى تميزت بها هجماتهم زمن هولاكو . وفى سنة ١٢٨٠م خرج المنصور قلاون للقاء المغول ولكنهم فروا بغنائمهم . وفى العام التالى اصطدم الجيش المملوكى بالمغول فى مرج حمص ودارت معركة رهيبة سنة ٦٨٠ هـ [٧]. ولقى المغول هزيمة منكرة ، وفر منكوتمر قائد الجيش المغولى إلى بغداد . وبعد ذلك بقليل تولى حكم مغول فارسى تكوادار شقيق آبغا بن هولاكو الذى مات سنة ٦٨١ هـ . وقد اعتنق تكودار بن هولاكو الإسلام وأظهر شعائره ببلاد التتار وتسمى أحمد سلطان تكودار[٨] .

فى عهد أحمد تكودار بدأت العلاقات تتحسن بين دولة سلاطين المماليك ودولة مغول فارس ؛ إذ أن الدين الإسلامى جمع بين الدولتين . ولعل هذا يؤكد ما سبق أن ذهبنا إليه من أن المغول لم يكونوا خطراً حقيقياً على العالم الإسلامى فى المدى البعيد ؛ لأنهم لم يلبثوا أن ذابوا فى هذا العالم وصاروا جزءا عضويا منه بعد أقل من جيل واحد . فمنذ معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠م ، وحتى وفاة أبغا بن هولاكو سنة ١٢٨٢م ، مرت إثنتان وعشرون سنة فقط ما أهونها فى حياة الشعوب والأمم . فى هذه الفترة تبدل الحال غير الحال ، وصار التتر الوثنيون المدمرون مسلمين متحمسين يدافعون عن دار الإسلام ويساهمون فى بناء حضارته .

معا ، ومع مقدم بيت الإسبتار وجميع الأخوة الإسبتارية بعكا لمدة عشر سنين كوامل متتابعات ، وعشرة شهور وعشرة أيام ، وعشر ساعات ... " كما عقدت هدنة مماثلة مع بوهيموند السابع أمير طرابلس . أنظر : النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣١ ، ص ٧٣ - ص ٧٧ .

٧ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٩٠ - ٦٩٩ .

٨ - ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص ٧٢ .

وقد بدأ أحمد تكودار يعلن عن رغبته فى علاقات المودة والصداقة مع المنصور سيف الدين قلاون ، سلطان مصر الشام والحجاز ، وأرسل إليه رسالة جاء فى كلماتها " ... فقد ظهر بفضل الله تعالى فى دولتنا النور المبين ، وإن كان لما سبق من الأسباب ، فمن يتحرى الآن طريق الصواب ، فان له عندنا لزلفى وحُسْن مآب . وقد رفعنا الحجاب ... لنرضى الله والرسول ... وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة ... " (٩) وقد ردَّ المنصور قلاون برسالة تفيض وداً ورقة ، وأعلن استعداده للتعاون مع مغول فارس لما فيه خير الإسلام والمسلمين (١٠).

إلا أن أرغون بن آبغا خرج على عمه تكودار المسمى أحمد سلطان ، ويقول المؤرخ تقى الدين المقريزى " ... وكانت المغل قد تغيرت على تكودار ، لكونه دخل فى الإسلام وإلزامه لهم بالإسلام ... " وانتهى الأمر بقتل أحمد سلطان تكودار سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٤م وولى مكانه ابن أخيه أرغون بن آبغا (١١). بيد أن غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤م) ، صار حاكما مسلماً وتبعه كل خلفائه من بعده .

فقد انتهى حكم أرغون سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩٢م ، وملك بعده أخوه كيختوين أبغا بن هولاكو ، ثم قتل سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٥م ، وتولى الحكم من بعده ابن أخيه بيدوين رغاى بن هولاكو . ولكن غازان بن أرغون بن آبغا بن هولاكو ، الذى كان والياً على خراسان تمرد عليه وهزمه واستولى على العرش فى سنة ٦٩٣هـ ، ثم أسلم على يد الشيخ صدر الدين بن حمويه الجوينى (١٢)، وبعدها ظل التتار على الإسلام ، وإن كانت علاقتهم بسلاطين المماليك قد تراوحت بين العداوة والصداقة ...

على الجبهة الصليبية ، ذكرنا أن السلطان المنصور سيف الدين قلاون كان قد عقد هدنة مدتها عشر سنوات مع الصليبيين فى عكا ، وهدنة أخرى مماثلة مع بوهيموند السابع أمير

---

٩ - جاءت هذه الرسالة فى سنة ٦٨١هـ وقد أورد المؤرخون نصها كاملاً . أنظر :

ابن أيبك الدواداری ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٢٤٩ - ص ٢٥٤ .

١٠ - نفسه ، جـ ٨ ، ص ٢٥٤ - ص ٢٦٠ . وقد كان الرد يجمع بين الرسالة المكتوبة والرسالة الشفوية.

١١ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧١٤

Claude Cahen “The Mongols and the Near East “ , in Setton A Hist . of the Crusades ;

m Vol . II pp . 720 - 721 .

١٢ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طرابلس ؛ بيد أن هذا السلطان لم يلبث أن نقض المعاهدة التى سعى بنفسه لعقدها عندما واتته الفرصة . فقد كان يرى فى الفرنج عدواً احتل أرض الإسلام ، كما كان يرى فى بقائهم على هذه الأرض نوعاً من الإغتصاب والعدوان المستمر الذى لا ينبغى السكوت عنه سواء كانت هناك قيود معاهدة ، أو هدنة ، أو لم تكن . وكانت بقايا الوجود الصليبى تتركز فى إمارة طرابلس التى يحكمها أمراء النورمان ، وبقايا ملكة بيت المقدس اللاتينية التى اتخذت من عكا عاصمة لها كما كان هناك حصن المرقب بأيدى فرسان الإسبتارية ، وطرسوس بأيدى فرسان الداوية .

هكذا ، كان اللون الصليبى على الخريطة العربية الإسلامية قد تقلص إلى حد بعيد ، وكان التاريخ يدخر لأسرة قلاون شرف القضاء النهائى على الوجود الصليبى فوق الأرض العربية . ولم يكد السلطان المنصور قلاون ينتهى من متاعبه مع المغول بوفاة أبغا حتى بادر بالعمل ضد الصليبيين . كان هدفه الأول هو حصن المرقب الذى كان بأيدى الإسبتارية ، والذى كان يحمى الحدود الشمالية لكونتية طرابلس الصليبية . وكان هجوم الجيش المملوكى على هذا الحصن مباغتاً وسريعاً بحيث أن الحامية استسلمت ورحلت عن الحصن (مايو ١٢٨٥م / ربيع الأول ٦٨٤ هـ)(١٣) بعد حصار دام ثمانية وثمانين يوما .

بعد سقوط هذا الحصن وتوابعه سارع أمراء الصليبيين إلى طلب السلام من سلطنة المماليك فى مصر والشام ؛ إذ طلب بوهيموند السابع ، أمير طرابلس الذى باتت حدوده الشمالية تحت تهديد الجيش المملوكى ، مسالمة المنصور قلاون ، وكذلك فعلت مرجريت أميرة صور التى نالت الصلح بشروط مهينة . وكذلك فعل بقية الصليبيين (١٤).

كانت الشواهد تدل على أن الكيان الصليبى فى الشام قد دخل مرحلة الاحتضار ، ولم يكن ممكناً أن تأتى النجدة من أوربا لمساندة الفرنج فى المنطقة العربية نظراً لإنشغال ملوك أوربا وأمرائها بمنازعاتهم ومشكلاتهم الداخلية . وفى سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م أرسل السلطان

---

١٣ - Ziada , The Mamluk Sultans to 1293 " , in : Setton, A Hist . of the Crusades, vol . II p. 725 .

ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص ٩٦ .

١٤ - S . Runciman " The Cursader States , 1243 - 1291 " , m Setton A Hist . of the Crusades m Vol . II pp . 589 - 590 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المنصور قلاون جيشا استولى على ميناء اللاذقية الذى كان آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية الصليبية التى حررها الظاهر بيبرس من قبل .

بعد ذلك بسنتين خرج السلطان بنفسه على رأس جيش ضخم فرض حصاراً على طرابلس ، ثم استولى عليها [١٥]. بعد أربعة وثلاثين يوماً ، وقُتل من الفرنج فى هذه المعركة التى انتهت بتدمير تحصينات المدينة التى كان سورها عريضا بحيث يسير عليه ثلاثة فرسان بالخيل[١٦]. وكانت سقوط هذه المدينة فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٨٨ هـ / إبريل ١٢٨٩ م . وبسقوط طرابلس سقطت المدن الأخرى المجاورة ؛ مثل بيروت وجبلة ، على حين أعلنت جبيل خضوعها للسلطان المنصور قلاون . وانحصر الصليبيون فى عكا وصيدا وعثليث وصور ، بعد أن كانت مستوطناتهم قد امتدت لتشمل كل فلسطين والساحل اللبنانى ووصلت إلى الحدود المصرية كما امتدت إلى خليج العقبة .

فى السنة التالية ؛ أى سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠م جاء بعض الصليبيين الإيطاليين إلى ميناء عكا ، وعبروا عن حماستهم الصليبية بطريقتهم الهمجية المعتادة ؛ فهاجموا المسلمين وقتلوا عددا من التجار المسلمين الذين كانوا قد اعتادوا دخول هذه المنطقة الخاضعة للصليبيين لأغراض تجارية منذ زمن بعيد . وهكذا كانت حماقة الصليبيين الجدد الوافدين من إيطاليا سببا فى انهيار فترة السلام القلق بين بقايا الكيان الصليبى وسلطنة المماليك القوية . وكان على الصليبيين أن يسددوا كافة ديونهم وان يدفعوا الثمن فادحا هذه المرة . وقد رفض المنصور قلاون الأعذار التى ساقها الفرنج حول هذه الاعتداءات ، وقرر القضاء على عكا ومن فيها ، وكتب إلى البلاد الشامية باعداد التجهيزات لحصار عكا [١٧]. وخرج المنصور بنفسه على رأس جيشه لقتال عكا ، ولكنه توفى فى ذى القعدة من سنة ٦٨٩ هـ / نوفمبر ١٢٩٠م[١٨]. وكان على الحملة أن تتوقف إلى حين ؛ وهكذا تأجل الفصل النهائى فى قصة العدوان الصليبى قليلاً .

---

١٥ – فى سنة ٦٨٧ هـ وردت كتب نائب الشام بأن الفرنج بطرابلس نقضوا الهدنة ، وأخذوا جماعة من التجار وغيرهم ... فتجهز السلطان لأخذ طرابلس – أنظر : المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٤٦ .

١٦ – المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٤٧ – ص ٧٤٨ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص ٣٨٠ – ص ٣٨١ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص ١٢٢ – ص ١٢٤ .

١٧ – المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٥٣ – ص ٧٥٤

Runciman , The Crusader States . p . 594 .

١٨ – ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص ١٣٥ ؛ النويرى ، عقد الجمان ، جـ ٣ ، ص ١٢ – ص ٢٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تولى الحكم السلطان الأشرف خليل بن قلاون فى ٧ ذى الحجة سنة ٦٨٩ هـ (١٩). وقد جلس على عرش السلطنة دون أن تمر البلاد بالاضطرابات المعتادة التى كانت تحدث بين ولاية سلطان راحل وولاية سلطان جديد . ومن ثم تفرغ السلطان الجديد لاستكمال المهمة التى كان أبوه قد عزم على تنفيذها ... أى القضاء على فلول الفرنج فى عكا (٢٠). وبعد تجهيزات دقيقة تحرك الجيش الإسلامى من مصر فى ربيع الأول سنة ٦٩٠ هـ / مارس ١٢٩١م ووصل عند أسوارها بعد مسيرة شهر تقريبا ، وهناك وصلت معدات الحصار من دمشق ، وكان عددها إثنين وتسعين منجنيقاً استغرق نصبها أربعة أيام . وفى الوقت نفسه جاءت جموع الفرنج إلى عكا عن طريق البحر للمساعدة فى مقاومة الحصار . وفى داخل المدينة المحاصرة أيقن الفرنج أن نهايتهم قد حانت ، وأخذت المنظمات العسكرية الرهبانية تستدعى كل ما يمكن من فرسانها فى أوربا . كما أرسل إدوارد الأول مجموعة من الفرسان الإنجليز ، وجاءت قوات من قبرص ... بيد أن هذا كله لم يجد نفعاً أمام قوة جيش الأشرف خليل بن قلاون الذى اقتحم المدينة فى يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى سنة ٦٩٠ هـ ، وقبل أن ينتصف نهار ذلك اليوم كانت الأعلام الإسلامية تخفق فوق أسوار عكا . " ... وهرب الفرنج فى البحر ، وهلك منهم خلق كثير فى الازدحام ... " (٢١). كانت مدة حصار عكا أربعة وأربعين يوما ، ثم سقطت بعد أن ظلت فى أسر الفرنج الصليبيين على مدى تاريخ الوجود الصليبى تقريبا ، باستثناء سنوات قليلة أثناء الحملة الثالثة .

---

١٩ - بعد أن حلف العسكر للسلطان الملك الأشرف خليل طلب من القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر تقليده بولاية العهد ، فأخرجه إليه مكتوباً بدون علامة السلطان قلاون . وكان ابن عبد الظاهر قد قدمه إليه ليضع عليه علامته فرفض عدة مرات إلى أن قال " يافتح الدين أنا ما أولى خليلا على المسلمين " . فلما رأى الأشرف التقليد بغير علامة قال : " يا فتح الدين إن السلطان امتنع أن يعطينى وقد أعطانى الله . " ورمى إليه التقليد . أنظر : المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٥٦ .

٢٠ - قدمت رسل عكا إلى القاهرة فى شهر المحرم سنة ٦٩٠هـ يسألون العفو ، فلم يقبل منهم ما اعتذروا به . : المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٦٢ .

٢١ - ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٣٠٨ - ص ٣١٠ ؛ ابن حبيب ، تذكره النبيه ، جـ١ ، ص ١٣٧ ؛ ص ١٣٨ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٣ ، ص ٥٦ - ص ٦٥ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣١ ، ص ١٩٧ - ص ١٩٩ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٦٣ - ص ٧٦٥ ؛

Runciman , " The Crusader States " , pp . 595 - 598 .

بعد عكا ، سقطت بقية المعاقل والمدن الصليبية ببلاد الشام تباعاً . وبذلك خلصت بلاد الشام للسيادة العربية الإسلامية مرة أخرى . ودالت دولت الفرنج بعد أن استمرت في الوجود مائتي سنة تقريباً . بيد أن القضاء على بقايا المستوطنات الغربية الفرنجية في المنطقة العربية سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ، لم يكن يمثل النهاية الحقيقية لقصة " الحركة الصليبية " . فقد لجأت فلول الهاربين إلى قبرص وردوس ليحاولوا بعث الحياة في جسد الحركة الصليبية الميت طوال القرنين التاليين ، كما أن البابوية وأنصارها لم يكفوا عن صياغة مشروعات " صليبية " جديدة بهدف السيطرة على المنطقة العربية ، والتحكم في طرق التجارة العالمية ومحطاتها . ومن ناحية أخرى ، استمرت دولة سلاطين المماليك تؤدى دورها التاريخي في هذه المواجهة الطويلة المضية على الرغم من أن المواجهة لم تعد تتطلب حشد الموارد كلها في صالح الجهد الحربي كما كان طوال فترة الوجود الصليبي بالمنطقة العربية .

وإذا كانت دولة سلاطين المماليك قد تصدت للخطر المغولي حتى ذاب في العالم الإسلامي وبات المغول جزءاً عضوياً من الكيان الإسلامي الكبير ، وإذا كان التاريخ قد جعل لهذه الدولة، أيضا ، شرف القضاء على الخطر الصليبي في أواخر القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ؛ فقد كان نشاط سلاطين المماليك على حدود مصر الجنوبية ، أي مع مملكة النوبة ، تأكيداً للدور التاريخي لهذه الدولة التي تحملت عبء الدفاع عن العالم الإسلامي في هذه الفترة من تاريخه .

والمعروف أن الفتح الإسلامي لمصر ، على يد عمرو بن العاص ، قد امتد إلى الجنوب في محاولة لفتح مملكة دنقلة المسيحية التي كانت تمتد إلى الجنوب من أسوان . ولكن محاولة عقبة بن نافع الفهرى ، ثم محاولة عبد الله بن سعد بن أبي السرح لغزو النوبة لم تسفر سوى عن عقد معاهدة عرفت باسم " معاهدة البقط " وهي اتفاقية للتبادل الإقتصادى ؛ بيد أنها لم تحقق أية سيطرة سياسية أو عسكرية حقيقية لمصر على بلاد النوبة . ثم جرت محاولة لغزوها في زمن هشام بن عبد الملك بن مروان ، ثم غزاها يزيد بن أبي صفره ، ثم غزاها أبو منصور تكين التركين ، ثم غزاها كافور الإخشيدى ، وكان آخر من غزاها شاهان شاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦ هـ .

ومنذ ذلك التاريخ ، وحتى عصر سلاطين المماليك ، ظلت العلاقات بين مصر والنوبة قائمة على أساس تلك المعاهدة ، وظلت تتراوح بين الشد والجذب أحياناً . ولم تخرج عن هذا الإطار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى قيام دولة سلاطين المماليك بطابعها العسكرى وحماستها الدينية ، التى كانت مبرر وجودها التاريخى فى حقيقة الأمر . ومنذ ذلك الحين بدأت العلاقات مع النوبة تأخذ اتجاها جديداً ؛ إذ كان من المنطقى أن تمتد الحماسة الدينية التى صاحبت الإنتصارات التى حققتها جيوش مصر والشام ضد المغول والفرنج الصليبيين لتصيب كافة القوى غير الإسلامية على حدود دولة سلاطين المماليك . وكانت مملكة النوبة المسيحية على حدود مصر الجنوبية ، آنذاك، واحدة من تلك القوى التى طالتها الحماسة الدينية فى عصر سلاطين المماليك .

وقد تطوع النوبيون بتقديم المبرر للسلطان الظاهر بيبرس لمهاجمتهم . فقد انتهز داود ملك النوبة فرصة إنشغال الجيش ضد المغول والفرنج والأرمن فشن هجوماً عيفاً ضد المناطق الجنوبية فى مصر . وفى سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٢م حضر إلى القاهرة ابن أخت ملك النوبة ، واسمه "مشكد " ، أو " شكنده " (٢٢) طلباً لمساعدة السلطان الظاهر بيبرس ضد الملك الذى اغتصب حقه فى العرش ، وأرسل بيبرس حملة ضخمة بقيادة الأمير آقسنقر الفارقانى والأمير عز الدين الأفرم إلى النوبة ومعهم الأمير النوبى المطالب بعرش النوبة " ... وأمرهم إن فتحوا البلاد يسلموها له على أن يكون لشكنده النصف والربع من البلاد ، والربع يكون خالصاً للسلطان ... " ووصل الجيش إلى دنقلة فى شوال من تلك السنة . وانتهت المعركة بسرعة بهزيمة ملك النوبة بعد قتل الكثيرين من جنوده ، وأسر عدد كبير من النوبيين وأضطر داود إلى الهرب .

وكانت أهم نتائج هذه الحملة أن صارت النوبة خاضعة لدولة سلاطين المماليك بحيث تعين على ملكها أن يرسل جزية سنوية إلى القاهرة . وهكذا ، حققت حملة السلطان الظاهر بيبرس مالم تستطع أية حملة مصرية أن تحقق منذ أيام عمرو بن العاص (٢٣). وقد لقى شكنده مصرعه على يد واحد من الفداوية الباطنية .

وبعد بيبرس سارت العلاقات المصرية النوبية شوطا أبعد نحو السيطرة المصرية الكاملة . فقد اهتم المنصور قلاون بتأمين حدود مصر الجنوبية ضد غارات النوبيين ، كما أن علاقته

---

٢٢ - ورد الإسم بالصياغة الأولى فى (المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ص ٦٣١) ، كما ورد بالصياغة الثانية فى (ابن أيبك الدوادارى ، جـ ٨ ، ص ١٨٣) وهو يذكر أن شكنده ابن عم داود ملك النوبة .

٢٣ - أنظر نص المعاهدة التى حلف عليها شكنده بعد تولى العرش فى النوبة : ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ١٨٥ - ص ١٨٦ .

بالنوبة كانت متواءمة مع سياسة دول سلاطين المماليك بشكل عام تجاه القوى السياسية فى البحر الأحمر الذى كان شرياناً حيويا للتجارة المصرية ، كما كان طريقاً هاماً لتجارة العبور التى كانت من موارد الدخل الهامة لدولة سلاطين المماليك .

فى سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧م ، أرسل السلطان المنصور قلاون حملة لغزو النوبة تحت قيادة الأمير علم الدين سنجر المسرورى المعروف بالخياط والأمير عز الدين الكورانى . وكانت حملة كبيرة انضمت إليها قوات والى قوص وعربان الصعيد . وعندما وصلت القوات إلى بلاد النوبة تقهقرت قوات ملكها " سمامون " وهى تخلى البلاد أمام الجيش المملوكى حتى وصل إلى دنقلة وهناك دارت معركة أسفرت عن هزيمة الملك وتولى مكانه ابن أخته وعادت الحملة بعد أن قررت جزية سنوية على ملك النوبة الجديد ومعها الكثير من الغنائم والأسلاب (٢٤). وعاد سمامون إلى الظهور من مخبئه مرة أخرى بعد عودة القوات إلى القاهرة ، وطرد قائد الحامية المملوكية .

وفى سنة ٦٨٨ هـ سارت حملة جديدة ضد النوبة بقيادة الأمير عز الدين الأفرم ومع الجيش سار على صفحة نهر النيل حوالى خمسمائة مركب تحمل السلاح والزاد . ولما وصل الجيش إلى أسوان مات ملك النوبة الجديد وتم تجهيز أحد أقاربه من القاهرة ليتولى عرش النوبة . ولقى الجيش المملوكى مودة وترحيباً من النوبيين حتى جزر ميكائيل وأما جنوب النوبة حتى دنقلة (دمقلة) فقد أخلاها سكانها لدرجة أنهم لم يجدوا بالمدينة نفسها سوى شيخ واحد عجوز . وظلت الحملة تطارد سمامون حتى منطقة الجنادل ؛ وهناك فارقه الأمراء والأساقفة والقساوسة. وطلبوا الأمان من قائد الجيش المملوكى ليعودوا إلى دنقلة . ثم عادت القوات إلى القاهرة بعدما تركوا حامية صغيرة بقيادة بيبرس العزى .

بيد أن سمامون عاود الظهور واستعاد سيطرته على مملكته وأمرائه ورجال الكنيسة ، وزحف على دار الملك وأخرج بيبرس العزى والحامية إلى قوص . وقبض على الملك الذى جلس على العرش بدلاً منه وقتله شر قتلة ، ثم بعث إلى السلطان المنصور قلاون يسأله العفو ، وأرسل إليه هدية وتعهد بأن يدفع ما كان ملوك النوبة قبله يؤدونه إلى حكام مصر(٢٦) .

---

٢٤ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٣٧ .

٢٥ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٤٩ - ص ٧٥٠ .

٢٦ - نفسه ، جـ ١ ، ص ٧٥١ - ص ٧٥٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقبل السلطان عرض الملك النوبى ؛ إذ كان يستعد لقتال الصليبيين فى عكا ولم يكن لديه الوقت أو الجيش الذى يمكن أن يخصصه لقتال الملك النوبى المراوغ ...

وبعد ذلك ، استمر ملوك النوبة بصفة عامة على ولائهم لمصر طوال عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون ، الذى تولى عرش السلطنة ثلاث مرات . ولم تحدث أحداث تعكر صفو هذه العلاقة . بيد أن سلاطين المماليك بدأوا يفكون فى أن يكون ملوك النوبة من النوبيين الذين تربوا فى مصر واعتنقوا الإسلام ونشأوا نشأة عربية إسلامية خالصة . وقد أدى هذا الاتجاه إلى تغير هام وجذرى فى العلاقات المصرية النوبية .

وبتولى كنز الدولة حكم بلاد النوبة أخذت البلاد تصطبغ منذ القرن الرابع عشر الميلادى بالصبغة العربية الإسلامية . وقد هاجرت بعض القبائل العربية إلى بلاد النوبة واستقرت بها مما سارع بعملية التحول العربى الإسلامى فى النوبة . وإذ صارت هذه المنطقة منذ ذلك الحين ، فصاعداً ، منطقة عربية إسلامية وتخلت عن الديانة المسيحية صارت جزءا عضويا يرتبط بالكل المصرى تجرى عليه كافة التطورات التاريخية التى شكلت تاريخ مصر كلها منذ تلك الفترة حتى أيامنا الحالية .

ولنعد الآن لمتابعة تاريخ أسرة قلاون فى حكم سلطنة المماليك ..

فقد سبق أن أوضحنا أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثة العرش نظرا للطبيعة العسكرية التى ميزت تلك الدولة منذ نشأتها حتى نهاية وجودها بعد حوالى مائتين وسبعين سنة . وأوردنا عدة أمثلة توضيح إيمان الفرسان المماليك وأمرائهم بمبدأ " الحكم لمن غلب " ؛ إذ كانوا يؤمنون جميعاً بالمساواة فى الجدارة بعرش البلاد لأنهم جميعا نشأوا سوياً فى ظل ظروف واحدة جعلتهم يرون أنهم متساوون فى الأحقية بعرش البلاد الذى يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين . لقد كانت المفاهيم السياسية لدولة سلاطين المماليك نتاجاً لظروف قيام تلك الدولة من ناحية ، وحقيقة أنهم لم يكونوا أحراراً فى الأصل ، وإنما " مسّهم الرق " من ناحية أخرى . ويمكن بلورة هذه المفاهيم التى كانت الأساس الذى قامت عليه النظرية السياسية والشرعية السياسية لتلك الدولة فى الحقيقة القائلة بأن أمراء المماليك اعتقدوا أن عرش البلاد حق لكل منهم ؛ بشرط أن يمتلك القوة والقدرة على انتزاعه من الآخرين . وقد تأكدت هذه الحقيقة منذ البداية ؛ سواء فى مصرع عز الدين أيبك وشجر الدر ، أو فى اغتيال بيبرس لقطز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهو عائد بنصره الكبير على المغول فى " عين جالوت " ثم جلوسه على العرش بدلاً منه . كما تأكدت مرة أخرى عندما انتزع المنصور قلاون عرش السلطنة من أبناء الظاهر بيبرس ، وإن كان ذلك قد تم بصورة أقل دموية مما سبق .

وعلى الرغم من ذلك فقد شهدت دولة سلاطين المماليك قيام أسرة حاكمة على مدى أجيال ثلاثة ؛ وهى أسرة قلاون الذى حكم هو وأولاده وأحفاده مدة تزيد على قرن من الزمان . فهل كانت أسرة قلاون أسرة وراثية بالفعل ؟ وهل يعنى هذا أن المماليك قد غيروا مفاهيمهم السياسية وآمنوا بمبدأ وراثة الحكم ؟ ! .

يرى بعض الباحثين أنه لايمكن تفسير هذه الظاهرة السياسية فى تاريخ دولة سلاطين المماليك فى ضوء إيمان المماليك بمبدأ وراثة العرش ، وإنما هى مجرد ظروف وملابسات أحاطت بسلاطين تلك الأسرة التى حكمت مصر والشام والحجاز بصورة متقطعة منذ سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩م حتى سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م .

وفى رأينا أن حكم أسرة قلاون ، بالذات ، يمكن أن يكون دليلا على عدم إيمان المماليك بمبدأ وراثة الحكم . إذ أن استمرار هذه الأسرة ، التى لم يبرز منها سلاطين أقوياء ، باستثناء مؤسسها السلطان المنصور قلاون وابنه الأشرف خليل ، الذى اغتاله كبار الأمراء ، ثم ابنه الناصر محمد الذى تولى السلطة ثلاث مرات خلع فى إثنتين منها بسبب تعاظم نفوذ كبار الأمراء - نقول إن استمرار هذه الأسرة فى الحكم كان فى أحيان كثيرة نتيجة لأن الصراع بين الأمراء الكبار لم يجد شخصية قوية تحسمه لصالحها . وفى بعض الأحيان كانت التوازنات السياسية بين الأمراء المتنافسين تفرض بقاء السلطان - من أبناء قلاون أو أحفاده - على الرغم من ضعفه وعدم أهليته ، وعلى الرغم من وقوعه تحت السيطرة المطلقة للأمراء . لقد تولى المنصور قلاون نفسه العرش بعد عزل ابن السلطان الظاهر بيبرس ، وخلفه ابنه الأشرف خليل على الرغم من أن أبيه امتنع عن توقيع ولاية العهد له ، ثم مات خليل نفسه صريع مؤامرة دبرها ضده كبار الأمراء (٢٧).

---

٢٧ - ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ٣٤٥ - ص ٣٤٨ .

بعد مصرع الأشرف خليل اجتمع الأمراء وسلطنوا بيدرا ولقبوه الملك القاهر ولكن مماليك الأشرف وأبيه أعلنوا الحرب على المتآمرين وقبضوا على عدد منهم ، وبعد أن عذبوهم قتلوهم شر قتله ، واضطربت الأحوال وعمت الفوضى وأعمال السلب والنهب ، ثم اتفقوا على سلطنة الناصر محمد على أن يكون كتبغا نائبه ويكون الشجاعى وزيراً ، والحسام استادار أتابك - أنظر المصدر نفسه ، ص ٧٤٨ - ص ٣٥١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك فان أخاه وخليفته الناصر محمد بن قلاون تولى حكم السلطنة ثلاث مرات وعُزل مرتين لكى يجلس على العرش فى كل مرة منها أحد الأمراء المتآمرين ضده . فقد استمرت سلطنته الأولى سنة واحدة ، فقد جلس على عرش السلطنة فى شهر المحرم سنة ٦٩٣ هـ ، وكان عمره آنذاك تسع سنوات فقط (٢٨). واتفق الأمراء الكبار على أن يكون الأمير زين الدين كتبغا المنصورى نائب السلطنة ، والأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزير الدولة ومدبِّرها والأمير ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار . وهكذا تم توزيع المناصب على كبار الأمراء ، على حين قنع السلطان الطفل - أو أقنع - بمجرد اللقب السلطانى المجرد من كل مظاهر السلطة والنفوذ. ولم يلبث الصراع أن اندلع بين كبار الأمراء مرة أخرى للفوز بعرش السلطنة .

فقد زادت سطوة الشجاعى " ... فاشتدت مهابة الناس له وقويت نفسه ... " وسولت له نفسه أن يستبد بالسلطنة وبدأ يعد العدة للتخلص من كتبغا . وبدأت الاضطرابات والمؤامرات والفتن حتى انتهى الأمر بحصار القلعة تربصا بالشجاعى الذى قتله المماليك فى القلعة وأرسلوا برأسه إلى المماليك السلطانية الذين يحاصرون القلعة (٢٩).

وبعد قتل الشجاعى استبد كتبغا بالسلطة وقال للأمراء " قد انحرف ناموس المملكة ، والحرمة لا تتم بسلطنة الناصر لصغر سنه " (٣٠) وخلع الناصر محمد من السلطنة بعد أن استمر فى السلطنة سنة واحدة تنقص ثلاثة أيام ، لم يكن له أثناءها أمر ولا نهى .

تولى كتبغا تحت إسم السلطان العادل زين الدين كتبغا فى المحرم سنة ٦٩٤ هـ ، وحجب السلطان الطفل وأمه فى بعض القاعات ، " وعامله بما لايليق "(٣١) . ولم يحدث فى مدى السنتين اللتين حكم فيهما أمر هام سوى قصور النيل عن حد الوفاء ونقص مياه الفيضان مما أدى إلى اشتداد الغلاء وانتشار الوباء فى أنحاء مصر ، ومات عدد كبير ضحايا لتلك الشدة.

---

٢٨ - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣١ ، ص ٢٦٧ .

٢٩ - يذكر المقريزى (السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٠ - ص ٨٠٢) أن أم السلطان سألت الأمراء الذين يحاصرون القلعة عن غرضهم فأجابوا بأنهم يطلبون الشجاعى " ... ولو بقى من بيت أستاذنا بنت عمياء كنا مماليكها ، لاسيما وولده الملك الناصر حاضر وفيه كفاية " فأغلقت باب القلعة من إحدى الجهات . ثم تصاعدت الأمور بحيث قطع رأس الشجاعى " ولُفَّ فى بقجة " وقال الفارس الذى يحمل رأس الشجاعى حين سألوه ما معك ؟ " أجاب " خبز سخن أرسله السلطان إلى الأمراء ليعلموا أن عندنا الشيء بكثرة " فصدقوه وخلص منهم .

٣٠ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٦ .

٣١ - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣١ ، ص ٢٨٢ .

كما جاءت إلى مصر هجرة مغولية كبيرة نتيجة للظروف السياسية المعاكسة فى بلادهم . وقد كانوا مايزالون على وثنيتهم مما جعل الناس تنفر منهم ، وكانوا من ضمن أسباب خلع هذا السلطان الذى لم يجلس على العرش سوى عامين (٣٢).

فى أثناء عودة العادل كتبغا من بلاد الشام إلى مصر اتفق الأمراء على خلعه ، وهرب كتبغا حتى وصل دمشق ؛ وبذلك اعتلى العرش طامع آخر هو حسام الدين لاجين الذى اتخذ لنفسه اسم السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى ، وكان أصله من مماليك الملك المنصور على بن المعز أيبك ، ثم اشتراه المنصور قلاون (٣٣). على أية حال انتهت سلطنة لاجين بقتله ليعود السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى عرش دولة سلاطين المماليك مرة ثانية، وظل فى الحكم على مدى أكثر من عشر سنوات (٦٩٨ هـ / ٧٠٨ هـ) . وكان اختياره هذه المرة أيضا يرجع لسبب واضح هو أن أحداً من كبار الأمراء المتنازعين حول العرش لم يستطع أن يحسم النزاع والتنافس لصالحه . وقد انتهت سلطنة الناصر محمد الثانية بهروبه إلى الكرك ، فى الأردن الحالية ، بعد أن أعلن أنه يريد الذهاب إلى الحجاز فى رحلة حج ، لأنه كان قد ضاق ذرعاً بتحكم بيبرس وسلار فى أمور الحكم فخرج سنة ٧٠٨ هـ " ... وخرج العامة وتباكوا حوله ..." . وعندما استقر فى حصن الكرك أبلغ الأمراء أنه لاينوى الحج وأنه اختار الإقامة فى الكرك وترك السلطنة " ... ليستريح خاطره ... "(٣٤) وفى شهر شوال من تلك السنة جلس بيبرس على العرش راتخذ لنفسه لقب المظفر ، وتمت ولايته للعرش فى جو من القلق الذى نجم عن تأهب فرق المماليك المتنافسة للقتال ضد بعضهم البعض .

وقد تشاءم الناس بسلطنة بيبرس الجاشنكير بسبب قصور مياه النيل . ومن ناحية أخرى لم يطمئن السلطان المغتصب إلى قوة عرشه واعتراه القلق والخوف من السلطان الناصر محمد الذى لم يهدأ فى منفاه الإختيارى بالكرك ، كما بدأ المماليك يعيدون حساباتهم عندما بلغتهم أنباء حركة السلطان من الكرك وأخذت الفتنة تطل بوجهها البغيض وبدأت دلائل الحرب تفرض

---

٣٢ - نفسه ، جـ ٣١ ، ص ٢٩٨ - ص ٢٩٩ .

٣٣ - بعد أن اشترى المنصور قلاون لاجين اتضح أن شراءه غير صحيح لأنه اشتراه من غائب ولا يصح إلا من حاكم شرعى فاشتراه مرة ثانية من قاضى القضاة بن بنت الأعز . وكان يعرف باسم " شقير " و " لاجين الصغير " .

٣٤ - المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٤٠ - ص ٤٤ .

نفسها على الحياة فى مصر وبلاد الشام ، وضعف موقف بيبرس الجاشنكير إلى أدنى درجة بعد أن بدأت جموع الجنود يتسللون للانضمام إلى الملك الناصر . وعندما حاول الهرب تجمهر الناس حوله ، " ... وهم يصيحون عليه ، ورماه بعضهم بالحجارة ... " وأقيمت الخطبة فى القاهرة يوم الجمعة ١٩ رمضان سنة ٧٠٩ هـ باسم السلطان الناصر محمد بن قلاون ، فكانت سلطنة المظفر بيبرس الجاشنكير عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما (٣٥).

وهرب بيبرس بيبرس الجاشنكير وعاد الناصر محمد بن قلاون لكى يجلس على عرش سلطنة المماليك للمرة الثالثة . وفى هذه المرة طالت سلطنة الناصر محمد على مدى إحدى وثلاثين سنة (١٣٠٩ - ١٣٣٠ م) ، ولم يحدث طوال ذلك العصر أن جلس على العرش سلطان على مدى هذه السنوات الطوال . وهو الأمر الذى أضفى على عصر السلطان محمد بن قلاون طابعاً فريداً فى ذلك العصر الزاخر بالأحداث ، كما كانت شخصية هذا السلطان الذى اعتلى عرش السلطنة مرات ثلاث أنسب الشخصيات لقيادة هذه الدولة العسكرية التى كانت تمور بالحركة والحيوية . وربما كان هذا هو السبب فى بقاء أسرة قلاون . لقد أحبه المصريون ووقفوا بجانبه ضد بيبرس الجاشنكير ، كما رأينا فى السطور السابقة ، فقد رأوا فى الناصر محمد بن قلاون وأبنائه ضماناً كافياً للاستقرار والرخاء .

على أية حال ، فان هذا لايعنى أن مبدأ وراثة العرش قد استقر ، أو أن المماليك قد أخذوا به ؛ بل إن فترة حكم أولاد الناصر محمد وأحفاده تقوم دليلاً على أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ الوراثة فى تداول السلطة . فقد تعاقب على عرش سلطنة المماليك ثمانية من أبنائه على مدى إحدى وعشرين سنة (١٣٤٠ - ١٣٦١ م) . مما يكشف عن مدى الإضطراب عدم الاستقرار السياسى ، كما أن حكم الكثيرين منهم انتهى بالقتل ، أو السجن ، على أيدى الأمراء الذين كانوا هم أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد آنذاك . وكان أشهرهم السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون ، الذى تولى العرش مرتين ، وانتهت سلطنته الثانية بالقتل . فقد تولى الحكم بعد عزل أخيه المظفر حاجى ، الذى حكم سنة واحدة وثلاثة أشهر وإثنى عشر يوما (٣٦) وحكم من شهر رمضان ٧٤٨ هـ لمدة ثلاث سنين وتسعة أشهر وأربعة عشر يوماً " .... منها مدة الحجر عليه ثلاث سنين ، ومدة استبداده تسعة أشهر ... "(٣٧) وتولى بعده أخوه الملك الصالح

---

٣٥ - المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧١ .

٣٦ - المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٤٤ .

٣٧ - نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٤٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صلاح الدين صالح بن الناصر محمد بن قلاون الذى حكم ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ثم خلع من السلطنة ليعود الناصر حسن إلى العرش مرة ثانية بعد أن كان محبوساً طوال هذه المدة . واستمرت سلطنته الثانية ست سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام انتهت على نحو مأساوى مروع إذ قبض عليه الأمير يلبغا واختفى دون أن يعثر له على أثر ولم يعرف قبره . وكانت نهايته فى شهر جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هـ (٣٨).

بعدها بدأ عصر أحفاد الناصر محمد بن قلاون الذى شهد المزيد من سيطرة أمراء المماليك على السلاطين الذين باتوا مجموعة من الدمى التى يحركها الأمراء . وقد استمر حكمهم منذ سنة ٧٦٢ هـ حتى سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢م . وكان آخرهم الملك الصالح حاجى الذى كان طفلاً خلعه الأمير الكبير برقوق وأدخله إلى دور الحريم لكى ينهى بذلك حكم أسرة قلاون الذى كان فى غالبه بيد كبار أمراء المماليك ولم يكن لهم سوى لقب السلطنة ولاشىء سواه .

وهنا لايمكن القول بأن استمرار وجود لقب السلطنة فى ذرية السلطان المنصور قلاون كان يعنى القبول بمبدأ الحق الوراثى فى الحكم لأبناء هذه الأسرة ؛ ولكن الصحيح ، فى تصورنا ، هو أن الأمراء الكبار الذين كان بينهم نوع من توازن القوى السياسية والعسكرية رأوا فى أولئك السلاطين الأطفال ستاراً مناسباً يمكنهم من تنفيذ كل رغباتهم ... حتى الدنيئة منها . فقد كان أكبر أولئك السلاطين من أحفاد الناصر محمد سناً هو السلطان المنصور صلاح الدين محمد (١٣٦١ - ١٣٦٣ م) ، الذى كان يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً فقط . أما الثلاثة الآخرون ، فكانت أعمارهم تتروح بين ست سنوات وإحدى عشرة سنة . وقد كان من السهل أن يتلاعب بهم الأمراء الذين زاد نفوذهم وتحكمهم بمصالح البلاد والعباد .

ومن ناحية أخرى ، كان من السهل على الأمراء الكبار أن يفسدوا السلاطين الأطفال . ومن هذه القمم السياسية الفاسدة تسرب الفساد إلى المجتمع بحيث باتت مظاهر الفساد السياسى والاجتماعى سمة ظاهرة من سمات هذه المرحلة من حكم سلاطين المماليك فى مصر والشام .

بيد أن أهم نتائج حكم السلاطين الأطفال تمثلت فى احتدام الصراع بين طوائف المماليك المختلفة . ذلك أن عدم وجود سلطان قوى وقادر على عرش السلطنة جعل مقدراتها نهباً لأطماع أمراء المماليك المتصارعين على السلطة والنفوذ . ولما كان كل أمير من هؤلاء يمتلك

---

٣٨ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٦١ - ص ٦٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جيشه الخاص ؛ أى أنه كان " سلطانا مختصرا " على حد تعبير المصادر التاريخية المعاصرة ، فقد كان طبيعيا أن تصطدم مصالح الأمراء وطموحاتهم ببعضها البعض . وكانت الترجمة العملية لهذا الصراع هى حروب الشوارع وحوادث العنف الدامية بين طوائف المماليك بحيث باتت بمثابة النغمة الدالة فى الحياة القاهرية خاصة ، وفى شتى أرجاء مصر والشام بشكل عام

وفى تصورنا أن نجاح المماليك فى القضاء على خطر الفرنج الصليبيين وطردهم من المنطقة العربية سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م ، ثم تلاشى الخطر المغولى تدريجيا بسبب اعتناقهم الإسلام، قد سلب دولة سلاطين المماليك وظيفتها التاريخية الأساسية باعتبارها دولة عسكرية جاءت إفرازاً سياسيا / عسكريا للتحدى الذى فرضه الخطر الذى تعرضت له المنطقة العربية منذ أخريات القرن الحادى عشر الميلادى حتى أخريات القرن الثالث عشر الميلادى . وحينما ساد السلام فشلت الدولة المملوكية ، التى بزغت من طيات القتال وتمت صياغتها على أساس عسكرى بحت ، فى التكيف مع متطلبات الحياة السلمية . كما كان من الطبيعى أن تفشل المؤسسات العسكرية فى إدارة المجتمع المدنى . وبدأت بذرة الفناء الكامنة تفعل فعلها عندما تفرغ الأمراء المماليك لإدارة الصراع الداخلى والتنافس والتناحر فيما بينهم . وزاد من وطأة هذا النزاع عدم وجود سلطان قوى من طراز بيبرس وقلاون والناصر محمد بحيث يجعل أولئك القادة العسكريين يحترمون إرادته وينصاعون لأوامره .

وقد ساهمت عوامل أخرى فى زيادة منحنى التدهور فى دولة سلطنة المماليك آنذاك . ففى عصر أولاد الناصر محمد بن قلاون شهدت البلاد كارثة طبيعية لا نظير لها . فقد جاء عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م لتشهد مصر والشام ذلك الوباء المرعب الذى اجتاح أرجاء البلاد المعروفة فى ذلك الحين من أقصاها إلى أدناها مكتسحاً فى طريقه كل بقاع الأرض من آسيا حتى أوربا؛ إذ انتقلت العدوى من آسيا مع قوافل التجارة العالمية لتصيب المنطقة العربية وآسيا الصغرى ثم تنتقل إلى أوربا . هذا الوباء الكاسح عرفه المؤرخون المسلمون باسم " الفناء الكبير " وعرفه المؤرخون الأوربيون فى العصور الوسطى باسم " الموت الأسود " . وقد جاء نتيجة انتشار بعض الأمراض ذات الطبيعة الوبائية من الهند وأواسط آسيا إلى عالم البحر المتوسط وأوربا مرورا بالهضبة الإيرانية والمنطقة العربية . وقد حفلت المصدر التاريخية العربية بالكتابات التى سطرتها أقلام المؤرخون المسلمين ، بكرم شديد ، فى وصف أهوال ذلك "الفناء

الكبيرة "(٣٩) . وكان من أعراض هذا المرض الوبائى أن يبصق المرء دماً ثم يصيح ويموت . وقد أخذ يحل بالبلاد فى خريف سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م ثم اشتدت وطأته مع بداية العام التالى ، وظل ينشب مخالبه فى البلاد حوالى عامين . وتراوح عدد ضحاياه ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف نسمة يومياً . " وعملت الدكك والتوابيت لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة ... " ، ثم زادت أعداد الضحايا حتى صار الناس يحملونهم على السلالم وألواح الخشب والأبواب وما إلى ذلك . وتفرغ بعض الناس لتغسيل الموتى ، كما تفرغ البعض الآخر للصلاة على ضحايا الوباء الذين كانوا يدفنون جملة فى حفرة واحدة .

وقد شمل هذا الوباء جميع الكائنات الحية ، حسب روايات المؤرخين ، فقد امتد أثره إلى "... حيتان البحر ، وطير السماء ، ووحش البر ... " كذلك فسدت الزراعات بسبب تواجد الديدان ، وتسممت الأسماك فى النهر والترع والبحيرات وكان طبيعيا أن ينشغل الناس بهذا الوباء عن سائر اهتمامهم وألا يكون بمقدروهم مزاولة أعمالهم اليومية . فلم تجد الأرض من يزرعها ، كما أن المحاصيل التى نضجت لم تجد من يحصدها لكثرة الموتى بين الفلاحين . وتوقفت أعمال الصيد ؛ إذ كان الصيادون يخرجون بمراكبهم للصيد ، فيموت بعضهم أثناء الرحلة ويموت الباقون بعد العودة . واختفت البضائع ، وانكمشت الأسواق ، وركدت الحياة تماما وتعطلت أحوال الناس . ولم يجد الولاة والقضاه عملاً إذ كف الناس عن مقاضاة بعضهم، كما أن المؤسسات التجارية ، مثل القياسر والخانات والوكالات وفنادق التجار الأجانب ، كانت خاوية لا تجد من يسكنها أو ينزل بها . وزهد الناس فى أموالهم وبذلوها للفقراء ....

وكان المشهد الكئيب ، بملامحه المعتمة ، متكرراً فى كل أنحاء البلاد تقريبا . كما قضى الوباء على الكثيرين من " أجناد الحلقة " الذين كانوا بمثابة جنود الحرس الوطنى فى مصطلحنا المعاصر ، كما كانوا أشبه بقوات الاحتياط فى الجيش آنذاك ، وخلت الطباق (الثكنات العسكرية) فى القلعة من المماليك لموتهم ...

---

٣٩ - المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغُمّة (نشره محمد مصطفى زيادة و جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠م) ص ٣٧ - ص ٣٨ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ - ص ٢٩٨ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر ، جـ ٩ ، ص ٣٥٨ - ص ٣٥٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٤ . أنظر أيضا :

قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٤٩ - ص ١٥١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الوباء الرهيب قضى على حوالى ثلثى عدد السكان فى مصر ، وأقفرت المدن والقرى ، وخلت القاهرة من سكانها ، وهرب السلطان ومن استطاع اللحاق به من أبناء الطبقة الحاكمة والأعيان إلى سرياقوس حيث ظنوا أنهم آمنون من خطر الموت . وصارت الأملاك تنتقل بطريق الوراثة بين أكثر من خمسة أو ستة أشخاص فى اليوم الواحد بسبب سرعة توالى أحداث الموت. كما استولى كثيرون من عامة الناس على الإقطاعيات التى كانت مخصصة لجنود الجيش المملوكى .

ونظراً لموت هذا العدد الكبير من الناس انخفضت الأسعار بدرجة كبيرة . ولم تجد الغلال من يطحنها ، بل إن كتب العلم رخصت لدرجة أنه كان ينادى عليها بالأحمال " ... ويباع الحمل منها بأرخص ثمن ... " كما تدنت أسعار الذهب والفضة .

وفى عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ بدأت حدة الوباء تتناقص ، ولم يلبث أن ارتفع بشكل نهائى. بيد أن آثاره ونتائجه ظلت قائمة بعد ذلك بفترة طويلة . وفى هذه السنة نفسها حاولت الدولة حصر الأملاك التى مات أصحابها فى غمار أحداث الوباء ، فوجد المسئولين أعدادا هائلة من المنازل والفنادق والخانات التى مات أصحابها ووارثوها بحيث لم تعد ملكاً لأحد . ويقول المؤرخ تقى الدين المقريزى إنه كانت توجد بالحارة الواحدة أكثر من عشرين دارا خالية لا يُعرف أصحابها .

كانت النتائج والآثار السلبية لذلك الوباء ، وسلسلة المجاعات والأوبئة التى أعقبته ، خطيرة للغاية على البناء السياسى والعسكرى لدولة سلاطين المماليك مثلما كانت بالغة الخطورة بالنسبة للبناء السكانى والوضع الاجتماعى والاقتصادى للبلاد . فمن الناحية الاجتماعية والسكانية ، تجلت هذه التأثيرات السلبية فى تدهور أعداد السكان بشكل رهيب. وظهر هذا بوضوح فى انخفاض أعداد القرى وتقلص مساحات المدن ، واختفاء عدد كبير من الأسواق (٤٠)، وفى الريف تقلصت أعداد القرى نتيجة موت عدد كبير من الفلاحين من ناحية، وهروب كثيرين غيرهم إلى المدن من ناحية أخرى ، فضلا عن الفرار من أعباء الزراعة غير المجدية وظلم الحكام من ناحية ثالثة (٤١).

---

٤٠ - قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الإجتماعى ، ص ٤٦ - ص ٤٧ .

٤١ - المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٣٣ - ص ٣٥ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان ، جـ ٣ ، ص ٢٤١ .

وقد انتجت أحداث الوباء فى المجال الثقافى بعض الآثار السلبية الخطيرة على النظام القيمى والأخلاقى ، كما أنتجت ، من ناحية أخرى ، نوعاً من الشعر الشعبى الساخر الذى اشتهر به المصريون فى مواجهة كوارث الطبيعة والحكام على مر العصور ؛ فقد قال أحد الشعراء :

يا طالباً للموت قُم واغتنم ‏ ‏ هذا أوان الموت مـــــا فاتا

قــــد رخص الموت على أهله ‏ ‏ ومات من لا عمــره ماتــا

أما النتائج والآثار الاقتصادية " للفناء الكبير " ، فكان بعضها فوريا ومباشراً ، على حين كان بعضها الآخر على شكل تيار تحتى أخذ يقوض أركان الدولة على مدى سنوات طويلة . إذ تدهور الإنتاج الزراعى وشحت الأقوات وارتفعت الأسعار ، كما انخفض الإنتاج الصناعى كماً وكيفاً بشكل واضح بالشكل الذى أدى إلى تقليص النشاط التجارى الداخلى وانكماش الأسواق . كما انهار النظام النقدى وفقد الدينار الذهبى والدرهم الفضى المملوكى قوتهما فى أسواق التجارة العالمية والداخلية على السواء ، وبدأت عملات المدن التجارية الإيطالية تفرض سيطرتها على السوق المحلية نفسها (٤٢).

هكذا كان " الفناء الكبير " كارثة أضيفت إلى مصائب البلاد فى عصر أولاد السلطان الناصر محمد بن قلاون الذى شهد سيطرة الأمراء الكبار على مقاليد الحكم ومنافساتهم الدامية . وإذا كان عصر أولاد الناصر قد شهد كارثة طبيعية أضافت إلى متاعب البلاد والعباد جديداً . فقد شهد عصر الأحفاد من السلاطين الأطفال كارثة عسكرية برهنت على تدهور الهيبة العسكرية لدولة سلاطين المماليك عندما تفرغ الحكام والأمراء لممارسة لعبتهم المفضلة فى التآمر والنزاع .

هذه الكارثة العسكرية هى الحملة العسكرية الصليبية التى قادها ملك قبرص الصليبى بطرس لوزينان لنهب الاسكندرية وتدميرها سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م . فالواقع أن طرد الفرنج الصليبيين على أيدى القوات الإسلامية بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاون سنة ١٢٩١م لم يكن نهاية للصراع الإسلامى / الصليبى فقد ظلت فلول القوى الصليبية فى قبرص ورودس

---

٤٢ - المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٩٤١ - ص ٩٤٤ ؛ قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ٥٥ - ص ٥٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأوربا أسيرة لوهم العودة إلى المنطقة العربية مرة أخرى . ومن ثم استمر الصراع طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر على شكل غارات ومناوشات قليلة الأهمية . وكانت حملة بطرس لوزينان المفاجئة على الاسكندرية ، بما صاحبها من مظاهر الغدر الصليبية المألوفة ، بمثابة تذكرة بالدور التاريخى لدولة سلاطين المماليك فى التصدى للصليبيين . وكانت بمثابة المسمار الكبير فى نهاية دولة بنى قلاون ونهاية العبث الذى ميز السنوات الأخيرة من دولة المماليك الأولى (البحرية) ، وقيام الدولة الثانية (البرجية) لمواصلة ذلك الدور العسكرى مجددا .

كان القضاء على الكيان الفرنجى الصليبى ببلاد الشام ضربة قاصمة حلت بالغرب الأوربى على الرغم من أنه كان منصرفاً عن مملكة بيت المقدس اللاتينية ، فى المراحل الأخيرة من وجودها ، بمشكلات التحول والتطور السياسية والاجتماعية الداخلية (٤٣). وعلى الرغم من حقيقة أن الملوك والحكام فى الغرب الأوربى كانوا مهمومين بمشكلاتهم السياسية داخل أوربا نفسها ، فقد كانت شعوب الغرب الأوربى الكاثوليكى ، والبابوية معهم ، مازالت ترى فى مملكة بيت المقدس اللاتينية أرض الأحلام . إذ كان الناس يحملون مشاعر عاطفية جارفة تجاه الكيان اللاتينى الكاثوليكى على أرض المنطقة العربية . كما كانت البابوية ترى فى الفكرة الصليبية أداة قوية من أدوات السياسة الداخلية والخارجية على حد سواء . وعلى الرغم من كل المساعدات التى حاول البابوات والمتحمسون من الأوربيين إرسالها إلى الفرنج الصلبيين فى فلسطين ، فقد كانت الوحدة العربية الإسلامية التى قادها سلاطين المماليك ، منذ الظاهر بيبرس والمنصور قلاون وابنه الأشرف خليل ، خير ضمان للنصر الإسلامى النهائى . وبات الغرب الأوربى مقتنعا بأن طريق العودة إلى فلسطين يمر عبر مصر ؛ وأنه لابد من هزيمة مصر وإخضاعها ، أو إضعافها على أقل تقدير ، حتى يمكن لأى مشروع صليبى جديد أن ينجح فى العودة إلى فلسطين .

من ناحية أخرى ، كانت التجارة تمثل مورداً هاماً من موارد الدخل والثروة لدولة سلاطين المماليك . وقد حاولت البابوية فرض الحصار الإقتصادى على مصر ؛ فأصدرت عدة مراسيم تحرم على التجار الأوربيين التبادل التجارى مع مصر أو غيرها من البلاد العربية الإسلامية .

---

٤٣ – نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط : قصة حضارة – البداية والنهاية ، ، ترجمة د . قاسم عبده قاسم) ، ط ٢٠ ، دار المعارف ١٩٨٦ ، جـ ٢ ص ٤٠٨ – ص ٤٠٩ .

بيد أن إغراء الربح بالنسبة لأولئك التجار كان أكبر من إغراء الغفران الصليبى الذى تعدهم به البابوية التى لايحترمونها كثيراً . لقد رفض التجار الأوربيون ، والإيطاليون منهم بصفة خاصة، أن يضحوا بمصالحهم التجارية فى سبيل أهداف السياسة البابوية ، وظلت سفنهم وبعثاتهم التجارية وقناصلهم من معالم حوض البحر المتوسط الشرقى ، وتواجدوا فى الموانى المصرية والشامية .

وصارت قبرص مركزاً للقرصنة الصليبية تحت قيادة آل لوزينان ، وأخذت تهدد سفن التجارة الإسلامية وتحاول قطع خطوطها من ناحية ، كما صارت مركزاً لمراقبة الشواطىء المصرية والشامية ، وشن الغارات السريعة المفاجئة عليها بين الحين والآخر من ناحية ثانية . ومنذ استولى ريتشارد الأول ملك إنجلترا (قلب الأسد) على جزيرة قبرص فى أخريات القرن الثانى عشر فى خضم أحداث الحملة الصليبية الثالثة ، ظلت الجزيرة تلعب دوراً هاماً فى الصراع الإسلامى الصليبى . إذ كانت بمثابة مركز التجمع والتموين للحملات الصليبية البحرية ولاسيما الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك الفرنسى لويس التاسع ٦٤٦هـ/١٢٤٩م-٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م(٤٤) وبعد طرد الصليبيين من بلاد الشام نهائيا فى ١٢٩١م ، صارت قبرص قاعدة الشراذم الصليبية وفلولهم الهاربة من فلسطين ، كما باتت محط آمال البابوية وأنصارها فى إحياء المشروع الصليبى . وبدأ ملوك قبرص من آل لوزينان يقدمون المشروعات الصليبية ضد مصر ، ثم جعلوا من الجزيرة مركزاً لتحقيق هذه الأهداف التى لم تكن توازنات القوى السياسية والعسكرية تسمح بتحقيقها ، ومن ثم اتسمت عملياتهم بالغدر والسرعة ولم تتعد حدود القرصنة والنهب .

وجاءت الغارة التى شنها بطرس لوزينان على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م متوافقة مع هذه السياسة . إذ مهد بطرس لغارته بجولة زار فيها المقر البابوى وبلاطات ملوك الغرب الأوربى وجمع قدراً كبيراً من المساعدات بهدف ضمان النجاح . وكانت جزيرة قبرص مركز التجمع الصليبى ، كما اجتمعت بعض قواتهم فى رودس ، ولكنهم حتى ذلك الحين لم

---

٤٤ - عن هذه الحملة أنظر ما سبق ، وأنظر أيضا ؛:

ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ ٢ ، ص ٤٥ وما بعدها ؛

Joinvill , The Life of Saint Louis , (transl . by M . R . B . Shaw , Penguin 1975) , pp - 197 - 8 , 206 - 264 ; Joseph R . Strayer , " The Crusades of Louis 1x " , in Setton , A History of the Crusades , II , pp . 487 - 518 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكونوا قد حددوا هدف الحملة . وبعد مشاورات ومجادلات قرر الزعماء أن تكون مدينة الاسكندرية هدف هذه الغارة ...

على الجبهة الأخرى ، كان التوقيت مناسباً ؛ إذ كان السلطان الجالس على عرش سلطنة المماليك طفلاً فى الثانية عشر من عمره هو السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاون ، وحوله مجموعة من الأمراء المتنازعين على رأسهم الوصى على العرش الأمير يلبغا الخاصكى الذى عرف بظلمه وغطرسته وكراهية الناس له (٤٥). وفى ظل هذه الظروف لم يكن غريباً أن تلعب الخيانة دورها . إذ تذكر المصادر التاريخية أن أحد الموظفين بمدينة الإسكندرية، وهو شمس الدين بن غراب ، قد سهل للعدو دخول المدينة (٤٦) وقد اتهم هذا الرجل بأنه كان جاسوساً لبطرس لوزينان ملك قبرص .

على أية حال ، فوجىء أهالى المدينة بالجنود الصليبيين داخل المدينة أثناء صلاة الجمعة الثانى والعشرين من شهر محرم سنة ٧٦٧ هـ / ١٠ أكتوبر ١٣٦٥م ، بعد أن ظلوا يدافعون عن مدينتهم عدة أيام . وقام الصليبيون بتدمير شامل للمدينة ومبانيها ، ونهبوا كل ما وقعت عليه عيونهم . وحدث فى أثناء ذلك أن سيدة مسيحية مصرية عجوزاً ، إبنه قسيس وكانت حارسة كنيسة مجاورة لمنزلها أضطرت إلى دفع كل ما تملك للصليبيين حتى لا يهدموا الكنيسة . كذلك ارتكب الصليبيون أعمالهم الوحشية من أسوأ طراز ، وبطريقة أعادت إلى الأذهان أفعال أسلافهم الفرنج . وامتلأت الطرقات بالجثث ، وتحولت المدينة إلى مشهد مجسد من مشاهد الرعب . وقضى الصليبيون أياماً ثلاثة فى الاسكندرية كانت شديدة الوطأة على المدينة

---

٤٥ – تولى السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاون العرش سنة ٧٦٤ هـ وعمره عشر سنين ، وكان يلبغا الخاصكى قد أقنع الأمراء بخلع سلفه المنصور محمد بن حاجى بن ناصر محمد " لاختلال عقله " . أنظر : المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٨٣ – ص ٨٤ .

٤٦ – أمر شمس الدين بن غراب بقفل باب الديوان مما يلى المدينة بحجة منع التجار من أخذ بضائعهم من الديوان فتضيع الحقوق التى عليها " ... فلذلك امتنعت الرماة من تلك الجهة من السور ، وبذلك رأى العدو جهة خالية ودخل البلد منها ، وقيل إن ابن غراب المذكور كان متعاملاً مع صاحب قبرص عليها وأن صاحب قبرص أتاها قبل الوقعة فى زى تاجر آواه ابن غراب " . أنظر :

محمد بن قاسم بن محمد النويرى السكندرى ، الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الرسكندرية (مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤١٩٣ تاريخ) ملحق بالجزء الثالث – القسم الأول من كتاب السلوك للمقريزى ، ص ٤١٣ – ص ٤٣٢ .

وسكانها . وعندما أحس بطرس لوزينان بقرب وصول الجيش المملوكى المجرد من القاهرة سارع بالفرار هو وجنوده بعد أن أخذوا معهم عدداً كبيرا من الأسرى منهم " ... المسلم والمسلمة ، واليهودي واليهودية ، والنصراني والنصرانية ... " ويبدو أن غنائمهم التى نهبوها كانت من الكثرة بحيث أضطر الصليبيون إلى إلقاء بعضها فى البحر تخفيفا للحمولة (٤٧).

كانت تلك غارة من غارات القرصنة ، وذكر المؤرخون أن ملك قبرص تصرف كما يتصرف اللصوص ؛ إذ أنه لم يستمر فى احتلال الاسكندرية ولم يبق لمواجهة الجيش المصرى . حقيقة أنه خرّب المدينة ولكنه " ... دخلها لصاً وخرج منها لصاً ... " .

كانت تلك الغارة بمثابة المسمار الأخير فى نعش دولة سلاطين المماليك الأولى وإيذانا بنهاية ذلك النمط من الحكم المتهافت للسلاطين الأطفال من أحفاد الناصر محمد بن قلاون . فبعد سبعة عشر عاماً من هذه الغارة التى كشفت عن تناقص الهيبة العسكرية للدولة التى طردت الصليبيين من بلاد الشام سقطت دولة بنى قلاون ، وقامت دولة جديدة هى دولة المماليك الثانية .

والحقيقة أنها لم تكن دولة جديدة تماماً ، وإنما كانت استمراراً لحكم سلاطين المماليك ؛ ولكن ما نقصده بالدولة الجديدة هنا هو أنها كانت نهاية للخط القلاونى فى الحكم ، والصيغة السياسية التى ميزت عصر أبناء وأحفاد الناصر محمد بن قلاون ؛ وهى صيغة كانت تجعل من السلطان الطفل ستاراً يلعب الأمراء من خلفه بمقدرات البلاد .

لقد أعادت دولة المماليك الجراكسة التى بدأها السلطان برقوق الهيبة للسلطان بعد أن تجرد المنصب من هيبته فترة طويلة .

وهذا هو موضوع الفصل الرابع .....

---

٤٧ - المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٠٥ - ص ١٠٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل التاسع

دولة المماليك الجراكسة

من هم المماليك الجراكسة ؟ ظهورهم على مسرح السياسة - السلطان الظاهر برقوق وبداية حكم الجراكسة - خصائص دولة المماليك الجراكسة - أهم الأحداث التاريخية فى هذه الدولة - السلطان قنصوة الغورى ونهاية الدولة - تأملات ختامية .

كانت أقوى الروابط التى تجمع بين المماليك هى رابطة " الأستاذية " التى تربط الأستاذ (أى السيد أو الأمير) بمماليكه ، ورابطة الخشداشية (الخجداشية) التى كانت رابطة الزمالة التى تجمع بين المماليك فى طائفة واحدة . ولاغرو فان أبناء هذه الطبقة المجلوبين عبيدا فى طفولتهم قد تربوا معاً ونشأوا فى نفس الظروف . كما أنهم ، من ناحية أخرى ، كانوا غرباء على المجتمع الذين تعين عليهم أن يحاربوا دفاعاً عنه . ولما كانت جذورهم تمتد فى تربة أخرى بعيدة انتزعوا منها ، فقد افتقروا إلى الإحساس بانتمائهم إلى المجتمع الذى عاشوا على هامشه ولم يشعروا بأية وشائج تربطهم به . وقد أدى هذا إلى عدم شعورهم بالأمن فى رحاب هذا المجتمع ، وعوضوا ذلك بالأمن الذى أحسوه فى زمالتهم ورفقتهم التى فرضت عليهم أن ينشأوا فى ظروف واحدة . وكان الأمراء يولون عنايتهم ورعايتهم الكاملة لمماليكهم فى ظل علاقة " الأستاذية " ؛ لأنهم كانوا هم القوة الذاتية للأمير - أو السلطان - وسنده فى الصراع الذى كان يمكن أن ينشب فى أى وقت بين المتصارعين على الحكم والسطوة والنفوذ . ولم يكن السلطان ، والأمراء ، يتناولون طعامهم سوى مع مماليكهم ؛ بل إن السلطان كان يغضب من المملوك الذى لايأكل عنده .

كذلك ظلت جموع المماليك ، الذين كان تجار الرقيق يجلبونهم من شتى الأرجاء باستمرار ، تغذى المشاعر الإنعزالية فى نفوس المماليك . فقد أحس المماليك أنهم أغراب عن البلاد ولم يحاولوا الاندماج فى المجتمع لفترة طويلة . بل إن منهم من لم يتعلم اللغة العربية على

الإطلاق . وثمة لهجة تركية كانت سائدة فى أوساط البلاط المملوكى ، وهى لغة القفجاق ، أو القبيلة الذهبية ، (القرن الذهبى) . وعلى الرغم من أن المماليك بدأوا ينزلون من طباق القلعة؛ أى الثكنات العسكرية ، ليسكنوا القاهرة ويتزوجون من المصريات فى عهد السلطان الظاهر برقوق ، فقد ظلوا على عزلتهم الاجتماعية .

ذلك أن تركز وظائف الحكم والإدارة العليا فى أيديهم ، وكونهم أصحاب السلطة السياسية والقوة العسكرية فى بلد غريب عنهم ، جعلهم يتصرفون بوصفهم أقلية عسكرية تنأى بنفسها عن المشاركة فى الحياة المصرية سوى من خلال المواكب السلطانية ، والأعياد الدينية والعامة .

لا عجب ، إذن ، أن نجد إنتماءات المماليك شخصية وخاصة . فنحن نقرأ فى المصادر التاريخية المعاصرة عن طوائف شتى من المماليك تنتمى كل منها إلى شخص بعينه ؛ فها هى طائفة " المماليك الصالحية " - نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب ، وهاهى طائفة أخرى هم " المماليك الظاهرية " نسبة إلى الظاهر بيبرس ، و " المنصورية " نسبة إلى المنصور قلاون ، والأشرفية نسبة إلى السلطان الأشرف خليل بن قلاون . ذلك هذه الرابطة الخاصة كانت هى الوسيلة المثلى لتحقيق الشعور بالأمن للمماليك فى ظل حياتهم التى كانت تحكمها المنافسة الدموية كطريق يعترف به الجميع للوصول إلى العرش .

وكان حصاد هذه الروح التنافسية القائمة على القوة والدم والمستندة إلى الروابط الخاصة سلسلة من المتاعب والمنازعات كانت تفرض نفسها على الحياة المصرية ، كلما جلس على العرش سلطان ضعيف أو سلطان طفل ، على نحو ماحدث فى عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده . ومن ناحية أخرى كان كل أمير ، أو سلطان ، يريد تدعيم سلطته وقوته ، يشترى أعدادا متزايدة من المماليك . وكان من الممكن ان تصل مشتروات السلطان من المماليك ، فى عصر المماليك البحرية إلى حوالى ثمانمائة مملوك . وكان مماليك السلطان يعسكرون بالقاهرة حيث تكون القوة الرئيسية فى الجيش المملوكى . وكانت أعداد هذه المماليك السلطانية تتكاثر حين ينضم إليهم مماليك أسلافه من السلاطين أو مماليك من يغضب عليهم من كبار الأمراء الذين يسجنون أو يقتلون ، ويستولى السلطان على مماليكهم [١] . ولكن العلاقة بين السلطان والمماليك الذين اشتراهم ورباهم عادة ما تكون أقوى من العلاقة بينه وبين غيرهم من المماليك.

---

١ - العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٤٦ ومابعدها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان السلاطين يولون عناية كبيرة لتربية مماليكهم وتدريبهم ، لأنهم كانوا بمثابة الحرس السلطاني الخاص . كما كان السلطان يختار لهم أعلى الوظائف قدرا وأكبرها اقطاعا . حتى يضمن رضاهم وولاءهم على الدوام ...

وهذا هو ما فعله السلطان المنصور قلاون بالنسبة لمماليكه من الجراكسة . فقد اختار قلاون أن ينشىء فرقة مملوكية من الجراكسة الذين كانوا يستوطنون المناطق الواقعة إلى الشمال من بحر قزوين وشرق البحر الأسود . وفى تلك الفترة كانت أعداد كبيرة من المماليك الجراكسة متوفرة فى أسواق الرقيق بحيث كان سعرهم هو الأرخص على الرغم من شهرتهم الفائقة بالشجاعة والقوة .

وقد أسكن السلطان المنصور قلاون مماليكه الجراكسة فى أبراج القلعة مما جعل البعض يطلقون عليهم اسم " المماليك البرجية " ، وتحكى المصادر أن عددهم قد وصل إلى نحو ثلاثة آلاف مملوك فى السنوات الأخيرة من عصر قلاون الذى حرص على عزلهم عن غيرهم من طوائف المماليك كما أهتم بتدريبهم العسكرى وحباهم بعطفه وأغدق عليهم من هباته وأمواله الكثير ... (٢).

وقد سار أبناء قلاون على سياسته فى الإهتمام بطائفة المماليك الجراكسة . فقد اشترى الأشرف خليل - على الرغم من قصر مدة حكمه - حوالى ألفين من المماليك الجراكسة (٣). ولكن زيادة أعداد المماليك من هذه الطائفة فرضت أوضاعا جديدة لم يألفها المماليك من قبل ، فلأول مرة يسمح السلطان خليل بن قلاون للمماليك بالنزول من ثكناتهم العسكرية بالقلعة إلى القاهرة والفسطاط ليتجولوا فيها نهارا ، ثم يعودون للمبيت فى القلعة ليلا . وكان طبيعيا أن يؤدى هذا إلى ازدياد انغماس المماليك البرجية فى الحياة المصرية ، كما بدأوا يختلطون بغيرهم من طوائف المماليك . ومن ناحية أخرى ، بدأت طوائف الممايك الأخرى تحس مشاعر الحقد والغيرة من المكانة والنعمة التى يحظى بها الجراكسة ...

وكان طبيعيا أن تزداد مكانة المماليك الجراكسة بازدياد اعتماد السلاطين من ذرية قلاون عليهم . وقد ظهر دورهم السياسى واضحا عندما قتلوا الأمير بيدرا الذى دبر مؤامرة لقتل

---

٢ - المقريزى ، السلوك ، جـ ، ص ٧٥٥ - ص ٧٥٦ .

٣ - المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٤١ .

أستاذهم الأشرف خليل بن قلاون . وكانوا هم الذين اختارو الناصر محمد سلطانا على البلاد فى سلطنته الأولى سنة ٦٩٣هـ /١٢٩٣م على الرغم من أنه كان مايزال طفلا صغيراً (٤). وفى خضم الصراع الذى احتدم بين كتبغا وسنجر الشجاعى ، اللذين حكما باسم السلطان الطفل ، ظهرت أهمية البرجية الذين ساندوا سنجر الشجاعى وهزموا كتبغا وأنصاره من المماليك البحرية (٥). وكان لانفضاض الجراكسة عن سنجر فيما بعد أكبر الأثر فى هزيمته ومصرعه على يد كتبغا الذى اتخذ عدة اجراءات لتشتيت شمل الجراكسة . فأنزلهم من ثكناتهم فى القلعة ، وشتتهم فى أحياء القاهرة فثاروا وتسببوا فى سلسلة من الاضطرابات العنيفة لأن المسألة بالنسبة لهم كانت مسألة حياة أو موت (٦) .

وساءت أحوال المماليك الجراكسة فى عهد كل من السلطان كتبغا (١٢٩٤ - ١٢٩٦م) وسلفه السلطان لاجين (١٢٩٦ - ١٢٩٨م) اللذين اغتصبا من الناصر محمد ، ثم نجح الجراكسة بزعامة الأمير سيف الدين كرجى فى قتل السلطان لاجين (٧). وعاد السلطان الناصر محمد مرة ثانية إلى عرش السلطنة . وبعدها بدأ نفوذ المماليك والجراكسة يتصاعد ، وربما كانت شجاعة البرجية فى القتال ضد المغول فى بلاد الشام سنة ١٣٠٢م من أسباب زيادة نفوذهم السياسى ، فقد كانت لهم اليد الطولى فى تحقيق النصر على قوات المغول فى معركة شقجب بالقرب من دمشق فى سنة ٧٠٠ هـ (٨) .

وفى سلطنة الناصر محمد الثانية زاد نفوذ المماليك الجراكسة ، وتبلورت زعامتهم فى الأمير بيبرس الجاشنكير (٩) الذى جعل عددا كبيرا منهم يرتقون إلى مرتبة الامارة . ولما كان

---

٤ - ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٣٥٢ - ص ٣٥٣ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص ١٦٩ . وكان عمر الناصر محمد بن قلاون عندما تولى العرش للمرة الأولى تسع سنين .

٥ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٩٨ - ص ٨٠٠ .

٦ - نفسه ، جـ ١ ، ص ٨٠٤ - ص ٨٠٦ .

٧ - ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٣٧٠ - ص ٣٨٠ . وكان ذلك سنة ٦٩٨ هـ .

٨ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٩٣١ - ص ٩٣٧ .

٩ - كانت سلطنة الناصر محمد بن قلاون الثانية إبتداء من جمادى الأولى سنة ٦٩٨ هـ . وقد عين الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استادارا (أى المسئول عن البيوت السلطانية) . أنظر :

ابن أيبك الدوادارى ، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، ص ٦ - ص ٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناصر محمد فى سلطنته الثانية مايزال ضعيفا وغير قادر على التحكم فى أمرائه ، فان بيبرس الجاشنكيز وزملاءه من الجراكسة بدأوا يفكرون فى مصالحهم على حساب السلطان الناصر محمد بن قلاون . ولكن الجراكسة لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى المرحلة التى تمكنهم من الإنفراد بالسلطة ، فقد كان المماليك البحرية وغيرهم من الأتراك مايزالون يتمتعون بقدر كبير من النفوذ فى مواجهة نفوذ الجراكسة المتصاعد وكان على رأسهم الأمير سلار (١٠). وعبثا حاول السلطان الناصر محمد أن يتخلص من نفوذهما ، وحين فشل تنازل عن العرش وآثر أن يهرب إلى حصن الكرك (١١).

وكانت فرصة للأمراء الجراكسة حين أعتلى كبيرهم بيبرس الجاشنكير عرش السلطنة ليكون بذلك أول سلاطين الجراكسة . ولكن المماليك الأتراك رفضوا قبول الأمر الواقع وأبدوا معارضة عنيفة لحكم الجراكسة وهرب المظفر بيبرس الجاشنكير من سلطنته التى مكث فيها عامين أو أقل ٧٠٨ هـ - ٧٠٩ هـ / ١٣٠٨ - ١٣٠٩ (١٢). واسترد السلطان محمد عرشه فى سلطنته الثالثة ، وقد علمته خبرته ومعاناته الطويلة أن الإسراف فى الاعتماد على البرجية خطر يجب تحاشيه فأخذ يلجأ إلى انتزاع بعض اقطاعاتهم ، وأغرق من يخشى خطره منهم فى نهر النيل(١٣). وإذا كان السلطان الناصر محمد قد حكم البلاد بيد من حديد فى سلطنته الثالثة ، فان أبناءه وأحفاده - كانوا فى الغالب حفنة من الأطفال بحيث صار كبار الأمراء الجراكسة يحركونهم وفق هواهم . ومرة أخرى عادت قوة الجراكسة للظهور على مسرح الأحداث السياسية.

وفى خضم الحوادث التى انتهت بمصرع السلطان الأشرف شعبان ، سنة ١٣٧٦م(١٤)، ظهر الأمير برقوق كواحد من الجراكسة الكبار . وتروى المصادر التاريخية أن هذا الأمير الذى أسس

---

١٠ - يذكر ابن حبيب (تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص ٢٨١ - ص ٢٨٢) فى حوادث سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٦م) مانصه " ... وفيها ظهر الوحشة بين السلطان أيده الله وبين الأمير سيف الدين سلار المنصورى ، والأمير ركن الدين بيبرس المنصورى ... وتنكر لهما وسبهما ... " .

١١ - ابن أيبك الدوادارى ، الدر الفاخر ، ص ١٥٥ - ص ١٥٦ .

١٢ - نفسه ، ص ١٥٦ - ص ١٧٦ .

١٣ - المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٨ - ص ٨٤ .

١٤ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٧٦ - ص ٤٧٧ .

دولة المماليك الجراكسة قد جلبه تجار الرقيق إلى مصر حيث اشتراه الأمير يلبغا الخاصكى حوالى سنة ١٣٦٣م ، ثم اعتقه وترقى فى خدمته . ولكن مصرع سيده عرضه للسجن فى الكرك حتى سنة ١٣٧١م ، ولم يسمح له بالعودة سوى بعد عامين من الافراج عنه ، وقد ساهم بقدر كبير فى المؤامرة التى انتهت بمصرع السطان الأشرف شعبان . وعلى العرش جلس طفل آخر تحت اسم السلطان المنصور على ، وكان فى السادسة من عمره . وهو ما كان يعنى أن تدور حلقة أخرى من حلقات الصراع (١٥).

وأفاد برقوق كثيرا من هذا الصراع ، إذ ما تمت ترقيته من أمير صغير ، برتبة أمير عشرة، إلى قائد كبير فى الجيش المملوكى ، ثم رقى إلى رتبة عليا فى جيش المماليك وهى أمير مائة مقدم ألف . وكان عليه أن يواجه خصوما ومنافسين آخرين فى الطريق إلى العرش ، ولكنه استطاع التخلص من الجميع . واقتسم السلطة والنفوذ مع أمير آخر اسمه بركة (١٦) . حتى أن المصريين بسخريتهم اللاذعة كانوا يقولون : " برقوق وبركة نصبا على الدنيا الشبكة " وكانت الخطوة الأخيرة نحو العرش تستوجب التخلص من بركة . وهنا تجلى ذكاء برقوق ومكره السياسى ، كما ظهرت معرفته بطبائع المصريين ومواقفهم السياسية . إذ أنه حرض بركة على انتزاع بعض أراضى الأوقاف الإسلامية وتوزيعها على أتباعه ، على حين أخذ برقوق يتقرب إلى المصريين بالافراج عن بعض الذين حبسهم بركة وقد ثار المصريون على بركة وتزعمهم الشيخ سراج الدين البلقينى وعدد من العلماء وأهل العمامة . ثم حدث الصدام المرتقب بين قوات الجراكسة بزعامة برقوق ، وقوات الأتراك بزعامة بركة ، وكانت الهزيمة من نصيب الأخير الذى كان مصيره السجن ثم القتل .

ولكن برقوق لم يستولْ على العرش بسرعة . وأقام على العرش صبيا آخر بدلا من الطفل المنصور على الذى توفى سنة ١٣٨١م . ولأن السلطان الجديد كان فى الحادية عشرة من عمره(١٧)، فقد شاركه برقوق فى العرش و ساعده هذا على التمهيد لحكم الجراكسة ، فعين رفاقه فى المناصب الكبرى . وبدأ سياسة عامة للتقرب من الناس لكسب رضاهم ، فأخذ يلغى

---

١٥ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٨٤ - ص ٢٨٥ .

١٦ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٣٠٨ - ص ٣١٦ .

١٧ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٣٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الضرائب والمكوس ، وسك عملة جديدة قوية وخالية من الغش والتزوير ، مما ادى إلى انتعاش اقتصادى محدود . وعلى صعيد السياسة الخارجية استطاعت قواته صد الهجوم الذى قام به التركمان على حلب سنة ١٣٨١م ، فأعطاه النصر مزيدا من التأييد من جانب الناس .

ولم يكن الاتراك ليسلمون مقاليد الحكم للجراكسة بهذه السهولة ، ومن ثم فانهم دبروا مؤامرة للإطاحة ببرقوق . ولكن المؤامرة فشلت ، وتم القبض على المتآمرين ونفيهم (١٨). وكان ذلك آخر العهد بالنفوذ التركى وبداية لصعود نجم المملوكية الجركسية .

وفى سنة ١٣٨٢م صعد اثنان من الأمراء الجراكسة ، من أعوان برقوق ، إلى القلعة حيث اقتادا السلطان الطفل ليسلماه إلى أهله . وارتقى برقوق عرش السلطنة تحت إسم السلطان الظاهر برقوق ،(١٩) وقد ظل الجراكسة فى حكم البلاد حتى سقوطها تحت السيطرة العثمانية سنة ١٥١٧م . وبصعود برقوق على عرش السلطنة بدأ تاريخ سلطنة المماليك الجراكسة . وكانت أهم خصائص هذه الدولة هى تلك الخاصية التى استمدت منها اسمها ، ذلك أن معظم سلاطينها كانوا من الجراكسة ، ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى إثنين من السلاطين هما خشقدم وتمريغا اللذان كانا من أصل يونانى (٢٠).

هذه الدولة التى استمرت فى حكم البلاد مائة وأربعة وثلاثين عاما توالى فيها على عرش البلاد خمسة وعشرون سلطانا منهم ستة عشر سلطانا تولوا العرش فى تعاقب سريع بحيث اهتزت مكانة السلطان ، ولم يعد أكثر من " الأول بين أقرانه " ، فقد كان الأمراء هم الذين يولون السلاطين ويعزلونهم ، أو يقتلونهم فى غالب الأحوال . لقد تجلى فى عصر الجراكسة فساد النظام السياسى الذى حكمه تماما مبدأ " الحكم لمن غلب " .

ذلك أن تطورا حدث فى نظام تربية المماليك فى عصر الجراكسة أدى إلى ضعف الأسس التى قام عليها النظام السياسى المملوكى . فقد استعاض السلاطين والأمراء عن المماليك

---

١٨ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٧٣ - ص ٤٧٤ .

١٩ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٧٦ .

٢٠ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ١٦ ، ص ٢٥٣ . وقد اعتلى الملك الظاهر خشقدم عرش السلطنة سنة ٨٦٥ هـ ، وهو الأول من الأروام ، بعد أن تسلطن من الجراكسة وأولادهم ثلاثة عشر سلطانا . وقد حكم ست سنين وستة أشهر وأثنين وعشرين يوماً ومات سنة ٨٧٢ هـ . أما تمريغا فقد تولى الحكم سنة ٨٧٢ هـ ليستمر من جمادى الأولى إلى شهر رجب فقط عندما خلفه قايتباى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأطفال الذين كانوا يخضعون لنظام صارم من التربية والتدريب بالمماليك من الشباب اليافع الذين تخطوا سن البلوغ وقد عرف هؤلاء باسم " الجلبان " أو " الأجلاب " . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور أن ضعفت رابطة " الأستاذية " التى كانت تربط بين المماليك وسيدهم الذى كان له الفضل فى تربيتهم وتدريبهم منذ نعومة أظفارهم ، كما تخلخلت أواصر رابطة "الخشداشية " التى تجمع بين المماليك فى اطار زمالتهم فى طائفة بعينها من طوائف المماليك . ومن ناحية أخرى ، ضعفت سيطرة الأمراء والسلاطين على أولئك المماليك الجلبان مما أدى إلى كثير من حوادث الشغب والاضطراب وحروب الشوارع التى كانت طرقات القاهرة وأزقتها مسرحا لها .

وقد زاد معدل الحوادث العنيفة فى عصر المماليك الجراكسة . حقيقة أن عصر المماليك البحرية قد شهد مثل هذه الحوادث والحروب الداخلية بين طوائف المماليك ، ولكن ذلك كان مرهونا بتصارع الأمراء الكبار حول العرش فى غالب الأحوال . ولكن نظام تربية المماليك الصارم فى عصر المماليك البحرية كان يكفل للسلاطين والأمراء السيطرة على مماليكهم ، وساعدهم على ذلك مواردهم التى وفرتها الزراعة المزدهرة والتجارة المربحة . ولكن شراء الجلبان من ناحية ، والسماح للمماليك بالنزول من القلعة وسكنى القاهرة منذ عهد الظاهر برقوق من ناحية أخرى ، أضعف الرقابة عليهم كما قلل من فرصة السيطرة على حركتهم . وأدى ذلك إلى ازدياد منحنى التدهور السياسى والأمنى ، كما زاد نفوذ المماليك الجلبان الذين عجز السلاطين والأمراء عن ردعهم . ومن ثم تكررت حوادث الشغب التى كانوا يثيرونها ، فضلا عن حوادث نهب الأسواق وخطف البضائع والاعتداء على الناس فى الشوارع والأسواق حتى أمست تلك الحوادث العنيفة بمثابة النغمة الدالة فى حياة المصريين آنذاك .

والحوادث التى أثارها الجلبان كثيرة ومتعددة . وفى سنة ٨٧٧ هـ هاجموا أحد كبار موظفى الدولة وأهانوه [٢١]. ولما وجدوا أن الحادث مر دون عقاب تعددت حوادثهم وكثرت اعتداءاتهم على الأمراء وكبار موظفى الدولة دون أن يجدوا قوة تردعهم أو تقف فى طريقهم . بل أن واحداً من كبار سلاطين ذلك العصر ، هو السلطان " قايتباى " ، لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يحتجب بالقلعة احتجاجا على تصرفات المماليك الذين أشاعوا الذعر بين الأمراء

---

٢١ - ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ ٣ ، ص ٨٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بحيث امتنعوا عن الصعود إلى القلعة لمباشرة مهام الحكم فترة من الزمان . وفى العام التالى أراد المماليك قتل الأمير " يشبك الداوادار " ، فأمر السلطان جيشه بالاستعداد لقتال الجلبان وماجت القاهرة بالفزع والفوضى وأغلقت الأسواق (٢٢) .

وفى الشطر الأخير من ذلك العصر زاد معدل الحوادث العنيفة التى كان مصدرها المماليك الجلبان . وعلى الرغم من أن الأوامر كانت تصدر من حين لآخر بعدم تعرض المماليك للناس والباعة والتجار ، فانه يبدو أن عجز السلاطين وتدهور سلطة الدولة جعل تلك الأوامر تبدو "... كضرب رباب ، أو كطن ذباب ... " على حد تعبير المؤرخ ابن تغرى بردى (٢٣). وقد أدى هذا إلى التدهور الاقتصادى بشكل واضح ..

وعلى الرغم من تدهور أحوال الدولة السياسية ، وانهيار الاقتصاد ، فان مرتبات المماليك النقدية تزايدت نتيجة لتدهور انتاجية الأرض الزراعية التى كانت تمنح لهم كاقطاعات من ناحية وكثرة اعداد المماليك من ناحية ثانية ، وتفشى الرشوة والفساد من ناحية ثالثة ولم تعد الدولة قادرة على الوفاء بهذه المطالب مما كان يدفع المماليك إلى التمرد وإثارة الشغب . فقد كانت رواتب المماليك فى عهد السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) أحد عشر ألف دينار مخصصة للمماليك السلطانية وحدهم ، زادت فى عهد السلطان التالى (الأشرف برسباى ٨٢٥ - ٨٤١ هـ) الى ثمانية عشر ألف دينار ، ثم قفزت إلى ستة وأربعين ألف دينار فى عهد السلطان قايتباى (٨٧٢ - ٩٠١ هـ) (٢٤) ونتيجة لهذا جمع السلطان قايتباى مجلسا بالقلعة حضره قضاة القضاة ونوابهم وعدد من شيوخ العلماء . وأخذ السلطان يدعو على نفسه بالموت ويتبرم من السلطنة نظرا لأن الخزانة خاوية ومطالب المماليك كثيرة . وكان السبب فى زيادة مرتبات المماليك على هذا النحو هو أن بعضهم كان يأخذ مرتباً له ولأولاده دون أن يكون له أولاد مقابل رشوة يدفعها للاستادار الذى كان مسئولا عن المرتبات (٢٥).

---

٢٢ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٩٤ .

٢٣ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٦ ، ص ٩٨ .

٢٤ - ابن الصيرفى ، إبناء الهصر بزبناء العصر ، ص ٣٢ - ص ٣٧ .

٢٥ - المصدر نفسه ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٣ ، ص ٢٩ ، جـ ٤ ، ص ١٦ .

وبدأت رواتب المماليك تتأخر ، وبدأوا هم يثورون ويهاجمون الأسواق والناس لكى يستولوا على ما يريدون ، ففى سنة ٩٠٦ هـ ثاروا على السلطان قنصوة الغورى بسبب تأخر الرواتب ، فشكى من أن الخزانة خاوية والمماليك كثيرة " ... فمن أين أسد هؤلاء المماليك ؟ ... " ثم تكررت الحكاية فى العام التالى حين تأخرت رواتب المماليك ثلاثة شهور ، فتمردوا على السلطان وهددوه ، فأخذ يستولى على أموال الناس قسرا وأرغمهم على دفع الضرائب والإيجارات لمدة عشرة شهور مقدما [٢٦]. وتوالت حوادث المماليك الجلبان بكثرة حتى نهاية العصر .

ويبدو أن عجز الحكام عن منع الجلبان من الاعتداء على الأسواق والناس جعل المصريين يعتمدون على أنفسهم فى التصدى لأولئك المماليك . وقد ألحق الناس كثيرا من الأذى والضرر بالمماليك . فقد نودى بالقاهرة سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥م بعدم تعرض الناس لمماليك السلطان والإضرار بهم وإلا كان جزاء من يفعل ذلك قطع يده [٢٧]. وقد أدت هذه الحوادث إلى مزيد من الفشل السياسى للدولة .

على أية حال ، فان هذا الفشل السياسى انعكس على حالة الأمن فى البلاد فى عصر الماليك الجراكسة . بيد أن الواقع التاريخى يقتضى منا أن نقرر أن عصر المماليك البحرية ، قد شهد أيضا فترات من اضطراب الأمن لاسيما فى عهود السلاطين الضعاف . ولكن التدهور الأمنى اتخذ صفة دائمة وثابتة فى عصر الجراكسة .

ذلك أن حوادث سرقات الأسواق على أيدى عصابات كبيرة العدد من الفرسان والمشاة أصبحت مادة ثابتة فى أخبار ذلك العصر . وكانت تلك العصابات تنهب البضائع من الأسواق وتقتل الخفراء دون أن تجد من يتعقبها [٢٨].

كذلك فان قبائل العربان بدأت تهاجم ضواحى المدن فى وضح النهار ، وينهبون الناس ، وقد يقتلون البعض ، أو يطلقون سراح بعض المسجونين دون أن يجدوا من يطاردهم أو يقف فى طريقهم . كما تعددت حوادث العثور على قتلى من المماليك دون معرفة القاتل [٢٩] .

---

٢٦ – ابن أياس ، جـ ٤ ، ص ١٦ ومابعدها .

٢٧ – المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ٤٦٥ .

٢٨ – قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ٥٩ – ص ٦٠ .

٢٩ – نفسه ، ص ١٦٠ .

هذا على المستوى الداخلى ، أما على المستوى الخارجى فان أهم الحوادث التى تعرضت لها دولة سلاطين المماليك الجراكسة انحصرت فى القتال ضد تيمور لنك ، وغارات الأسطول المصرى على كل من قبرص ورودس .

بدأت سلطنة برقوق بمعارضة سياسية وعسكرية من جانب حاكم أبلستين بالشام الأمير الطنبغا السلطانى ، ولكن ثورة هذا الأمير الذى رفض الخضوع لحكم الجراكسة انتهت بالفشل بفراره إلى بلاد التتار (٣٠). وفى القاهرة حاك المماليك الأتراك مؤامرة لتولية الخليفة العباسى بالقاهرة عرش السلطنة ، وانتهت هذه المحاولة أيضا بالفشل وعزل الخليفة وتولية غيره (٣١). ثم اتحدت طوائف المماليك ضد برقوق ، وتزعمهم منطاش نائب ملطية فى الشام ، وهو زعيم المماليك الأشرفية (نسبة إلى الأشرف خليل بن قلاون) ويلبغا الناصرى نائب حلب بالشام أيضا وهو زعيم المماليك اليلبغارية (نسبة إلى يلبغا الخاصكى) . واستطاع الثوار هزيمة جيش السلطان فى دمشق وساروا فى طريقهم إلى القاهرة (٣٢).

وعبثا حاول برقوق أن يستميل الرأى العام معه بالغاء الضرائب والمكوس وإعادة الخليفة العباسى المخلوع . ولكن أمراء المماليك تسللوا للانضمام إلى جيش الثوار القادمين من الشام وفى ذلك الوقت كان الطاعون قد انتشر فى القاهرة ليزيد الأحوال سوءا ، ولم يجد برقوق مفرا من الهرب والاختفاء فى منزل أحد الخياطين بالقاهرة . ودخل جيش يلبغا القاهرة وصار بذلك سيد الموقف . وتم القبض على برقوق ونفى إلى الكرك (٣٣).

أما عرش السلطنة فقد أجلس الثوار عليه طفلا كان قد اعتلاه من قبل ، وهو الصالح أمير حاج ابن الأشرف شعبان . ولكن الصراع لم يلبث أن دب بين يلبغا ومنطاش حول السلطة . وهنا حانت الفرصة لبرقوق لكى يسترد عرشه ، فكون جيشا من الجراكسة فى الشام وزحف به على دمشق حيث استولى عليها . وبعد عدة تطورات تمكن برقوق من استرداد عرشه . ليستمر فى سلطنته الثانية تسع سنوات قضاها فى مطاردة المماليك الأتراك ومصادرة كل ممتلكاتهم وإقطاعاتهم وتوزيعها على الجراكسة .

---

٣٠ - المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٤٨١ - ص ٤٨٢ .
٣١ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٩٣ - ٤٩٥ .
٣٢ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٦٠٣ - ص ٦١٦ .
٣٣ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٦٧٠ - ص ٧٠٤.

وعندما حاولت قبائل العربان التمرد على سلطة برقوق والاستيلاء على السلطنة والخلافة ، كشف برقوق المؤامرة وسجن زعماءها .

وعلى المستوى الخارجي ، كان هناك خطر جديد قد بدأ يهدد حدود سلطنة مماليك الجراكسة، ذلك هو خطر تيمورلنك الذى كان ينتمى إلى بيت من أشراف التتار . ولد فى مدينة سمرقند التى كانت قاعدة لعملياته العسكرية التى تمكن بواسطتها من فرض نفوذه على بلاد ما وراء النهر وخراسان وطبرستان حتى استولى على مدينة تبريز فى إيران الحالية سنة ١٣٦٨ م ثم استولى على بغداد سنة ١٣٩٣ م . وبذلك بات على وشك الصدام مع دولة المماليك التى اقترب كثيرا من حدودها . وأرسل تيمور لنك رسالة تفيض بالتهديد إلى برقوق الذى بادر بقتل الرسل واستعد للقتال (٣٤).

ولكن تيمور لنك كان مشغولا بالقتال فى الهند ، فآثر أن يؤجل الصدام إلى حين . وفى الوقت نفسه ساعد برقوق على طرد الحامية التى تركها تيمورلنك فى بغداد . وأعلن حاكم بغداد تبعيته للسلطان فى مصر . ولكن تيمور لنك استعاد بغداد مرة أخرى سنة ١٣٩٩م . وجاءت تلك الخطوة فى الوقت الذى توفى فيه السلطان برقوق (٣٥).

وتولى الحكم بعده ابنه السلطان الناصر فرج الذى كان فى العاشرة من عمره . وفى أثناء حكمه لقى الجيش المملوكى هزيمتين كبيرتين ضد قوات تيمورلنك فى حلب ودمشق سنة ١٤٠٠م. وقد اقنعت الهزيمة سلطان المماليك بعقد معاهدة مع تيمورلنك الذى توفى بعد ذلك فى سمرقند سنة ١٤٠٥ م (٣٦).

أما الحادث الهام الثانى على المستوى الخارجي ، فهو ما حدث إبان حكم السلطان الأشرف برسباى (١٤٢٢ - ١٤٣٨م) ، ذلك أن طول مدة حكم هذا السلطان مكنته من القيام بمشروع عسكرى كبير هو غزو جزيرة قبرص وتحويلها إلى تابع للدولة المصرية . وقد ذكرنا سابقا كيف أن هذه الجزيرة صارت قاعدة لعمليات الصليبيين العسكرية والبحرية ضد المسلمين وكيف ملكها بطرس لوزينان هاجم الاسكندرية وخربها سنة ١٣٦٥م . وقد حاول المماليك غزو قبرص

---

٣٤ - نفسه ، جـ٣ ، ص ٧٩١ .

٣٥ - نفسه ، جـ٣ ، ص ٩٣٦ - ص ٩٣٧.

٣٦ - نفسه ، جـ٣ ، ص ١٠٤٤ - ص ١٠٤٦ .

زمن بيبرس . كذلك فان السلطان الأشرف شعبان شن بعض الغارات ضد جزيرة قبرص ولكنه لم يحاول الاستيلاء عليها . وعندما تولى برسباى عرش البلاد سنة ١٤٢٢م رأى أن غزو قبرص يمكن أن يحقق له كثيرا من أهدافه السياسية الداخلية . وفى السنة الثانية من حكم هذا السلطان جاءت الأخبار بأن الفرنج استولوا على مركبين من مراكب المسلمين وفيهما حوالى مائة مسلم وبأن جانوس لوزينان ملك قبرص استولى على مركب للسلطان كانت محملة بالهدايا المرسلة إلى السلطان مراد العثمانى .

وكان رد الفعل سريعا وعنيفا من جانب مصر ، فقد شن الأسطول المصرى ثلاث حملات لغزو قبرص فى سنوات ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ م على التوالى . وقد حققت الحملتان الأولى والثانية نتائج مرضية وعادت بكثير من الأسرى والغنائم ، ولكن برسباى أصر على اخضاع الجزيرة لحكمه حتى يتخلص نهائيا من المتاعب التى يسببها بقايا الصليبيين فى هذه الجزيرة . وقد تمكنت الحملة الثالثة من تدمير ليماسول ميناء الجزيرة ، وأسروا الملك القبرصى نفسه ، ثم استولوا على نيقوسيا عاصمة الجزيرة ورفعوا الرايات المصرية على مبانيها (٣٧).

وعادت الحملة لتسير فى موكب حاشد فى شوارع القاهرة ، وخلفهم الأسرى ومعهم الملك جانوس الذى قبل الأرض تحت قدمى السلطان واستعطفه وأعلن خضوعه للحكم المصرى ودفع فدية كبيرة . وهكذا كانت هذه الحملة نجاحا سياسيا كبيرا للسلطان الأشرف برسباى على المستوى الخارجى يعوضه عن الفشل السياسى الكبير فى الداخل ، حيث كانت أحوال البلاد والعباد فى تدهو مستمر كما أوضحنا من قبل .

وفى عهد السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨ - ١٤٥٣ م) تم غزو جزيرة رودس التى كانت مركزا هاما للصليبيين بعد طردهم من فلسطين . فقد اتخذها فرسان الاسبتارية قاعدة لهم يشنون منها غاراتهم على نحو ما كان آل لوزينان يفعلون فى قبرص (٣٨).

وقد أرسل السلطان جقمق ، هو الآخر ، ثلاث حملات ضد رودس ، وكانت الهزيمة من نصيب الحملة الأولى التى استطاع الاسبتارية أن يلحقوا بها بعض الخسائر . وحققت الحملة الثانية بعض النتائج الايجابية حين حطمت بعض الحصون ثم عادت إلى مصر بفعل عواصف الشتاء التى أعاقت عملياتها العسكرية . أما الحملة الثالثة ، فقد فشلت فى تحقيق أهدافها .

---

٣٧ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ٢٧٥ - ص ٢٨١ .

٣٨ - نفسه ، جـ ١٥ ، ص ٣٥١ ، ص ٣٦١ - ص ٣٦٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتم عقد صلح بين الطرفين بعد أن تعهد الاسبتارية بعدم العدوان على السفن التجارية الإسلامية العاملة فى البحر المتوسط (٣٩).

وبعد عهد جقمق ، لم يظهر سلطان هام سوى قايتباى الذى كان حريصا على تخليد اسمه بالمنشآت الكثيرة على الرغم من ازدياد التدهور فى أحوال البلاد بسبب كثرة الضرائب والأوبئة والمجاعات .

وبعد قايتباى تولى عدد من السلاطين عرش البلاد فى تعاقب سريع يعكس مدى التدهور والاضطراب . وقد انتهت حياة معظم السلاطين الذين تولوا العرش بعد قايتباى بالقتل أو الخنق أو السجن ، وبات كرسى السلطنة خطرا يتهرب الجميع من الجلوس عليه وليس أدل على ذلك مما تحكيه المصادر التاريخية من أن قنصوة الغورى (أقوى أمراء زمانه) رفض العرش حين عرضه الأمراء عليه سنة ١٥٠١ م ، بل كان يبكى . فقد ذكر ابن أياس أن الأمراء " ... سحبوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكى ، وحين ألحوا عليه اشترط عليهم ألا يقتلوه ، وأن يصرفوه بالمعروف إذا أرادوا عزله (٤٠).

وعلى الرغم من قوة شخصية قنصوة الغورى وصلابته ، وطول مدة حكمه ، فان ذلك كله لم يمنع دولة سلاطين المماليك من أن تمضى إلى مصيرها المحتوم . فقد وصل التدهور الداخلى إلى مداه ولم يكن ممكنا أن تصمد الدولة المنهارة من الداخل فى وجه الأخطار القادمة من الخارج .

فقد كان الخطر البرتغالى يطرق البحر الأحمر بعد أن عرف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ م بمساعدة الملاح المسلم أحمد بن ماجد ، ثم وجدوا لأنفسهم قاعدة للتوسع فى كلكتا بالهند سنة ١٥٠٠ . وكان هذا خطرا جسيما يهدد الدور العالمى للتجار المسلمين ولدولة سلاطين المماليك التى كانت تفيد كثيرا من تجارة المرور عبر مصر . وعندما استنجد أمراء المسلمين فى الهند بسلاطين المماليك يطلبون إمدادهم بالقوات اللازمة لصد البرتغاليين ، حاول الغورى مساعدتهم وأرسل الأسطول المصرى الذى انضم إلى قوات مسلمى الهند، ولكن الهزيمة كانت من نصيب القوات الإسلامية فى معركة ديو البحرية . وبدأ التغلغل لأوربى يصل إلى مداه ، وهاجم البرتغاليون عدن عند مدخل البحر الأحمر سنة ١٥١٣م وكانت تلك ضربة قاصمة للهيبة المصرية فى عالم البحر الأحمر .

---

٣٩ - نفسه .

٤٠ - ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ١٦ - ص ١٧ .

وفى الشمال كان هناك خطر آخر يتمثل فى العثمانيين . وقد بدأ العثمانيون فى الظهور على مسرح الأحداث فى المنطقة منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وإن كانوا قد وفدوا إلى المنطقة بسبب غزوات التتار ، بقيادة تيمورلنك ، التى أخرجتهم من خراسان إلى منطقة آسيا الوسطى . وحين نشأت الدولة العثمانية واتخذت لنفسها مدينة " بروسة " فى آسيا الصغرى عاصمة لم يكن ثمة مبرر للصدام . ولكن الدولة العثمانية سرعان ما اتسعت لكى تبتلع آسيا الصغرى وتستولى على مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣م لكى تضع بذلك الفصل الختامى فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وبعد ذلك افتربت حدود الدولة العثمانية من حدود الدولة المملوكية مما أوجد نقطة احتكاك بين الطرفين .

ومنذ البداية ، كان للعلاقات بين الدولتين اتجاهان أساسيان فقد كانت الدولتان تتحالفان ضد الخطر البرتغالى الذى كان يهدد السيادة المملوكية على طريق البحر الأحمر وضد غارات تيمورلنك على حدود الدولتين ، وضد غارات فلول الصليبيين ومشروعات أوربا لإحياء الحركة الصليبية . ومن ناحية أخرى ، بدأ التنافس بين الدولتين بسبب حدودهما المشتركة .

وتصاعدت التوترات بين الدولتين حتى انتهت بمعركة بين الجيش المملوكى بقيادة قنصوة الغورى ، والعثمانى بقيادة سليم خان سلطان بنى عثمان بمرج دابق فى أغسطس سنة ١٥١٦م. واتضحت حالة الدولة المملوكية المنهارة فى صفوف جيش قنصوة الغورى الذى كان الخلاف فيه شديدا بين طوائف المماليك . ولعبت الخيانة دورها إلى جانب التفكك حتى خر الغورى نفسه صريعا تحت سنابك الخيل العثمانية .

وتوغل العثمانيون جنوبا واستولوا على مدن الشام كلها ، حتى دخل السلطان سليم دمشق وصلى بها الجمعة ، وكان طومانباى يتولى فى ذلك الحين وظيفة نائب الغيبة فى مصر وأرسل إليه سليم يطلب منه الدخول فى طاعته فرفض وقرر المقاومة أمام جيش السلطان سليم العثمانى الذى أخذ يتجه جنوبا لغزو مصر . وبذل طومانباى خلال سلطنته القصيرة التى استمرت ثلاثة شهور جهوداً مضنية للدفاع عن مصر ، لكن الدولة المملوكية كانت قد سقطت بالفعل ، ولم تجد محاولات طومانباى شيئا فى إحياء جسد الدولة الذى كان قد مات وحانت ساعته الأخيرة .

كان السلطان طومانباى يحاول أن يلم شعث القوات المملوكية التى ركنت إلى الدعة وهربت من القتال دفاعا عن البلاد ، مكتفية بحروب الشوارع والهجوم على الأسواق وغير ذلك من

مظاهر التفسخ والانهيار التى وصمت الطبقة الحاكمة فى مصر آنذاك . وعلى الرغم من تواتر الأنباء يوما بعد يوم عن اقتراب قوات العثمانيين من القاهرة ظل المماليك سادرين فى لهوهم وعبثهم . وحين حاول طومانباى أن يستعد لملاقاة الغزاة صدمته الحقائق القاسية ، من خزانة خاوية ، وموارد مستهلكة ، وجيش متشرذم . وكانت النتيجة أن ينهار المماليك أمام العثمانيين .

وحين اهتز جسد طومانباى فى مشنقته على باب زويلة كان ذلك فصل الختام بالنسبة للدولة المملوكية التى تحملت عبء التصدى للمغول والصليبين ، ثم تخلت عن دورها لقوة إسلامية صاعدة جديدة هى الدولة العثمانية التى كان عليها أن تصون العالم العربى من أطماع الاستعمار الغربى على مدى فترة طويلة حتى أواخر القرن التاسع عشر .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الثانى

التاريخ الاجتماعى


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدخـــل

ظروف قيام دولة سلاطين المماليك (من هم المماليك؟- الظروف السياسية الخارجية - الحملة الصليبية السابعة-معركة عين جالوت- المتاعب الداخلية)المفاهيم السياسية للعصر وتعبيراتها : نظام الحكم (القوة العسكرية- الواجهة الدينية) النظام الإقطاعى - البناء الاجتماعى ومدلولاته.

«المماليك»، كما يتضح من مدلول اللفظ نفسه، هم الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم حكام الشرق الأدنى الإسلامى، لاسيما فى مصر والشام، فى صراعهم ضد بعضهم البعض فى خضم الفوضى السياسية التى نشبت مخالبها فى هذه الأنحاء عقب وفاة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى. وكان أولئك الحكام المتنازعون يشترون المماليك صغاراً فى سن الطفولة ينشئونهم تنشئة عسكرية وسياسية خاصة ليكونوا عدتهم فى الصراع المرتقب . وبدأ عنصر المماليك يتزايد فى جيوش أولئك الحكام مما أدى إلى ازدياد دورهم فى الحياة السياسية فى مصر والشام منذ أخريات القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

ويُعد السلطان الصالح نجم الدين أيوب(٦٣٧- ٦٤٧هـ/ ١٢٤٠-١٢٤٩م) المسئول عن ازدياد نفوذ المماليك على النحو الذى أدى إلى استيلائهم على الحكم عقب وفاته . ذلك أن تجاربه مع الجنود المرتزقة من الخوارزمية والأكراد علمته أن الاعتماد عليهم أمر غير مأمون العاقبة ، ولهذا اشترى عدداً كبيراً من المماليك الذين دربهم ليكونوا غالبية جيشه[١] . وكان هؤلاء المماليك من عناصر مختلفة من الأتراك والمغول والصقالبة والأسبان والألمان والجراكسة... وغيرهم إلا أن غالبيتهم فى عصر دولة المماليك الأولى (البحرية) كانوا من بلاد القفجاق والقوقاز ، على حين كانت معظم عناصرهم فى الدولة الثانية (الجراكسة) من الجراكسة ...

وجاء العدوان الصليبى على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) فرصة لإبراز أهمية فرسان المماليك فى الدفاع عن العالم الإسلامى . فقد كانت للخطة التى

١- المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ص٣٣٩ .

وضعها بيبرس البندقدارى ونفذها فرسان المماليك فى شوارع المنصورة أثرها فى هزيمة جيش الصليبيين، ثم استطاع هؤلاء بمساعدة المتطوعين المصريين القضاء تمامًا على الجيش الصليبى، وأسر لويس التاسع نفسه [٢].

وفى خضم الصراع ضد الصليبيين توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وقامت زوجته شجر الدر بإدارة شئون الحكم والحرب بمساعدة كبار أمراء المماليك. وحين تولى توران شاه العرش اصطدم بطموح شجر الدر من ناحية ، وبقوة المماليك البحرية من ناحية ثانية ، وانتهى الصدام بمصرعه على نحو مأساوى مروع [٣]. ثم تولت العرش شجر الدر أول سلاطين المماليك فى مصر والشام .

هكذا إذن كانت الدولة استجابة لظروف العالم الإسلامى فى منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) . ففى ذلك الحين كان على العالم الإسلامى أن يلتزم جانب الدفاع إزاء الهجوم الذى كان يتعرض له من الشرق ومن الغرب على حد سواء. ففى الأندلس كانت الحرب الكاثوليكية قد نجحت فى تقليص المساحة الإسلامية على خريطة إسبانيا ، على حين كانت البابوية تسعى لعقد تحالف مسيحى- وثنى بين الغرب اللاتينى والمغول لحصار العالم الإسلامى. وفى الوقت الذى كانت قوات لويس التاسع تخوض فى مياه البحر المتوسط قبالة دمياط ، كانت جحافل التتار بقيادة هولاكو تطوى بلدان الشرق الأوسط ، وهى تقترب من عاصمة الخلافة العباسية فى بغداد .

وكان انتصار المصريين على الصليبيين بين المنصورة وفارسكور، بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك، وإذا كان بعض المؤرخين يعتبر أن الدولة الوليدة مرت بفترة تجربة استمرت عشر سنوات، فيما بين معركة المنصورة ٦٤٧هـ (١٢٥٠م) ومعركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م [٤]، فإننا نرى أن معركة عين جالوت بنتائجها الحاسمة كانت تأكيداً للدور الذى اضطلعت به دولة سلاطين المماليك منذ مولدها، وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم

٢- عن تفاصيل هذه المعركة انظر محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، ، (القاهرة ١٩٦١) ، ص١٤٥-٢٠١ .

٣- يذكر المقريزى أن المعظم توران شاه مات «... جريحًا حريقًا غريقًا» (السلوك ج١ ، ص٢٥٩ ص٢٦٠) .

٤- جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية (دار المعارف ١٩٦٧)، ص١٧١- ص١٧٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإسلامى، فللمرة الأولى فى تاريخ المسلمين يجدون أنفسهم بدون خلافة بعد مقتل المستعصم بالله العباسى فى بغداد سنة ٦٥٦هجرية . وانجلى هذا الحدث الذى زلزل أركان العالم الإسلامى عن تغيرات كبيرة فى موازين القوى العالمية . وكان على دولة المماليك الناشئة أن تتصدى للخطر التترى، فانتهز قطز الفرصة وعزل السلطان الطفل «المنصور على بن المعز أيبك» وتولى سلطنة البلاد تحت اسم «السلطان المظفر سيف الدين قطز» . وتمكنت جيوش الدولة الجديدة من كسر الموجة التترية الطاغية وبذلك تأكد دورها كقوة حامية للعالم الإسلامى.

ولكن بطولات المماليك فى المنصورة وفارسكور وعين جالوت لم تكن لتشفع لهم أو تغير من نظرة المعاصرين لهم باعتبارهم عبيداً لايحق لهم الجلوس على عرش البلاد . فمن المعروف أن النظرية السياسية الإسلامية تجعل من شروط الحكم أن يكون الإمام «حراً» . ومن ثم فإنه تعين على السلاطين المماليك أن يواجهوا متاعب عدم الاعتراف بهم كحكام شرعيين منذ البداية . فقد ثارت عليهم القبائل التى كانت قد استقرت فى مناطق مختلفة من مصر منذ زمن بعيد . وقد رفض أبناء هذه القبائل العربية ، التى تركزت فى أقاليم الشرقية والبحيرة والصعيد على نحو خاص ، أن يقبلوا الخضوع لحكم المماليك . وتمثل هذا الرفض فى ثورتهم التى تزعمها «حصن الدين بن ثعلب» أحد شيوخهم . وثمة عبارة ينسبها المؤرخون إلى هذا الرجل هى : «نحن أصحاب البلاد ، بل وإنا أحق بالملك من المماليك، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا على هذه البلاد»[٥]. هذه العبارة تفسر تلك النظرة التى نظر بها المعاصرون إلى المماليك، وعدم اعترافهم بشرعية حكمهم. وعلى الرغم من أن «عز الدين أيبك» تمكن من القضاء على هذه الحركة ، فإن الدولة الناشئة كانت ما تزال بحاجة إلى تثبيت دعائمها .

ومن ناحية أخرى، كان من الطبيعى أن يرفض الملوك الأيوبيون فى بلاد الشام الاعتراف بشرعية حكم سلاطين المماليك. كما أن المماليك قد أدركوا منذ البداية عدم قدرتهم على الحكم بأنفسهم لافتقارهم إلى الشرعية الضرورية للحكم ؛ ويذكر المؤرخ ابن أيبك الدوادار أن المماليك حين واجهتهم المقاومة الأيوبية لحكمهم أيقنوا أن الحكم لن يخلص لهم بسهولة ،

٥- المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ص٣٨٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقالوا : «لايستقيم لنا الأمر إلا أن نُملّك أحداً من بنى أيوب ». فاتفق أمرهم على موسى بن الملك المسعود أقسيس ابن السلطان الملك الكامل، وكان صغير السن فأقاموه.. [٦]. إلا أن هذه المحاولة لم تخمد نيران الغضب فى صدور الأيوبيين الذين رأوا فى المماليك مجرد غاصبين استولوا على مصر، درة الأملاك الأيوبية . وكان لابد للسيوف أن تحسم الصراع لصالح أحد الطرفين . وبالقرب من مدينة الصالحية فى محافظة الشرقية الحالية دارت المعركة بين المماليك والأيوبيين . وكانت الهزيمة من نصيب الجيش الأيوبى. بيد أن هذه المعركة لم تكن نهاية المطاف بالنسبة للصراع بين المماليك فى مصر وبنى أيوب فى بلاد الشام، فقد استمر هذا الصراع حتى تم القضاء على المقاومة الأيوبية بشكل نهائى فى عهد السلطان الظاهر بيبرس[٧].

وهكذا كان على سلاطين المماليك أن يبحثوا لسلطنتهم الوليدة عن سند شرعى يدعمون به حكمهم فى نظر معاصريهم، ومنذ البداية حاول السلطان المعز أيبك أن يُعلن تبعيته للخلافة العباسية ، لتكون هذه التبعية سنداً له فى صراعه ضد ملوك بنى أيوب. ثم كان إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) بمثابة الحل السعيد الذى وجده السلطان الظاهر بيبرس للخروج من أزمته . ففى هذه السنة بويع الأمير أحمد ابن الخليفة الناصر لدين الله بن المستضئ بالله خليفة فى القاهرة ، وقد أصدر الخليفة تقليداً للسلطان الظاهر بيبرس بحكم «... البلاد الإسلامية ، وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار..»[٨]. وهوما يعنى حصول بيبرس على تفويض شرعى من الخليفة العباسى بالحكم ، وقد ذكر السيوطى أن بيبرس حصل على لقب «قسيم أمير المؤمنين» الذى لم يحصل عليه أحد قبله[٩].

٦- ابن أيبك الدوادار ، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، ص١٣ .

٧- جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية ، ج١ ، ص١٥١-١٥٤ . وأنظر ما سبق فى التاريخ السياسى .

٨- انظر نص هذه الوثيقة فى المقريزى: السلوك ، ج١ ، ص٤٥٣- ص٤٥٧ .

٩- السيوطى، حسن المحاضرة ، ج١ ، ص٨٧ ، انظر عن إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة : ابن أيبك الدوادار. الدرة الزكية ، ص٧٢- ص٨٠ ؛ النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج٢٨ ، ق١٨ (مخطوط) ؛ المقريزى السلوك ، ج١ ، ص٤٤٨- ص٤٥٠ ؛ السيوطى تاريخ الخلفاء ، ص٣٢٨- ص٣٢٩ ، ومن الثابت أن الخلفاء العباسيين فى القاهرة لم يكن لهم من الخلافة سوى اسمها. أنظر ابن الصيرفى، إنباء الهصر بأنباء العصر. جـ١، ص١١٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويجدر بنا أن نشير إلى أن ظروف قيام سلاطين المماليك من جهة؛ والوضعية القانونية للسلاطين «كمماليك» من جهة ثانية، قد حددت أبعاد النظرية السياسية لذلك العصر، وهو ما يعنى أن المفاهيم السياسية لدولة سلاطين المماليك كانت نتاجًا لظروف قيام الدولة، وحقيقة أن هؤلاء الحكام لاينتمون إلى أسرة حاكمة ، بل أنهم ليسوا أحرارا وإنما «مسهم الرق» . ويمكن بلورة هذه المفاهيم السياسية فى أن أمراء المماليك اعتقدوا أن عرش البلاد حق لهم جميعا يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين ، وهو الأمر الذى تأكد منذ بداية الدولة، سواء فى مصرع أيبك وشجر الدر، أو فى اغتيال «بيبرس» «لقطز» وهو عائد بنصره الكبير على المغول فى عين جالوت ؛ وكانت الزينات قد أعدت لاستقباله ، ولكن بيبرس دخل القاهرة ليجلس على عرش السلطان الذى قتله، ولينعم بحفاوة الاستقبال الذى كان معداً لسلفه وضحيته [١٠]. وهكذا تقرر منذ البداية مبدأ «الحكم لمن غلب» .

وقد أدى ذلك إلى اعتماد سلاطين المماليك فى حكمهم على قوة ذات جناحين ، أحدهما يتمثل فى القوة العسكرية للسلطان وهى القوة التى يجسدها مماليكه . ويتمثل الجناح الثانى فى الواجهة الدينية التى حرص السلاطين على التخفى وراءها طوال ذلك العصر .

ونتيجة لهذا – وربما يكون من أسبابه أيضا– كان لابد لنظام الحكم أن يعتمد على نظام الإقطاع العسكرى الذى كان امتداداً لما كان سائداً فى العصر الأيوبى . فقد كان لكل من السلطان والأمراء جيش من المماليك الذى يعتمد عليه فى تدعيم سلطته أو فى الصراع ضد الآخرين. وفى ظل هذا النظام كانت أقوى الروابط بين المماليك هى رابطة «الأستاذية» التى تربط الأستاذ (السيد) بمماليكه، والخشداشية (الخجداشية) التى هى رابطة الزمالة التى تجمع بين المماليك فى طائفة واحدة .

ولما كانت الإقطاعات هى الوسيلة الوحيدة الممكنة لإعالة هذه الجيوش الصغيرة فقد قسمت الأرض الزراعية فى مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا، استأثر السلطان منها بأربعة قراريط. وخصص للأجناد عشرة قراريط ، على حين زرعت القراريط العشرة الباقية على الأمراء[١١]. وعلى الرغم من أن الإقطاعات قد أعيد توزيعها أكثر من مرة فيما عرف آنذاك باسم الروك (وهو فك وتعديل زمام البلاد من الأرض الزراعية) فإن هذه الأراضى ظلت وقفًا على السلطان والأمراء ومماليكهم ، ولم يبق للمصريين غير زراعتها وتسليم محصولها إلى الحكام .

١٠– ابن أيبك الدوادار : الدرة الزكية ، ص٦١–ص٦٣ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٤٣٥–٤٣٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٧ ، ص٨٣ ، ص٨٧ .

١١– المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١ ، ص٨٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان من الطبيعى فى ظل هذا النظام الإقطاعى أن يكون المجتمع المصرى فى عصر المماليك مجتمعًا طبقيًا فى علاقاته واتجاهاته . وهو الأمر الذى انعكس بوضوح على كافة مظاهر الحياة فى مصر آنذاك . بيد أننا يجب أن نضع فى اعتبارنا أن المجتمع المصرى لم يبق على حال من الجمود والثبات طوال عصر سلاطين المماليك. فالواقع أن المجتمع المصرى فى عصر الجراكسة قد اختلف عنه فى عصر البحرية ، ذلك أن الصورة الزاهية الزاخرة بالحركة والحيوية للحياة المصرية فى أوائل ذلك العصر كانت تعبر عن مجتمع إقطاعى فى دور صعوده، فقد كان البناء السياسى متينًا محكمًا ، وعلى قمة السلطة تربع السلاطين الأقوياء القادرون من أمثال الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاون ، والناصر محمد بن قلاون الذين استطاعوا أن يحكموا قبضتهم على أمرائهم ومماليكهم ، وأن يرسوا دعائم الأمن والاستقرار. ولذا كانت الدولة قادرة فى الداخل ، مهابة فى الخارج . وساعدهم على ذلك نشاط زراعى مزدهر بفضل العناية بمرافق الرى، وثروة كبيرة من عائد تجارة المرور، ونظام إقطاعى صارم يحكم المماليك . وأدى ذلك إلى خلق نوع من الاستقرار النسبى (على الرغم من بعض مظاهر الاضطراب التى شابته أحيانا) . ولكن التدهور الذى ألم بالبلاد منذ بداية القرن التاسع الهجرى تقريبًا (الخامس عشر الميلادى) جعل الألوان الزاهية فى صورة المجتمع المصرى، تتراجع أمام الظلال والألوان القاتمة الحزينة التى جاءت إيذانا بمغيب دولة وسقوط حضارة عاش العالم الإسلامى فى ظلهما زمنا طويلا .

هذا المجتمع الطبقى انقسم فى بنائه إلى طبقتين رئيسيتين هما : الحكام والرعية : أى السلطان وجهازه الحاكم بجناحيه العسكرى والمدنى ، وأبناء الرعية من المصريين المحكومين . ومع تسليمنا بوجود الفوارق والاختلافات داخل كل من هاتين الطبقتين ، فإن واقع المجتمع فى ذلك العصر يكشف أن كلا منهما قد عاشت حياتها الاجتماعية بمعزل عن الطبقة الأخرى تقريبا. وقد قسم المؤرخ «عبد الرحمن بن خلدون» المجتمع المصرى آنذاك إلى «سلطان ورعية»[١٢] وهو ما يكشف عن إدراكه لحقيقة الواقع الطبقى آنذاك . وفى تصورنا أنه يقصد «بالسلطان» الجهاز الحاكم والفئات التى تعيش على هامشه من المصريين ، أما «الرعية» فهم المصريون بجميع طوائفهم وفئاتهم . ولم تكن العلاقة بين السلطان والرعية قائمة على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة. فإن ذلك كان أبعد ما يكون عن مفاهيم أولئك الحكام المجلوبين

١٢- ابن خلدون ، المقدمة ، ص١٨٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبيداً فى طفولتهم ، وإنما كان على الرعية أن تقدم ثمار عملها إلى الحاكم الذى لم يكن هو وأمراؤه يرون فى مصر وأهلها سوى وسيلة من وسائل الإثراء السريع. وقد عرفت الضرائب فى هذا العصر بأسماء مختلفة مثل «المغارم» و«الكلف» و«المظالم» مما يعكس رأى الناس فيها. ومن ناحية أخرى، فإن حكومة المماليك لم تكن تلتزم تجاه الرعية بمسئوليات عامة فى مجالات التعليم والصحة والتغذية وغيرها على نحو ما سنري فى الدراسات التى يضمها هذا الكتاب .

وإذا كان المؤرخ تقى الدين المقريزى (ت ٨٤٥هـ) قد قسم المصريين فى عصره إلى سبع طوائف[١٣] ، فالواقع أن تقسيمه هذا لم يكن تقسيمًا طبقيًا ، بل إنه- فى تصورنا- اقترب من التقسيم الذى وضعه أستاذه ابن خلدون إلى حد كبير . ذلك أن المقريزى جعل «أهل الدولة» على قمة التقسيم الفئوى الذى وضعه للمجتمع المصرى، ثم بيَّن تفاوت المستوى الاقتصادى لكل فئة حسب نشاطها فى المجتمع . والواضح ، أيضا ، أن المقريزى لم يرتب هذه الفئات أو الأقسام وفقا لمستواها الاقتصادى : فقد جعل : «أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية » على قمة الرعية ، يليهم «متوسطو الحال من التجار» وأرباب السوق، ثم يضع بعدهم الفلاحين وسكان الريف والقرى ، قبل الفقهاء وطلاب العلم وأجناد الحلقة الذين يجعلهم فى القسم السادس ، على الرغم مما هو معروف عن مدى تدهور الفلاح وحالته التى اقتربت من العبودية فى ذلك العصر[١٤] كما أنه . من ناحية أخرى، يجعل الشحاذين والمتسولين «الذين يتكففون الناس؛ ويعيشون منهم» قسمًا سابعًا. ونخلص من هذا إلى أن المقريزى قد رأى أيضا أن مصر فى ذلك الحين حاكم ورعية ، وهو الأمر الذى تشى به كتاباته وتعليقاته على الحوادث التى يسوقها فى مؤلفاته . ذلك أنه اكتفى بذكر أهل الدولة

١٣- المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص٧٢-٧٣ . وتقسيم المقريزى لأهل مصر فى عصر: أهل الدولة من الحكام المماليك ، ثم أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية ، ثم الباعة أو متوسطو الحال من التجار والسوقة ، ثم أهل الفلح يتبعهم الفقراء يقصد بهم «جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم ». والقسم السادس أرباب الصنائع وأصحاب المهن، يتلوهم القسم السابع من ذوى الحاجة والمسكنة .

١٤- المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ص٨١١ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، (النهضة العربية ١٩٦٢) ، ص٤٨- ص٥٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دون أن يوضح نشاطهم الاقتصادى، ثم يبدأ فى توضيح دور كل فئة من فئات الرعية وفقًا لرؤيته الخاصة .

وفى رأينا أن المجتمع المصرى فى عصر السلاطين المماليك كان مجتمعًا يقوم على بناء طبقى حاد. فثمة طبقة من الحكام العسكريين لهم كل الحقوق والامتيازات ، ويمتلك أفرادها الأرض الزراعية التى قام عليها اقتصاد البلاد، ولهم فقط حق الحكم والإدارة. فى مقابل الرعية التى اقتصر دور أبنائها على الإنتاج ودفع الضرائب والخضوع المتكرر لابتزاز المماليك ، دون أن يكون من حق أبنائها المشاركة فى مسئوليات الحكم . وقد انعكس هذا الوضع ، بطبيعة الحال، على صورة الحياة المصرية آنذاك ، ومن البديهى أنه كانت هناك فوارق بين الشرائح الاجتماعية داخل كل من هاتين الطبقتين، بيد أن ذلك لايغير من الحقيقة القائلة بأن المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك قد انقسم إلى طبقتين من الحكام والمحكومين . وإذا كان بعض الباحثين قد تصور وجود طبقة وسطى فى هذا المجتمع فإن ذلك يرجع، فى تقديرنا، إلى أن بعض فئات المصريين كانت على قدر من الثراء بفضل التجارة أو غيرها، مما جعلهم يتميزون عن بقية الرعية . وظهروا وكأنهم يحتلون مكانة وسطى بين الحكام بثرائهم الفاحش ، والشرائح الدنيا من الرعية بفقرها المدقع . ولكن الطبقة لاتتحدد بناء على مدى ثرائها فحسب وإنما بعلاقاتها مع السلطة من ناحية ، والرعية من ناحية ثانية . وفى هذا الصدد كانت علاقة المماليك برعاياهم ذات اتجاه واحد أيا كانت درجة ثرائهم ، فقد اعتبروهم مجرد رعايا خاضعين عليهم الغُرم دائمًا ، وليست لهم قبل الحاكم أية حقوق . ومن ناحية أخرى ، فإن طبيعة النظام الإقطاعى المملوكى قد أدت- على نحو ما سنرى - إلى تدهور إنتاجية الأرض الزراعية ، ومن ثم زاد معدل اعتماد المماليك على الرواتب النقدية التى يتقاضونها من خزانة السلطان الذى زاد بالتالى معدل اعتماده على الضرائب ، والمصادرات التى أدت إلى تدهور أحوال كثيرين من الموسرين . وهكذا تحول معظم أبناء هذه الفئة إلى معدمين فى الشطر الأخير من ذلك العصر .

على أية حال ، فإن فرسان المماليك، الذين جاءوا عبيداً إلى مصر وبلاد الشام ، كان لهم وحدهم حق الحكم ، لأنهم كانوا يستأثرون بالرتب العليا فى الجيش المملوكى. وكان على أفراد هذه الطبقة عبء الدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية من جهة ، وحماية عرش السلطان ضد الأخطار الداخلية من جهة ثانية . وكانت هذه الطبقة تقوى نفسها على الدوام بما يجلبه تجار

الرقيق إلى مصر من المماليك وكان من الممكن أن تصل مشتريات السلطان فى عصر المماليك البحرية إلى حوالى ثمانمائة مملوك، على حين أن مشتريات السلاطين من المماليك لم تزد عن مائتين أو ثلاثمائة مملوك فى النصف الثانى من القرن الخامس[١٥] وكان أولئك المماليك من جنسيات مختلفة ، كما أوضحنا من قبل .

وكان مماليك السلطان يعسكرون بالقاهرة حيث تكون القوة الرئيسية فى الجيش المملوكى. وكانت أعداد المماليك السلطانية تتكاثر حين يضم إليهم مماليك أسلافه من السلاطين أو من يغضب عليهم من كبار الأمراء. ولكن العلاقة بين السلطان والمماليك الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم عادة ما تكون أقوى من العلاقة بينه وبين غيرهم من المماليك . وكان السلاطين يولون عناية كبيرة لتربية مماليكهم وتدريبهم، لأنهم كانوا بمثابة الحرس السلطانى الخاص . كما كان السلطان يختار لهم أعلى الوظائف قدراً وأكبرها إقطاعًا ، سواء فى البلاط أو فى الجهاز الحكومى. وفى البداية يقرر السلطان راتبا نقديًا وعينيًا (من اللحوم والتوابل والخبز والأعلاف والزيت وغيرها) لكل من مماليكه فى كل شهر. وبعد أن يدخل الفارس فى زمرة الأمراء أصحاب الإقطاعات يمنحه السلطان إقطاعًا من الأرض الزراعية تتزايد مساحته تزايداً طرديًا مع ترقى الأمير المملوكى من أمير عشرة إلى مائة أو أمير ألف أو غيرها من الرتب الكبيرة . وكان السلطان يمنح الفارس هذا الإقطاع فى احتفال كبير بموكب سلطانى يطوف شوارع القاهرة، وحين يصل الموكب إلى قبة المنصور قلاون يقوم الفارس بأداء اليمين لسيده[١٦].

وكان الأمراء الكبار، وولاة الأقاليم، يمتلكون جيوشا صغيرة من المماليك تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمائة إلى ستمائة مملوك، وقد تصل إلى ثمانمائة مملوك. إلا أن تدهور أحوال البلاد فى عصر الجراكسة ترك أثره فى هذا المجال أيضا ، ولم تعد جيوش الأمراء تزيد عن مائتى أو ثلاثمائة مملوك [١٧]. وكانت جيوش الأمراء تشكل الجزء الثانى من الجيش المملوكى العام ، إلا أنها غالبا ما كانت تتمركز فى الأقاليم خارج القاهرة . أما القسم الثالث من الجيش فكان

١٥- E. Ashtor, A social and economic history of the Near East in the Middle Ages (Collirs, London 1976) , p. 282 .

١٦- العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤٦ يتبع ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى، ص١٩ .

١٧- Ashtor, op. cit. p. 283 .

يتألف من أجناد الحلقة ، وهم المقاتلون الأحرارمن « أولاد الناس » (أى أبناء المماليك) والأعراب والتركمان ، وبعض المصريين الذين انضموا للجيش . والجدير بالذكر أن أجناد الحلقة قد فقدوا أية أهمية عسكرية فى عصر الجراكسة، بل إن الكثيرين منهم تعرض لقطع إقطاعه أو جامكيته (راتبه الشهرى) فى أواخر ذلك العصر[١٨].

وكان المماليك يعتمدون على النظام الإقطاعى كما ورثوه عن سادتهم من بنى أيوب فى البداية . إلا أن النظام الإقطاعى المملوكى خضع لتطورات جوهرية ، لاسيما منذ عصر السلطان محمد بن قلاون (النصف الأول من القرن الرابع عشر) . وعلى أية حال ، فقد كان المماليك يعيشون على إقطاعاتهم التى كانت تتناسب تناسبًا طرديًا مع رتبهم العسكرية . وكان الإقطاع يتراوح ما بين نصف زمام قرية لجندى الحلقة ، وزمام عشر قرى للأمير المملوكى[١٩]. وكان ريع الإقطاع يتراوح ما بين ألف درهم وعشرة آلاف درهم للجندى فى القرن الخامس عشر، وذلك بخلاف الضيافة التى كانت عبئًا إجباريًا على الفلاحين العاملين فى الإقطاع ، وقدر المقريزى الضيافة بحوالى خمسة آلاف درهم فى «الإقطاع الثقيل»[٢٠]. وفى بداية عصر سلاطين المماليك، كان الإقطاع يتركز فى مكان واحد ، وبعد الروك الناصرى[٢١] : أصبح الإقطاع يتفرق فى عدة جهات، «فصار بعض الجبى فى الصعيد ، وبعضه فى الشرقية ، وبعضه فى الغربية " إتعابًا للجندى وتكثيراً للتكلفة... »[٢٢]. وهو ما يكشف عن أن الإقطاع الواحد صار يتفرق فى أقاليم مختلفة من البلاد والأهم من ذلك أن الإقطاع كان يتغير بتغير وظيفة صاحبه . والراجح أن السلاطين كانوا يقصدون من وراء ذلك عدم التمكين لنفوذ أى من الأمراء إذا ما استقروا فترة طويلة فى إقطاعات دائمة . وهو ما نجحوا فيه بالفعل .

١٨- ابن الصيرفى، إنباء الهصر بأنباء العصر ، صفحات ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج٣ ، صفحات ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٧ .

١٩- سعيد عاشور ، المجتمع المصرى، ص١٩

٢٠- المقريزى ، الخطط ، ج١ ، ص٨٤ - ص٨٧ .

٢١- الروك كلمة قبطية الأصل كانت تستخدم فى عملية قياس الأرض وحصرها فى سجلات وتثمينها لتقدير الخراج وفقًا لدرجة الخصوبة . ويقابل الروك حاليًا عملية فك الزمام وتعديل الضرائب. والروك الناصرى نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون.

٢٢- المقريزى ، السلوك ، ج٢ ، ص١٠٢ ، الخطط ، ج١ ص٨٩ ؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٣ ، ص٣٢٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج٩ ، ص٤٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيد أن هذه السياسة التى سار عليها سلاطين المماليك فى منح الإقطاعات، أثبتت- على المدى الطويل- أنها كارثة على الاقتصاد المصرى، ذلك أن الأمير أو الجندى صاحب الإقطاع كان يعلم مسبقا أنه لن يستقر به طويلا ، ومن ثم فإنه لم يكن يولى الأرض الزراعية أية اهتمام أو رعاية حقيقية. ومن هنا أهملت وسائل الرى والصرف ، وتجلت النتائج الضارة لهذه السياسة فى الشطر الثانى من ذلك العصر ، حين لم تعد مياه الفيضانات العالية تكفى لرى كافة الأراضى الزراعية ، كما كثرت حوادث انقطاع الجسور ، وعطش الأراضى الزراعية نتيجة إهمال المماليك لوسائل ضبط النهر[٢٣] . وكان لتدهور الإنتاج الزراعى ، بالتالى ، أثره على النظام السياسى الإقطاعى الذى قامت عليه دولة سلاطين المماليك. وبينما قل اعتماد المماليك على عائد الأرض الزراعية ، زاد معدل اعتمادهم على الرواتب النقدية والمخصصات العينية التى كان السلاطين يصرفونها لهم. وحين لم يستطع السلاطين إشباع مطالب المماليك كثرت حوادث الشغب والتمرد والاعتداء على الناس فى الشوارع والأسواق فى أواخر ذلك العصر الزاخر بالأحداث على نحو ما سنوضحه .

والجدير بالذكر أن العلاقات الإقطاعية فى مصر آنذاك كانت تختلف تمامًا عن العلاقات الإقطاعية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى. ففى أوربا كان هناك سلم إقطاعى حيث تجد سادة إقطاعيين وهم بدورهم أتباع لسادة آخرين، مما كان يخلق مشكلة ولاء الفصل الإقطاعى لسيده الأدنى أو لسيده الأعلى فى حالة الحرب بينهما. والواقع أن تبعية الفارس الإقطاعى فى أوربا فى العصور الوسطى كانت لسيده المباشر[٢٤]. أما فى دولة المماليك ، فكانت تبعية الجميع للسلطان الذى كان بمثابة السيد الإقطاعى الأعلى. وبينما تحول الإقطاع فى أوربا إلى إقطاع وراثى، مما مكن لقيام بيوتات إقطاعية ناوأت الملكية وسلبتها كثيراً من حقوقها وسلطاتها السياسية والقضائية على الناس فى أوربا فى ذلك الحين ، فإن الإقطاع المملوكى الذى بدأ وراثيا ، ما لبث أن تحول إلى إقطاع شخصى بحت. وللسلطان وحده حق منحه أو انتزاعه ، الأمر الذى أدى إلى عدم قيام أسرات إقطاعية وراثية قوية على نحو ما حدث فى الغرب الأوربى فى العصور الوسطى .

٢٣- قاسم عبده قاسم ، النيل فى المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، (دار المعارف ١٩٧٨) ، ص١٨ .

٢٤- Norman F. Cantor, The Medieval History (New York 1969) pp. 203-23 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإلى جانب الإقطاعات الزراعية كان البعض يأخذون «إقطاعات نقدية»، هى عبارة عن إيراد ضريبة ما أو الضرائب المحصلة من أحد الأسواق [٢٥]. وقد حاول الناصر محمد بن قلاون إلغاء هذه الإقطاعات النقدية وقصر الإقطاعات على الأراضى الزراعية ، لكن نظام الإقطاعات النقدية لم يلبث أن فرض نفسه مرة أخرى على النظام الاقتصادى.

وكان طبيعيا أن يحتل هؤلاء المماليك المجلوبون عبيداً فى طفولتهم ، أعلى وظائف الدولة، وهو الأمر الذى أدى إلى تكريس عزلتهم عن المجتمع الذى حكموه . فقد أحس المماليك أنهم غرباء عن البلاد ولم يحاولوا الإندماج فيها ، وفى حياة المصريين عموما ، بل إن منهم من لم يتعلم اللغة العربية على الإطلاق . وثمة لهجة تركية كانت هى اللغة السائدة فى أوساط البلاد المملوكى ، وهى التركية التى كان أهل مملكة القرن الذهبى التركية يتحدثون بها [٢٦]. وعلى الرغم من أن المماليك بدءوا ينزلون من طباق القلعة ، ويسكنون القاهرة ويتزوجون من المصريات منذ عصر السلطان الظاهر برقوق (أواخر القرن الرابع عشر) [٢٧]، فإنهم ظلوا على عزلتهم الاجتماعية . ذلك أن تركز وظائف الحكم والإدارة العليا فى أيديهم ، وكونهم أصحاب السلطة السياسية والقوة العسكرية فى بلد غريب عنهم . جعلاهم يتصرفون كأقلية عسكرية حاكمة تنأى بنفسها عن المشاركة فى الحياة المصرية إلا من خلال المواكب السلطانية والأعياد الدينية والعامة .

كما أن المصريين ، من جهة أخرى ، لم يروا فى المماليك سوى طائفة من الغرباء الذين يحكمونهم بتفويض من الخليفة العباسى فى القاهرة ، ويغلب على الظن أن مشاعر المصريين تجاه أولئك الغرباء الذين تولوا حكمهم على مدى أكثر من قرنين من الزمان ، كانت مزيجًا من الكراهية السياسية والعداء الاجتماعى ، والولاء الدينى بفضل الواجهة الدينية التى جعلت من المماليك حكامًا شرعيين مفوضين من الخليفة الذى كان دوره – فى الغالب– قاصراً على إضفاء الشرعية على من يجلس على عرش البلاد من أولئك المماليك . ولم تكن للخليفة من خلافته سوى الاسم [٢٨].

٢٥– انظر دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب .

٢٦– Ashtor , A Social and Economic Hist. p. 282 .

٢٧– سعيد عاشور ، المجتمع المصرى، ص٢٣ .

٢٨– ابن الصيرفى : إنباء الهصر، ص١ ، ص١١٥ .

وظلت جموع المماليك الذين كان تجار الرقيق يجلبونهم من شتى الأرجاء باستمرار تغذى المشاعر الإنعزالية فى نفوس أبناء الطبقة الحاكمة . بيد أن تطوراً حدث فى نظام تربية المماليك فى عصر الجراكسة . وذلك أن السلاطين والأمراء استعاضوا عن المماليك الصغار ، الذين كانوا يخضعون لنظام صارم من التربية والتدريب ، بالمماليك من الشباب اليافع الذين تخطوا سن البلوغ . وقد عرف هؤلاء باسم «الجلبان» أو «الأجلاب» [٢٩]. وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور أن ضعفت رابطة «الأستاذية» التى كانت تربط بين المماليك وسيدهم الذى كان له الفضل فى تربيتهم وتدريبهم منذ نعومة أظافرهم، كما تخلخلت سيطرة السلطان والأمراء على أولئك الجلبان مما أدى إلى كثير من حوادث الشغب والاضطراب والاقتتال التى كانت شوارع وأزقة القاهرة وغيرها من المدن المصرية مسرحا لها[٣٠] وساهم ذلك بمزيد من التدهور لاسيما فى أواخر ذلك العصر .

أما أبناء المماليك الذين ولدوا فى مصر ولم يمسهم الرق، فقد عرفوا فى مصطلح ذلك العصر باسم «أولاد الناس». وكانت مكانتهم الاجتماعية أدنى من المماليك . وغالبًا ما كان «أولاد الناس» هؤلاء ينصرفون عن الحياتين السياسية والعسكرية اللتين يحيا آباؤهم فى ظلهما ، ويختارون لأنفسهم حياة السلم والدعة . وقد يساهم بعضهم فى النشاط الثقافى لعصره . وقد برز من «أولاد الناس» عدد كبير من المؤرخين اللامعين فى تاريخ تدوين التاريخ عند المسلمين ؛ نذكر منهم على سبيل المثال «ابن أيبك الدوادار» ، «وخليل بن شاهين الظاهرى» و«صارم الدين بن دقماق» ، وابن تغرى بردى» «وابن إياس» وغيرهم [٣١]. ويمكن تفسير هذه المكانة الاجتماعية لأولاد الناس فى ضوء الحقيقة القائلة بأن المماليك لم تكن لهم حياة أسرية بالمعنى المألوف ، ذلك أن وجودهم في المجتمع المصرى لم يكن قائمًا على أساس الأسرة كخلية أولية فى البناء الاجتماعى، وإنما اعتمد وجودهم على القوة الذاتية لكل أمير

٢٩- سعيد عاشور ، المجتمع المصرى، ص٢٥- ص٢٧ .

٣٠- المقريزى، السلوك ، ج٣ ، ص٢٨٠- ص٢٨٢ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم ، ج١٦ ، ص٩٦- ص٩٧؛ ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج٣ ٣ ، ص٩٦- ص٣٨٨ ، ج٥ ، ص٤٦٥ .

٣١- قاسم عبده قاسم وأحمد الهوارى، الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث، (الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٧)، ص٨٩ ، يتبع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ممثلة فى مماليكه الذين كانوا سنده وعدته في الصراع المرتقب مع غيره من الأمراء . ومن ثم كان الأمراء يولون عنايتهم ورعايتهم الكاملة لمماليكهم . ولم يكن الأمير يتناول طعامه إلا مع مماليكه ، وكان يغضب ممن لايأكل عنده منهم (٣٢). وهكذا لم يكن لدى أمراء المماليك وقت لرعاية أبنائهم الذين كانوا يتركونهم لكى ينشأوا فى الحريم بعيداً عن الجو المملوكى، أو فى «حجور النساء» على حد تعبير ذلك العصر .

وكان «أولاد الناس» يمضون أوقاتهم فى ممارسة بعض الألعاب والرياضات، مثل الفروسية ولعب الكرة ورمى الرمح والنشاب وما إلى ذلك، أو يختلفون إلى مجالس العلم، كما كان بعضهم ينضم إلى الحلقة ليكون من جنود الجيش المملوكى. ومن ناحية أخرى ، كانت الثروات التى يرثونها عن آبائهم ، أو الإقطاعات التى كان السلاطين يمنحونها لهم ، تمكنهم من الحياة المرفهة الهانئة بحيث يمكن أن نلحقهم بالطبقة الحاكمة ، وإن عاشوا على هامشها . بيد أننا يجب أن نشير إلى أن «أولاد الناس» تعرضوا لمتاعب جمة فى غمرة التدهور العام الذى كانت الدولة تعانى منه فى أخريات أيامها(٣٣).

وفى فلك هذه الطبقة العسكرية الحاكمة كان يدور بعض المصريين من الفئات التى كانت ترتبط بالمماليك بحكم دور أفرادها فى الحياة المصرية آنذاك . هؤلاء هم «أرباب الأقلام» من أصحاب الوظائف الديوانية الإدارية والمالية والقضائية . ولما كانت العلوم الدينية هى الأساس الذى كان التعليم يقوم عليه فى ذلك العصر ، فقد كان أولئك النفر المصريون من الفقهاء والعلماء بصفة خاصة، وهو ما جعل بعض المصادر فى ذلك العصر تطلق عليهم مصطلح «أهل العمامة» أو «المتعممون»(٣٤). والواقع أن ابناء هذه الطائفة قد لعبوا دوراً هامًا فى مساندة

٣٢- القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ص١٠ ج٦٦ ، ص١٧٣ ؛ المقريزى، الخطط ، ج١ ص٧٨ .

٣٣- يذكر ابن الصيرفى(إنباء الهصر، ص٢١- ص٢٣) أن السلطان قايتباى لم يستطع فى سنة ٨٧٣هجرية أن ينفق على أصحاب الجوامك من أولاد الناس ، ولذا فإنه عمد إلى اختبار قوتهم بنفسه لتجنيدهم فى إحدى الحملات أو مطالبتهم ببدل نقدى مما جعلهم يتمنون قطع جوامكهم «.. لأن غالبهم ما يملك عشاءه ، ولافرسًا يركبه ، ولابدلة يلبسها ثانية غير ما هو لابسه إن لم يكن استعاره، ورمى بعضهم جامكيته (أى تنازل عنها) فلم يقبلوا منه ذلك ، والله الحاكم والملك..» انظر مزيداً من الأمثلة فى المصدر نفسه ص٢٣، ص٤٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص١١ ، ص٣٧ ، ص١٢٥ .

٣٤- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٢٠٥ .

السلطة الحاكمة ، وقد حرصوا ، بشكل عام، على تأكيد ولائهم للسلطان فقدكان من المعتاد في ذلك العصر أن يصعد كبار القضاة والفقهاء مع بداية كل شهر إلى القلعة لتهنئة السلطان بالشهر الجديد [٣٥]. وتشهد تلك الطائفة الكبيرة من الفتاوى التي تضمنتها الوثائق التي وصلتنا من عصر سلاطين المماليك على أن السلاطين اعتمدوا كثيراً على هذه الفتاوى في كافة تصرفاتهم السياسية والاقتصادية والمالية والإدارية [٣٦] وهنا ينبغي أن نشير مرة أخرى إلى أن حرص سلاطين المماليك على الواجهة الدينية لحكمهم جعلهم يقربون «أهل العمامة» ضمن اهتمامهم بالمظهر الديني عموما، وإذا كانت هناك بعض الحالات التي عارض فيها بعض الفقهاء أو القضاة أحد السلاطين، فإن ذلك الاعتراض غالبًا ما كان يوجه ضد محاولة النيل من امتيازاتهم ، لاسيما عندما يحاول أحد السلاطين انتزاع الأوقاف المخصصة للمدارس والجوامع والبيمارستان والأسبلة وغيرها من المنشآت ذات الطابع الديني أو الخيري ، والتي كان الاهتمام بإنشائها من سمات عصر سلاطين المماليك. فقد حدث سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) أن عقد السلطان قايتباي مجلسا بالقلعة حضره القضاة والفقهاء وكبار رجال الدولة، وشكا السلطان من أن الخزانة خاوية ، وأن الجيش يكلفه نفقات باهظة ولا يستطيع مواجهتها، وأن الحل هو أن يستولي على أوقاف المساجد والجوامع، وكاد الاجتماع ينتهي بالموافقة لولا أن تصدى أحد الفقهاء لمعارضة السلطان مما جعل المؤتمرين يتفرقون دون أن يتوصلوا إلى نتيجة[٣٧]. ويتضح من هذا المثال ، وغيره أنه إذا كانت هناك بعض المواقف التي عارض فيها أحد المتعممين تصرفات السلاطين، فالواضح من مصادر تلك الفترة أن مثل هذه التصرفات كانت أمثلة فردية تمثل شذوذاً على الموقف العام لأبناء هذه الفئة ، ولعل مما يؤكد ما ذهبنا إليه ما ذكره ابن إياس في حوادث سنة ٦١٣ هجرية من أن أحد الشعراء المعاصرين كتب قصيدة

٣٥- ابن الصيرفي إنباء الهصر ، ص٨-٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص٢٤ .

٣٦- مجموعة وثائق دير سانت كاترين ، وثائق رقم ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ . وانظر كذلك المقريزي، السلوك ، ج٤ ، ص١١٨٩- ص١١٩٠ ؛ ابن تغري بردي، النجوم ، ج١٥ ، ص٣٣٨ حيث يذكر هذان المؤرخان أن السلطان الظاهر جقمق استصدر فتوى من القضاة الأربعة بجواز أخذ الضرائب من التجار في مكة وجدة بحجة أن هذه الأموال تنفق على تجهيز القوات اللازمة لحماية هاتين المدينتين .

٣٧- ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٣ ، ص١٣- ص١٥ - ص٢٤ ؛ ابن الصيرفي إنباء الهصر ، ص١٢-٣٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يهجو فيها وكيل بيت المال لفساد ذمته ، فشكاه الأخير إلى القاضي الذى أمر بضربه فهجاه الشاعر بقصيدة «دارت بين الناس» فشكاه القاضي إلى السلطان الغورى وتعصب جميع القضاة والفقهاء ضد الشاعر الشعبي وأرادوا ضربه بالسياط وإشهاره بالقاهرة[٣٨] ، ولكن جماعة كثيرة من العوام تعصبوا للشاعر جمال الدين السلموني وأرادوا أن يرجموا قاضى القضاة . وإزاء ذلك اضطر إلى إعفاء السلموني من عقوبة التشهير، وحكم بسجنه مدة طويلة. والجدير بالذكر أن الأبيات التى أوردها ابن إياس من قصيدة السلمونى تحمل نقداً مريراً ولاذعًا لفساد الحياة الاجتماعية فى مصر آنذاك ، فضلا عن فساد ذمم القضاة وقبولهم الرشوة واستيلائهم على أموال الأوقاف [٣٩].

وسواء كان أهل العمامة يعملون فى الوظائف التى عينهم السلاطين فيها، أم كانوا يقومون بالتدريس فى مختلف المدارس المنتشرة فى أرجاء البلاد، فقد كان عليهم أن يتعاونوا مع المماليك . وكان المتعممون يتمتعون بحياة رغيدة هانئة ، ويقتنون الثروات الطائلة التى كانت الأوقاف الكثيرة- التى يشرفون عليها- توفرها لهم .

ولعل من المفيد فى هذا المقام أن نشير إلى أن مصطلح «أهل العمامة» لايعنى أن هذه الفئة كانت هى الفئة الوحيدة التى كان أبناؤها يرتدون عمامة فوق رؤوسهم ، وإنما يعنى هذا أن عمائمهم كانت أكبر فى حجمها من عمائم الآخرين، وهو ما يتوافق مع مفاهيم ذلك العصر الطبقية التى كانت تجعل حجم العمامة يتناسب طرديًا مع مكانة الشخص الاجتماعية [٤٠]. كما أن بعض الباحثين يذكر أن العمامة لم تكن حتى القرن السابع الهجرى (١٩م) جزءاً مكملا لزى القاضي، وإنما كانت القلنسوة تستخدم بدلاً منها [٤١]. بيد أن ملابس المتعممين

٣٨- التشهير عقوبة من العقوبات التى كانت شائعة فى عصر المماليك، وكان يطاف بالشخص المراد إشهاره على حمار أو ثور ويضرب الجرس على رأسه ، وينادى عليه ليجتمع الناس حوله، وأحيانًا يزفه المغنون «ويوضع فى عنقه ماشة وهون» . وفى نهاية المطاف يجلد بالسياط وسط جمع من الناس . انظر سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص٩٩ .

٣٩- ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص١١٣-ص١١٤ .

٤٠- قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧٩) ، ص١٥٧ - ص١٥٩) .

٤١- ل. أ . ماير ، الملابس المملوكية ،(ترجمة صالح الشيتى، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢)، ص٨٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عمومًا كانت تعبر عن مستواهم الاجتماعى ؛ سواء كانوا من رجال الدولة أو من صغار الفقهاء[٤٢]. وكان الفقهاء يتمسكون بهذا الزى ولايجلسون لإلقاء دروسهم إلا به مما أثار استياء بعض المعاصرين الذين رأوا فى تمسك هؤلاء بالمظهر آفة من آفات المجتمع المصرى[٤٣].

وكان أبناء الشريحة العليا من أهل العمامة يتقاضون مرتبات عينية ونقدية من الديوان السلطانى. وقد تمسكوا بمظاهر الحياة المترفة المنعمة ، فكانوا يركبون الخيول المسومة ويرتدون الثياب الغالية. ويغشون مجالس السلاطين والأمراء[٤٤]. وهو ما يكشف عن أن القضاة والفقهاء- لاسيما الكبار منهم - قد وضعوا مصالحهم فى سلة واحدة مع مصالح الطبقة الحاكمة .

ومن المهم أن نشير إلى أن التدهور العام فى أواخر ذلك العصر ، ترك آثاره السلبية على مكانة كبار المتعممين لدى المماليك . فكان المتعممون يتعرضون من آن لآخر لمظاهر الإمتهان، ويمنعون من ركوب الخيول التى كان ركوبها امتيازاً للطبقة العسكرية الحاكمة فقط[٤٥]. كما تعرضت مرتباتهم للقطع والمنع مرات عديدة نتيجة عجز ميزانية الدولة المستمر فى أخريات أيامها[٤٦].

وثمة فئة أخرى عاشت على هامش الطبقة الحاكمة بحكم عملها فى الجهازين الإدارى والمالى لدولة سلاطين المماليك، هم فئة المحاسبين والماليين من أهل الذمة الذين عملوا فى خدمة الديوان السلطانى ودواوين الأمراء. وقد احتل أهل الذمة المصريون مكانهم فى الجهازين الإدارى والمالى للدولة بحكم أنه كانت قد تكونت منهم فئة من الخبراء فى هذه النواحى بحيث لم تكن الدولة قادرة على الاستغناء عنهم على الرغم من كافة المحاولات التى بذلت فى هذا السبيل[٤٧].

٤٢- المرجع نفسه ، ص٩٠-٩٩ حيث يتعرض بالتفصيل لملابس المتعممين .

٤٣- ابن الحاج ، المدخل ، ج١ ص١٣٦ .

٤٤- ابن حجر ،إنباء الغمر بأنباء العمر، ج٢ ، ص٢٥٩ .

٤٥- ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج١ ، ص٧٨ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص١٣ .

٤٦- ابن الصيرفى: إنباء الهصر، ٢٣٠ ، ص٤٣٠ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور ج٣ ص٣٣، ج٤، ص١٤ .

٤٧- قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة ، ص٨٤ ، يتبع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد فزع المعاصرون من نفوذ أهل الذمة الناتج عن توليهم لوظائف الإدارة المالية، فقد اتهموهم باستغلال نفوذهم ضد المسلمين ولصالح أبناء طوائفهم[٤٨]. ومن ناحية أخرى، فإن ما بلغه أهل الذمة العاملون فى الجهازين الإدارى والمالى للدولة من ثراء ونفوذ كان يسبب لهم المتاعب من قبل السلاطين الذين كانوا يصادرون ثرواتهم . كما كان عامة المصريين المطحونين تحت وطأة الضرائب أو «المظالم» يضغطون على السلاطين لكى يطردوا الموظفين الذميين .

هذه هى الطبقة الحاكمة ، والفئات التى كانت تعيش فى جوارها وتدور فى فلكها من كبار الموظفين فى الجهاز الحاكم سواء كانوا من الفقهاد أو من أهل الذمة. أما الرعية فكانت تشمل صغار التجار والفقهاء. وأصحاب الحرف والصنائع والفلاحين ، وعامة أهل المدن. وإذا كان ثمة تدرج فى المستوى الاقتصادى بين الشرائح الاجتماعية داخل الطبقة المحكومة ، فإن الجميع كانوا رعايا من وجهة نظر طبقية أفرزها البناء الإقطاعى لمصر فى عصر سلاطين المماليك. هذا البناء الذى حدد لكل فئة من فئات المصريين مكانتها الاجتماعية ، بما يرتبط بهذه الفئة من عادات وتقاليد أو ممارسات اجتماعية. وقد عاش المصريون بكل فئاتهم يمارسون حياتهم اليومية بمعزل عن الطبقة الحاكمة التى لم يكن يربطهم بها شئ سوى الضرائب التى كان يفرضها عليهم السلاطين أو أحداث العنف التى يفرضها المماليك على حياتهم ، وقد يروح بعضهم ضحية لها ، من آن لآخر .

ويمكن أن نتابع بعض مظاهر حياة المصريين اليومية ، وأن نتعرف على بعض عاداتهم وتقاليدهم من خلال بعض الدراسات التى تتناول- بالتفصيل - بعض جوانب الحياة المصرية فى ذلك العصر .

٤٨- المرجع نفسه، ص٨٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رحالة أندلسيون فى القاهرة
تطور العاصمة (٦-٩هـ/ ١٢-١٥م)

مدخل - مفهوم الرحلة فى العصور الوسطى- القاهرة فى عيون الرحالة المسلمين- خاتمة

الرحلة وسيلة الإنسان لكسب المعرفة والتعرف على البيئة والإنسان منذ أقدم العصور . وما تزال الرحلة من أنجح وسائل الإنسان فى الحصول على المعرفة . ولهذا السبب حظيت الرحلة باهتمام القدماء والمحدثين على حد سواء، كما احتفل العلماء بمدى ما قدمته الرحلة من إسهامات ساعدت على اكتشاف البيئة والتعرف على نشاط الإنسان فى رحابها . وتسابق العلماء والباحثون على تقديم الأوصاف الاحتفالية التى أسبغوها ، بكرم شديد، على الرحلة .

وعلى الرغم من أنه كانت وما تزال ، للرحلة جوانبها المشينة والمظلمة ؛ مثل التجسس ، والعدوان على الآخرين ، والاستعمار ، والاستيطان ، والتخريب ... وما إلى ذلك- نقول إنه على الرغم من هذا الجانب المظلم للرحلة؛ فإن إشراقاتها الإيجابية قدمت خدمات جليلة للإنسانية جمعاء . وللإنسان الفرد أيضا .

لقد كانت الرحلة الأب الشرعى للجغرافيا ، كما قدمت إسهامات هامة فى نشأة وتطور علوم إنسانية واجتماعية أخرى؛ مثل الاثنوجرافيا ، والأنثروبولوجيا ، والتاريخ الاجتماعى... وغيرها . بيد أن أهم مساهمات الرحلة ، فى تصورنا ، جاءت من خلال طرح معرفة الإنسان بالإنسان. ذلك أن الرحلة تكشف عن حال يتعرف فيها الإنسان بالآخر، ويصبح أكثر استعداداً للاعتراف بوجود هذا الآخر والتعاون معه. لقد كانت عين الرحالة الغريبة دائما بمثابة آلة التصوير التى تسجل ما ألفه الناس واعتادوه بحيث حسبوه غير جدير بالملاحظة ؛ وهو ما يعنى أن الرحلة قدمت لنا الكثير من المادة الخام التى قامت على أساسها دراسات التاريخ الاجتماعى، والاثنوجرافيا ، والانثروبولوجيا . فضلا عن فروع الدراسات الاجتماعية الأخرى .

لقد بدأ تاريخ الرحلة مع تاريخ الإنسان نفسه ؛ ربما بقصد البحث عن مصادر الرزق التى جعلت حركة الأقوام وهجرات العصور القديمة مسألة ملحوظة فى تلك الفترة السحيقة من تاريخ الإنسانية . وفى هذه الفترة اختلط الدافعان الاقتصادى والعسكرى بحوافز الكشف والمعرفة

على نحو يصعب تحديد مداهما . وهذه الدراسة لاتهتم بالرحلة / الهجرة التى كانت حركة على مستوى اجتماعى شامل تواترت أمثلة عديدة منها على مرّ التاريخ حتى الآن ؛ وإنما تهتم بدراسة نماذج من الرحلة الفردية التى بدأت هى الأخرى فى فترة باكرة من تاريخ الإنسانية .

وفى تقديرنا أن اختيار الفترة الزمنية يقوم على مشروعية علمية واضحة ؛ إذ أن تلك الفترة تعتبر من أهم النقاط الفارقة فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية من ناحية ، ومن أكثر المراحل سخونة فى تاريخ العلاقات بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية الكاثوليكية من ناحية أخرى. فضلا عن أن الرحالة الذين اخترناهم نماذج لدراستنا فى هذه الورقة كانوا فى وضع يسمح لهم بالتعرف على حضارتين فى حال من التصادم والتفاعل.

ففى السنة الأخيرة من القرن الحادى عشر (١٠٩٩م) توجت الحملة الصليبية الأولى نجاحها باحتلال مدينة بيت المقدس . ومنذ ذلك الحين ، وعلى مدى قرنين من الزمان تقريبا ، ظلت الأرض العربية فى فلسطين وأعالى الشام والجزيرة ، ومصر وشبه الجزيرة العربية ، وشمال أفريقيا ميدانًا للصراع المسلح بين المستوطنين الصليبيين وظهيرهم المساند فى أوربا من جهة ، وسكان المنطقة العربية من جهة أخرى. وبعد نهاية الوجود الصليبى سنة ١٢٩١م، استمر الصراع قائمًا فوق مياه البحر المتوسط وجزره ، وعلى سواحله حتى نهاية العصور الوسطى حين اتخذ أشكالاً جديدة.

وفى هذه الفترة أيضا تعرض العالم الإسلامى لضربات موجعة من الشرق على أيدى المغول الذين نجحوا فى اجتياح عاصمة الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) ، كما كانت حركة الأسبان المسيحيين تحرز تقدمًا واضحًا على حساب القوى الإسلامية انتهى بانتصار المسيحيين نهائيًا سنة ١٤٩٢م .

وعلى الرغم من كل هذا ، وربما يكون بسببه أيضا ، استمرت الرحلة بين الغرب الأوربى والشرق العربى الإسلامى، وكانت القاهرة أحد المقاصد والأهداف الهامة لهذه الرحلة. ولاغرو، فقد تبلور الموقف العربى الإسلامى ضد الصليبيين فى جبهة موحدة مركزها القاهرة التى حولها صلاح الدين الأيوبى إلى عاصمة لدولته الشاسعة بعد أن كانت عاصمة للخلافة الفاطمية. ومن المهم أن نشير إلى أن هذا التحول لم يكن تحولاً سياسيًا فقط فى دور القاهرة ، ولكنه كان تحولاً اجتماعيًا وتحولا اقتصاديًا أيضا فى تاريخ العاصمة المصرية. فطوال العصر الفاطمى كانت القاهرة مقر الحكومة ، ومركز الدولة الإدارى والسياسى ، والمعقل الرئيسى لنشر الدعوة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشيعية الإسماعيلية ، على حين كانت الفسطاط عامرة بالناس الذين جعلوا منها قصبة الديار المصرية ومركز النشاط الاقتصادى والصناعى والعلمى. وعلى الرغم من أن القاهرة قد فتحت أبوابها أمام الناس عقب استيلاء صلاح الدين على السلطة فى مصر؛ فقد ظلت الفسطاط هى المدينة التى اكتظت بالسكان ، وتركزت بها الحرف والصناعات والأسواق حتى سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م عندما انتقل السلطان الكامل الأيوبى إلى القلعة التى صارت مقر الحكم . ومنذ ذلك الحين أخذت الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية تنتشر فى القاهرة [١].

ومن ناحية أخرى ، بدأت الأهمية السياسية للقاهرة تتصاعد مع مرور الزمن حتى صارت العاصمة الفعلية للعالم الإسلامى فى عصر سلاطين المماليك بعد أن أحيا السلطان الظاهر بيبرس الخلافة العباسية إحياء شكليا سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م وبعد أن أصبحت موئلاً للهاربين من تفاقم الأحوال فى مشرق العالم الإسلامى ومغربه على السواء. ولهذا ظلت القاهرة هدفًا للرحالة المسلمين والرحالة الأوربيين طوال تلك الفترة ، وإن اختلفت دوافع الرحالة المسلمين عن دوافع الرحالة الأوربيين بطبيعة الحال .

لقد تنوعت دوافع الرحالة المسلمين ما بين الحج وطلب العلم . وقدأشار ابن خلدون فى مقدمته إلى أهمية الرحلة فى طلب العلم؛ إذ قال «... والرحلة لابد منها فى طلب العلم ، ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»[٢] كذلك كانت التجارة من العوامل الهامة الدافعة إلى الرحلة فى التراث العربى الإسلامى . فمن المعلوم أن التاجر العربى المسلم كان شخصية معروفة فى سائر أنحاء العالم المتحضر آنذاك. بيد أنه كان من بين التجار علماء تركوا لنا نفائس يفخر بها تراث الحضارة العربية الإسلامية ، وتقف رحلة التاجر سليمان السيرافى، فوق صفحة المحيط الهندى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (٩م) ، مثالاً فذًا على ذلك ، كما أن ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) ترك سفره الهائل «معجم البلدان» دليلاً على أن رحلة التاجر العربى المسلم لم تخل من العلم، إذ كان ياقوت يقوم برحلاته بهدف التجارة أساسًا [٣].

١- جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، (نقله عن الفرنسية وقدم له وعلق عليه أيمن فؤاد سيد) ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص٢٨- ص٣٠ .

٢- المقدمة، ص٤٠٧ ؛ حسين فهيم، أدب الرحلات ، (عالم المعرفة ١٣٨ ، الكويت ١٩٨٩م) ، ص٨٩ .

٣- حسين فهيم ، المرجع السابق، ص٩٠ .

وهناك أسباب أخرى متعددة للرحلة عند المسلمين ، بعضها شخصى ، وبعضها كانت سفارات بتكليف من أولى الأمر لسبب أو لآخر. على أن أهم ما يلفت النظر فى تاريخ الرحلة العربية الإسلامية هو أن طابع المبادرة الشخصية كان العامل الحاسم فى غالبية هذه الرحلات . ولم تقم الدولة، أى دولة، بتمويل هذه الرحلات سوى فى أضيق نطاق وعندما يكون من يقوم بالرحلة مكلفا بسفارة أو مهمة رسمية لحساب الدولة .

أما أوربا الغربية ورحالتها، فإن الأمر كان مختلفًا بالنسبة لهم إلى حد بعيد. فقد كان القرن الحادى عشر الميلادى(٥هـ) بالنسبة للغرب الأوربى بداية فترة امتدت ثلاثة قرون تمثل مرحلة التكوين فى تاريخ العصور الوسطى الأوربية ، وتميزت حركة التاريخ الأوربى منذ ذلك الحين بروح الحيوية الدافقة والحماسة الجسورة التى دفعت الناس إلى السفر إلى مناطق الحدود ، وما وراء البحار . أملاً فى تحقيق طموحاتهم[٤]. وأخذت أوربا توقن أن طاقتها الحضارية أكبر من أن تستوعبها أراضيها الضيقة ؛ فأخذت تسعى لإيجاد منافذ خارجية لها. وقد كان هذا هو أهم أسباب التوسع الذى كانت الحملات الصليبية جزءًا منه[٥] وفى ذلك الطور المبكر كانت الرحلة الأوربية ما تزال مدفوعة بأهداف دينية، وإن زاحمتها الدوافع الاقتصادية والعسكرية .

فقد كان الحج إلى الأراضى المقدسة ، التى شهدت قصة المسيح، حركة اجتماعية دينية ذات مضمون عاطفى منذ وقت باكر. وتخبرنا النصوص التى تركها الرحالة الأوربيون فى ذلك الوقت المبكر - قبل عصر الحروب الصليبية - أن المسيحيين القادمين من الغرب الأوربى إلى فلسطين كانوا يحرصون على الأكل فى كهف أكل فيه المسيح مع حوارييه، أو يستحمون فى مياه نهر الأردن التى تم تعميده فيها[٦].

٤- Phillippe Wolf Awakening of Europe, (transl. by Anna Carter, Pengiun, 1968) , p. 208

٥- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية (عالم المعرفة ، العدد ١٤٩ الكويت ، ١٩٩٠م) ص٥٩- ص ٦١.

٦- John wilkinson (ed.) Jerusalem Pilgrims before the Crusades, (England1977) , pp 79, ff, p. 131 .

ومن ناحية أخرى، لعبت تجارة «الذخائر المقدسة» (أى الملابس والأدوات والأشياء المادية التى ينسب إلى الأنبياء والقديسين استخدامها، أو بعض أجزاء من رفاتهم) دوراً هامًا فى إثارة اهتمام الأوربيين بالرحلة إلى الأرض المقدسة . وقد نسجت قصص وحكايات خيالية كثيرة حول الرحلات والذخائر المقدسة مما زاد فى تأجج الرغبة فى الرحلة إلى الشرق [٧]، مطلع الشمس ومكمن الكنوز والأفكار الغامضة ، والمسرح الذى شهد قصة المسيح على الأرض .

ومن خلال الحروب الصليبية ، والتوغل الأوربى فى حوض البحر المتوسط، اكتشف الأوربيون أن حضارتهم متخلفة بالقياس إلى الحضارة العربية الإسلامية والحضارة البيزنطية، والأهم من هذا أنهم اكتشفوا أن العالم الحقيقى غير العالم الذى صورته لهم العزلة التى فرضها التمزق الإقطاعى من ناحية ، وسيطرة الكنيسة على الفكر والتعليم من ناحية أخرى. وهنا بدأت دوافع الرحلة تتنوع ما بين التجارة والمغامرة ، والسفارة ، وطلب العلم؛ بيد أن الرحلة الصليبية «لقتال المسلمين والحج إلى فلسطين» احتفظت بقدر كبير من الجاذبية فى نفوس الأوربيين آنذاك .

وبعد استرداد صلاح الدين الأيوبى لمدينة بيت المقدس ، وتحطيم زهرة فرسان الكيان الصليبى فى فلسطين، حاولت أوربا الانتقام بحملة قادها ثلاثة من أكبر رءوس أوربا المتوجة ، آنذاك ، ريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وفردريك بربروسا ملك ألمانيا . ولكن الحملة انتهت بحصاد هزيل أبقى الوضع على ما هو عليه. وبعدها أدركت البابوية أن مصر هى محور العمل العربى الإسلامى عسكريا وسياسيًا واقتصاديًا . ومنذ ذلك الحين أصبحت أرض النيل هدفا دائمًا لكل الحملات والمغامرات الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى .

هذا الاهتمام العسكرى والسياسى المتصاعد كان يوازيه اهتمام آخر على مستوى التجارة والدبلوماسية والمعرفة ، فقد وفدت الرسل من كل أنحاء أوربا إلى القاهرة -فى الفترة محل الدراسة- حجاجًا إلى فلسطين وزواراً للأماكن المسيحية المقدسة فى سيناء ، والفسطاط ، والمطرية وغيرها من بقاع مصر. فمنذ ولى السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى عرش مصر سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) صارت القاهرة بمثابة حصن الدفاع الأخير عن الحضارة العربية الإسلامية من

٧- قاسم، المرجع السابق، ص٢٢- ص٢٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ناحية ، كما كانت لها السيادة الفعلية ، أو الأدبية ، على كافة أنحاء العالم الإسلامى من ناحية ثانية . وعلى المستوى الاقتصادى كان لغزوات المغول فى القرن الثالث عشر تأثيرها فى إغلاق طرق التجارة البرية فى آسيا . وأصبحت مصر مركزاً لتجارة المرور بين الشرق والغرب .

وبسبب هذا كله هذه كلها جاءها الرحالة الأوربيون : سفراء وجواسيس، تجاراً وباحثين ، حجاجا وزواراً . ودونوا فى رحلاتهم كثيراً من الأخبار والملاحظات عن البلاد وأهلها وعاداتهم وتقاليدهم . ملابسهم وطعامهم ، بلادهم ومبانيهم ومؤسساتهم ... ولم يكن الأسبان : مسيحيين ويهوداً استثناء فى ذلك بطبيعة الحال .

* * *

وفى دراستنا هذه نقدم نموذجين من الرحالة هما الأندلسى المسلم.ابن جبير الذى زار مصر والمنطقة إبان اشتداد الصراع ضد الصليبيين ، وابن سعيد الذى زار مصر والمشرق فى منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ؛ أى وقت احتدام الأحداث التى أدت إلى قيام دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام وما بين الرحلتين تطورت القاهرة من مجرد مقر إقامة الحاكم وحاشيته إلى عاصمة حقيقية للبلاد .

أما ابن جبير فهو أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى ، الأندلسى، الشاطبى البلنسى. وهو من مواليد بلنسية . وقد تلقى نفس النمط التقليدى من التعليم الذى ألفه أبناء طبقته ؛ إذ درس علوم القرآن والفقه والحديث، كما كان أديبًا وشاعراً . بيد أن ذكره ذاع فى التراث العربى بسبب رحلته التى دوّن وقائعها ومشاهداته أثناءها فى كتابه المعروف باسم «رحلة ابن جبير» . هذه الرحلة هى خلاصة تجاربه ومشاهداته فى ثلاث رحلات أهمها رحلته التى بدأت فى شهر شوال ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م[٨] وانتهت فى المحرم ٥٨١هـ/ ١١٨٥م [٩]، أى بعد أكثر من ثلاث سنوات .

تمثل رحلة ابن جبير نموذجا للرحلة بقصد أداء فريضة الحج؛ فهو يذكر فى بداية الكتاب ما نصه «وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة حرسها الله للنية الحجازية المباركية، قرنها الله بالتيسير والتسهيل وتعريف الصنع الجميل ... » وقد وصل «ابن جبير»

٨- رحلة ابن جبير، (دار صادر ، بيروت ١٩٦٤) ، ص٧ .

٩- نفسه ، ص ٣٢٠ .

مصر بعد رحلة بحرية استمرت ثلاثين يوما . ولم يكن لقاء رجال الجمارك للرحالة الأندلسى المتدين وصحبه لقاء ساراً وإنما كان لقاءً عاديًا تسوده الفظاظة والخشونة والقسوة التى تميز رجال الحكومة فى مصر على الدوام[١٠]. ورغم المرارة التى حملتها كلمات «ابن جبير» فى وصف هذا الموقف ؛ فإنه حاول تبرئة السلطان صلاح الدين الأيوبى من مسئولية هذا التصرف وأمثاله .

بعد ذلك وصف رحالتنا الاسكندرية ومنارها ، وتحدث عن مناقبها [١١]، ثم بدأ حديثه عن «مصر والقاهرة» ؛ أى الفسطاط والقاهرة اللتين كانتا فى ذلك الحين تشكلان ، سويًا ، عاصمة مصر. وقد نزل «ابن جبير» فى الفسطاط بفندق «أبى الثناء» فى زقاق القناديل على مقربة من جامع «عمرو بن العاص»[١٢] وهنا نجد فى عبارة ابن جبير ، التى تبدو عادية مألوفة ، إشارة هامة عن تطور العاصمة المصرية آنذاك ؛ فقد سكن رحالتنا فى الفسطاط ولم يكن فى القاهرة، كما أنه نزل بمنشأة من المنشآت التى انتشرت فى أنحاء عالم البحر المتوسط آنذاك ، ونعنى بها «الفندق» . وفيما يتعلق بالأمر الأول؛ أى سكن «ابن جبير» ورفاقه الفسطاط، فإن ذلك أمر يمكن تفسيره فى ضوء الحقيقة القائلة بأن القاهرة كانت حتى ذلك الحين ما تزال عاصمة سياسية وإدارية على الرغم من أن صلاح الدين الأيوبى بنى القلعة لتكون مقراً للحكم . ومن الطبيعى أن تخلو من المنشآت ذات الوظيفة الاقتصادية والاجتماعية ؛ إذ كانت الفسطاط ما تزال هى العاصمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومن مجموع «مصر والقاهرة» أى الفسطاط والقاهرة تكونت العاصمة المصرية مثلما كان الحال زمن الفاطميين[١٣].

أما «الفندق» الذى نزل فيه ابن جبير ، فلم يكن فندقًا بالمعنى المعروف اليوم، إنما كان نوعًا من المنشآت التجارية التى تجمع بين توفير مكان لعرض البضائع التى يجلبها التجار الأجانب معهم، وتوفير أماكن النوم والإقامة لهؤلاء التجار. وقد اشتق الفندق اسمه من كلمة يونانية هى بندوكيون Pandokeion التى كانت تستخدم للدلالة على مثل هذا النمط من المنشآت

١٠- نفسه، ص١٢ - ص١٤ .

١١- نفسه، ص١٤- ص١٨ .

١٢- نفسه، ص١٩ .

١٣- جومار ، وصف مدينة القاهرة، ص٣٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التجارية / الاجتماعية . وقد كان الجزء الأسفل من «الفندق» يخصص لعرض البضائع على حين كان الطابق العلوى منه يخصص للنوم. وكانت الفنادق المخصصة للتجار الأوربيين تضم كنيسة صغيرة. وطاحونا ، ومعصرة للنبيذ، وقد وجد بالفسطاط والقاهرة عدد من الفنادق التى خصص بعضها لعرض الفاكهة والخضر[١٤]. وقد كان بالقاهرة أيام المقريزى(منتصف القرن التاسع الهجرى/ ١٥م) تسعة عشر فندقا[١٥].

كان الرحالة «ابن جبير» يرى القاهرة بعينى مسلم جياش العاطفة يزور أهم عواصم دار الإسلام، فى فترة من أهم فترات تاريخ المسلمين وأكثرها حساسية. وقد ذكر الدكتور حسين نصار[١٦] أن «ابن جبير» كان يهتم بثلاثة أمور فى وصفه للمدن التى شاهدها ، وهى : المرافق. والمشاهد، والأرباض. والمرافق هى الأسوار والحصون ، والمساجد والمدارس ومصادر المياه والحمامات ، والأسواق ، والبيمارستانات، والمنازل والشوارع، والأبواب. أما المشاهد فهى المقابر. والموالد، وآثار الأنبياء والعلماء والأولياء ، والمزارات الإسلامية ، والمعابد وكنائس غير المسلمين ، بينما كانت الأرباض هى الضواحى المجاورة للمدينة .

وقد بدأ «ابن جبير» فى وصفه لمدينة القاهرة، بالحديث عما أسماه الدكتور حسين نصار «المشاهد». إذ أنه قدم لنا وصفًا عاطفيًا لمشهد الحسين ، ومن الواضح أنه كان مبهوراً بفخامة المشهد الذى جمع بين الذهب والفضه والديباج «... والرخام المجزع الغريب الصنعة ، البديع الترصيع مالايتخيله المتخيلون ولايلحق أدنى وصف وصفه الواصفون ...»[١٧]. وقد مَسَّ

١٤- ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، جـ٤ ، ص٤٠- ص٤١ ؛ المقريزى، الخطط ، جـ٣ . ص١٥٣ .

لمزيد من المعلومات عن «الفندق» أنظر :

جاستون فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة (ترجمة د. مصطفى العبادى، سلسلة مراكز الحضارة ، مكتبة لبنان بيروت ١٩٦٨)، ص١٦٧ . حيث يتحدث عن «فنادق» المنسوجات الأوربية (أى أسواقها). وكان كل فندق يحتوى على عدد كبير من الحوانيت ، أنظر أيضا نفس المرجع ص١٩٦ - ص١٩٨ .

١٥- المقريزى ، الخطط، جـ٢ ، ص٨٦- ص٩٤ ؛ جاستون فييت، القاهرة ، ص١٩٩ .

١٦- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، (عالم المعرفة، ١٣٨ ، الكويت ١٩٨٩م) ، ص١٨- ص١٩؛ حسين نصار، «رحلة ابن جبير»، مجلة تراث الإنسانية ، المجلد الأول.

١٧- رحلة ابن جبير ، ص١٩ - ص٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شغاف قلبه ما شاهده من تمسح الناس بقبر رأس الحسين «... وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة، ومتضرعين ما يذيب الأكباد ويصدع الجماد ...»[١٨].

ثم وصف «ابن جبير» القرافة التى قال إنها إحدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء، وأهل البيت، والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة والأنبياء الغريبة. وعلى كل منها بناء بديع «... قد وكل بها قومة يسكنون فيها ويحفظونها ، ومنظرها منظر عجيب ، والجرايات متصلة لقوامها فى كل شهر...».

وما ذكره ابن جبير التاريخية عن المزارات الدينية التى كان أهل القاهرة آنذاك يتبركون بها وعن القرافة يتفق مع ما نعرفه عن عادات وتقاليد أهل القاهرة فى الفترة التى يهتم بها البحث. إذ كان سكان العاصمة المصرية - وما يزالون- يتبركون بعدد من «المشاهد» يومًا معينًا من أيام الأسبوع؛ إذ أن ابن الحجاج الذى زار القاهرة ، ومكث بها فترة ، فى القرن الثامن الهجرى (١٤م) يحدثنا عن أن نساء القاهرة آنذاك «... جعلن لكل مشهد يومًا معلومًا فى الجمعة ؛ فجعلن يوم الاثنين للسيد الحسين ، والثلاثاء والسبت للسيدة نفيسة ، والخميس والجمعة للقرافة لزيارة الشافعى وغيره ولأمواتهن...»[٢٠].

وفى حديث ابن جبير إشارة واضحة إلى ولع أهل القاهرة آنذاك بالخروج والنزهة وكانت «القرافة» أى منطقة المقابر الخاصة بالقاهرة - من أهم متنزهات أهل القاهرة فى ذلك الزمان. وقد استرعت انتباه كل الرحالة الذين زاروا القاهرة لعدة أسباب : أولها : ما ارتبط بها من قبور الأولياء والصحابة والصالحين الذين أشار إليهم ابن جبير، وثانيهما : بعض أخبار المعجزات التى نسبت إلى الموتى المدفونين فى هذه القرافة [٢١]. وثالثها : أن القرافة لم تكن

١٨- نفسه ، ص٢٠ .

١٩- رحلة ابن جبير ، ص٢٠ - ص٢٤ .

٢٠- ابن الحجاج ، المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد (المطبعة المصرية بالأزهر. ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م) ، جـ١ ، ص٢٦٩- ص٢٧٠ .

٢١- فى القرن السادس عشر كتب باومجارتن ما نصه «فى ظاهر مدينة القاهرة شاهدنا مسجدا على ضفاف النيل، وقيل لنا إنه عند إقامة الصلاة فيه، يخرج الموتى من مقابرهم ويقفون دون حركة طيلة الصلاة ، يختفون بعد ذلك » ويبدو أن هذا الكلام كان شائعًا فى القاهرة بالقدر الذى جعل آخرين يكتبون عنه بعد سنوات . انظر : جاستون فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص٢١٣- ص٢١٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجرد جبانة يلفها صوت الموتى كما هو الحال فى كل الجبانات ، وإنما كانت مكانًا للنشاط اليومى لسكان القاهرة ؛ فقد تحدث ابن بطوطة فى رحلته الشهيرة عن الزوايا والمدارس فى القرافة، وعن البيوت التى بنيت هناك لإقامة أهل الموتى عند الزيارة التى كانت تتم كل ليلة جمعة ، وتعجب من أن الناس كانوا يبيتون فى القرافة بنسائهم وأولادهم، «ويطوفون على الأسواق بصنوف المآكل»[٢٢].

وقد أكد « ابن الحاج» ما ذكر ابن بطوطة ، على الرغم من انتقاداته المريرة لتصرفات المصريين فى هذا الشأن ، فقد ذكر أن النساء كانت تخرج بصحبة أزواجهن إلى القرافة «... خوفًا من التشويشات التى يتوقعونها منهن من الامتناع..» ، كما قال إن الغيرة قد تغلب بعض الأزواج «... بسبب ممازحة الأجانب...» ؛ فيقع الضرب والخصام ، وقد يتطور الأمر إلى المثول أمام الحاكم والوالى والحبس وغيره[٢٣]. وقد أشار ابن الحاج إلى عادة أهل القاهرة بناء الدور فى القرافة ، وزيارتهم للميت وإقامتهم بجواره «... الشهر والشهرين والثلاثة ، بقدر عزة الميت لديهم ...» كما أوضح لنا أن الحياة فى القرافة كانت تسير على وتيرتها العادية تمامًا ؛ إذ كان القاهريون يوقدون الشموع فى المقابر ويوقدون الأحطاب لطعامهم [٢٤].

لكن أكثر ما أثار هذا الرجل المتدين «... ما يفعله بعض النساء فى زيارة القبور فى ركوبهن على الدواب فى الذهاب والإياب ، وفى مس المكارى لهن وتحضينه للمرأة فى إركابها وإنزالها . وحين مضيها يجعل يده على فخذها وتجعل يدها على كتفه ، مع أن يدها ومعصمها مكشوفان»[٢٥]. أما فى القرافة نفسها ، فقد رأى «ابن الحاج» أن الأمر اشتمل على مفاسد عديدة منها «... مشيهن بالليل مع الرجال فى زيارة القبور، والاختلاط بالرجال والضحك والغناء ...» كما انتقد «... ما أحدثوه من الوعاظ على المنابر والكراسى والمحدثين من القصاص فى الليالى المقمرة وغيرها ، واجتماع الرجال والنساء جميعًا مختلطين ... كذلك القراء الذين يقرءون بالترجيع والزيادة ، والنقصان، ورفع الأصوات الخارجة عن حد السمت والوقار ، والتمطيط والمدّ .. على ترتيب هنوك الغناء.. »[٢٦].

٢٢- رحلة ابن بطوطة، (تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور على المنتصر الكتانى ، بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٩٨١م) جـ١ ، ص٥٥- ص٥٦ .

٢٣- ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص٢٦٩- ص٢٧٠ .

٢٤- نفسه، جـ١ ، ص٢٥١- ص٢٥٢ .

٢٥- نفسه، جـ١ ، ص٢٦٧ .

٢٦- ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص٢٦٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى الرغم من كلمات «ابن الحاج» الحانقة الناقدة؛ فإنه رسم لنا - من حيث لايدرى أو يقصد - صورة حية للدور الاجتماعى للقرافة فى حياة القاهريين آنذاك . وقد أكد هذه الصورة عدد كبير من زوار القاهرة ، ومن الكتاب الذين كتبوا عنها فى ذلك الحين ، فقد تحدث بيلوتى الكريتى- الذى زار القاهرة سنة ١٤٢٠م - أن جميع فقراء القاهرة كانوا يذهبون إلى القرافة ليأكلوا ويأخذوا الصدقات ، كما ذكر أن مساحة القرافة كانت مثل مساحة مدينة البندقية[٢٧].

وإذا كنا قد استرسلنا إلى حد ما فى الحديث عن المشاهد والقرافة التى ذكرها «ابن جبير»؛ فإن السبب فى ذلك راجع إلى تلك الصورة الباردة التى رسمتها كلمات هذا الرحالة لمؤسسات دينية/ اجتماعية كانت من أهم محاور الحياة اليومية فى القاهرة . وهى تجسد نوعًا من الموروث الثقافى للمصريين عامة ؛ من حيث اهتمامهم بالموتى، واحتفالهم بالمقابر واهتمامهم برونقها ونظافتها على نحو يفوق اهتمامهم ببيوتهم وشوارعهم . كما أن «ابن جبير» لم يدرك ثنائية الحزن والمرح فى طبيعة المصريين؛ وهو الأمر الذى أثار دهشة بعض الزوار ، واستفز مشاعر الحنق والغضب لدى البعض الآخر. وكانت القرافة مسرحًا تتجلى عليه هذه الطبيعة المزدوجة بشكل واضح .

ويبدو أن اهتمام «ابن جبير» بالجوانب الدينية قد غلب ما عداه عندما بدأ فى وصف القاهرة والفسطاط. إذ إنه ذكر أن السلطان صلاح الدين الأيوبى خصص لنفقات المدارس «بمصر والقاهرة ما قيمته ألفا دينار مصرية فى الشهر[٢٨] وروى أنه قد خُصص لمسجد عمرو بن العاص بالفسطاط نحو ثلاثين ديناراً «... فى كل يوم تتفرق فى مصالحه ومرتبات قومته وسدنته ، وأئمته ، والقراء فيه» كما حدثنا عن أربعة جوامع بالقاهرة تقام بها خطبة الجمعة ، وحرص على أن يوضح أن الخطباء سنيون فى مذهبهم وفى ملابسهم[٢٩].

ومن المهم هنا أن نشير إلى أن رحلة ابن جبير وزيارته لمصر تمتا فى وقت كانت الأحداث فيه تمر بمرحلة حاسمة ، فمنذ استبداد صلاح الدين بالحكم فى مصر بدأ العمل على إعادة المذهب

٢٧- جاستون فييت ، القاهرة ، ص٢١٥- ص٢١٦ .

٢٨- رحلة ابن جبير ، ص٢٤ .

٢٩- نفسه، ص٢٤- ص٢٥ .

السنى حتى فى حياة الخليفة العاضد آخر الفاطميين ، ففى سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) عزل قضاة الشيعة . ثم جمع العلماء والفقهاء واستفتاهم فى قطع الخطبة للعاضد الفاطمى فوافقوه . وفى أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ (١٠ سبتمبر ١١٧١م) صعد الشيخ نجم الدني الخبوشانى منبر جامع عمرو بن العاص قبل الخطيب ودعا للمستضئ بالله العباسى، وفى الجمعة التالية أمر صلاح الدين بقطع خطبة العاضد وإقامة خطبة المستضئ فى كافة جوامع مصر والقاهرة [٣٠]. وهذا هو الأمر الذى أراد الرحالة ابن جبير أن يوضحه فى رحلته عندما تعمد ذكر أن الخطيب يأخذ فى الجوامع مأخذا سنيًا. ويرتدى شعار العباسيين . كذلك فإن ما ذكره عن الأموال المخصصة للإنفاق على المدارس كان ضمن سياسة عامة ترمى إلى اعادة نشر المذهب السنى فى الديار المصرية، وكانت المدارس وسيلة ناجحة للغاية فى هذا السبيل[٣١].

فإذا مضينا مع رحلة ابن جبير حدثنا عن قلعة القاهرة التى قال عنها ما نصه : «يريد السلطان أن يتخذها موضع سكناه، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة .. »[٣٢]، كما ذكر أن الأسرى كانوا يقومون بكافة الأعمال اللازمة لبناء هذه القلعة . ومن الواضح أن القلعة لم تكن قد بنيت بالفعل عندما شاهدها ابن جبير ، وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه من قبل من أن القاهرة كانت ما تزال عاصمة إدارية وسياسية . ويغلب على الظن أن صلاح الدين قد نسى أمر القلعة لكثرة مهامه فى بلاد الشام؛ إذ أن القلعة لم يتم بناؤها وتصبح مقراً للحكم إلا على يد ابن أخيه الملك الكامل سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) [٣٣].

ويحدثنا ابن جبير أيضا عن البيمارستان ، أى المستشفى الذى أنشأه صلاح الدين الأيوبى فى أحد القصور الفاطمية ، وعين عليه مشرفًا من أهل المعرفة ، كما زوده بخزائن العقاقير

٣٠- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ، (القاهرة ١٢٩٠هـ/ ١٩٧٣م) ، جـ١١ ، ص١٤٨ .

٣١- عبد الغنى محمود عبد العاطى، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، (دار المعارف ١٩٨٤)، ص٧٠- ص٧٩ ؛ جومار ، وصف مدينة القاهرة ، ص٣١ .

٣٢- رحلة ابن جبير ، ص٢٥ .

٣٣- بول كازانوفا ، تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، (ترجمة وتقديم أحمد دراج، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤) . ص٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والأشربة ، وكانت الخدمة فيه جيدة على ما يبدو ، كما خصص جزءاً من هذا المستشفى للمرضى من النساء ، وجزءاً آخر للمجانين عبارة عن مقاصير عليها شبابيك الحديد(٣٤).

وقد ذكر لنا الرحالة الأندلسى ابن جبير تحصينات صلاح الدين والجسر الذى بناه بإزاء النيل تحسبًا لأى هجوم صليبى على الإسكندرية وقت الفيضان بحيث يمكن استخدام هذا الجسر لإرسال النجدات العسكرية دون عائق(٣٥).

وقد انبهر ابن جبير بالأهرام التى قال عنها « ... لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك... » وقد أشار إلى الأساطير التى نسجت حول الأهرام، فقال إن البعض جعلوها قبوراً لعاد وبنيه وبعضهم زعم غير ذلك « ... وبالجملة فلايعلم شأنها إلا الله عز وجل... » كما وصف أبا الهول بأنه صورة غريبة من حجر قد قامت كالصعومة على صفة آدمى هائل المنظر « ... تعرف بأبى الأهوال..(٣٦).

حدثنا ابن جبير بعد ذلك عن مدينة مصر، ويقصد بها الفسطاط والعسكر والقطائع التى صارت آنذاك العاصمة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية على الرغم من أنه ذكر لنا آثار الحريق الذى كان قد أحرق الفسطاط إبان الصراع بين شاور وضرغام سنة ٥٦٤هـ. وقد ذكر ابن جبير أن الفسطاط كانت قد تجددت عند زيارته لها « ... والبنيان بها متصل»(٣٧).

هكذا كانت رؤية «ابن جبير» للقاهرة عاصمة العالم الإسلامى فى لحظة تمثل نقطة فارقة فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وهى تواجه الهجوم الصليبى بالجهاد والمقاومة الإيجابية التى أسفرت عن هزيمة الصليبيين فى حطين ، واسترداد بيت المقدس ، وتقلص اللون الصليبى على خريطة المنطقة العربية إلى أقل ما يمكن . وعلى الرغم من برود الوصف الذى أمدتنا به رحلة ابن جبير للحياة فى العاصمة المصرية آنذاك ، فإن إشاراته كانت تثير الكثير من الاهتمام بتطور القاهرة، ومنشآتها ذات الوظيفة الدينية/ الاجتماعية. وفى تصورنا أن اهتمام ابن جبير- الذى كان فى رحلة حج إلى الحجاز- بالجوانب الدينية ، وحرصه على إبراز مشاعره الدينية الجياشة ، هما اللذان حالا بينه وبين الاهتمام بالحياة اليومية فى «مصر والقاهرة».

٣٤- رحلة ابن جبير ، ص٢٦ .

٣٥- الرحلة ، ص٢٧ .

٣٦- نفسه، ص٢٨- ص٢٩ .

٣٧- نفسه، ص٢٩ ؛ المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص١٢- ص١٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا كان ابن جبير قد زار القاهرة فى بداية العصر الأيوبى، فإن لدينا رحالة آخر من الأندلس زار العاصمة المصرية فى أواخر ذلك العصر. هذا الرجل هو «على بن موسى بن محمد بن سعيد» الذى زار مصر بصحبة أبيه سنة ٦٣٩هـ، والذى كان آخر حلقة فى سلسلة من المؤلفين من أهل الأندلس ألفوا كتاب «المغرب فى حُلى المغرب» على مدى مائة وخمس عشرة سنة [٣٨]. وعلى الرغم من أهمية هذا الكتاب الذى اشترك فى تأليفه ستة من الرجال ، على مدى هذه السنوات الطوال، فإننا سنقصر اهتمامنا على القسم الذى أسماه «النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة»[٣٩].

وقد زار مؤلفنا «على بن موسى» (الذى سنذكره بلقب «ابن سعيد» فى هذه الدراسة) مصر سنة ٦٣٩هـ ومكث بها حتى سنة ٦٤٤هـ حين رحل إلى حلب ، وبعد رحلة بين دمشق وبغداد وأرمينية يعود إلى تونس سنة ٦٥٢هـ، ليعاود الرحيل إلى المشرق سنة ٦٦٦هـ، ثم يئوب إلى تونس ويبقى بها حتى وفاته سنة ٦٨٥هـ[٤٠]. وقد دون ابن سعيد كتابه وهو فى ضيافة المؤرخ المعروف «ابن العديم» بحلب فيما بين سنتى ٦٤٥، ٦٤٧هـ .

والمشكلة الأساسية أن الكتاب موزع فى تأليفه بين موسى وابنه على ومن ثم فإننا نظن أن المشاهدات الحية دونها قلم «الابن» لأن الأب توفى فى السنة التالية لوصوله إلى مصر[٤١].

يبدأ «ابن سعيد» حديثه باقتباس عن البيهقى فى الحديث عن القاهرة ، ثم يحدثنا عن قصر ابن طولون بعد أن اندثر ، فيقول : «... وقصر ابن طولون فى مدينة القطائع الآن هو ميدان تحت قلعة الجبل، أخبرنى بذلك من سألته من العارفين بهذا الشأن ولم يبق الآن لمدينة القطائع الطولونية غير جامع ابن طولون ، وهو خارج القاهرة ، وحوله المبانى من غير سور يدور عليها ...»[٤٢].

٣٨- انظر المقدمة التى كتبها الدكتور شوقى ضيف لكتاب «المغرب فى حلى المغرب». (الطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٧٨م) ، جـ١ ، ص١- ص٩ .

٣٩- النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة (القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب فى حلى المغرب) تحقيق دكتور حسين نصار (دار الكتب ١٩٧٠م) .

٤٠- المغرب، جـ١ ، ص٧ .

٤١- النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، ص١٤ .

٤٢- نفسه، ص٢١ - ص٢٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهنا نجد إشارة واضحة من «على بن سعيد» بأنه دوّن مشاهداته فى القاهرة؛ إذ يقول «وقد جمعت ملتقطات من كتاب البيهقى وكتاب القرطبى وغيرهما من الكتب ، وأضفتها إلى ما عاينته وعلمته من أمر مدينة القاهرة ، لأنى سكنت فيها كثيراً داخلاً وخارجًا ...».

وعلى الرغم من أن القاهرة قد شهدت فى تلك الفترة أحداثًا جسامًا تحت حكم السلطان الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٧ / ٦٤٧ هـ- ١٢٤٠ / ١٢٤٩م)، انتهت باستيلاء قوات الحملة الصليبية السابعة على دمياط ، ثم استئثار المماليك بحكم البلاد بعد هزيمة الصليبيين وأسر لويس التاسع. ومصرع توران شاه آخر الأيوبيين فى مصر على أيدى فرسان المماليك[٤٣] - نقول إنه على الرغم من ذلك فإن «ابن سعيد» لم يهتم بالأمور السياسية والعسكرية الجارية، واكتفى بأن يعبرعن مشاعره غير الودية تجاه القاهرة منذ السطور الأولى .

يقول «ابن سعيد» عن القاهرة «هذه المدينة إسمها أعظم منها»[٤٤] ثم يصف «بين القصرين» فيقول إنها ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ، وهو يتمنى لو أن القاهرة كلها كانت كذلك ؛ بيد أنه يشكو من ضيق شوارع القاهرة ، وكثرة الدكاكين على جانبى الطريق، وكيف كانت الدواب تزاحم الناس بحيث كان يتصاعد من الزحام غبار «... تضيق منه الصدور ، وتسخن منه العيون ...» ، «... وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة ، كثيرة التراب والأزبال ، والمبانى عليها من قصب وطين ، مرتفعة ، قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها ...»[٤٥].

وعلي الرغم من كلمات «ابن سعيد» الحانقة ، يرسم لنا صورة حية للقاهرة فى أواخر العصر الأيوبى، وقد أمست موطنا ومستقراً ومقامًا لأبناء الطبقة الشعبية من الحرفيين، وأصحاب المهن. والتجار، ولم تعد تلك المدينة الإدارية/ السياسية التى كانت عندما بدأ حكم الأيوبيين. ويبدو أن الرحالة الذى تربى ونشأ فى بيت من بيوت الأمراء، لم يستطع أن يتسامح مع زحام القاهرة وصخبها الذى ميزها آنذاك ؛ فقد كانت شوارع القاهرة ضيقة غير مرصوفة،

٤٣- المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، (تحقيق د. محمد مصطفى زيادة)، جـ١ ، ص٢٥٩- ص٢٦٠ ؛ انظر أيضا : محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة (القاهرة ١٩٦١م) ، ص١٤٥- ص٢٠١ .

٤٤- النجوم الزاهرة ، ص٢٢ .

٤٥- النجوم الزاهرة ، ص٢٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تربط بينها أحيانا ساحات واسعة غير منتظمة الشكل تتحول أجزاء منها إلى برك زمن الفيضان ، ثم تصبح حقولاً وحدائق بعد أن ينحسر ماء الفيضان . وفى الشوارع يتدافع جمهور من جنسيات مختلفة ويتزاحم ويختصم أفراده حق المرور مع الدواب ...

وقد شارك كثيرون من الرحالة الذين زاروا القاهرة «ابن سعيد» رأيه فى زحام القاهرة ، وإن لم تحمل كلماتهم مشاعر الحنق والغيظ البادى فى كلماته[٤٦] ويبدو عداء ابن سعيد للقاهرة فى هذه العبارة « ... ومن عيوب القاهرة أنها فى أرض النيل الأعظم ، ويموت الإنسان فيها عطشًا لبعدها عن مجرى النيل ... »[٤٧] فالمصادر التاريخية تؤكد لنا أن عدداً كبيراً من السقائين كانوا ينقلون مياه نهر النيل إلى سكان القاهرة فى قرب المياه التى كانوا يحملونها على ظهور جمالهم وحميرهم ، أو على أكتافهم . ولفت نظر الرحالة الذين زاروا القاهرة آنذاك كثرة عدد السقائين [٤٨]. والجدير بالذكر أن الماء كان يباع بالقربة، وفى بعض الأحيان كان السقاءون يأخذون أجورهم مقدما، ثم يرسلون صبيانهم لتفريغ قرب المياه فى الأزيار داخل المنازل. كذلك كان السقاءون يقدمون خدماتهم للطواحين والمعاصر ومعاجن الطين التى كانت تحتاج إلى كميات كبيرة من المياه [٤٩].

وقد عرف الشارع المصرى آنذاك طائفة من السقائين عرفوا باسم «سقائى الكيزان وأرباب الروايا والقرب والدلاء» . ويبدو أن أولئك السقائين كانوا أصحاب الحوانيت التى توضع بها الأزيار والكيزان مقابل مبلغ متعارف عليه. وقد كان المحتسب مسئولاً عن مراقبة نظافة هذه

٤٦- جاستون فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ص١١٧- ص١٢٦ . وقد كانت شوارع المدينة ضيقة جدا عن قصد بسبب حرارة الجو، فقد تراوح عرض الشارع بين خمسة أقدام وخمسة عشر قدمًا، بل إن منها ما كان يتراوح عرضه بين قدمين وقدمين ونصف فقط . وكثيراً ما كانت تتماس شرفات المنازل المتقابلة فى هذه الشوارع والعديد من شوارع القاهرة كانت مغطاة أيضا من أعلى لاسيما فى مناطق الأسواق- انظر : جومار، وصف مدينة القاهرة، ص٧٦ .

٤٧- النجوم الزاهرة ، ص٢٥ .

٤٨- رحلة البلوى المغربى، ص٥٥ .

٤٩- قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى - عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٨٣، ط. ثانية)، ص١٣٠- ص١٣ .

الأزيار والكيزان وعدم غش مياه النيل بمياه الآبار[٥٠] وكان «أرباب الروايا والقرب والدلاء» من طائفة السقائين يبيعون المياه فى الشوارع والأسواق [٥١]. وفضلاً عن هذا كله ، كانت بالقاهرة عدة أسبلة توزعت على شوارعها لتسهيل حصول المارة على المياه للشرب، بل كانت هناك أيضا أحواض لشرب الحيوانات فى مواضع مختلفة فى مدينة القاهرة [٥٢]. وكانت تلك الأسبلة توفر مياه الشرب والوضوء المجانية لسكان القاهرة وزائريها ، وقد كان عدد أسبلة القاهرة كبيراً بالفعل .

ومن هنا فإن ما ذكره «ابن سعيد» عن عطش الإنسان فى القاهرة لبعدها عن النيل أمر جانب الحقيقة إلى حد كبير. ولكن رحالتنا المرفه لم يغفل ذكر أماكن النزهة والخروج فى القاهرة فحدثنا عن «أرض الطبالة» التى قال عنها : «... وأحسن موضع فى ظاهرها للفرجة أرض الطبالة ، لاسيما أيام القرط والكتان...»[٥٣]. وقد وصفها المقريزى فى خططه أيضا بأنها من أحسن أماكن النزهة فى القاهرة ، وفى أيام الربيع كانت رؤيتها شيئًا عجيبًا . والسبب فى تسميتها بهذا الاسم أنه لما نجح الأمير أبو الحارث أرسلان البساسيرى فى الاستيلاء على بغداد ،وأقام الدولة الفاطمية هناك سنة ٤٥٠هجرية ، وأرسل عمامة الخليفة القائم العباسى وثيابه إلى الخليفة المستنصر الفاطمى، أمر الأخير بإقامة الزينة والأفراح فى القاهرة. وقفت امرأة تدعى «نسب» ، كانت طبالة المستنصر ، وأنشدت بيتين من الشعر أعجبا المستنصر فوهبها تلك المنطقة [٥٤]. وقد ظلت هذه المنطقة متنزهًا لأهل القاهرة حتى خربت سنة ٦٩٦هـ بسبب الوباء الذى ألم بمصر آنذاك «... حتى لم يبق فيها إنسان يلوح ...» وبقيت خرابًا حتى سنة ٧١١هـ . وبدأ الناس فى سكناها حتى صار بها عدة حارات ، ثم خربت ضمن ما خرب من أحياء القاهرة وضواحيها سنة ٨٠٦ هـ حتى صارت كيمانًا ، وبقى منها جزء فى عصر المقريزى عرف بالجنينة اشتهرت ببيع «... الحشيشة التى يبتلعها أراذل الناس ...»[٥٥].

٥٠- ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة «نشره ليفى R. Levey كمبردج ١٩٣٧ م) ص٣٤٨ .

٥١- قاسم ، المرجع السابق، ص١٣١ .

٥٢- سعيد عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، (دار النهضة العربية ط. أولى ١٩٦٢)، ص٩٠ ، ص٩١ .

٥٣- النجوم الزاهرة ، ص٢٥ .

٥٤- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص١٢٤ .

كذلك افتتن «على بن موسى بن سعيد» ببركة الفيل فى ضواحى القاهرة «لأنها دائرة كالبدر. والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل، وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم ، فيكون لها بذلك منظر عجيب ...»[٥٦] ورحالتنا يشير هنا إلى حقيقة أن متنزهات أهل القاهرة فى ذلك الزمان كانت كثيرة ، لاسيما فى ضواحى المدينة ، والجزر الموجودة فى النيل التى كانت مراحًا للقاهريين للتفريج عن أنفسهم والاستمتاع بالحدائق والمتنزهات والبرك .

انتقل «ابن سعيد» بعد ذلك إلى الحديث عن الفسطاط ، ووصفها بأنها أكثر أرزاقًا وأرخص أسعاراً من القاهرة «... فالمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ، ويباع ما يصل فيها بالقرب منها ، وليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة ...»[٥٧] ويشير ابن سعيد هنا إلى حقيقة هامة مؤداها أن ميناء الفسطاط النهرى، ظل هو ميناء العاصمة المصرية حتى بدايات القرن التاسع الهجرى (١٥م) ، ففى سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣م بدأ ظهور ميناء «بولاق» ليكون ميناء القاهرة بدلاً من الفسطاط ، ولكنه لم يكتسب أهمية تذكر فى الحياة الاقتصادية قبل نهاية القرن. ومع مطلع القرن التاسع الهجرى كان ميناء الفسطاط قد تلاشى ، كما تدهورت الفسطاط وفقدت أهميتها الاقتصادية بشكل تدريجى حتى هجرها الناس فى نهاية القرن التاسع الهجرى[٥٨].

ثم انتقل الرحالة الأندلسى إلى وصف القاهرة بكلمات مديح معتدلة ، ولكنه وهو سليل بيت الإمارة، أرجع ذلك لكونها مسكن أصحاب السلطة ؛ إذ يقول : «والقاهرة هى أكثر عمارة واحتراما. وأضخم خانات ، وأعظم دثاراً لسكنى الأمراء فيها ، لأنها المخصوصة بالسلطنة ، لقرب قلعة الجبل منها، فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر ...»[٥٩] ثم أشار إلى أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب كان يبنى فى ذلك الوقت قلعة بجزيرة الروضة بحيث ازدهرت الفسطاط نتيجة لذلك وانتقل إليها كثير من الأجناد ، وتم بناء قيسارية ضخمة «... تنقل إليها من القاهرة سوق الأجناد، التى يباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك ...»[٦٠]

٥٦- النجوم الزاهرة ، ص٢٦ .

٥٧- نفسه، ص٢٧ .

٥٨- جومار، وصف مدينة القاهرة، ص٣٨ (من تقديم د. أيمن فؤاد سيد) .

٥٩- النجوم الزاهرة ، ص٢٧ .

٦٠- نفسه ، ص٢٧ .

وهو هنا يشير إلى انتقال مقر الحكم بشكل مؤقت إلى الحصن الذى أقامه الصالح أيوب سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤١م وأحاطه بسور به ستون برجًا للحراسة ، وقد استخدم عدداً كبيراً من أسرى الصليبيين فى بناء البرج على نحو ما فعل جده صلاح الدين الأيوبى عندما أمر ببناء القلعة(٦١).

وهذا الخبر يشير إلى أمر كان له تأثيره الخطير على مصير الحكم الأيوبى فى مصر من ناحية ، وقيام دولة سلاطين المماليك البحرية من ناحية أخرى، فالسلطان الصالح نجم الدين أيوب يعد هو المسئول عن ازدياد نفوذ المماليك على النحو الذى أدى إلى استيلائهم على الحكم ؛ إذ أن تجاربه مع الجنود المرتزقة من الخوارزمية والأكراد علمته أن الاعتماد عليهم أمر غير مأمون العاقبة ، ومن ثم اشترى عدداً كبيراً من المماليك الذين رباهم ودربهم ليكونوا العمود الفقرى لجيشه ، وكان هؤلاء المماليك من جنسيات مختلفة ؛ أتراك ، ومغول ، وصقالبة وألمان ، وأسبان ، وجراكسة ، ويونان ... وغيرهم . إلا أن غالبيتهم فى دولة المماليك الأولى (البحرية) كانوا من بلاد القفجاق والقوقاز، على حين كانت معظم عناصرهم فى الدولة الثانية من الجراكسة (٦٢).

وقد أسكن الصالح نجم الدين أيوب مماليكه فى قلعته الجديدة بالروضة ، ولهذا عرفوا باسم «البحرية» نسبة إلى «بحر النيل» ، وهو الاسم الذى اعتاد أهل مصر أن يطلقوه على نهرهم العظيم(٦٣).

تحدث «ابن سعيد» بعد ذلك عن العملة المتداولة فى القاهرة والفسطاط، كما ذكر أن الإصابة برمد العين منتشرة بين سكان القاهرة. كذلك حدثنا ، بسرعة ، عن أحوال أهل الذمة من اليهود والنصارى، فقال إن أكثر ما يتعيش به اليهود والنصارى فى كتابة الخراج والطب

٦١- جومار، وصف مدينة القاهرة ، ص٣١ .

٦٢- المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٣٣٩ ؛ قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص١١ .

٦٣- يشك الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة فى هذه النسبة ، انظر : زيادة ، «بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك». حوليات كلية الآداب/ جامعة القاهرة ، مجلد ٤ / سنة ١٩٣٦م. وقد أيده فى ذلك الأستاذ الدكتور مختار العبادى، أنظر : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، (النهضة العربية ١٩٦٩)، ص٩٦ - ص١٠٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«... والنصارى بها ممتازون بالزنار فى أوساطهم واليهود بعلامة صفراء فى عمائهم ، ويركبون البغال ، ويلبسون الملابس الجليلة [٦٤].

وهنا نجد أنفسنا مضطرين للوقوف أمام ملاحظات «ابن سعيد» السريعة التى تدل على أنه دوّن ملاحظات شديدة السطحية ؛ فالثابت من المصادر التاريخية ووثائق الجنيزا أن اليهود المصريين قد عملوا فى عدد من المهن والحرف قاربت المائتين وخمسين حرفة يدوية ؛ فضلاً عن ممارستهم لحوالى مائة وسبعين نمطًا من النشاط فى مجالات الاقتصاد والإدارة والتعليم والطب. وقد عمل اليهود فى كل المهن تقريبًا ؛ بدءًا بالوزارة وانتهاء بأصغر المهن التى عرفها المجتمع المصرى آنذاك [٦٥]. وإذا كان هذا هو حال اليهود المصريين ، فمن المنطقى أن المسيحيين قد عملوا فى كافة الوظائف بالإضافة إلى الزراعة التى لم يكن اليهود يمارسونها . وتشير الوثائق والمصادر التاريخية إلى أن المسيحيين المصريين قد مارسوا كل المهن والحرف التى مارسها المسلمون[٦٦].

تحدث «ابن سعيد» بعد ذلك عن بعض الأطعمة التى قال إن أهل القاهرة يأكلونها فقال[٦٧]: «... ومأكل أهل القاهرة الدميس والصِّير والصحناه والبطارخ» ويبدو أنه تحدث عن الأسماك المملحة مثل الملوحة والفسيخ ، وهنا يبدو أن الرجل قد سجل ما رآه غريبًا ، لأنه من الثابت أن قائمة طعام القاهريين كانت تضم أصنافًا كثيرة ذكرتها كتب الحسبة والمصادر التاريخية الأخرى ؛ فقد تحدثت هذه الكتب عن عدد كبير من حرف الغذاء التى عرفتها القاهرة آنذاك[٦٨] كما أن العدد الكبير من المطاعم التى قدرها الرحالة بالآلاف ، والباعة الجائلين

٦٤- النجوم الزاهرة ، ص٢٨ .

٦٥- قاسم عبده قاسم، اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى، (دار فكر١٩٨٧م) ، ص٥٩ - ص٦٠ .

٦٦- قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص٧٥- ص٧٦ .

٦٧- قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص٧٥-٧٦ .

٦٧- النجوم الزاهرة ، ص٢٨ .

٦٨- ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، ص٤٧- ص٤٨ ، ص١٥٨-١٦٠ .

بالطعام فى الأسواق كانوا يقدمون قائمة متنوعة وغنية من الأطعمة للقاهريين [٦٩]. ومن المهم هنا أن نشير إلى أن بعض المصادر أوردت لنا قائمة تحوى حوالى ثلاثة وخمسين نوعًا مشهوراً من الحلوى التى أحبها القاهريون وكانت تباع فى شوارع القاهرة وأسواقها[٧٠]، وهو الأمر الذى يتأكد من المصادر التاريخية الأخرى على أية حال .

تحدث ابن سعيد ، بسرعة أيضا ، عن مطابخ السكر، والمطابخ التى يصنع فيها الورق المنصورى، وقال إنها «... مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة ...» كما ذكر شيئا عن صناعة الجلود والثياب [٧١]. وإشارة ابن سعيد لمطابخ السكر فى الفسطاط تبدو على قدر كبير من الأهمية ؛ إذ يبدو أن غالبية هذه المصانع الصغيرة كانت مركزة فى الفسطاط حتى القرن التاسع الهجرى(١٥م) على أقل تقدير؛ فقد أحصى لنا ابن دقماق (توفى ٨٠٥هـ) ثمانية وخمسين مطبخًا للسكر فى الفسطاط وحدها. وكانت صناعة السكر من الصناعات الغذائية الهامة لارتباطها بحياة الرفاهية التى عاشها الحكام من جهة ، وبعادات وتقاليد المصريين من جهة أخرى. وكانت بعض مطابخ السكر مملوكة لأفراد من عامة المصريين ، وبعضهم من اليهود. وفى بعض الأحيان كان أصحاب هذه المصانع الصغيرة يديرونها بأنفسهم ، على حين كان البعض الاخر يؤجرونها. وينبغى أن نشير إلى أن الفسطاط قد اشتهرت بكونها أحد مراكز صناعة السكر الهامة فى مصر آنذاك[٧٢].

ويبدو أن «ابن سعيد» قد لمس فى القاهرة شيئًا لم يألفه فى بلاده ، فقد قال ما نصه «وهى مستحسنة للفقير الذى لايخاف على طلب زكاة ولاترسيما وعذابًا عليها، ولايطلب برفيق له إذا مات فيقال له: ترك عندك مالاً ، فربما سجن فى شأنه أو ضرب وعصر. والفقير المجرد فيها مستريح من جهة رخص الخبز وكثرته ، ووجود السماعات والفرج فى ظواهرها ودواخلها ، وقلة الاعتراض عليه فيما ذهب إليه ، له نفسه يحكم فيها كيف شاء من رقص فى وسط

٦٩- عاشور ، المجتمع المصرى، ص٨٧ ؛ قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص١١٨-١١٩ .

٧٠- ابن الأخوة ، المصدر السابق، ص١٨١- ص١٨٣ .

٧١- النجوم الزاهرة ، ص٢٩ .

٧٢- ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ٤ ، ص٤١- ص٤٦ ؛ المقريزى، جـ١ ، ص٣٦٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السوق ، أو تجريد ، أو سكر من حشيشة ، أو صحبة المردان، وما أشبه ذلك بخلاف غيرها من بلاد المغرب »[٧٣].

فى هذا النص رسم «ابن سعيد» صورة حية لحياة الفقراء من عامة أهل القاهرة آنذاك، وقد لاحظ زوار القاهرة فى ذلك العصر أن هناك عدداً كبيراً من الفقراء يعيشون فى القاهرة ، وقد تراوحت مسمياتهم فى المصادر التاريخية بين «العوام» الذى كان لفظًا عامًا ، أو «الزعر» «والحرافيش» و«البلاطية» و«الشلاق» و«المشاعلية»[٧٤] ومن الواضح أنهم عاشوا فى القاهرة فى حرية تامة وعملوا فى حرف الخدمات والحرف الدنيا التى كان مجتمع القاهرة بحاجة إليها. وفى الفترة التى زار فيها «ابن سعيد» القاهرة ، كانت أمور الحياة سهلة ميسورة كما يبدو من النص نفسه ؛ فالخبز متوفر ورخيص ، كما أن أماكن النزهة والفرجة وفرص سماع المطربين ميسورة . وربما كانت الحرية الفردية للقاهرى من أبناء الشرائح الاجتماعية الدنيا هى التى جعلت الرحالة «ابن بطوطة» - بعد حوالى قرن من الزمان- يقرر أن « ... أهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو ... » فقد شاهد زينة القاهرة احتفالاً بشفاء السلطان الناصر «محمد بن قلاون» من كسر فى يده[٧٥] أما ما أشار إليه «ابن سعيد» من مظاهر المجون والخلاعة والشذوذ الجنسى والدعارة ؛ فهو أمر معروف عن الحياة الاجتماعية فى القاهرة آنذاك ، وطوال عصر سلاطين المماليك، وتؤكده المصادر والدراسات التاريخية الحديثة[٧٦].

وقد لفت انتباه «ابن سعيد» كثرة الأزهار فى القاهرة وعدم انقطاعها ؛ وهو هنا يكشف عن حس فنان رقيق ، كما تحدث عن فواكه مصر، وأشار إلى أن المصريين لم يعتادوا شرب نبيذ العنب ، ولكنهم اعتادوا شرب المزر الأبيض المستخرج من القمح (الجعة ، أو البوظة) ، ويبدو أن الإقبال عليه كان شديداً بحيث كان سعره يرتفع[٧٧].

٧٣- النجوم الزاهرة ، ص٢٩- ص٣٠ .

٧٤- عاشور ، المجتمع المصرى، ص٣٧ .

٧٥- ابن بطوطة ، الرحلة ، جـ١ ، ص٥٣ .

٧٦- عاشور، المجتمع المصرى، ص٢٢٧-ص٢٣٣؛ قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص١٣٩- ص١٤٠ .

٧٧- النجوم الزاهرة ، ص٣٠ - ص٣١ .

وعاد مرة أخرى للحديث عن الخمور ، والموسيقى ، و«تبرج النساء العواهر» مقارنًا ذلك بما كان يحدث فى بلاد المغرب(٧٨).

هذه هى أهم الملاحظات التى دونها «ابن سعيد» عن رحلته إلى القاهرة فى السنوات التى شهدت غروب شمس الدولة الأيوبية، وقيام دولة سلاطين المماليك؛ فقد توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى خضم الصراع ضد قوات الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧هـ- (١٢٤٩م) وقامت زوجته شجر الدر بإدارة شئون الحكم بمساعدة كبار أمراء المماليك، وجاء «توراه شاه» ليحكم مصر خلفًا لأبيه الصالح أيوب، ولكنه كان إخفاقًا أيوبيًا جديداً ، فاغتاله كبار المماليك بشكل مأساوى مروع ، ومع دمائه التى بددتها مياه النيل تبددت آخر مظاهر السلطة الأيوبية فى مصر .

فى هذا الوقت العصيب كانت زيارة «ابن سعيد» للقاهرة التى كانت قد صارت بؤرة النشاط الاجتماعى والاقتصادى والثقافى بمصر. وربما يفسر لنا هذا حقيقة الحيوية والحرارة التى رسمتها كلمات «ابن سعيد» للقاهرة على الرغم من كلماته الحانقة المعادية التى يمكن فهمها فى ضوء الحقيقة القائلة بأن الرجل كان سليل بيت من الأمراء، وكان صدره يضيق بزحام القاهرة وصخبها وضيق شوارعها. بيد أن حيوية القاهرة ونشاطها الدائب فرضا نفسيهما على قلمه بحيث كانت أوصافه وملاحظاته- فى مجملها- أدق وأكثر حيوية من الرحالة الأندلسى الآخر الذى زارها قبل قرن من الزمان وهو ابن جبير الذى جاء إلى القاهرة فى السنوات الأولى من عمر الدولة الأيوبية وحين كانت المدينة ما تزال فى طريقها إلى التحول من حصن للإدارة والحكم والجيش ، إلى عاصمة حقيقية لمصر.

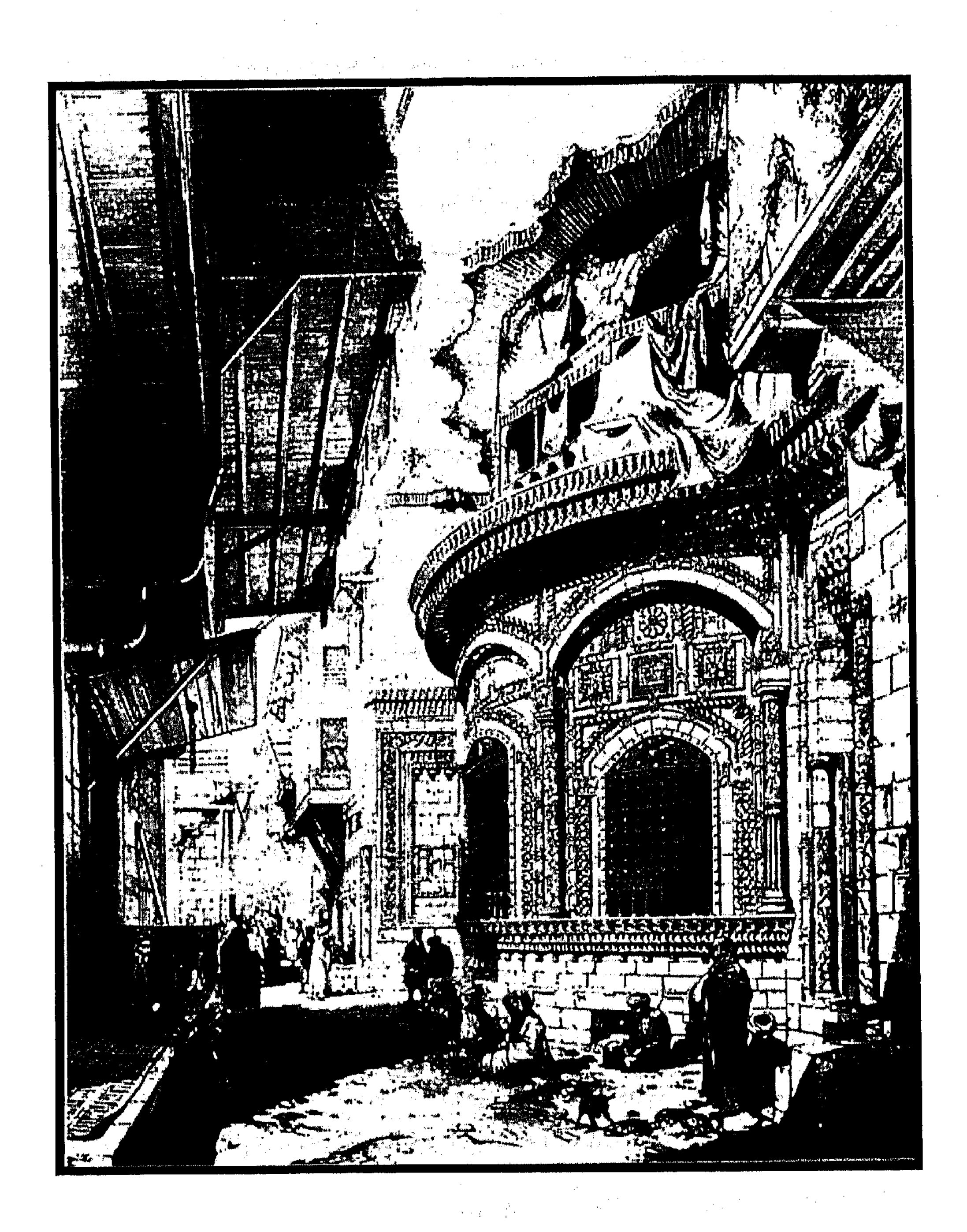
* * *

إن المقارنة بين وصف القاهرة فى رحلة ابن جبير الذى زار العاصمة المصرية فى بواكير عصر الدولة الأيوبية ، ورحلة ابن سعيد ، الذى زارها فى سنوات الأفول والغروب التى عانتها دولة بنى الأيوبيين تكشف عن أن حظ المدينة قد سار فى اتجاه معاكس لحظ الدولة التى تصادفت الرحلتان مع بدايتها ونهايتها . ففى الرحلة الأولى، كانت القاهرة تبدأ تاريخها الحقيقى

٧٨- نفسه، ص٣١- ص٣٢ .

عاصمة لمصر والعالم العربى الإسلامى على استحياء ، وفى الرحلة الثانية كانت القاهرة قد استكملت كل المقومات التى تجعلها عاصمة عالمية. وانعكست هذه الحقيقة فيما أشارت إليه كلمات ابن سعيد عن سكانها ، ونشاطهم الاقتصادى والاجتماعى، وعاداتهم وتقاليدهم . وقد تكرست هذه المكانة تمامًا فى عصر سلاطين المماليك (٦٤٨هـ/ ٩٢٢هـ - ١٢٥٠- / ١٥١٧م) . فقد صارت القاهرة عاصمة العالم الإسلامى كله، ووفد إليها العلماء والفنانون مع المهاجرين من شرق العالم الإسلامى وغربه ، وأصبحت مركزا للتجارة العالمية، والنشاط السياسى والدبلوماسى فى العالم المعروف آنذاك . وانعكس ذلك- بطبيعة الحال- على شكل الحياة اليومية فى شوارعها وضواحيها . بيد أن هذه قصة أخرى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر فى رحلة ابن بطوطة

«صورة من الحياة الاجتماعية فى عهد الناصر محمد بن قلاون»

إن أهم مساهمات الرحلة، فى تصورنا ، جاءت من خلال طرح وسائل معرفة الإنسان بعالمه. ذلك أن الرحلة تكشف عن حال يتعرف فيها الإنسان على «الآخر» ، فى إطار بيئة مغايرة ، وثقافة مختلفة ، ونشاط حضارى بعيد عما ألفه واعتاده فى بيئته . وبذلك يصبح الإنسان أكثر استعداداً للاعتراف بوجود «الآخر» والتعاون معه .

لقد كانت عين الرحالة دائما بمثابة آلة تصوير تسجل ما يراه غريبا جديرا بالتصوير ، على حين كان الناس فى عاداتهم وممارساتهم اليومية لايرون فيه غرابة أو طرافة ، أوشيئا جديرا بالتسجيل. لقد كانت ملاحظات الرحالة هى المادة الخام لكثير من علوم البشر ، ولكن هذه الدراسة تهتم بدراسة علاقة الرحالة بالتاريخ الاجتماعى. وفى رحلة ابن بطوطة التى قام بها فى فترة نابضة بالازدهار والحيوية من تاريخ مصر نجد كثيرا من الإشارات التى تفيدنا فى التعرف على ملامح المجتمع المصرى. إذ أن زيارة ابن بطوطة لمصر كانت فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) حين كانت القاهرة عاصمة العرب والمسلمين، وكانت تحت حكم سلاطين المماليك فى عز قوتها ومجدها ومزدهرة ثرية فى الداخل ، مرهوبة قوية فى الخارج .

هذه الدراسة ستحاول مناقشة ملاحظات «ابن بطوطة» على الحياة الاجتماعية فى مصر آنذاك مقارنة بالمصادر التاريخية الأخرى بغية الوصول إلى صورة متكاملة للمجتمع المصرى قدر الإمكان . فى تلك الفترة من عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون.

* * *

ابن بطوطة هو محمد بن عبدالله اللواتى، ويكنى أبا عبدالله، وابن بطوطة شهرة اشتهر بها هو وعائلته . كان مولده يوم الاثنين ١٧ رجب ٧٠٣هـ (٢٥فبراير ١٣٠٤م) فى مدينة طنجة على مضيق جبل طارق شمال الغرب، وهو من عائلة اشتغلت بالقضاء وتوارثته ، وعائلته من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قبيلة لواته البربرية[١]. وعندما بلغ رحالتنا سن الحادية والعشرين من عمره عزم على السفر إلى مشرق العالم الإسلامى بغية حج بيت الله الحرام والرواية عن علماء المشرق المشهورين والاستفادة من علمهم وورعهم . وهنا نجد أنفسنا أمام سبب هام من أسباب الرحلة فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، لقد تنوعت دوافع الرحالة المسلمين حقيقة لكن الرحلة فى طلب العلم كانت من أهم دوافعهم بحيث أشار إليها العلامة ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة ، إذ قال : «... والرحلة لابد منها فى طلب العلم. ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال...»[٢] كذلك كانت التجارة من الدوافع الهامة إلى الرحلة فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، إذ كان التاجر المسلم شخصية معروفة فى أنحاء العالم المتحضر آنذاك ، وكان من بين هؤلاء التجار علماء تركوا لنا نفائس يفخر بها تراثنا. وتجسد رحلة التاجر سليمان السيرافى فى المحيط الهندى فى منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، ومعجم البلدان الذى ألفه ياقوت الحموى الذى كان تاجرا، دليلا على أن الرحلة بقصد التجارة لم تخل من العلم[٣] .

وهناك أسباب أخرى متعددة للرحلة عند المسلمين بطبيعة الحال، بعضها شخصى وبعضها كانت سفارات بتكليف من أولى الأمر . بيد أن أهم ما يلفت النظر فى تاريخ الرحلة فى التراث العربى الإسلامى هو أن طابع المبادرة الشخصية كان العامل الحاسم فى غالبية تلك الرحلات . ولم تقم الدولة، أية دولة ، بتمويل هذه الرحلات سوى فى أضيق نطاق وعندما يكون القائم بالرحلة مكلفا بها من قبل الحكام .

ورحلة ابن بطوطة تدخل ضمن رحلات المبادرة الشخصية ، فقد بدأ رحلته يوم الخميس ، رجب سنة ٧٢٥هـ. وكانت بلاد المغرب حينذاك تحت حكم السلطان أبى سعيد عثمان من سلاطين بنى مرين. فذهب إلى تونس، ثم الاسكندرية، ثم عزم على الحج عن طريق صعيد مصر، فمر بالقاهرة ، وزار عدة من مدن الدلتا ، وسار فى النيل مصعداً إلى جنوب الأقصر، ومنها إلى البحر الأحمر، ثم اضطر للعودة إلى القاهرة ليسافر منها إلى دمشق التى سافر منها إلى الحج.

١- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور على المنتصر الكتانى- مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١م- الطبعة الثالثة) ، جـ١ ، ص١٥ .

٢- مقدمة ابن خلدون ، ص٤٠٧ ؛ حسين محمد فهيم، أدب الرحلات (سلسلة عالم المعرفة رقم ١٣٨، الكويت ١٩٨٩)، ص٨٩ .

٣- حسين فهيم ، المرجع السابق، ص٩٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت زيارته الأولى لمصر التى دوّن فيها أهم ملاحظاته وانطباعاته ، ولكنه زار مصر بعد ذلك ثلاث زيارات قصيرة ...

وصل ابن بطوطه الإسكندرية فى أول جمادى الأولى سنة ٧٢٥هـ، أى فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون، وهو السلطان الذى يمثل عهده نقطة فارقة فى تاريخ دولة سلاطين المماليك نظراً لحالة الرفاهية والاستقرار التى ميزت حكمه بصورة عامة. وقد وصف ابن بطوطة الاسكندرية وصفا دقيقا، وبهره ميناؤها الذى قاله عنه : « ... ولها المرسى العظيم الشأن ، ولم أر فى مراسى الدنيا مثله، إلا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند، ومرسى الكفار سرداق ببلاد الأتراك ، ومرسى الزيتون ببلاد الصين ، وسيقع ذكرها ...»(٥)، وذكر ابن بطوطة أن أحد جوانب منار الأسكندرية عندما زاره كان متهدما ، ووصفه بدقة . كما أشار إلى أنه عاد لزيارته بعد خمس وعشرين سنة من زيارته الأولى ، « ... فوجدته قد استولى عليه الخراب ... » وذكر أن السلطان الناصر محمد بن قلاون كان شرع فى بناء منار مثله بإزائه لكن الموت لم يمهله (٦).

وهو هنا يشير إلى حقيقة هامة من حقائق عصر هذا السلطان الذى تميز عهده بالاستقرار وكثرة العمارة والبناء ؛ فقد أحصى ابن ايبك الدوادار ستة وعشرين جامعا أنشئت فى القاهرة وحدها بخلاف الزوايا والخوانق فى عهد الناصر محمد بن قلاون(٧). كما أن المقريزى أشار فى

٤- تولى السلطان الناصر محمد بن قلاون عرش مصر ثلاث مرات كانت أولاها سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م بعد مصرع أخيه الأشرف خليل، وكان ما يزال طفلا فى الثامنة من عمره ، ولم يستمر فيها سوى سنة واحدة ، والثانية سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م ولكنها كانت مجرد سلطنة صورية لم تستمر سوى بضع سنوات حتى اعتزل هو الحكم سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٩م، ثم كانت سلطنته الثالثة، الحقيقية ، سنة ٧٠٩هـ/ ١٣١٠م لتستمر أكثر من ثلاثين سنة انتهت بوفاته سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤١م بعد أن جاوز عمره الستين . وكانت تلك الفترة من أهم فترات العصر المملوكى لما تميزت به من ازدهار وإعادة ترتيب النظامين الإدارى والمالى فى الدولة. انظر : حياة ناصر الحجى، السلطان الناصر محمد بن قلاون ونظام الوقف فى عهده: (مكتبة الفلاح- الكويت١٩٨٣) ، ص١٩-٣٠ .

٥- رحلة ابن بطوطة ، جـ١ ص٣٧ .

٦- نفسه ، جـ١ ، ص٣٨ .

٧- ابن أيبك الدوادار ، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر (وهو الجزء التاسع من كنز الدرر وجامع الغرر- تحقيق هانس روبرت رويمر ، الخانجى- القاهرة ١٩٦٠)، ص٣٨٨ ، ٣٩٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ترجمته لهذا السلطان إلى أنه كان يحب العمارة ، وقدر مصروفه على العمارة بمعدل ثمانية آلاف درهم يوميا طول سنى سلطنته الثالثة[٨].

وبعد أن عبر عن إعجابه ودهشته بعمود السوارى ، حدثنا بإفاضة عن علماء الإسكندرية ، كما تحدث عن كبار الصوفية منهم والكرامات المنسوبة إليهم[٩]. وينطوى كلام ابن بطوطة هنا على إشارتين غاية فى الأهمية عن الحياة فى مصر إبان القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، فقد كانت مصر فى أوج عزها وازدهارها فى شتى الجوانب. إذ إن الظروف التاريخية التى أحاطت بالعالم الإسلامى فى منتصف القرن السابع الهجرى أفرزت دولة سلاطين المماليك لتقوم بدور القوة المدافعة عن العالم الإسلامى على مدى ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان . وفى ظل الحماية التى وفرتها دولة سلاطين المماليك كانت مصر مقصدا للعلماء والفقهاء والطلاب والرحالة من شتى أرجاء العالم الإسلامى. وخير دليل على ذلك النشاط الثقافى الزاهر هو ما خلفه لنا ذلك العصر من تراث ضخم فى شتى نواحى المعرفة الإنسانية[١٠].

وهذه هى الإشارة الأولى التى تضمنها كلام ابن بطوطة عن العلماء الكثيرين الذين لقيهم بالإسكندرية ، وفيهم العديد من أهل المغرب والأندلس .

والحقيقة أن هناك مجموعة من الأسباب الموضوعية وراء تمركز هذا العدد الكبير من العلماء والمفكرين المسلمين فى رحاب دولة سلاطين المماليك فى مصر ، إذ إن الأحوال السياسية المعاكسة. والكوارث التى أصابت المسلمين شرقا وغربا كانت وراء هجرة العلماء إلى مصر والشام . فقد شهدت خمسينيات القرن السابع الهجرى اجتياح المغول لبلدان الشرق الإسلامى والقضاء على الخلافة العباسية ببغداد . وأدى ذلك، بطبيعة الحال، إلى انهيار الدور الثقافى الذى كانت بغداد تقوم به فى الحياة الثقافية العربية الإسلامية. وهاجر الناجون من علمائها

٨- المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ٢ (تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٧١م) ، ص٥٢٣، ٥٤٨ .

٩- رحلة ابن بطوطة ، جـ١ ، ص٣٨ ، ٤١ .

١٠- قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ- قراءة فى التراث التاريخى العربى، (ط. ثانية دار المعارف ١٩٨٥م) ص١١٥ وما بعدها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى الشام ومصر . أما فى الغرب، فقد كانت الحرب التى شنها الكاثوليك الأسبان ضد المسلمين تؤتى ثمارها ، وبدأ اللون الإسلامى يتراجع أمام اللون الكاثوليكى على خريطة أسبانيا، وقد أدت الأحداث العسكرية والفظائع التى واكبتها إلى هجرة عدد كبير من العلماء إلى مصر ، واستقر بعضهم بالإسكندرية على نحو ما ذكر ابن بطوطة .

أما الإشارة الثانية الهامة فى كلام ابن بطوطة عن الإسكندرية فهى حديثه عن الصوفية . وفى تقديرنا أن انتشار التصوف وفرق الدراويش كان من النتائج السلبية للحروب الصليبية. فقد كان الصليبيون أقل عددا وعدة ، وأدنى فى مستواهم الحضارى من المسلمين ، ومع ذلك انتصروا بسبب حال التشرذم السياسى والأنانية وضيق الأفق الذى اتسم به حكام المنطقة العربية آنذاك . وأدى ذلك إلى تشبع النفوس بالغضب ومشاعر المرارة والإحباط التى زادت من حدتها أعداد اللاجئين الهاربين من وحشية الصليبيين عند كل هجوم جديد[١١]. لقد شعر الناس فى المنطقة بمدى عجز حكامهم وشاعت روح التقوى السلبية والتدين العاطفى الهروبى . وتجسد هذا كله فى انتشار الطرق الصوفية الجاهلة من الدراويش وكراماتهم المزعومة على أنها من حقائق التاريخ .

ومع أن التصوف - بمعنى النسك والزهد والتفقه فى الدين- قد ظهر على استحياء فى القرن الثالث الهجرى[١٢]، ثم انتشر رويدا رويدا ، فإنه لم يتخذ شكل الظاهرة السائدة فى الحياة الاجتماعية قبل العصر الأيوبى. لقد كان هناك فريق من المتصوفة أقرب إلى الفلاسفة ، يميلون إلى العقل أكثر مما يجنحون إلى الخرافات والغيبيات . ولكن مصرع السهروردى- المعروف باسم «السهروردى المقتول» بتحريض مشايخ حلب وبفتوى منهم ، وبأمر من صلاح

١١- Fulcher de Chartres, Historia Hierosolymitana :

A history of the Expedition to Jerusalem 1095, (transl. by Francis Rita Ryan with an introduction by H. S. Fink , Knoxville 1961), pp 125-6 , 163-4, 174-5, 198 .pp. 153-5, 167, 195-200 .

حيث يحدثنا عن نهب الصليبيين للمناطق الريفية- انظر المصدر نفسه فى وصف المذابح وهروب السكان عقب استيلاء الصليبيين على قيصرية، وطرسوس ، وعكا، وطرابلس، وبيروت ، وصيدا .

١٢- عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول (ط. ثامنة ، القاهرة ١٩٦٨م) ، ص٩٥ - ص١٠٤ .

الدين الأيوبى سنة ٥٨٧هـ[١٣]، كان مؤشرا على اتجاه يناصر الدروشة على حساب العقل تقربا وزلفى إلى جيوش العامة من المريدين الذين تبعوا أولئك الدراويش . وتمثل اهتمام صلاح الدين والأيوبيين بهذا النمط من التصوف فى اعتماد صلاح الدين الأيوبى عليهم فى إذكاء حماسة جنوده من جهة ، وإنشاء المؤسسات اللازمة لخدمتهم ووقف الأوقاف السخية عليهم من جهة أخرى[١٤]. وبينما توارى المتصوفة الفلاسفة ظهر المتصوفة الدراويش وأصحاب الطرق.

ومع مرور الوقت بدأت تظهر أنماط غريبة من الدراويش وأصحاب الطرق لاسيما فى عصر سلاطين المماليك لدرجة أنه وجدت فى مصر آنذاك حوالى ست وثلاثين فرقة . وقد استغل سلاطين المماليك الصوفية فى تدعيم سلطانهم والترويج لهم عند العامة [١٥]. ومنذ بداية هذه الدولة كان السلطان الظاهر بيبرس يقرب المشعوذين والدراويش والمجاذيب [١٦]، وكذلك فعل المنصور سيف الدين قلاون ، وسائر سلاطين المماليك، ولم يكن السلطان الناصر محمد بن قلاون استثناء فى ذلك بطبيعة الحال . وقد أشار ابن بطوطة إلى ذلك عند حديثه عن الزوايا فى مدينة القاهرة .

وربما يكون مفيدا أن نورد نص كلام ابن بطوطة ، إذ يقول [١٧]: «وأما الزوايا فكثيرة ، وهم يسمونها الخوانق ، واحدتها خانقة . والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم ، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف. ولكل زاوية شيخ وحارس. وترتيب أمورهم عجيب. ومن عوائدهم فى الطعام ، أنه يأتى خديم الزاوية إلى الفقراء صباحا فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه فى إناء على حدة وطعامهم مرتان فى اليوم. ولهم كسوة الشتاء

١٣- ابن شداد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤م) ، ص١٠ .

١٤- نفسه ، ص٨٢ ، المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ص٧٥ .

١٥- محمد زغلول سلام ، الأدب فى العصر المملوكى، جـ١ (دار المعارف ١٩٧١م) ص١٩٣- ص٢١٧ .

١٦- محيى الدين بن عبد الظاهر، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر (تحقيق الدكتور عبد العزيز الخويطر. الرياض ١٩٧٦م) ص٢٣٨-٢٤٢ ، حيث يذكر أنه فى غزو الظاهر بيبرس لأرسوف سنة ٦٦٣هـ حضر «... العباد والزهاد والفقراء إلى هذه الغزوة المباركة».

١٧- ابن بطوطة ، الرحلة ، ص٥٤ ، ٥٥ .

وكسوة الصيف ومرتب شهرى من ثلاثين درهما للواحد إلى عشرين. ولهم الحلاوة من السكر كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل أثوابهم . والأجرة لدخول الحمام، والزيت للاستصباح . وهم أعزاب ، وللمتزوجين زوايا على حدة ، ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت بالزاوية، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية . ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به، وإذا صلوا الصبح قرءوا سورة الفتح ، وسورة الملك ، وسورة عم، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم ، مجزأة ، فيقرأ كل فقير جزءاً . ويختمون القرآن ويذكرون ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر . ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتى بباب الزاوية فيقف مشدود الوسط، وعلى كاهله سجادة . وبيمناه العكاز ، وبيسراه الأبريق ، فيعلم خديم الزاوية بمكانه ، فيخرج إليه ويسأله من أى البلاد أتى، وبأى زاوية نزل فى طريقه ، ومن شيخه ، فإذا عرف صحة قوله ، أدخله الزاوية ، وفرش له سجادته فى موضع يليق به، وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ، ويأتى إلى سجادته ، فيحل وسطه ، ويصلى ركعتين ، ويصافح الشيخ ومن حضر ، ويقعد معهم، ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم ، فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها لهم هناك ، ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم ، فيأتون المسجد ويصلى كل واحد على سجادته ، فإذا فرغوا من الصلاة ، قرءوا القرآن على عاداتهم ، ثم ينصرفون إلى الزاوية ومعه شيخهم».

هذا النص يكشف عن أن المماليك ورثوا عن عن الأيوبيين الاهتمام بالصوفية وتشجيعهم مثلما ورثوا عنهم أمورا أخرى كثيرة . وبينما كانت البداية نابعة من رغبة صلاح الدين الأيوبى فى استخدام الصوفية للتعبئة المعنوية لجنوده ومحاربة التشيع ، انتهى الأمر فى عصر سلاطين المماليك بالرغبة فى تدعيم نفوذ السلطان ومكانته لدى رعيته .

وقد أخذ الناس فى مصر عن الصوفية عدة ممارسات وعادات ذميمة أشاعت التفسخ فى الحياة الاجتماعية لاسيما فى الشطر الثانى من عصر سلاطين المماليك، ومنها لبس الغريب من الثياب. وحلق الشعر والشارب والحواجب، والغناء والرقص على دقات الدفوف باسم الدين، وشرب الخمر، وتدخين الحشيش أو أكله . وقد عرف الحشيش آنذاك باسم حشيشة الفقراء (والفقراء هنا بمعنى الصوفية)(١٨).

١٨- المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ٢ ، ص٤٣٢- - ص٤٣٣ ، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ ، ص٤٠٧- حيث يذكر فى حوادث سنة ٦٥٥هـ أن طائفة الصوفية الحيدرية قدموا إلى دمشق «... وعلى رؤوسهم طراطير ، ولحاهم مقصوصة وشواربهم بغير قص ...» انظر أيضا:

سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص١٦٢- ص١٧٥ .

كما ذكر ابن بطوطة المدن التى مر عليها فى طريقه من الإسكندرية ، مثل مدينة دمنهور ، ومدينة فوة، والنحرارية التى قال إنها حديثة المبانى، ثم مدينة أبيار القديمة والتى قال إنه بها تصنع الثياب الحسان التى تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها[١٩] بيد أن أهم ما حدثنا به رحالتنا فى أبيار «يوم ارتقاب هلال رمضان» إذ قال[٢٠] «... وعاداتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى ، ويقف على الباب نقيب المتعممين ، وهو ذو شارة وهيئة حسنة، فإذا أتى أحد الوجوه، تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلا «باسم الله سيدنا فلان الدين» ، فيسمع القاضى ومن معه فيقومون له، ويجلسه النقيب فى موضع يليق به . فاذا تكاملوا هنالك ركب القاضى وركب من معه أجمعين ، وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان ، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم . وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل القاضى ومن معه فيرتقبون الهلال، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب ، وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ، ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضى إلى داره ، ثم ينصرفون، هكذا فعلهم فى كل سنة» .

هذه الإشارة التفصيلية عن الاحتفال برؤية هلال رمضان فى إحدى المدن المصرية تكشف عن مدى اهتمام المصريين بإحياء هذا بمزيج من الاحتفال الدينى والسلوك الاجتماعى البهيج . وقد لفت انتباه الرحالة الذين زاروا مصر فى عصر سلاطين المماليك كثرة الأضواء والمشاعل والحيوية التى تميز ليالى القاهرة فى شهر رمضان والتى تحيل ليلها إلى نهار . وتحدث بعضهم عن مظاهر السرور والغناء والموسيقى فضلا عن حوانيت بيع الطعام والمطبخ التى كانت تظل مفتوحةطوال الليل[٢١] .

حدثنا ابن بطوطة بعد ذلك عن مدينة بلطيم ، التى يسميها ملطين، وقد ذكر أنها «كثيرة النحل والثمار والطير البحرى والحوت المعروف بالبورى»[٢٢]. ومن المعروف أن هذه المدينة

١٩- الرحلة، جـ١ ص٤٤ ص٤٦ .

٢٠- الرحلة، جـ١ ص٤٦ .

٢١- سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص١٨٤-١٨٥ .

٢٢- الرحلة ، جـ١ ص٤٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الساحلية الصرية تعتبر اليوم مصيفا مصريا هاما، كما أن هذه المنطقة ما تزال مشهورة بأسماك البورى حتى الآن. ثم تحدث بعد ذلك عن دمياط فذكر أنها على شاطئ النيل، «وأهل الدور الموالية يستقون منه الماء بالدلاء، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل. وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره إلى مصر فى المراكب، وغنمها سائحة هملا بالليل والنهار. ولهذا يقال فى دمياط سورها حلوى وكلابها غنم ..»[٢٣]. ثم يذكر أن دمياط هذه حديثة البناء، والمدينة القديمة هى التى خربها الفرنج[٢٤].

فى كلام رحالتنا إشارات غاية فى الأهمية عن الأحوال الاقتصادية، وحال الرخاء التى عاشتها مصر آنذاك من ناحية، وأهمية دمياط من ناحية ثانية، ثم بعض آثار ونتائج الحملة الصليبية السابعة على المدينة التى كانت أهم موانئ البحر المتوسط من ناحية ثالثة.

وبالنسبة للإشارة الأولى فإننا نعرف من المصادر التاريخية الأخرى أن المراكب المحملة بالبضائع والآتية من الدلتا عن طريق فرع دمياط وفرع رشيد كانت تجتمع عند بلدة شطانوف التى كانت تبعد عن القاهرة آنذاك سبعة أميال، كما أن السفن المحملة بالبضائع كانت تسير فى حركة دائبة طوال العام تحمل البضائع إلى القاهرة [٢٥]. أما دمياط، فقد كانت أهم ميناء مصرى على البحر المتوسط. وقد أدى هذا إلى تعرضها لعدة هجمات صليبية كان أهمها ما حدث إبان الحملة الصليبية الخامسة، ففى أواخر شهر مايو سنة ١٢١٨م وصلت الأساطيل الصليبية قبالة دمياط التى كانت بها قلعة حصينة فاستمرت تقاوم حتى سقطت فى ٢٧ شعبان سنة ٦١٦هـ/ ٥ نوفمبر ١٢١٩م[٢٦] ثم حررها الجيش المصرى فى ٩ رجب ٦١٨ هـ/ سبتمبر١٢٢١م، وغرقت أوهام الصليبيين فى أوحال الدلتا. وتخلوا عن أطماعهم فى سبيل

٢٣- نفسه، ص٤٨.

٢٤- نفسه، ص٤٩.

٢٥- Dopp (P.H), L`Egypte au Commencement du quanzieme siecle, (Le Caire 1950), pp 23 , ff.

٢٦- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص٣١٥- ص٣١٨؛ المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك. جـ١ ص٢٠١.

الفوز بالنجاة . بيد أن الاستيلاء على مصرظل سرابا يجذبهم بقوة . وهكذاتعرضت دمياط لهجوم صليبى شامل آخر سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م حين نزلت قوات الحملة السابعة بقيادة لويس التاسع قبالة دمياط وسقطت المدينة بسرعة غير متوقعة [٢٧]. لكن المصير النهائى لهذه الحملة كان فشلا ذريعا بعد معركة شرسة قرب فارسكور ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، تم فيها استئصال الجيش الصليبى، وأسر لويس نفسه[٢٨].

وكانت دمياط قد هدمت تماما فى خضم أحداث الحملة الصليبية السابعة وأعيد بناؤها إلى الجنوب من المدينة القديمة لتكون بعيدة عن شاطئ البحر بحيث يتم تأمينها من هجوم الأساطيل الصليبية والأوربية . وفى سنة ٦٥٩هجرية أمر السلطان الظاهر بيبرس بردم مصب فرع رشيد فى البحر المتوسط حتى لاتدخله السفن العسكرية الكبيرة الحجم ولم تعد تدخله من البحر المتوسط سوى مراكب التجارة الصغيرة . وهذا ما قصده ابن بطوطة بإشارته التى أوردها فى حديثه عن دمياط[٢٩].

ثم حدثنا عن زاوية الشيخ جمال الدين الساوى قدوة الطائفة الصوفية المعروفة بالقلندرية. وأفرادها يحلقون رؤوسهم ولحاهم وحواجبهم[٣٠]. ولابأس من أن نشير مرة أخرى إلى تحول الحركة الصوفية آنذاك إلى حركة تأثير سلبى على المجتمع المصرى. بعد ذلك وصف ابن بطوطة رحلته فى النيل من مدينة سمنود إلى الفسطاط، وأورد نصا غاية فى الأهمية من حيث دلالته على الرخاء الذى كان سائدا فى مصر آنذاك ، يقول النص «ومن هذه المدينة ركبت النيل

٢٧- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية (سلسلة عالم المعرفة العدد ١٤٩- مايو ١٩٩٠م) ص١٥٦- ص١٥٨ .

٢٨- المقريزى: السلوك ، جـ١ ، ص٣٣٦، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥٨، ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

Joinville , The life of Saint Louis, (transl, by R. B. Shaw, Pengiun 1975), pp. 1972 264 ; Joseph R. Strayer , "Crusade of Laius IX " , ın Sctton (ed.) , A hist of the Crusades, II, pp. 487-518 .

٢٩- المقريزى: السلوك ، جـ١ ص٤٤٦ ؛ قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٧٨م) ، ص٨٥-٨٦ . . Encyclopaedıa of Islam. Art. Damietta

٣٠- الرحلة جـ١ ، ص٤٩ . وهو يروى فى ذلك قصة عن الشيخ جمال الدين الساوى مفادها أنه اضطر إلى حلق شعره ولحيته وحاجبيه ليتخلص من إغواء امرأة كانت معجبة به .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصعدا إلى مصر ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض . ولايفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد، لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك. والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد»[٣١].

وعندما وصل ابن بطوطة إلى العاصمة التى ذكرها باسم «مدينة مصر» راعه جمالها وازدحامها فقال «ثم وصلت إلى مدينة مصر، وهى أم البلاد، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة . والبلاد الأريضة . المتناهية فى كثرة العمارة ، المتناهية بالحسن والنضارة . ومجمع الوارد والصادر. ومحط رحل الضعيف والقادر . وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه. ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف . تموج موج البحر بسكانها . وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها . شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لايبرح عن منزل السعد . قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها نواحي العرب والعجم... »[٣٢].

وفى هذه الفقرة البليغة لخص الرحالة ابن بطوطة أحوال العاصمة المصرية فى الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك، فهى عاصمة متسعة الأرجاء قد شملت فى جنباتها عواصم مصر الإسلامية منذ فتحها عمرو بن العاص ، فمنذ بناء القاهرة كانت مقر الحكومة ، ومركز الدولة الإدارى والسياسى، على حين كانت الفسطاط عامرة بالناس الذين جعلوا منها قصبة الديار المصرية ومركز النشاط الاقتصادى والصناعى والعلمى . وعلى الرغم من أن القاهرة قد فتحت أبوابها أمام الناس. فإنها لم تتحول إلى عاصمة حقيقية سوى بعد سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م بعدما انتقل السلطان الكامل الأيوبى إلى القلعة التى صارت مقر الحكم[٣٣] ومنذ ذلك الحين أخذت الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية تكسو وجه القاهرة حتى صارت تموج بالحركة والنشاط على النحو الذى حكى عنه ابن بطوطة . وكثيرون من الرحالة الذين زاروا القاهرة فى عصر

٣١- الرحلة جـ١ ، ص٥١ .

٣٢- الرحلة جـ١ ، ص٥٣ .

٣٣- جومار ، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل (ترجمة وتعليق أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨٨م) ، ص٢٨ ص٣٠ .

سلاطين المماليك شاركوا رحالتنا رأيه بخصوص القاهرة . فقد كانت العاصمة المصرية آنذاك مدينة كبيرة فاقت مدن العالم من حيث السعة وعدد السكان[٣٤] وكانت شوارع القاهرة ضيقة، بيوتها مرتفعة إلى عدة طبقات ، وتربط بين شوارعها فى بعض المناطق مساحات واسعة غير منتظمة الشكل تتحول أجزاء منها إلى برك زمن الفيضان ، ثم تصير حقولا ومتنزهات بعد انحسار مياه الفيضان . وفى هذه الشوارع يتدافع الناس من جنسيات مختلفة ويتزاحمون مع الدواب[٣٥] وكانت شوارع المدينة ضيقة جدا عن قصد للتخفيف من حرارة الجو فى الصيف ، إذ تراوح عرض الشارع بين خمسة أقدام وخمسة عشر قدما ، بل كانت هناك شوارع عرضها أقل من خمسة زقدام . وكثيراً ما كانت شرفات المنازل المتقابلة فى هذه الشوارع تتماس، وكانت معظم شوارع القاهرة مغطاة لاسيما فى مناطق الأسواق [٣٦].

ثم قال ابن بطوطة إن بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء، وبها ثلاثون ألف مكار. وتؤكد لنا المصادر التاريخية أن عددا كبيراً من السقائين كانوا ينقلون مياه نهر النيل إلى سكان القاهرة فى قرب المياه يحملونها على ظهور الجمال والحمير ، أو على أكتافهم[٣٨] وقد عرفت شوارع القاهرة آنذاك طائفة من السقائين عرفوا فى مصادر ذلك العصر باسم «سقائى الكيزان وأرباب الروايا والقرب والدلاء» الذين كانوا يبيعون المياه فى الشوارع والأسواق. وفضلا عن هذا كله ، كانت بالقاهرة عدة أسبلة توزعت على شوارعها لتسهيل حصول المارة على مياه الشرب. وكانت تلك الأسبلة توفر مياه الشرب والوضوء المجانية لسكان القاهرة وزائريها . كذلك كانت هناك أحواض تملأ بالمياه المخصصة لشرب الدواب [٣٩]. موزعة

٣٤- سعيد عاشور : المجتمع المصرى، ص٨٢- ص٨٦ حيث أورد ملاحظات الكثيرين من الرحالة عن القاهرة .

٣٥- جاستون فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ، (ترجمة مصطفى العبادى، بيروت ١٩٦٨م) ص١١٧ ، ص١٢٦ .

٣٦- جومار ، وصف مدينة القاهرة ، ص٧٦ .

٣٧- الرحلة جـ١ ، ص٥٣ .

٣٨- رحلة البلوى المغربى ، ص٥٥ ؛ قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى- عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٨٣م ط. ثانية) ، ص١٣٠- ص١٣١ .

٣٩- ابن الاخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة (تحقيق ونشر ليفى ، كمبردج ١٩٣٧) ص٣٤٨ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى، ص٩٠- ص٩١ ؛ قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص١٣١ .

فى أماكن مختلفة من القاهرة لاسيما فى مواقف المكارية الذين كانوا يؤجرون حميرهم التى كانت تقوم بدور سيارات الأجرة فى عصرنا الحالى وقد ذكر ابن بطوطة أن عددهم بالقاهرة كان حوالى ثلاثين ألفا .

ثم حدثنا ابن بطوطة عن حياة المرح والسرور التى كان المصريون يحيونها ، فقال إن أهل مصر «ذوو طرب وسرور ولهو»[٤٠] وهو هنا يشير إلى حقيقة هامة مؤداها أن متنزهات سكان القاهرة فى ذلك الزمان كانت كثيرة لاسيما فى ضواحى المدينة والجزر الموجودة فى النيل التى كانت مراحا للقاهريين للتفريج عن أنفسهم والتمتع بالحدائق والمتنزهات والبرك . وربما كانت الحرية الفردية للقاهري آنذاك وراء ملاحظة ابن بطوطة الذى زار القاهرة فى وقت كانت الحياة فيه سهلة ميسورة .

بعد ذلك تحدث الرحالة عن جانب هام من جوانب الحياة الاجتماعية فى مصر زمن سلاطين المماليك، إذ حدثنا عن القرافة ، ومشهد الحسين ، وتربة الإمام الشافعى وقبور العلماء والصالحين بالقرافة [٤١]. لقد كانت القرافة (أى منطقة المقابر الخاصة بالقاهرة) من أهم أماكن النزهة التى يخرج إليها القاهريون فى ذلك الزمان. وقد لفتت انتباه كافة الرحالة الذين زاروا القاهرة على مدار العصور لعدة أسباب :

أولا : أن عددا من قبور الأولياء والصالحين والصحابة والتابعين موجود بالقرافة .

ثانيا : شيوع بعض الأخبار والحكايات عن معجزات وكرامات تنسب إلى عدد من المدفونين فى هذه القرافة .

ثالثا : أن القرافة لم تكن مجرد جبانة يلفها صمت الموتى، كما هو الحال فى كل الجبانات، وإنما كانت مراحا للنشاط اليومى لسكان القاهرة . وكان الناس يبيتون فى القرافة بنسائهم وأولادهم. ويطوف البائعون بالمأكولات بين دروبها . وقد أشار ابن الحاج إلى عادة أهل القاهرة بناء الدور فى القرافة ، ويقيمون بجوار الميت فترة قد تطول أو تقصر بحسب عزة الميت لديهم، كما كانوا يوقدون الشموع والأحطاب لتحضير طعامهم[٤٢].

٤٠- الرحلة جـ١ ، ص٥٣ .

٤١- نفسه، ص٥٥- ص٥٦ .

٤٢- ابن الحاج : المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات ، والتنبيه على بعض البدع والعوائد، (المطبعة المصرية بالأزهر ، ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م) ، جـ١ ، ص٢٦٩- ص٢٧٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد كان لسكان القاهرة عدة مشاهد ومزارات دينية يتبركون بها وقد خصصوا لزيارة كل مشهد يوما معينا من أيام الأسبوع[٤٣] وهو الأمر الذى يكشف عن رواج الاعتقاد فى الكرامات والمعجزات فى المجتمع المصرى آنذاك ، وبالغوا أحيانا إلى حد التطرف فى اعتقاداتهم تلك، وهو الأمر الذى أدى إلى إقامة الموالد السنوية فى شتى أنحاء البلاد المصرية لتكريم أولئك الأولياء وإحياء ذكراهم .

وقد اعتبر الأستاذ الدكتور سعيد عاشور أن إقامة هذه الموالد كانت مما ابتلى به المصريون فى ذلك العصر نظرا لما يحدث فيها من مظالم وتهتك وفضائح خلقية[٤٤] وهو رأى نوافق عليه تماما ، لأنه يكشف عن معالم الثقافة العامة فى مصر آنذاك ، ونوعية التدين الشكلى العاطفى الممتزج بالخرافات والخزعبلات اللتين ميزتا الحياة الاجتماعية المصرية فى عصر سلاطين المماليك. وفى تصورى أن بداية هذا النمط من التدين الظاهرى تعود إلى أيام صلاح الدين الأيوبى وحرصه على تشجيع الشعوذة وتصوف الدراويش كما أوضحنا فى الصفحات السابقة من هذه الورقة .

حدثنا ابن بطوطة عن مظهر آخر من مظاهر الحياة الاجتماعية فى مصر وهو يوم المحمل أو يوم دوران المحمل. قال إنه يوم مشهود «... وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربعة، ووكيل بيت المال، والمحتسب ، وقد ذكرنا جمعهم ، وركب معهم أعلام الفقهاء ، وأمناء الرؤساء ، وأرباب الدولة، ويقصدون جميعا باب القلعة ، دار الملك الناصر، فيخرج إليهم المحمل على جمل، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ومعه عسكره والسقاءون على جمالهم . ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر، والحداة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك فى رجب . فعند ذلك تهيج العزمات، وتنبعث الأشواق وتتحرك البواعث ، ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده ، فيأخذون فى التأهب والاستعداد لذلك»[٤٥].

٤٣- نفسه، جـ١ ، ص٢٦٩- ص٢٧٠ .

٤٤- سعيد عاشور : المجتمع المصرى، ص٢٣٤- ص٢٣٥ .

٤٥- الرحلة ، جـ١، ص٦٢ .

كان موسم الحج محط اهتمام الحكام وعامة الناس على السواء. وفى هذا الموسم تسرى الحركة والنشاط فى أوصال المجتمع المصرى. فتزدهر الأسواق المخصصة لبيع لوازم الحجاج. وكانت كسوة الكعبة الشريفة توضع على جمل مزين يطوف القاهرة والفسطاط فيما عرف اصطلاحا بدوران المحمل[٤٦] وكان دوران المحمل مرتين فى السنة إحداهما فى رجب على النحو الذى أشار إليه ابن بطوطة .

بعد ذلك وصف الرحالة ابن بطوطة الطريق من القاهرة إلى أسيوط ، بيد أن كلامه اقتصر على ذكر البلاد المصرية وبعض منتجاتها ، وتحدث عن العلماء الذين لقيهم فى مدن صعيد مصر[٤٧] ولكنه لم يقدم لنا أية إشارات تتعلق بالحياة الاجتماعية فى تلك المدن .

ووصف لنا المدن الواقعة على الطريق من أسيوط إلى البحر الأحمر[٤٨]. وقد ذكر لنا أن مدينة عيذاب(التى كانت أهم مؤانى مصر على البحر الأحمر والتى خربت فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى). وذكر أن ثلثى المدينة لملك البجاة وثلثها للسلطان الناصر محمد بن قلاون . وقال إن البجاة قوم سود البشرة يلتحفون بملاحف صفراء ويشدون على رءوسهم عصائب يكون عرض العصابة إصبعا «... وهم لايورثون البنات ، طعامهم ألبان الإبل». ومن المهم أن نشير إلى أن ملك البجاة كان يحارب المماليك فى البحر فعاد ابن بطوطة ورفاقه إلى القاهرة ليسافروا منها إلى بلاد الشام [٤٩].

* * *

عرضنا فى هذه الصفحات القليلة لبعض مشاهدات الرحالة ابن بطوطة فى مصر التى زارها إبان عصر الناصر محمد بن قلاون (منتصف القرن السابع الهجرى/ القرن الثالث عشر

٤٦- كان السلطان الظاهر بيبرس هو أول من أدار المحمل بمصر سنة ٦٥٧هجرية . انظر : المقريزى: الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك (نشره الدكتور جمال الشيال، القاهرة ١٩٥٥م) ، ص١١ . . السيوطى ، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، (القاهرة ١٢٩٩هـ) ، جـ٢ ، ص٨٨ .

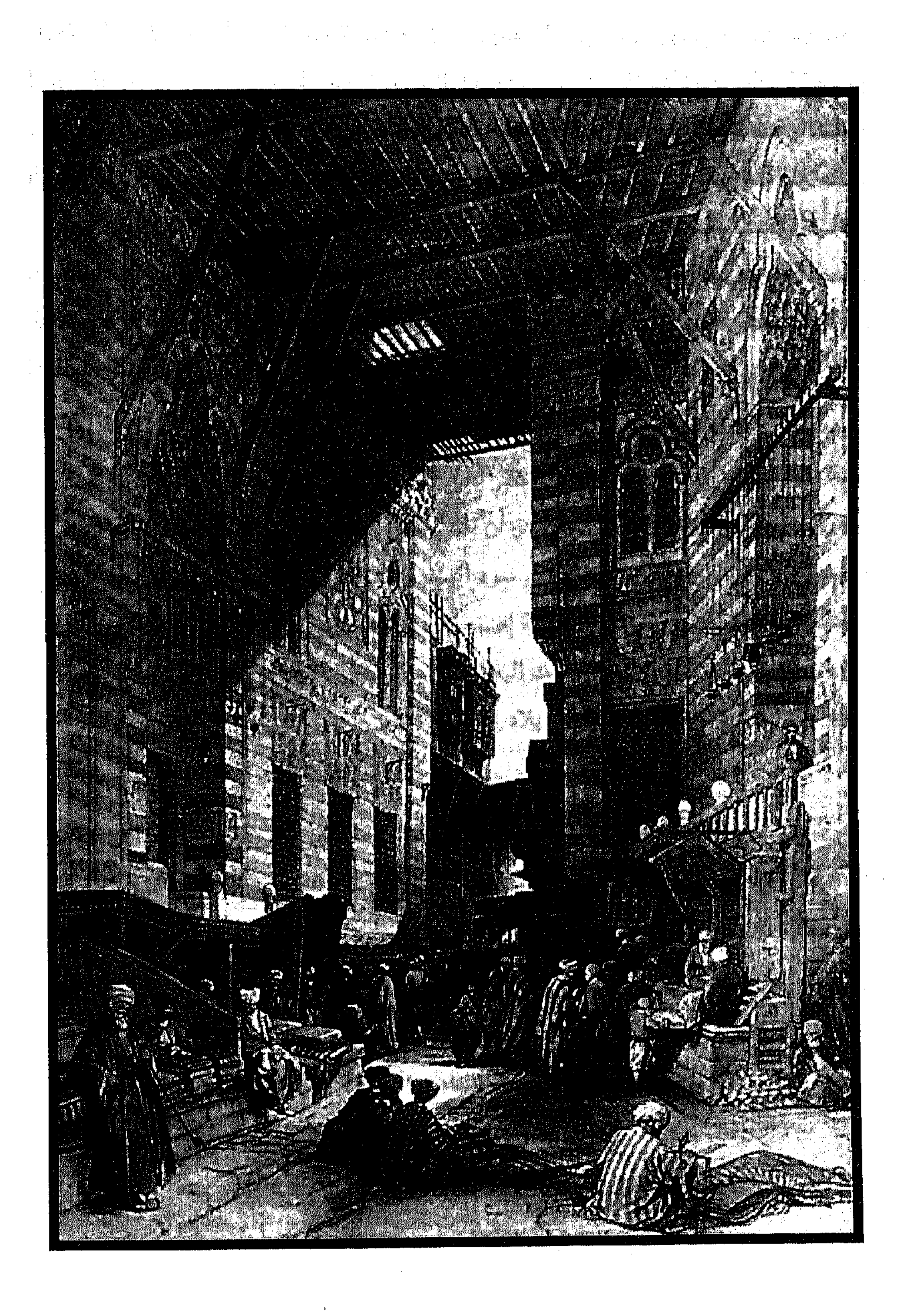
٤٧- الرحلة، جـ١ ، ص٦٣- ص٦٦ .

٤٨- نفسه، جـ١ ، ص٦٧- ص٦٩ .

٤٩- نفسه ، جـ١ ، ص٧٠ .

الميلادى) . وقد حاولنا من خلال ملاحظاته أن نلقى بعض الضوء على جوانب معينة من الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك. وقد تنوعت ملاحظات ابن بطوطة ما بين رصد الجوانب الدينية والمعتقدات والعادات والتقاليد المصرية والملاحظات الخاصة بالنشاط اليومى فى القاهرة، وبعض الأمور ذات الدلالتين الاقتصادية والسياسية. ولكن هذه الملاحظات جميعا تشى لنا بصورة بلاد مزدهرة اقتصاديا ، قوية عسكريا وسياسيا ، تتدفق حياتها الاجتماعية بالحيوية والنشاط . وهذه الصورة تتفق بشكل عام مع ما نعرفه من المصادر التاريخية الأخرى وتوافق أيضا ما أجمع عليه المؤرخون من أن الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك كان عصر قوة ومهابة فى الخارج ، وازدهار ورخاء فى الداخل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأسواق والحياة اليومية

أسباب النمو السكانى فى بداية عصر المماليك- المدن المصرية وأسواقها- أسواق العاصمة- أسواق الأقاليم- الأسواق المؤقتة - التقسيم النوعى للأسواق- كيفية تنظيم السوق- الباعة الجائلون- علاقة الدولة بالأسواق- الأسواق ومظاهر الحياة اليومية- أسباب تدهور حركة الأسواق منذ القرن الخامس عشر : تدخل الدولة- النظام السياسى- تدهور النقد- حالة الأمن- الأوبئة والمجاعات- التدهور السكانى .

شهدت مصر مع بداية عصر سلاطين المماليك نمواً سكانيًا ، وكان ذلك النمو السكانى راجعًا إلى حد بعيد إلى أن مصر عاشت فترة سلام امتدت أكثر من مائة سنة . وفى عصر المماليك البحرية ، الذى يمثل خط الصعود فى تاريخ المماليك، كان النظام السياسى راسخًا ، كما كانت القوة العسكرية للمماليك بمثابة الدرع الواقى لهذا النظام الذى شيده فى مصر وسوريا أولئك العبيد على أنقاض دولة سادتهم الأيوبيين .

ومنذ بداية ذلك العصر الزاخر بالأحداث استطاعت مصر أن تصد الهجمة التترية الشرسة قبل أن تستطيع هذه الجحافل الظالمة اختراق الحدود المصرية. وهو ما يعنى أن جماهير المصريين نجت من تلك المذابح الجماعية المرعبة التى اقترنت بالغزو ، ومن ثم استطاعت مصر أن تحتفظ بمعدل ثابت للنمو السكاني. وفى الداخل انعكست حالة الرواج والرخاء على خط النمو السكانى الذى بدأ صعوده بشكل مطرد حتي القرن التاسع (الخامس عشر الميلادى) .

ومن ناحية أخرى ، فإن حقيقة أن مصر فى ذلك الزمان قد صارت هى المعقل الأخير للحضارة الإسلامية- على حين كان العالم الإسلامى فى الشرق والغرب يتعرض لضربات موجعة من التتر ومسيحيى غرب أوربا- تفسر لنا سبب هذه الهجرات الكثيرة التى جاءت إلى مصر آنذاك . فقد دفعت الغزوات التترية بالكثيرين من سكان العراق والشام إلى مصر، كما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن حرب الكاثوليك الأسبانية دفعت بعدد آخر من مسلمى الأندلس إلى مصر . كذلك تشير مصادر تلك الفترة إلى بعض الهجرات المغولية والكردية والتركمانية التى وفدت إلى مصر فى عصر المماليك البحرية . فقد جاءت إلى مصر طائفة من المغول أبناء القبيلة الذهبية التى كانت ترتبط مع مصر بعلاقات الود والصداقة فى عصر السلطان بيبرس. وقد استقدم السلطان العادل كتبغا عدداً كبيراً منهم . بالإضافة إلى ذلك جاءت إلى مصر فى بداية عصر المماليك بقايا جيش الخلافة العباسية ، وبعض المحاربين الأكراد الذين تجاوز عددهم بضعة آلاف .

هذه الهجرات كان لها تأثيرها ، بطبيعة الحال، على معدل النمو السكانى. ذلك أن وفود مثل أولئك المهاجرين إلى مصر كان يمثل زيادة طارئة فى أعداد السكان .

على أية حال، فإن بعض الباحثين المحدثين يقدر عدد سكان مصر فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى بحوالى ثلاثة ملايين نسمة، على حين يقدر باحث آخر عدد سكان القاهرة فى الفترة نفسها بحوالى ستمائة ألف نسمة [٢]. وتبدو لنا هذه الأرقام معقولة تمامًا فى ضوء ما نعرفه من مصادر تلك الفترة عن المدن المصرية عمومًا ، ومدينة القاهرة بصفة خاصة ، فضلا عن عدد قرى مصر آنذاك وكان يقترب من ألفين وخمسمائة قرية[٣].

كانت المدن المصرية فى ذلك الحين مدنًا كبيرة واسعة ، كثيفة السكان غاصة بكافة المنشآت الدينية والاجتماعية ، مثل القياسر والخانات والمساجد والأسبلة والأضرحة وغيرها . والواقع أن كتابات الرحالة الشرقيين والغربيين الذين زاروا مصر فى تلك الفترة تشير إلى هذه الحقيقة بشكل أو بآخر . فابن بطوطة ، على سبيل المثال ، يذكر فى رحلته الشهيرة من أوصاف المدن المصرية ما يؤكد انبهاره بها[٤]. كذلك فإن بعض الرحالة الغربيين قد بهرتهم المدن المصرية الكبيرة الحجم . لاسيما وأن مدن أوربا كانت ماتزال مدنا صغيرة المساحة قليلة السكان حتى ذلك الحين. فهاهو بيلوتى الكريتى Piloté de Crête ، مثلا ، يصف القاهرة بأنها أكبر مدينة

٢- Ashtor, A Social and Economic Hist., pp. 286-291 .

٣- المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص٧٣ .

٤- ابن بطوطة ، الرحلة ، (دار التراث بيروت ١٩٦٨)، ص١٦- ص٢٤ . وانظر أيضًا ما ذكره عن مدينة القاهرة ص٢١- ص٢٥ .

٥- Dopp (P. H.) L'Egypte au commencement du quanzieme siécle, p. 3 .

فى الدنيا كما أن الرحالة بيروتافور Tafur تحدث عن القاهرة بنغمة إعجاب مشابهة[٦] كما تحدث عن غيرها من المدن المصرية مثل دمياط[٧] ورشيد والإسكندرية[٨] وعلى الرغم من أن زيارة كل من بيلوتى الكريتى وتافور لمصر قد حدثت فى القرن الخامس عشر فإن كلامهما يكشف عن كبر حجم العاصمة وغيرها من المدن المصرية .

هذا النمو السكانى انعكست نتائجه فى أسواق البلاد المصرية التى كان عددها كبيرا من ناحية، كما كانت تموج بالحركة والنشاط وتكتظ بأصناف البضائع من ناحية أخرى . ونستطيع من خلال مصادر ذلك العصر أن نلاحظ أنه كانت لكل مدينة من المدن المصرية أسواقها الخاصة بها. وكان لبعض تلك المدن ، عدة أسواق ، قد تزيد أو تقل حسب مساحة المدينة. فقد كان لأخميم وإسنا وغيرهما من مدن الوجه القبلى أسواقها المزدهرة . وفى الوجه البحرى كانت لكل مدينة أسواقها الخاصة بها [٩]. وقد ذكر ابن دقماق أن مدينة المحلة كانت «قصبة إقليم الغربية من الديار المصرية» ، وهو ما انعكس على أسواقها الكثيرة الرائجة ، كما أن مدينة قليوب كانت تمد أسواق القاهرة بمعظم حاجاتها من الفواكه والألبان ومنتجاتها [١٠].

كذلك فإن ما ذكره بيرو تافور عن المدن المصرية التى زارها [١١]، وما ذكره ابن بطوطة من أن المسافر على صفحة نهر النيل لايحتاج إلى أن يحمل معه زاداً «... لأنه مهما أراد النزول للشاطئ سيجد سوقًا يشترى منه ما يريد... والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر ومن مدينة مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد...»[١٢]- هذا الكلام يؤكد حقيقة أن مدن مصر فى ذلك الحين كانت لها أسواقها الدائمة والمزدهرة فى بداية عصر سلاطين المماليك وهى

٦- تافور ، الرحلة ، ص٦٢- ص٦٤ ، ص٩٧- ص٩٨ .

٧- المصدر نفسه ص٥٩-٦٠ .

٨- المصدر نفسه، ص٩٩- ص١٠٠ .

٩- ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ٥ ؛ صفحات ٢٥-٢٦ ، ٣٠، ٤٧ - ٤٨ ، ٧١ ، ٨١ - ٨٣ ، ٩٢ ، ٩٩-١٠١ .

١٠- المصدر نفسه ، جـ٥ ، ص٩٩ - ص١٠١ .

١١- تافور ، الرحلة، ص٦٣- ص٦٤ .

١٢- رحلة ابن بطوطة ، ص٣١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحقيقة التى يؤكدها أيضًا ما ذكره المؤرخ تقى الدين المقريزى فى خططه وهو يتحدث عن بلاد الوجه البحرى[١٣].

والواقع أن أسواق الأقاليم والقاهرة قد تشابهت من حيث نظامها [١٤]، وإن كان من الواضح أن بعض الأسواق التى وجدت بالعاصمة لم يكن لها نظائر بالأقاليم مثل سوق السلاح، وسوق المهامزيين وغيرهما من الأسواق التى تخصصت فى بيع لوازم الجيش المملوكى، وأبناء الطبقة الحاكمة .

ويبدو من مصادر تلك الفترة أن الريف المصرى قد عرف الأسواق الدورية التى كانت تقام فى يوم معين من أيام الأسبوع [١٥]، وهذا النوع من الأسواق الدورية ما يزال معروفًا فى الريف المصرى وبعض مدن الأقاليم حتى يومنا هذا .

وبخلاف أسواق العاصمة وأسواق الأقاليم ، عرفت مصر أيام المماليك نوعا من الأسواق المؤقتة التى كانت تقام فى مواقع التجمعات حيث يجتمع عدد كبير حول مناسبة بعينها ، سواء فى مولد أو احتفال دينى، أو لبناء جسر على النيل أو شق ترعة، أو لبناء جامع أو مدرسة[١٦] كما كانت الأسواق تقام فى ميادين الحروب لتقدم للمحاربين ما يحتاجونه ، نظرًا لأن جيوش تلك العصور لم تعرف أسلحة الخدمات التى تعرفها الجيوش الحديثة.

والواقع أن الأسواق المصرية عرفت نوعًا من التخصص فى نوع البضائع التى يبيعها كل منها. وهو ما يبدو متسقًا مع طبيعة الحياة الاجتماعية آنذاك ، إذ كان أبناء كل طائفة حرفية يسكنون حارة، أو حيًا يعرف باسمهم . ويضيق بنا المقام عن محاولة إحصاء كل أسواق القاهرة، ومن ثم فإننا سنكتفى بتقسيمها إلى مجموعات نوعية ، بمعنى أن تكون أسواق المواد الغذائية فى مجموعة ، على حين تكون أسواق الملابس ومستلزماتها فى مجموعة ثانية، ونضع أسواق تجهيزات السفر فى مجموعة ثالثة ... وهكذا .

١٣- المقريزى، الخطط ، جـ١ ، ص١٦٢ .

١٤- سعيد عاشور ، المجتمع المصرى: ص٨٦-٨٨ .

١٥- ذكر المقريزى (الخطط، جـ١ ، ص٢٠٥) أنه كان للجيزة فى كل يوم أحد سوق عظيم «... يجئ إليه من النواحى أصناف كثيرة جداً، ويجتمع فيه خلق عظيم ...».

١٦- المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ص٢٦١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ١٤ : ص٢٦ ؛ ابن إياس. بدائع الزهور ، جـ٤ ص٢١٤ ، ص٢٧٥ .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن أسواق المواد الغذائية كانت منتشرة فى جميع أنحاء البلاد سواء فى القاهرة أو الأقاليم ، وهو أمر يتمشى بالضرورة مع توزيع التجمعات السكانية . وفى القاهرة كان هناك عدد كبير من أسواق المواد الغذائية . وقد لفتت انتباه الرحالة «بيروتافور» فقال «إن أحسن وأبهى وأروع شئ يراه المرء فى القاهرة هو سوقها الذى تعرض فيه أكداس هائلة وكميات ضخمة من شتى البضائع الواردة من الهند... »[١٧].

وكان سوق باب الفتوح واحداً من أشهر تلك الأسواق ، ويبدو أنه كان سوقًا جامعًا لأن الناس كانوا يقصدونه «.. من أقطار الأرض لشراء أنواع اللحم الضأن والبقر وشراء أصناف الخضروات» . كذلك اشتهر سوق حارة برجوان الذى كان من أكبر أسواق القاهرة بتوفير اللحم بأنواعه . كما كان به عدد كبير من الزياتين والجبانين والخبازين واللبانين والطباخين والشوائين والعطارين والخضريين. بل كان بهذا السوق حانوت لايباع فيه سوى حوائج المائدة من البقل والكرات والشمار والنعناع[١٨]. والجدير بالذكر أن المؤرخ ابن الصيرفى الذى عاش فى أواخر القرن التاسع الهجرى (١٥م) قد عدد لنا أصناف اللحوم والجبن التى كانت تباع فى مصر آنذاك[١٩]. مما يكشف عن حال من الرواج والرفاهية النسبية التى يمكن أن نستنتج منها أن المصريين عاشوا فى ظلها فى بداية ذلك العصر كما يتضح من تعدد هذه الأصناف وكثرتها ، ذلك أن الفترة التى يتحدث عنها ابن الصيرفى كانت فترة تدهور واضمحلال اقتصادى، ومع ذلك كان هناك هذا التعدد فى منتجات اللحوم والأجبان ، وهو ما يدفعنا إلى التساؤل عما كانت عليه الحال أثناء فترة الرواج والازدهار السابقة .

أما الطيور والدواجن فكانت تباع فى «سوق الدجاجين» الذى كانت تباع فيه كميات من الدجاج والأوز ، كما كانت تباع به أيضًا طيور الزينة [٢٠]. ويبدو أنه كان فى القاهرة سوق مركزى للفاكهة ، هو «دار التفاح» أو «دار الفاكهة» التى كانت الفواكه التى تنتجها البساتين المصرية والفواكه المستوردة من بلاد الشام ترد إليها . ومن هذا السوق المركزى يتم

١٧- تافور ، الرحلة ، ص٩٧ .

١٨- المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص٩٣-١٠٦ .

١٩- ابن الصيرفى، إنباء الهصر، ص١٨٧- ص٤٧٧ .

٢٠- المقريزى، المصدر السابق، جـ٢ ص٩٣- ص١٠٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

توزيع الفاكهة على أسواق القاهرة وضواحيها. وقد بنى هذا السوق بعد سنة ٧٤٠هـ ثم بنيت حوله عدة حوانيت لبيع الفاكهة التى كان الباعة يرتبونها فى شكل بديع وحولها الزهور. وكان هناك سقف من القماش يصل ما بين تلك الحوانيت لحماية الفواكه من حرارة الشمس(٢١).

وتحفل مصادر عصر سلاطين المماليك بأسماء وأخبار عدد كبير من الأسواق التى تخصصت فى بيع المواد الغذائية ، والتى انتشرت بجوار الأحياء السكانية . ولم تكن الحركة تنقطع ليلا أو نهاراً فى بعض الأسواق المقامة فى الأحياء ذات الكثافة السكانية العالية(٢٢).

أما أسواق الملابس ولوازمها فقد تنوعت ما بين الأسواق المتخصصة فى بيع الخلع والتشاريف التى كان السلطان يمنحها للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم ، مثل «سوق الشرابشيين»(٢٣) الذى كان به عدد من التجار يشترون هذه الخلع والتشاريف ويبيعونها لديوان الخاص السلطانى وللأمراء ، ومثل «سوق الحوائصيين» الذى كانت تباع به فى بداية عصر المماليك المناطق التى يتمنطق بها الجنود حول أوساطهم ، وما بين الأسواق التى كانت تباع بها الثياب المستعملة مثل «سوق الخلعيين»، والأسواق التى تباع بها لوازم الحياكة مثل «سوق الأبارين»، الذى كانت تباع به إبر الخياطة وغيرها(٢٤) كذلك كان هناك سوق متخصص فى بيع الجوخ المستورد من أوربا، والذى راج استخدامه نتيجة التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية السلبية فى عصر الجراكسة على نحو ما سنرى فى الصفحات القادمة .

كذلك كانت هناك أسواق خاصة بلوازم الجنود من الأسلحة ومعدات الركوب وما إلى ذلك ، فقد كان سوق السلاح- الذى أنشئ فى العصر الأيوبى بين القصرين- محلا لبيع أدوات القتال من الرماح والقسى والنشاب والزرديات والسيوف والخناجر وغيرها. ويتصل بهذا السوق ويقترب منه «سوق المهامزيين» الذى كانت حوانيته تبيع المهاميز التى تستخدم فى ركوب

٢١- المقريزى- الخطط جـ٢ ، ص٩٣ ، السلوك جـ١ ، ص١٨٤ ، جـ٢ ، ص٤٠٠ .

٢٢- انظر ما ذكره المقريزى عن «سوق المتعيشين»، وسوق «خط بين القصرين» على سبيل المثال (الخطط،جـ١ ص٣٣٤ ، جـ٢ ، ص٢٧-٢٨) .

٢٣- الشرابشيين نسبة إلى الشربوش، وهو لباس رأس مثلث بدون عمامة : وقد بطل استخدامه فى دولة الجراكسة- انظر الخطط ، جـ٢ ، ص٩٧- ص٩٨ ؛ ماير ، الملابس المملوكية، ص١٠١ يتبع .

٢٤- المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص٩٣- ص١٠٦ ، ص٣٤ .

الخيل. كذلك كان هناك سوق تباع به أدوات اللجم وغيرها من المعدات الجلدية التى تستخدم لركوب الخيل وغيرها من الدواب وهو «سوق اللجميين» الذى كان مجاوراً لسوق المهامزيين، وكان به عدد من صناع الطلاء والكفت (التطعيم بالمعدن) ، وصناع السروج ولوازمها [٢٥]. وفى عصر المماليك كان بالقاهرة عدد من أسواق لوازم السفر، مثل «سوق المرحلين» الذى كان يزدهر أيام موسم الحج، وكانت تباع به أدوات تجهيز الجمال التى كانت وسيلة المواصلات البرية الوحيدة للمسافات الطويلة ، وكان هذا السوق من الضخامة بحيث أنه كان يمكن تجهيز أكثر من مائة جمل فى يوم واحد منه. ويماثله فى هذا «سوق المحايريين» ، الذى كانت تباع به المحاير التى يسافر فيها الناس إلى الحجاز وبيت المقدس. وفى مرحلة متأخرة من عصر المماليك أنشئ سوقان آخران لبيع المحاير، أحدهما بسوق جامع أحمد بن طولون ، والثانى «بسوق الخيميين» . ويبدو أن تجار ذلك السوق لم يكونوا يهتمون بزبائنهم على اعتبار أن المرء لايطرق سوقهم سوى مرة واحدة فى العمر[٢٦].

أما الأسواق الى كانت تباع بها حاجات الناس اليومية ، فكانت كثيرة ومتنوعة . فقد كان هناك «سوق الصنادقيين» الذى كانت تباع فيه الصناديق والخزائن والأسرة وغيرها من المصنوعات الخشبية التى كانت أهم قطع الأثاث الذى يستخدمه المصريون فى بيوتهم فى ذلك الحين. كذلك كان هناك «سوق العنبريين» الذى أنشأه المنصور قلاون مكان أحد السجون وفاء لنذر كان قد قطعه على نفسه. وفى البداية كان هذا السوق يموج بالحركة والازدهار والرواج لأن المصريين على اختلاف مشاربهم كانوا مولعين بالعنبر ، ولكن الغش عرف طريقه إليه فى أخريات القرن الثامن الهجرى (١٤م) حتى بات اسمًا لايعنى شيئًا .

كذلك كان «سوق الشماعين» من الأسواق التى يتعامل معها المصريون فى حياتهم اليومية، على الرغم من أن هذا السوق كان يزدهر فى مواسم معينة . وكانت حوانيت هذا السوق تظل مفتوحة حتى منتصف الليل مما كان يغرى الناس باتخاذها أماكن للنزهة .

ومن البديهى أن الأسواق التى ذكرناها لاتمثل كل الأسواق التى عرفتها البلاد فى ذلك الحين ، وإنما هى أمثلة على مدى التنوع فى أنماط هذه الأسواق ، وربما يكون من المفيد أن نقرر أننا لم نقصد إحصاء هذه الأسواق، وإنما التعرف على طبيعة أسواق مصر فى ذلك الزمان .

٢٥- انظر المقريزى، الخطط ؛ جـ٢ ، ص٩٦- ص٩٧ حيث أورد عدة معلومات مفيدة عن تطور صناعة السروج فى عصر سلاطين المماليك.

٢٦- المقريزى، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٩٦- ١٠٣ .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن كثيراً من أسواق القاهرة آنذاك- وأسواق المدن الأخرى بطبيعة الحال- قد تعرضت لتغيرات نوعية ومكانية بحكم التطورات التى طرأت على المجتمع المصرى آنذاك، مما كان يؤدى إلى اندثار بعض الأسواق القديمة وظهور أسواق جديدة من ناحية ، أو إلى تغيير أسماء الأسواق نتيجة تغير نشاطها أو بسبب سكنى أبناء طائفة حرفية جديدة بها من ناحية أخرى. ومثال ذلك أن «سوق الشوايين» كان يسمى فى البداية «سوق الشرايحيين»، ولكن بعض بياعى الشواء سكنوا السوق فى أوائل القرن الثامن الهجرى فأصبح يعرف بهم . ثم تغير اسم السوق مرة أخرى إلى «سوق الغرابليين» (المغربلين) فى القرن التاسع .

كما ينبغى أن نلاحظ أن أسماء الأسواق لم تكن دائمًا مشتقة من نوع النشاط الذى يقوم به أصحاب السوق، بل كانت هناك أسواق اتخذت أسماءها من الأماكن التى أقيمت بها مثل سوق جامع ابن طولون ، وسوق الخانكاه، وسوق حارة برجوان، وسوق باب الفتوح وغيرها. كما كانت لبعض الأسواق أسماء بعض الجماعات التى سكنت مصر فى ذلك الحين، مثل «سويقة العراقيين» و«سويقة المغاربة» و«وسويقة اليهود » التى ذكر ابن دقماق أنها صارت خربة فى زمانه[٢٧]. وقد حملت بعض الأسواق أسماء أشخاص مثل «سويقة معتوق» و«سويقة ابن العجمية» و«سوق وردان» التى تنسب إلى وردان مولى «عمرو بن العاص» والتى ذكرها «ابن دقماق» ضمن أسواق الفسطاط[٢٨] كذلك كانت لبعض الأسواق فى ذلك العصر أسماء طريفة مثل «سوق البراغيث» و «سوق لحاف»[٢٩] و«سوق العياطين»[٣٠].

٢٧- تنسب «سويقة العراقيين» إلى العراقيين الذين سيرهم زياد بن أبيه من العراق (ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٦٤) . ولم يشر ابن دقماق إلى تاريخ خراب سويقة اليهود، كما أنه لم يخبرنا عما إذا كان قد تجدد غيرها أم لا (نفسه ، ص٢٢) .

٢٨- ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص١٤ ، ص٣٢- ص٣٤ .

٢٩- المصدر نفسه والجزء والصفحة نفسها .

٣٠- ذكر المقريزى فى خططه (جـ٢ ، ص١٠٦) أن السبب فى تسمية السوق بهذا الاسم يرجع إلى أن ناظر الخاص السلطانى فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون طرح على تجار هذا السوق كمية من عسل القصب(أى أجبرهم على شرائها بالسعر الذى يحدده)، وكانت الأسعار التى طلبها باهظة فوقف التجار فى طريق موكب السلطان «وعيطوا » حتى أعفاهم ، وسمى السوق منذ ذلك الحين باسم سوق العياطين. وفى ذلك الوقت كانت كلمة «عياط» عند المصريين تعنى الصياح .

ويبدو من كلام ابن دقماق والمقريزى[٣١] عن أسواق ذلك العصر أن هذه الأسواق كانت تقام فى أماكن يراعى بها أن تكون للسوق منافذ متعددة حتى يسهل على رواده أن يدخلوا إلى السوق ويخرجوا منه. كما يتضح أيضًا أنه كانت لبعض الأسواق مخازن خاصة بها . كذلك عرفت الأسواق المصرية فى عصر المماليك نظام الصيارفة ، الذين كانت مهمتهم استبدال العملات وتغييرها لرواد الأسواق ، فقد ذكر المقريزى أن الصيارفة كانوا يجلسون فى حوانيتهم طيلة النهار على باب سوق السلاح[٣٢].

وإلى جانب الأسواق عرفت الحياة المصرية آنذاك الباعة الجائلين الذين كان بعضهم يفترشون أرض الأسواق ببضائعهم، على حين كان البعض الآخر يتجولون بما يحملونه من بضاعة فى شوارع وأزقة المدن المصرية .

أما الباعة الذين كانوا يفترشون أرض الأسواق ببضائعهم فقد عرفتهم مصادر تلك الفترة باسم «أرباب المقاعد» . وكان أولئك يبيعون مختلف البضائع من المأكولات والمشروبات والفواكه والخضروات أو الخواتم والأساور وغيرها من لوازم زينة النساء، ففى سوق السلاح كان أولئك الباعة من أرباب المقاعد يفترشون السوق أمام حوانيت بيع السلاح وحوانيت الصيارفة . وإذا ما أقبل الليل أشعلوا المشاعل التى تضفى على المكان جواً بديعًا كان يغرى الناس باتخاذ هذا السوق مكانًا للنزهة فى أمسيات الصيف. وفى القصبة – التى كانت الشارع التجارى الرئيسى فى القاهرة آنذاك- كان أرباب المقاعد يجلسون على طول الشارع «... بأطباق الخبز وأصناف المعايش...»[٣٣].

وقد وجد بالقاهرة فى ذلك العصر سوق بأكمله خصص لهذا النوع من الباعة الجائلين وهو «سوق القفيصات» الذى كان الباعة يجلسون فيه، تجاه القبة المنصورية ، على تخوت عليها أقفاص صغيرة (قفيصات) من الحديد، وقد شبك عليها الخواتم والفصوص، وأساور النساء وخلاخيلهن وغير ذلك، وكان أولئك الباعة يستأجرون الأرض التى يجلسون عليها من المشرف

٣١- ابن دقماق ، المصدر السابق، جـ٤ ص٣٢ يتبع؛ المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص٩٤ .

٣٢- المقريزى، الخطط، جـ٢ ص٩٦ .

٣٣- المصدر نفسه، جـ٢ ، ص٩٣- ص٩٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على المارستان (المستشفى) المنصورى الذى كان السوق من أوقافه. وفى فترة لاحقة بنى المشرف على المارستان خيمة كبيرة لكى يستظل بها أصحاب القفيصات ، ثم نقل هذا السوق إلى مكان جديد بالقرب من الصاغة سنة ٨٣٣هـ[٣٤].

ويبدو من كلام المقريزى أن المنافسة بين أولئك الباعة من «أرباب المقاعد» من جهة وأصحاب الحوانيت المقامة فى الأسواق من جهة ثانية، كانت تشتعل أحيانًا لدرجة تتطلب تدخل الدولة من آن لآخر. إذ يذكر ما نصه «... كل قليل يتعرض لهم الحكام لمنعهم وإقامتهم من الأسواق لما يحصل منهم من تضييق الشوارع وقلة بيع أرباب الحوانيت...»[٣٥].

أما الصنف الثانى من الباعة الجائلين فكانوا يطوفون شوارع المدن وأزقتها ينادون على بضائعهم كما هو الحال اليوم. ويطوفون فى الأماكن البعيدة عن الأسواق فتخرج إليهم النسوة من بيوتهن للشراء، كما كان بائعو الأقمشة والدلالات يدخلون البيوت لعرض بضائعهم على ربات هذه البيوت[٣٦].

وقد ذكر تافور أنه شاهد فى شوارع القاهرة الباعة وهم ينادون على كافة أصناف البضائع من مأكولات أو فاكهة[٣٧].

كذلك كان أهل المناطق الريفية المجاورة للمدن يفدون إلى أسواقها ببضائعهم من منتجات الريف التى يحملونها على ظهور دوابهم ويعودون إلى قراهم بعد بيعها . وفى فترات الاضطراب كان سكان المناطق الريفية المجاورة للقاهرة يحجمون عن الحضور بمنتجات حقولهم إلى أسواقها خوفا من أن يستولى عليها فرسان المماليك أو الأعراب أو قطاع الطرق[٣٨].

وكان من الطبيعى أن تخضع الأسواق لرقابة الدولة التى اتخذت عدة أشكال ، منها أولئك الموظفون المسئولون عن مراقبة الأسواق ، ومنها الضرائب التى كانت تفرض على أرباب الأسواق، كما تدخلت الدولة من آن لآخر لتنظيم الأسواق وتخطيطها .

٣٤- المصدر نفسه، جـ٢ ص٩٣ يتبع.

٣٥- المصدر نفسه، جـ٢ ، ص٩٣- ص٩٥ .

٣٦- ابن الحاج، المدخل ، جـ١ ، ص١٠٢- ص١٠٣ .

٣٧- تافور ، الرحلة، ص٩٧-٩٨ .

٣٨- ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣ ، ص٦ ص١٢٦ ، جـ٥ ، ص٦٧ ؛ قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى، ص٦١-٦٣ .

فقد كان لكل طائفة من أرباب الأسواق عريف، وكان أولئك العرفاء هم الواسطة بين الدولة من ناحية «وأرباب البضائع» من ناحية أخرى. ويبدو أن عرفاء الأسواق كانوا يخضعون لإشراف المحتسب الذى كان يشق فيما ينقلونه إليه [٣٩]، كذلك كانت الدولة تتقاضى ضريبة معينة من عرفاء الأسواق، إذ يذكر ابن تغرى بردى[٤٠] أن السلطان الناصر محمد بن قلاون ألغى فى سنة ٧٢٠ هجرية ضريبة كانت تؤخذ من عرفاء الأسواق. وفى وسعنا أن نستنتج من صمت مصادر ذلك العصر عن أصحاب هذه الوظيفة، أن عرفاء الأسواق فقدوا أهميتهم بمرور الوقت .

وذكر القلقشندى وظيفة أخرى هى ، «نظر دار الضيافة والأسواق» ، ويتضح من كلامه أن صاحب هذه الوظيفة لم تكن له سلطة الإشراف على جميع الأسواق، وإنما كان مسئولا عن الأسواق التى تتبع الديوان السلطانى ، أى أن الضرائب المجباة منها من حق الديوان السلطانى، كما كان هذا الموظف يشرف على وجوه إنفاق إيرادات هذه الأسواق[٤١]. أما الأسواق التى لم تكن تابعة للدولة فكانت تدخل ضمن إقطاعات الأمراء، أو ضمن أوقاف المدارس والجوامع والمارستان ، وعلى أية حال فقد أورد لنا المقريزى أسماء بعض من تولوا وظيفة نظر الضيافة والأسواق[٤٢].

أما الموظف الذى كثيرا ما ارتبط اسمه بالأسواق فهو المحتسب الذى كان له الإشراف الفعلى على الأسواق، وكانت وظيفة الحسبة من الوظائف الجليلة فى ذلك العصر فقد كانت تأتى فى المرتبة الخامسة بين الوظائف الدينية. ولم يكن يتولاها فى أوائل عصر المماليك إلا وجهاء الناس وأعيانهم من المتعممين «... لأنها خدمة دينية... »[٤٣].

٣٩- المقريزى،إغاثة الأمة بكشف الغمة (نشر الدكتور جمال الدين الشال)، ص٢٨ .

٤٠- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩ ، ص٤٤-٤٦ .

٤١- القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص٢٣ .

٤٢- المقريزى، السلوك، صبح الأعشى، جـ٤ ، ص٢٣ .

٤٣- عن شروط المحتسب انظر ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة، ص٧ وعن تطورها منذ العصر الفاطمى حتى عصر سلاطين المماليك انظر القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٥ ص٤٥١- ص٤٥٢؛ السبكى معيد النعم ومبيد النقم، ص٩٢ ، وعن مهام المحتسب انظر القلقشندى، المصدر السابق، جـ١١ ، ص٦٨-٦٩ . حيث يورد وثيقة من العصر الأيوبى تحدد مسئوليات المحتسب التى لانعتقد أنها تغيرت كثيراً فى عصر المماليك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت هناك ثلاثة مناصب للحسبة فى مصر آنذاك هى: حسبة القاهرة، وحسبة الفسطاط وحسبة الإسكندرية. وكان محتسب القاهرة هو أعلى الثلاثة قدراً، إذ كان يحضر المواكب السلطانية ويجلس مع السلطان فى دار العدل ، كما كان نفوذه يشمل القاهرة والوجه البحرى. أما محتسب الفسطاط، فكان يشرف على الوجه القبلى ، بينما اقتصر نفوذ محتسب الإسكندرية على مدينته . وفى بعض الأحيان ، ولاسيما فى أواخر عصر المماليك، كان من الممكن أن يجمع شخص واحد بين حسبة القاهرة وحسبة الفسطاط[٤٤].

وفى الشطرالأخير من ذلك العصر صار من الممكن أن يتولى الحسبة أحد المماليك[٤٥]. كذلك صار من المألوف أن يجمع شخص واحد بين الحسبة وغيرها من الوظائف ، كما صارت وظيفة الحسبة تشترى بالرشوة وبعد أن كان يتولاها الفقهاء وأولاد الناس صار المماليك يتنافسون عليها ويسعون إلى توليها بالمال « ... وهذه الأموال العظيمة التى سعى بها هؤلاء ما يستخلصونها إلا من أضلاع المسلمين والأمر لله »[٤٦].

ويهمنا فى هذا المقام أن نوضح أن المحتسب كان مسئولا عن الأسواق من النواحى الصحية والسعرية، كما كان مسئولا عن حالات غش البضائع والسرقة فى الموازين والمكاييل. وكان له مجموعة من الأعوان يطوفون الأسواق فيما يشبه الحملات التفتيشية التى نسمع عنها اليوم، للكشف على نظافة القدور والأوانى التى تباع فيها الأطعمة ، ومعاقبة من يغش البضائع ، ومصادرة المأكولات الفاسدة وإعدامها ، على نحو ما حدث سنة ٧٤٢هجرية حين ضبط المحتسب أحد البواردية (تجار الطيور المحفوظة بالتمليح والتى كانت من المأكولات الشائعة بمصر حينئذ) ، وكان يخفى كميات كبيرة من الطيور الفاسدة فعاقبه المحتسب وشهره كما أعدمت الكمية المضبوطة [٤٧].

٤٤- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ص٢٠٧ ص٣٤٩، السلوك جـ٤ ، ص٥٦٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة جـ١٦ ، ص٢٤٩ .

٤٥- يذكر ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة : جـ١٦ ، ص١٥٢) أن الدعو «تنم من نخشباى، المعروف برصاص» تولى الحسبة سنة ٨٦٥هـ «فكان أول تركى ولى الحسبة بالبذل.. ولم نسمع ذلك قبل تاريخه لاقديما ولاحديثا..» وهو ما يكشف عن أن الرشوة قد أصبحت هى السبيل لهذه الوظيفة الهامة.

٤٦- ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص١٦٥- ص٢٣٣ ، جـ٥ ، ص٢٧ ، انظر كذلك السخاوى، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص٢٦١ ؛ ابن الصيرفى ، إنباء الهصر، ص٤٢- ص٤٣ .

٤٧- المقريزى، الخطط: جـ٢ : ص٩٦ ، السلوك ،جـ٢ ص٦١٣ .

وتبدو أهمية هذه الوظيفة فى استقرار الأسواق واضحة من خلال الحقيقة القائلة بأن السلطان «المؤيد شيخ» تولى الحسبة بنفسه سنة ٨١٨هـ لمواجهة ارتفاع الأسعار[٤٨]: بيد أن هذه الوظيفة كانت لها هيبتها ومكانتها فى بداية عصر المماليك : ثم فقدت رونقها وسطوتها فى خضم التدهور العام الذى كانت البلاد تعانى منه فى عصر الجراكسة كما سنرى فيما بعد.

وبالنسبة للمجتمع كان المحتسب يحتل مكانة هامة ويعد مسئولا فى نظر الناس عن حالة الأسواق. فإذا ما كانت الأسعار معقولة والأسواق مستقرة كان المحتسب يلقى رضاء الناس عنه وربما يحملون بغلته وهو راكب عليها ويصبون عليه ماء الورد ويشعلون له الشموع والقناديل على طول الطريق ، على حين تقف الفرق الموسيقية الشعبية والمطربون الشعبيون يحيونه بالأغنيات ويزفونه حين يمر بهم[٤٩] أما إذا كان المحتسب دون مستوى المسئولية فإنه كان يتعرض لكافة ضروب المهانة ، وقد يلزم بيته فترة طويلة خوفا من غضب الناس الذين ينسبون إليه سوء الأحوال وغلاء الأسعار [٥٠].

ولم يكن المحتسب وغيره من الموظفين المسئولين عن الأسواق عم التعبير الوحيد عن سلطة الدولة ورقابتها على الأسواق فى عصر المماليك، بل إن الضرائب على كافة أنواعها كانت تكشف عن مدى تدخل الدولة فى شئون الأسواق وأربابها ، وتكشف عن حقيقة العلاقة بين الدولة التى كانت تفرض هذه الضرائب، وأرباب الأسواق وروادها الذين كانوا جميعا من رعايا هذه الدولة، والواقع أن هناك كثيراً من الضرائب التى كانت تفرض وتلغى، أو تزيد وتنقص دون سبب واضح . وقد زاد معدل هذه الضرائب فى عصر الجراكسة[٥١]. والواقع أننا لانقصد

٤٨- العينى، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد، ص٣٤١- ص٣٤٢ .

٤٩- المقريزى ، السلوك جـ٢ ، ص٢٣٩ يتبع.

٥٠- ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، جـ٩ ، ص٤٣٥ ؛ العينى ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، (مخطوط) جـ٢٥ ، ق٤١٣- ص٤١٤ ؛ المقريزى، السلوك، جـ٣ ، ص٣٩٥ .

٥١- انظر على سبيل المثال ابن تغرى بردى (النجوم جـ٨ ، ص٤٦) حيث يتحدث عن ضريبة نصف السمسرة التى كانت تفرض على كل من باع شيئا بما قيمته ٢٪ من ثمن البيع ، وكذلك المقريزى(السلوك جـ٣، ص٢٤٤) حيث يتحدث عن ضرائب سوق الجمال، والسخاوى التبر المسبوك ، ص٢٦٨) عن «مكس=

حصر هذه الضرائب ، لأن هذا يتطلب أن نفرد له بحثا مستقلا ، وإنما نهدف إلى توضيح أحد وجوه سيطرة الدولة فى ذلك الزمان على الأسواق .

ومن ناحية أخرى ، ارتبطت الأسواق بالكثير من عادات المصريين الاجتماعية، كما كانت تعبيرا عن جوانب هامة من حياتهم اليومية .

ففى داخل كل سوق من هذه الأسواق كانت تقام مجموعة من الحوانيت. ولكن صغر مساحة الحانوت كان يستدعى بناء مصطبة أمام كل حانوت يجلس عليها البائع لمساومة المشترين أو للحديث مع زواره . وقد أثار استياء أحد المعاصرين أن أصحاب الدكاكين فى الأسواق كانوا يمازحون بعضهم بعضا. وقد يجلس البعض فى الدكاكين التى تفد عليها النساء لشراء حاجياتهن. وقد لاحظ أن إقبال النساء يكثر على دكاكين باعة القماش(٥٢).

وفى ذلك العصر كان من عادة النساء أن تخرجن إلى الأسواق لشراء حاجياتهن وربما يمازحن الباعة أثناء المساومة على الأسعار. وقد يحدث أن تأتى المرأة بصحبة زوجها إلى الدكان ثم يتركها ويذهب إلى مكان اخر، وغالبا ما كانت النساء تشترى لأزواجهن ما يحتاجونه من ملابس(٥٣).

كذلك كانت النساء تمثلن غالبية رواد الأسواق فى بعض المواسم مثل خميس العهد الذى كان المصريون جميعًا يحتفلون به على الرغم من كونه عيداً مسيحيًا . وفى هذا اليوم كانت النساء تخرجن إلى الأسواق ، التى تزدحم بهن، لشراء البخور والخواتم . ويذكر ابن الحاج أنه لايمكن لأحد أن يمر بالسوق فى هذا اليوم إلا بمشقة لزحمة النساء «ولو أن رجلا منع أهله من الخروج فى ذلك اليوم لوقع التشويش بينهما، وقد يئول الأمر إلى الفراق...»(٥٤).

= الجلود » الذى كان يؤخذ بسوق النعال، أيضا ابن إياس (بدائع الزهور، جـ٤ ، ص٢٥- ص٧٧، ص٣٠٤- ص٣٠٥ . جـ٥ ، ص١٧) حيث يتحدث عن ضريبة جديدة كان يتعين على التجار فى الأسواق أن يؤدوها إلى المحتسب مع بداية كل شهر.

٥٢- ابن الحاج، المدخل، ج٤ ص٢٢ .

٥٣- المصدر نفسه ، جـ١ ص٢٤٥ ، جـ٢ ص٥٥، جـ٤ ، ص٢٢ .

٥٤- المصدر نفسه، جـ٢ ، ص٥٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والجدير بالذكر أن بعض المعاصرين كانوا يرون فى خروج النساء إلى الأسواق أمراً منكراً ، وكثيراً ما ثارت المناقشات فى الدوائر الحاكمة بحضور الفقهاء والقضاة لمنع النساء من ارتياد الأسواق لاسيما فى أوقات الأزمات الاقتصادية أو الأوبئة . وهو ما يكشف عن المفاهيم الأخلاقية التى كان أهل ذلك الزمان يفسرون بها أسباب الكوارث والشدائد[٥٥].

ومن مظاهر ارتباط الأسواق بعادات المصريين وسلوكياتهم الاجتماعية أن الناس كانوا يتوجهون صباح كل يوم جمعة إلى «سوق الدجاجين» بالقاهرة، وهو سوق كانت تباع به الدواجن بكميات كبيرة كما كانت تباع طيور الزينة من العصافير الملونة وغيرها من الطيور المغردة ، وهناك يشترى الناس لأطفالهم العصافير لكى يطلقوها حبًا فى عمل الخير لأن الناس كانوا يعتقدون أن العصافير تسبح بحمد الله[٥٦].

كذلك ارتبط «سوق الحلاويين» بعادات المصريين ومواسمهم. ويبدو من اسم هذا السوق أنه كان مخصصا لبيع الحلوى المصنوعة من السكر . ويذكر المقريزى أن هذه الحلوى كانت تصنع على هيئة الحيوانات من قطط وسباع وغيرها . وقد عرفت هذه التماثيل السكرية باسم العلاقات (مفردها علاقة) لأنها كانت تعلق بخيوط على أبواب الحوانيت، ويتراوح وزن كل منها بين ربع رطل وعشرة أرطال. وكان هذا السوق يزدهر فى مواسم أول رجب ونصف شعبان ، وعيد الفطر الذى كان الاستعداد له يبدأ من منتصف شهر رمضان . وكان الناس يحرصون على شراء هذه التماثيل السكرية- التى تمتلئ بها أسواق القاهرة والأقاليم فى هذه المواسم- لأطفالهم . كذلك كان الناس يهادون الأقارب والأصهار بهذه الحلوى ، لاسيما إذا كانت المصاهرة جديدة، أو إذا لم يكن العريس قد دخل بعروسه. وفى البيوت كان لابد من شراء هذه الحلوى لأهل المنزل[٥٧] على نحو ما يحدث الآن فى احتفال المولد النبوى.

وكان «سوق الشماعين» الذى تخصصت حوانيته فى بيع الشموع بأنواعها المختلفة، من الشموع الموكبية والطوافات والفوانيس يزدهر أيضًا فى شهر رمضان ، وفى غطاس النصارى. والواقع أن هذا السوق- الذى يرجع تاريخ إنشائه إلى عصر الدولة الفاطمية- يمدنا بصورة

٥٥- قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى، ص٧١ .

٥٦- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص٩٣ يتبع .

٥٧- المصدر نفسه، والجزء والصفحة ؛ ابن الحاج، المدخل، ص٢٩٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من صور الحياة الاجتماعية فى مصر أيام المماليك. ففى موسم شهر رمضان ، وغطاس النصارى، كانت تباع فى هذا السوق كميات كبيرة من الشموع الموكبية التى كانت الواحدة منها تصل إلى عشرة أرطال ، بل إن بعض الشموع كانت تصل فى وزنها إلى أكثر من قنطار. وكان الناس يقبلون على حوانيت هذه السوق التى تظل مفتوحة حتى منتصف الليل وقد حولت الشموع ليله إلى نهار، لشراء الشموع أو تأجيرها . ذلك أن الشموع الضخمة ، التى كانت تؤجر، كانت تحمل على عجلات ويجرها الصبيان فى موكب لصلاة التراويح «يعجز البليغ عن حكاية وصفه ..». ومن المهم أن نشير إلى أن تقدم صناعة الشموع قد تمثلت فى هذا السوق . كما أن حالة الرخاء التى عاشها المصريون فى عصر المماليك البحرية، من ناحية أخرى، قد انعكست على اهتمامهم بصلاة التراويح وشراء الشموع الضخمة ، أو استئجارها لهذا الغرض، وهى صورة اختفت فى أواخر ذلك العصر نتيجة التدهور الاقتصادى كما سنرى .

وعلى الجانب الآخر ، يكشف «سوق الشماعين» عن جانب معتم من الحياة المصرية فى ذلك العصر، ففى هذا السوق كانت بنات الليل تجلسن فى الحوانيت حتى ساعة متأخرة من الليل وقد ارتدين زيًا مميزاً هو الملاءات الطرح والسراويل الحمراء. وقد عرفت أولئك البغايا باسم «زعيرات الشماعين»(٥٨).

ونستطيع من خلال المعلومات التى أمدنا بها المقريزى عن «سوق الجوخيين» أن نتعرف على بعض التطورات التى جرت على الحياة الاجتماعية فى مصر آنذاك ، فقد كان التجار فى هذا السوق يبيعون الجوخ المستورد من أوربا لكى يستخدموه فى صناعة المقاعد والستائر والسروج . ذلك أن المصريين لم يكونوا يلبسون الجوخ سوى فى الأيام المطيرة فوق ثيابهم لكى يقيهم مياه المطر. ولكن تدهور الأحوال الاقتصادية ، وارتفاع أثمان الثياب الحريرية وغيرها من الثياب الفاخرة، جعلا المصريين يتخلون عن نظرتهم تلك، ويقبلون على ارتداء الملابس الجوخية ، مما أدى إلى إزدهار «سوق الجوخيين»(٥٩).

وتكشف دراسة الأسواق أيضًا عن أنه لم يكن من عادة المصريين بشكل عام أن يعدوا الطعام فى منازلهم ، بل إن العامة كانوا يتناولون طعامهم خارج منازلهم التى يبدو أنها كانت

٥٨- المقريزى، الخطط ، جـ٢، ص٩٤ . يتبع.

٥٩- المصدر نفسه .

منازل متواضعة فى الغالب (إذا ما استثينا بيوت الأثرياء التى حفظ الزمن آثارها). وانتشرت فى القاهرة آنذاك عدة آلاف من المطاعم التى كان المصريون يأكلون فيها[٦٠]. والحقيقة أنه قد وجد فى ذلك العصر نوعان من المطاعم : المطابخ التى كان الطباخون يعدون فيها الأطعمة التى يبيعونها لحسابهم ، وحوانيت «الشرائحيين»، أو «الشرايحية» التى كان الناس يرسلون إليها ما يريدون طهيه من لحوم وخضروات وغيرها ، ويقوم الشرايحية بطهيها بعد خلطها بالتوابل وغيرها ثم يرسلونها مع صبيانهم إلى المنازل فى قدرة مغطاة ، وذلك مقابل أجر معين يأخذونه من زبائنهم[٦١].

وإلى جانب هذه المطاعم كان هناك عدد كبير من الباعة يغدون فى الشوارع جيئة وذهابا حاملين المواقد والنيران ، وأصباق الطعام المعدة للبيع على حين ترى سواهم حاملين صحاف الفاكهة[٦٢]. كذلك كان بعض الباعة يفترشون الأرض فى الأسواق والشوارع وبجوار الجوامع وأمامهم طبليات عليها شتى صنوف الطعام التى يبيعونها للناس [٦٣].

أما الخبز فكان منه ما يباع جاهزاً فى الأسواق، ومنه ما يعد فى البيوت ثم يرسل إلى الأفران . وكان بعض الناس يخبزون فى الفرن مشاهرة (أي يدفعون أجر الخبز كل شهر)، على حين كان البعض الآخر يدفع نقداً عن كل مرة. والجدير بالذكر أن «االخباز» فى ذلك العصر كان يعنى من يصنع الخبز لبيعه فى السوق ، أما «الفران» فهو الذى يخبز الخبز الخاص بالبيوت لقاء أجر معلوم[٦٤].

وكانت المياه تجلب من نهر النيل ، ويحملها السقاءون على ظهور الجمال، ويمرون بها على بيوت عملائهم لتفريغها فى الأزيار وغيرها من الأوانى. وكان الماء يباع بالقربة، وربما يأخذ السقاءون الأجر مقدما ويرسلون صبيانهم بقرب المياه إلى المنازل . وكان من المناظر المألوفة والتى تسترعى انتباه كل غريب فى شوارع القاهرة ، ذلك العدد الكبير من السقائين الذين يروحون ويجيئون لبيع المياه التى يحملونها على ظهور الجمال والحمير، أو فى القرب على ظهورهم وينادون عليها بالصلاة على النبى حتى يفسح الناس لهم الطريق.

٦٠- سعيد عاشور ، المجتمع المصرى، ص٨٧ .

٦١- ابن الحاج ، المدخل ، جـ٣ ص١٨٦- ص١٨٩ .

٦٢- تافور ، الرحلة. ص٩٧ .

٦٣- المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ص٩٣ يتبع؛ ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ص٧٩-٨٠ .

٦٤- تافور ، المصدر السابق، ص٩٨ ؛ ابن الحاج ، المصدر السابق جـ٤ ، ص١٨٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك كانت الأسواق تعتبر بمثابة «مراكز إخبارية واجتماعية»، على حد تعبير أحد الباحثين المعاصرين[٦٥] فالواقع أن السوق كان بؤرة اجتماعية هامة نظراً لأن عدداً كبيراً من الناس يوجدون فيه، إما كمشترين وزبائن للسوق، وإما بقصدالنزهة كما أوضحنا من قبل، وإما باعتبارهم من أصحاب الحوانيت أو غيرهم من أرباب السوق . ومن الطبيعى أن يتداول الناس الأخبار، ويتناقشوا حول ما يشغلهم من أمور سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية . ومن ثم فإننا يمكن أن نقول إن السوق كان مركزاً من مراكز تكوين الرأى العام على حد تعبيرنا المعاصر .

ومما يؤكد الفرض الذى طرحناه أن مصادر عصر المماليك التاريخية كثيراً ما تحدثنا عن النداء فى الأسواق لسبب أو لآخر[٦٦]، فقد كان المنادون يقومون بالدور الذى تقوم به وسائل الإعلام فى حياتنا الحالية من حيث توصيل أوامر الحكومة أو قراراتها إلى أفراد الرعية . والانطباع الذى تتركه أخبار هذه النداءات هو أن المنادين كانوا يختارون أماكن التجمع ومنها الأسواق لإعلام الناس بمضمون النداء . كذلك تتحدث هذه المصادر عن تكرر النداء فى الفترة الأخيرة من ذلك العصر، بألا يتحدث الناس فى الأسواق فى أمور الدولة وأخبار الحكام وإلا تعرضوا للعقاب[٦٧].

ومن ناحية أخرى، كانت أسواق ذلك العصر تعكس جوانب متعددة من العلاقة بين الحكام والرعية، فقد كان لابد من الحصول على ترخيص رسمى من الدولة مقابل مبلغ من المال لبناء الحوانيت والمصاطب وإقامة السقائف فى الأسواق[٦٨]. كذلك كان الوالى يلزم الباعة فى الأسواق بكنس الشارع ورشه بالمياه ، ويعاقب كل من يمتنع عن ذلك، وكان على كل حانوت أن يعلق قنديلا يضئ طوال الليل، كما كان على أصحاب الحوانيت فى الأسواق أن يزينوا

٦٥- سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص٨٧ .

٦٦- انظر على سبيل المثال: المقريزى، السلوك ، جـ٣ ، ص٢٣٠؛ العينى، عقد الجمان (مخطوط) ق١٨٣ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ١٤ ، ص٢٦- ص٢٩ ؛ ابن الصيرفى ، إنباء الهصر، ص٢٠٥ ، ص٣٣٣؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٢٠ ، ص١٠٥- ص١٠٦ .

٦٧- ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ٣ - ص١٥ ، جـ٥، ص٦ - ص٧ .

٦٨- المصدر نفسه، جـ٣ ، ص١٢٧، جـ٥ ، ص١٤ .

حوانيتهم فى الأعياد والاحتفالات العامة، فضلا عن تظاهرات استقبال سلاطين المماليك التى كان يفرض على الجميع المشاركة فيها[٦٩].

وكان طبيعيًا فى ذلك العصر- كما هو الحال الآن- أن يؤدى أصحاب الحوانيت فى الأسواق الصلاة أمام حوانيتهم ، كما كان من المألوف أن تفرش الحصر والبسط أمام الحوانيت لأداء الصلاة[٧٠]. وكان أرباب الأسواق يؤدون صلاة الجمعة فى السوق مما أثار استنكار بعض المعاصرين[٧١].

إلا أن هذه الصورة الزاهية الألوان للحياة المصرية كما تعكسها الأسواق خلال الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك لم تلبث أن تلاشت بفعل عوامل التدهور الى عانى منها المجتمع المصرى منذ أواخر القرن الثامن الهجرى وأوائل القرن التاسع (١٤ ، ١٥م) . ونجد فى مواجهتنا سؤالا يفرض نفسه عن عوامل تدهور الأسواق . ومن الضرورى أن نوضح منذ البداية أن بعض عوامل التدهور كانت نتائج فى حد ذاتها، وهو ما يشير إلى أن مشكلة السببية فى التاريخ مشكلة صعبة الحسم، إذ إن استمرارية العملية التاريخية تجعل من الصعب تتبع جذور هذه العوامل من ناحية ، أو الفصل بين العوامل والنتائج من ناحية أخرى ، بيد أن هذا لايمنع من أن نحاول رسم صورة صادقة- بقدر الإمكان - لهذا التدهور والأسباب التى أدت إليه.

ولقد تأثرت حركة أسواق مصر بعدة عوامل متباينة فى أواخر ذلك العصر ، وكان لبعض تلك العوامل آثارها السلبية على حركة الأسواق التى انكمش حجمها وتوقفت فيها حركة البيع والشراء وغير ذلك من مظاهر الكساد. ويكفى للدلالة على ذلك أن نشير إلى ما قاله المقريزى فى هذا الشأن ونصه: «... كان بمدينة القاهرة ومصر وظواهرها من الأسواق شئ كثير جداً قد باد أكثرها ، وكفاك دليلا على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمقس اثنان وخمسون سوقا أدركناها عامرة فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتا، وهذه من جملة ظاهر القاهرة الغربى، فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر...»[٧٢].

٦٩- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤ ، ص٥٧-٥٨ ؛ المقريزى، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص١١ ، السلوك جـ٤ ، ص٨٧٠- ص٨٧٥ .

٧٠- المقريزى، السلوك، ج٦٥١ .

٧١- ابن الحاج ، المدخل، جـ٢، ص٢٨٧ .

٧٢- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ص٦٥١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الممكن أن نفسر كلمات المؤرخ الكبير فى ضوء الحقيقة القائلة بأن مصر شهدت هبوطًا كبيراً فى عدد السكان منذ منتصف القرن الرابع عشر، وقد انعكس هذا على أسواق البلاد، من حيث عددها وحركة البيع والشراء بها، فقد ذكر المقريزى أيضا أن كثيراً من أسواق القاهرة التى شهد بنفسه مدى رواجها تقلصت بعد القرن الخامس عشر إلى مجرد عدة حوانيت لاتزيد عن أصابع اليد الواحدة. فقد آل أمر «سوق الحوائصيين» مثلا، إلى بيع الطواقى التى يلبسها الصبيان . كذلك تدهور «سوق الشماعين» ، ولم يتبق منه فى أربعينيات القرن التاسع الهجرى(١٥م) سوى خمسة حوانيت . وهناك أمثلة أخرى كثيرة يسوقها المقريزى فى خططه على مدى التدهور الذى أصاب أسواق مصر آنذاك[٧٣] .

والواقع أن هبوط عدد السكان فى حد ذاته ، كان نتيجة لكثير من العوامل المتشابكة التى انعكست أيضا على الأسواق التى اختفى بعضها وانكمش حجم البعض الآخر ، كما قلت حركة البيع والشراء وارتفعت الأسعار ، فضلا عما نتج عن ذلك بالضرورة من كساد .

وتتصل بعض العوامل والأسباب المؤثرة فى حركة الأسواق بالدولة نفسها، من حيث مدى الاستقرار السياسى، ومن حيث الإجراءات الاقتصادية المختلفة، وحالة الأمن فى البلاد، والنظام النقدى، وغير ذلك من الأسباب .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الاضطراب السياسى الداخلى لم يكن ظاهرة قاصرة على عصر الجراكسة فقط، وإنما كان ظاهرة عامة طوال ذلك العصر. وتفسير ذلك فى تصورنا هو أن المفاهيم السياسية لدولة سلاطين المماليك والتى جعلت العرش من حق الجميع قد أدت إلى تنافس أمراء المماليك على عرش السلطنة الذى اعتبروه حقا للأقوى. وبين الآونة والأخرى كان بعض الأمراء الطموحين يترجمون طموحهم إلى عمل عسكرى فى شوارع القاهرة التى تتحول إلى ميدان قتال لجيوش المماليك المتحاربة ، وقد تمتد على مدى عدة أيام تضطرب أثناءها الأحوال ، وتموج البلاد بالفوضى والفزع . وسرعان ما تخلو الطرقات من روادها ، وتقفر الأسواق . ويهجرها الباعة لتكون ميدانا لقتال فرسان المماليك ومعاركهم الدموية: وتحفل مصادر ذلك العصر بالأمثلة التى تؤكد ذلك، فقد حدث، على سبيل المثال، أن أغلق التجار

٧٣- المقريزى ، الخطط، جـ٢ ص٩٣ - ص١٠٦ .

حوانيتهم عدة مرات فيما بين سنة ٧٨١هـ وسنة ٧٨٣ هـ، أثناء النزاع بين الأميرين برقوق وبركة حول العرش[٧٤].

بيد أن هذه الحوادث العنيفة زاد معدل وقوعها فى الشطر الأخير من العصر ، إذ كانت مثل هذه الحوادث فى عصر البحرية مرهونة بتصارع الأمراء الكبار حول عرش البلاد فى الغالب. ولكن نظام تربية المماليك الصارم..[٧٥] كان يكفل للسلاطين والأمراء السيطرة القوية على مماليكهم. وساعدهم على ذلك مواردهم التى وفرتها الزراعة المزدهرة والتجارة المربحة . ومنذ أواخر عصر الدولة الأولى بدأ شراء المماليك بعد سن البلوغ ، وعرف أولئك المماليك فى مصطلح ذلك العصر باسم «الجلبان» أو «الأجلاب». وقد أدى ذلك إلى انهيار نظام تربية المماليك الذى كان يشكل ركنًا من أركان النظام السياسى آنذاك ، إذ إن رابطة الأستاذية ، التى كانت تربط بين المماليك وأستاذهم (سيدهم) الذى أشرف على تربيتهم منذ نعومة أظفارهم، قد انهارت كما تفككت عُرى رابطة الخشداشية التى كانت تجمع بين المماليك من أبناء الطائفة الواحدة . كذلك رفع الحظر على نزول المماليك من ثكناتهم فى القلعة والسكن بالقاهرة منذ عصر السلطان الظاهر برقوق فى أواخر القرن الرابع عشر ، وكانت النتيجة أن ضعفت الرقابة عليهم ، وقلت فرصة السيطرة على حركتهم .

وفى الشطر الثانى من عصر سلاطين المماليك زاد معدل التدهور السياسى الداخلى بفعل النفوذ المتنامى للمماليك الجلبان وعدم قدرة السلطان والأمراء على ردعهم . ومن ثم تكررت حوادث الشغب والاضطراب التى كانوا يثيرونها ، فضلا عن حوادث نهب الأسواق وخطف البضائع والاعتداء على الناس فى الشوارع والأسواق حتى أمست تلك الحوادث بمثابة النغمة الدالة فى حياة المصريين آنذاك . وكانت النتيجة الطبيعية لمثل تلك الحوادث دائمًا أن يسرى الفزع فى النفوس ، وتضطرب البلاد وسكانها بالفوضى والخوف ، وتتوقف بالتالى حركة البيع والشراء وتغلق الأسواق .

ولعل من المفيد أن نورد بعض الأمثلة ذات الدلالة فى هذا المجال. ففى سنة ٧٦٨ هجرية (١٣٦٨م) حدث صراع بين «السلطان الأشرف شعبان» و«الأمير يلبغا» الذى لجأ إلى تولية

٧٤- المقريزى، السلوك ، جـ٣ ، ص٣٥٢- ص٣٥٣ ، ص٣٨٦ ، انظر كذلك ابن ايبك ، كنز الدرر، جـ٨ ، ص٣٧٢ .

٧٥- عن هذا الموضوع انظر سعيد عاشور ، المجتمع المصرى، ص١١- ص٣٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلطان آخر هو «الأمير آنوك» شقيق السلطان، وبذلك صار هناك سلطان على كل من ضفتى النيل فيما بين جزيرة الروضة والقاهرة ، ولكل منهما أتباعه من الأمراء والمماليك واستمر القتال بين الطرفين عدة أيام «وأسواق القاهرة طوال هذه الأيام مغلقة والأسباب متعطلة، وليس للناس شغل سوى التفرج فى شاطئ النيل على المقاتلين من السلطانية واليلبغاوية...»[٧٦].

أما الحوادث التى أثارها الجلبان فالأمثلة عليها كثيرة ومتواترة ، بيد أن ابن أياس يذكر أن أول حوادثهم قد وقعت سنة ٨٧٧هـ حين هاجموا أحد كبار موظفى الدولة [٧٧]. وتعددت اعتداءاتهم بعد ذلك على الأمراء وكبار موظفى السلطة دون أن يجدوا قوة تردعهم أو تقف فى طريقهم ، ففى العام التالى هاجم جماعة من الجلبان «الأمير يشبك الدوادار» ففر منهم إلى مدينة الجيزة حيث ظل بها طوال خمسة عشر يوما، وكانت النتيجة أن امتنع الأمراء عن الصعود إلى القلعة ، على حين اعتكف السلطان قايتباى احتجاجًا على تصرف مماليكه[٧٨]. ولكن الجلبان تأكدوا من عدم قدرة السلطان أو كبار الأمراء على كبح جماحهم فعادوا إلى إثارة الشغب فى العام التالى رغبة منهم فى قتل يشبك . وهنا أمر السلطان قايتباى أمراءه بالاستعداد لقتال الجلبان فاضطربت الأحوال وماجت القاهرة بالفوضى وأغلقت الأسواق[٧٩].

ويورد لنا ابن إياس مزيدا من أمثلة الحوادث التى أثارها الجلبان فى العقود الأخيرة من ذلك العصر ، وهى الحوادث التى كانت تتسبب دائمًا فى تعطل الأسواق وإثارة الرعب والفزع نتيجة لما كان يصحبها من أعمال النهب والقتل وغيرها من مظاهر العنف [٨٠].

وعلى الرغم من أن الأوامركانت تصدر من حين لآخر بعدم تعرض المماليك الأجلاب للناس والباعة والتجار: فإنه يبدو أن تدهور سلطة الحكومة وعجز السلاطين جعلامثل تلك الأوامر «.. كضرب رباب أوكطن ذباب» على حد تعبير المؤرخ ابن تغرى بردى. ومع مرور الزمن تزايد

٧٦- المقريزى، جـ٢ ، ص٢٨٠- ص٢٨٢ .

٧٧- ابن إياس ، بدائع الزهور جـ٣ ، ص٨٢ .

٧٨- المصدر نفسه ، ص٩٣ ، ص٩٤ .

٧٩- المصدر نفسه ، ص٩٦ .

٨٠- المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص١٤٧ ، جـ٤ ، ص٣٦٣ ، جـ٥ ، ص٤- ص٧ .

عبث الجلبان بمقدرات الناس وأمنهم مما أدى بالتالى إلى ارتفاع الأسعار «... فى سائر الأشياء من المأكول والملبوس والغلال والعلوفات.. فضر ذلك بحال الناس قاطبة ، رئيسها وخسيسها ..» (٨١). وهو ما يشير إلى مدى النتائج الضارة والآثار السلبية الناتجة عن تدهور سلطة الدولة فى الداخل . وانعدام السيطرة على الجلبان الذين كثرت حوادث اعتداءاتهم وتزايد شرهم ، بحيث صاروا يخطفون القماش والبضائع من الأسواق. كما أظهروا استخفافهم بالسلطان وكبار الأمراء(٨٢).

وعلى الرغم من تدهور أحوال الدولة، وانهيار الاقتصاد ، فإن مرتبات المماليك تزايدت نتيجة لكثرة أعدادهم من ناحية، وتفشى الفساد من ناحية ثانية، على حين لم تعد الدولة قادرة على الوفاء بهذه المطالب مما كان يدفع بالمماليك إلى التمرد وإثارة الشغب. فقد كانت جامكية المماليك السلطانية أحد عشر ألف دينار، فى عهد السلطان المؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ) ، ثم وصلت إلى ثمانية عشر ألف دينار ، فى عهد الأشرف برسباى (٨٢٥-٨٤١هـ) وفى أيام الظاهر جقمق زادت إلى ثمانية وعشرين ألف دينار ثم وصلت إلى ستة وأربعين ألفا فى زمن قايتباى (٨٧٢-٩٠١هـ)(٨٣) ونتيجة لهذه الزيادة جمع قايتباى مجلسًا بالقلعة حضره قضاة القضاة ونوابهم وعدد من شيوخ العلماء ، وأخذ السلطان يدعو على نفسه بالموت ويتبرم من السلطنة نظرًا لأن الخزانة خاوية ومطالب المماليك كثيرة (٨٤).

وعلى الرغم مما يحمله هذا المثال من دلالات واضحة على مدى تدهور الأحوال المالية فى أواخر ذلك العصر، فإن الأمثلة التى تؤيد ذلك كثيرة ومتواترة فى مصادر تلك الفترة . ففى سنة ٩٠٦ هجرية تأخرت رواتب المماليك الأجلاب وثاروا على السلطان قنصوه الغورى الذى

٨١- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ١٦ ، ص٩٨ .

٨٢- ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٣٣٥- ص٣٨٨ .

٨٣- ابن الصيرفى، إنباء الهصر ، ص٣٣- ص٣٧ . وقد ذكر هذا المؤرخ أن من أسباب هذه الزيادة أن الأستادار كان يبيع الجامكية (المرتب) ويهبها ، كما كان يزيد فى جوامك المماليك السلطانية ويرتب لأولادهم جامكية حتى ولو لم يكن لهم أولاد، مقابل رشوة يأخذها .

٨٤- المصدر نفسه ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٢٩ .

اشتكى من أن الخزانة خاوية «وقد كثر العسكر من سائر الطوائف ما بين ظاهرية وأشرفية وإينالية وخشقدمية ، وقايتبابهية وناصرية . ومماليك الظاهر قانصوه ومماليك الأشرف جانبلاط، ومماليك العادل طومانباى، ومماليك النواب والأمراء الذين قتلوا .. فمن أين أسد هؤلاء المماليك»؟[٨٥].

وفى العام التالى تأخرت رواتب المماليك ثلاثة أشهر ، فتمردوا على السلطان وهددوه ، فأخذ يستولى على أموال الناس قسراً ، ونتيجة لذلك طالب أصحاب الأملاك من السكان أن يدفعوا أجرة مساكنهم ودكاكينهم عشرة شهور مقدمًا « .. فحصل لهم بسبب ذلك الضرر الشامل، وتعطلت الأسواق من البيع والشراء، وغلقت غالب دكاكين القاهرة ، ووقع الاضطراب للغنى والفقير ، وصار الناس بين جمرتين .. »[٨٦].

وليت الأمر كان يقتصر على ذلك ، ففى بعض الأحيان كان المماليك ينزلون إلى الشوارع والأسواق يسرقون وينهبون . ففى سنة ٩١٦ هجرية ، عجز قنصوه الغورى عن دفع مرتبات المماليك فنزلت جموعهم إلى شوارع القاهرة ونهبوا سوق جامع ابن طولون ، وسوق الصليبة ، وسوق تحت الربع. وسوق البُسطيين « .. حتى كادت مصر أن تخرب عن آخرها فى هذا اليوم» وأغلقت بقية الأسواق. وثبت أن عدد الحوانيت التى نهبها الجلبان فى ذلك اليوم خمس مائة وسبعين حانوتًا ، وقدرت خسائر التجار بحوالى عشرين ألف دينار[٨٧].

ومما يؤكد أن العبث والإفساد اللذين سببهما المماليك الأجلاب فى حياة المصريين اليومية قد تركا تأثيرا مدمراً على الاستقرار الضرورى لرواج الأسواق ، مايذكره ابن تغرى بردى فى حوادث سنة ٨٦٠هـ- موضحا مدى استهتار هؤلاء بالمصريين والأثر الذى تركوه فى نفوسهم ؛ فقد حدث أن خرج جهاز إحدى العرائس محمولا على رؤوس الحمالين وعلى ظهور البغال ليزفوه كما كانت عادة المصريين آنذاك وتصادف أن مر أحد فرسان المماليك بجوار الموكب ثم وقعت

٨٥- ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص١٣- ص١٨ . والجدير بالذكر أن كل طائفة من طوائف المماليك المذكورة تنسب إلى السلطان الذى اشتراها وكانت تعمل فى خدمته .

٨٦- ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٨ ، ص١٦ .

٨٧- المصدر نفسه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قطعة نحاس أحدثت صوتًا جعل الحصان يجفل، مما أحنق الفارس فضرب حصانه وساقه مسرعًا. وهنا حدث أمر غريب «.. فلم تشك العامة فى أن المماليك نزلوا إلى حوانيت القاهرة، فأغلقت الأسواق فى الحال ..»[٨٨].

ويبدو أن عجز الحكام عن منع المماليك الجلبان من الاعتداء على الناس قد جعل هؤلاء يعتمدون على أنفسهم فى التصدى للماليك ، ويبدو أيضا أن المماليك قد نالهم بعض الأذى من الناس. فقد نودى فى القاهرة سنة ٩٢١هـ (١٥١٥م) بأن «.. لاسوقى ولاتاجر يبهدل مماليك السلطان ولايمسك لأحد منهم فرس، ومن فعل ذلك قطعت يده»[٨٩]. ومن ناحية أخرى كانت هذه المناداة من أكبر أسباب الفساد ، إذ صار المماليك يدخلون الأسواق ويخطفون القماش دون أن يتمكن أحد من التصدى لهم .

وهكذا ، بينما كانت الاضطرابات السياسية الداخلية فى الشطر الأول من ذلك العصر راجعة إلى المنافسة بين كبار الأمراء والتنازع على العرش ، فإن فساد المماليك الأجلاب وهجماتهم المتكررة على الأسواق صارت أمراً مألوفًا فى الحياة أواخر ذلك العصر، مما ترك أسوأ الآثار على الأسواق والتجارة الداخلية .

ومن بين العوامل المؤثرة فى حركة الأسواق والتى تتصل بالدولة نظام طرح البضائع الذى ترك آثاره الوبيلة على حركة الأسواق آنذاك . ويمكن أن نستدل من المصادر التاريخية المتاحة على مدى ما كان هذا النظام يحمله فى طياته من مؤشرات دالة على مدى تدخل الدولة فى حركة الأسواق من جهة والنتائج السلبية لهذا النظام من جهة ثانية .

وتقوم فكرة نظام طرح البضائع - التى كانت تختلف وتتنوع تنوعًا كبيرا ما بين الأبقار والماشية والأقمشة والثياب والفراريج والزيت والعسل وغيرها - على أساس أن تفرض الدولة ما يتوفر لديها من سلع وبضائع ، لسبب أو لآخر ، على التجار بالسعر الذى تراه وبالكمية التى تريدها بغض النظر عن حاجة الأسواق ، كما أن التاجر لم يكن له حق الرفض أوحتى المساومة على الأسعار .

٨٨- ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٦ ، ص٩٦، ص٩٧ .

٨٩- ابن إياس، بدائع الزهور ، جـ٥ ، ص٤٦٥ .

أما مصادر تلك البضائع ، فإنها تنوعت ما بين الهدايا الواردة صحبة السفارات التى كان الحكام المعاصرون يرسلونها إلى سلاطين المماليك ، والأسلاب والغنائم التى غنمتها الجيوش والأساطيل المصرية أو الحملات التأديبية التى كان الأمراء يقومون بها ضد العربان فى شتي أنحاء مصر. وفضلا عن ذلك كان نظام طرح البضائع يعتمد على احتكار بضاعة بعينها(٩٠).

ويبدو أن إجراء طرح البضائع كان يتبع من حين لآخر نتيجة لرغبة الدولة فى مواجهة متاعبها المالية. ومن ناحية أخرى، كانت الدولة تلزم التجار بتسديد أثمانها فى الحال مما كان يسبب لهم كثيرا من المتاعب . ويتضح من النصوص التاريخية المتاحة أن أسلوب الحكام فى معاملة التجار عند طرح البضائع عليهم كان من القسوة والشدة بحيث كان التجار يتمنون الموت لأنفسهم فى بعض الأحيان(٩١).

وقد تتعطل الأسواق نتيجة انشغال التجار بشراء ما تطرحه الدولة من بضائع مثلما حدث سنة ٨٢٧هجرية ، حين عاد بعض رجال الأسطول بغنائمهم التى غنموها من قبرص وكان من بين الغنائم كميات كبيرة من الجوخ ، وكان نصيب السلطان منها مائة وثلاث قطع طرحت كلها على التجار وفقا للسعر الذى حدده . وكما حدث سنة ٨٢٩هـ بعد الاستيلاء على جزيرة قبرص وأسر ملكها جانوس ، إذ أمر «السلطان برسباى» بجمع التجار لشراء الغنائم فتعطلت أسواق القماش عدة أيام لانشغال التجار بشراء الغنائم(٩٢). وقد يهرب التجار حين يعجزون عن الوفاء بالثمن المطلوب كما حدث سنة ٩١٧هـ، حين طرح السلطان قنصوه الغورى على التجار فى الأسواق «زيتًا وعسلاً وزبيبا وأصناف بضائع يخسرون فيها الثلث..» وكانت النتيجة أن هرب التجار وأغلقت الأسواق عدة أيام (٩٣).

٩٠- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٩ ص٤٦- ص٤٧ . حيث ذكر فى حوادث سنة ٧١٠ هجرية أن السلطان الناصر محمد بن قلاون قد أبطل «ما كان مقرراً من طرح الفراريج» ، ويبدو من خلال النص أنه كان يوجد بكل إقليم ضامن مهمته طرح الفراريج على التجار«ولايقدر أحد يشترى فروجًا إلا من الضامن».

٩١- المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ص٢٩٥: جـ٣ ، ص٧٣٨ .

٩٢- المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٧٢٢- ص٧٢٦، ص٧٢٨ .

٩٣- ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٤ ص٢٤٢ .

وهكذا فإن نظام طرح البضائع ، كإجراء اقتصادى تعسفى من قبل الدولة، سبب كثيراً من المتاعب للتجار [٩٤]، كما كان من عوامل انكماش حركة الأسواق الداخلية. إذ كان من الطبيعى أن يحاول التجار تعويض ما تكبدوه من أموال فى هذه البضائع المفروضة عليهم فضلا عن تحقيق نسبة من الربح، وهو ما كان يؤدى بالضرورة إلى ارتفاع الأسعار وكساد حركة الأسواق .

والجدير بالذكر أن بعض كبار الأمراء كانوا يقومون بفرض حمايتهم على بعض الحوانيت مقابل امتياز معين، وكان وجود «رنْك» الأمير (أى شارته» على أى حانوت هو رمز هذه الحماية التى تحمى صاحب الحانوت من قبول البضائع التى كانت الدولة تطرحها على التجار. بيد أن رغبة السلطان برسباى فى الحصول على الأموال من أى وجه جعلته يلغى تلك الحمايات فى سنة ٨٢٩هـ فأمر بمنع الأمراء والأعيان من الحمايات ومحيت رنوكهم عن الحوانيت والطواحين والمعاصر «حتى يتمكن مباشرو السلطان من رمى البضائع ما بين سكر وأرز وغير ذلك ... فشمل الضرر كثيراً من الناس لما فى ذلك من الخسارة فى أثمانها ..»[٩٥].

كذلك كانت الدولة تحاول تسعير البضائع لاسيما فى أوقات الأزمات الاقتصادية. ومن الناحية القانونية اختلف الفقهاء حول شرعية نظام التسعير، فبينما قال البعض إنه يحرم على المحتسب التسعير فى كل وقت أجاز البعض الآخر التسعير فى زمن الغلاء ، كما رأى بعض الفقهاء أن التسعير يجوز فى حالة إذا ما كانت البضائع الخاضعة للتسعير من إنتاج البلاد وليست من الواردات [٩٦]. وعلى أية حال فإننا نستطيع أن نستنتج من نصوص المصادر التاريخية أن نظام التسعير قد طبق بالفعل بقصد الحد من ارتفاع الأسعار، بيد أنه تميز- كغيره من تصرفات الحكام- بالعشوائية والارتجالية . على أننا يجب أن نلاحظ أن الدافع إلى التسعير كان يختلف من وقت لآخر . كما أنه بينما كان الدافع فى أوائل ذلك العصر هو الرغبة فى تخفيف وطأة الأزمة الاقتصادية [٩٧]، تمثل الدافع فى السنوات الأخيرة من العصر

٩٤- ابن الصيرفى ، إنباء الهصر ، ص٢٦١ ، حيث يذكر فى حوادث سنة ٨٧٥هـ. أن الأساكفة قد طرح عليهم من ديوان الدولة جلود مقابل بعض المصنوعات الجلدية ، كما تعطل تجار الحوانيت لانشغالهم فى بيع تركة أحد كبار الأمراء .

٩٥- المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٦٢١ .

٩٦- السبكى، معيد النعم ومبيد النقم، ص٩٢ .

٩٧- المقريزى، المصدر السابق، جـ١ ، ص٥٠٦-٥٠٧ ، جـ٢ ص٦٦٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسه فى الخوف من تمرد المماليك الجلبان وغضبهم إذ أنهم كانوا قد أخذوا يتدخلون فى شئون الأسواق [٩٨].

وينبغى أن نلاحظ أن التسعير كان يأتى بنتائج عكسية لما كان مرجواً منه فى بعض الأحيان ، وهو ما يكشف عن حقيقة أن تدخل الدولة فى شئون السوق من خلال التسعير لم يكن يؤتى ثماراً إيجابية دائما ، لاسيما وأن المحتسب المسئول عن مراقبة الأسعار لم يكن دائما على المستوى المطلوب من الكفاءة والأمانة ، لاسيما فى عصر الجراكسة [٩٩]. بل إن الحسبة كانت تظل شاغرة فترة طويلة . وكان المحتسب عادة من أمراء المماليك فى أواخر ذلك العصر. وكان غالبية هؤلاء يجهلون حقيقة مسئولياتهم، كما أنهم غالبا ما كانوا يعتمدون على أعوانهم الذين استغلوا مناصبهم فى تكوين الثروات. وكان البائع الذى لايدفع لهم الرشوة يتعرض للضرب والإهانة على الرغم من أن جميع الباعة فى الأسواق كانوا يبيعون بسعر أعلى من السعر الذى يحدده المحتسب [١٠٠].

وكانت للضرائب الطارئة التى كان سلاطين المماليك يفرضونها على تجار الأسواق نتائج لاتقل من حيث ضررها عن طرح البضائع أو التسعير التعسفى ، فقد تعين على التجار أن يدفعوا هذه الضرائب الطارئة والتى كانت تزيد بشكل مطرد مع زيادة معدل التدهور فى مالية الدولة. ومن الطبيعى أن تساهم هذه الضرائب فى ارتفاع الأسعار من جهة، وزيادة محاولات الغش والسرقة فى الموازين والمكاييل من جهة ثانية .

ومنذ بداية دولة سلاطين المماليك استحدثت عدة ضرائب سميت «الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية» [١٠١]. وأخذت أسواق البلاد تعانى من الضرائب التى ازداد عددها وتضاعفت قيمتها على مر السنين . وكان لهذه الضرائب الشهرية (مشاهرة) والأسبوعية (مجامعة) تأثيرها المدمر على الأسواق والتجارة الداخلية بوجه عام. ومن الأمور ذات الدلالة ما ذكره السخاوى فى حوادث سنة ٨٤٧هجرية من أنه «... كثر التطفيف فى الموازين والغش فى البضائع. وفشا ذلك فشواً منكراً وطمع السرقة لما جعل عليهم من الرواتب الشهرية

١٠٠- ابن الصيرفى . إنباء الهصر، ص٤٢ ، ص٤٣ ، ص١٢٥ ، ص٢٠٣ - ص٢٠٤ .

١٠١- المقريزى ، السلوك جـ١ ، ص٣٨٤ . كان ذلك سنة ٦٥٠ هجرية فى عهد السلطان المعز أيبك ، وتنسب هذه الضرائب إلى وزيره «هبة الله بن صاعد الفائزى» .

والجمعية ...»[١٠٢]. وهو ما يؤكده ابن إياس فى مرحلة لاحقة ، ففى سنة ٩٠٧ هجرية احتاج السلطان قنصوه الغورى لبعض الأموال لمواجهة مطالب المماليك، فبدأ يفرض «مغارم» جديدة على الناس، وكانت النتيجة أن تعطلت حركة البيع والشراء فى الأسواق ، وأغلقت أغلب حوانيت القاهرة[١٠٣].

وكانت مثل هذه الضرائب تدفع بالباعة إلى رفع الأسعار عدة مرات فى بعض الأحيان، دون خشية أوخوف من العقاب ، لأنهم كانوا يجدون المبرر والعذر فى تلك الضرائب التى تزايد عبؤها على كواهلهم على مر السنين. ومن ناحية أخرى ، كان الباعة يلجأون إلى الغش فى الموازين والمكاييل ونوع المبيعات رغبة فى تعويض الأموال التى غرموها من جهة ، وتحقيقًا لمزيد من الأرباح من جهة ثانية . والنتيجة أن تقفز الأسعار ، ويظهر ما نسميه «السوق السوداء» بتعبيرنا المعاصر ، ويتزايد الضغط على المستهلك العادى مما يدفعه إلى الاقتصار على شراء الضروريات فقط ، ومن ثم تنكمش الأسواق من حيث حركتها ، ومن حيث حجمها وعددها على حد سواء .

كما تكشف هذه الضرائب ، من ناحية أخرى ، عن طبيعة العلاقة بين سلاطين المماليك ورعاياهم فى ظل المفاهيم السياسية التى حكمت ذلك العصر ، وهو يدعم ما ذهبنا إليه فى مدخل هذا الكتاب من أن مصر فى ذلك الزمان كانت «سلطان ورعية» ، على حد قول ابن خلدون .

ومن المنطقى أن يكون للنظام النقدى أثره الخطير على حركة أسواق مصر. ففى بداية عصر سلاطين المماليك، كان رصيد الدولة من الذهب والفضة كبيراً فعلى مدى مائة وثلاثين عامًا تقريبًا . لم تحدث أية أزمات نقدية خطيرة تسبب ارتفاعا مفاجئا فى الأسعار إذ كانت دور سك النقود تجد كفايتها من الذهب والفضة اللازمين لسك الدنانير الذهبية والدراهم الفضية، وكان الذهب يأتى أساسا من بلاد غانا والتكرور (مالى الحالية) ، التى كانت تربطها بمصر علاقات

١٠٢- السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك، ص٧٧ .

١٠٣- ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٤ ، ١٦ ، والجدير بالذكر أن الضرائب الشهرية والأسبوعية تعرضت للإلغاء والإبقاء عدة مرات (المصدر نفسه، ص٤ ، ص٢٥ ، ص٧٧ ، ص٣٠٤ ، ٣٠٥ جـ٥ ص٦-٧ ، ص١٧) .

وطيدة فى ذلك الحين على المستوى الاقتصادى والدينى والثقافى. إذ كانت القوافل التجارية تتردد بين مصر ومناطق غرب أفريقيا بشتى المصنوعات المصرية مقابل الذهب وغيره من منتجات هذه البلاد . وقد تحدث ابن بطوطة فى رحلته عن توفر الذهب بهذه المناطق ، وعن كرم «منسى موسى»- سلطان مالى الذى زار مصر- كما تحدث عن رحلات التجار من أبناء هذه البلاد إلى مصر [١٠٤]. أما الفضة فكانت تصل إلى مصر بشكل أقل انتظامًا ، ولكنه كان كافيًا لسد حاجة البلاد وضمان استقرار النظام النقدى. وكانت ترد إما من أوربا أو من وسط آسيا. وبفضل توفر الفضة استطاع السلطان الظاهر بيبرس، المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك ، أن يجعل نسبة الفضة فى الدرهم سبعين فى المائة من وزنه . وقد تمكن سلاطين البحرية من سك دراهم فضية ثابتة القيمة وصل متوسط وزنها إلى ٩٧ , ٢جم[١٠٥].

ولكن اختفاء العملات الفضية منذ أواخر القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) كان إيذانا بالخراب الاقتصادى والتدهور السياسى الذى أودى بدولة المماليك فى نهاية الأمر، فقد تناقص رصيد البلاد من الفضة بالتدريج ، ومن ثم قلت نسبة الفضة فى الدرهم مما أدى إلى انخفاض سعره فبعد أن كان ١ / ٢٠ من الدينار فى بداية العصر، وصل إلى ١ / ٢٥ ثم إلى ١ / ٣٠ من الدينار فى فترة لاحقة وكان السبب فى ذلك راجعًا إلى ازدياد الطلب فى الجمهوريات الإيطالية التجارية على الفضة، مما أدى إلى شرائها وسحبها من أسواق الشرق وهو ما أشار إليه المقريزى بقوله إن النصارى كانوا يصدرون الفضة من بلاد الشرق إلى أوربا. وعلى أية حال فقد توقفت الدولة عن سك الدراهم الفضة مع مطلع شمس القرن الخامس عشر ، وقد استعاض المماليك عنها بالنحاس الذى كان إنتاجه قد زاد فى أوربا، ولاسيما، فى البلاد الواطئة والمجر والبوسنة والهرسك[١٠٦].

وحين كان رصيد الدولة من الذهب والفضة كبيرا ، كان النظام السعرى يستند على قاعدة ذهبية وفضية ضمنت للأسواق حالة من الاستقرار والرواج. ولكن ظهور الفلوس النحاسية منذ

١٠٤- ابن بطوطة ، الرحلة، ص٦٧٢- ص٦٧٣ .

١٠٥- Ashtor, A social and economic hist.. pp. 291-93 .

١٠٦- Ibid pp. 305 , f.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقت مبكر، ثم حلولها محل النقود الذهبية والفضية أساسًا للسعر فى مرحلة لاحقة ، كان علامة على مدى تدهور الأحوال الاقتصادية. ويقدم لنا المقريزى تقريراً مطولاً عن بداية تدهور النظام النقدى واستمرار هذا التدهور فى الشطر الثانى من هذا العصر. ويتضح من كلام مؤرخنا أن الفلوس النحاسية ضربت سنة ٧٥٩هـ على أساس أن تكون قيمة كل فلس ١ / ٢٤ من الدرهم الفضة الذى كانت قيمته آنذاك ١ / ٢٠ من الدينار الذهبى ، ثم وصل سعر الدرهم نتيجة لانخفاض كمية الفضة به إلى $\frac{1}{25}$ من الدينار . ويذكر المقريزى أن الدراهم فى عصر برقوق كانت تسبك ثلثها نحاس وثلثاها فضة وفى ذلك الحين كانت الفلوس قاصرة على شراء البضائع التى لاتصل فى قيمتها إلى الدرهم . ومنذ أواخر القرن الرابع عشر أكثر السلطان الظاهر برقوق من سك الفلوس النحاسية . وكادت الدراهم الفضية أن تختفى من السوق . ثم أصبحت الفلوس هى القاعدة السعرية[١٠٧].

وعلى الرغم مما تحمله المصادر التاريخية من المؤشرات الدالة على تدهور النظام النقدى والتدهور الاقتصادى بصفة عامة، وكساد التجارة الداخلية والأسواق بصفة خاصة ، فإن الأمر لم يقتصر على حلول الفلوس النحاسية محل الذهب والفضة قاعدة لنظام الأسعار ، بل إن محاولات تزييف هذه الفلوس النحاسية بمعادن أخرى أقل قيمة ، خاصة حين أصبح التعامل بالفلوس على أساس الوزن وليس العدد . وكان لعمليات التزييف هذه أسوأ الأثر على حركة الأسواق ، إذ كان الناس يمتنعون عن التعامل بها. ومن ثم تصاب الحركة التجارية الداخلية بالكساد ، كما ترتفع الأسعار فى موجة تضخم جنونية تصل إلى حد أن تغلق الحوانيت وتتعطل الأسواق .

ولابأس من أن نورد بعض الأمثلة الدالة على ذلك ، ففى سنة ٧٢٠هـ، تعرض السوق الداخلى لهزة مؤقتة بسبب الزغل(أى التزيف) فى الفلوس . وعلى الرغم من تسعير الحكومة للفلوس على أساس الوزن تارة ، وضرب وتشهير عدد من الباعة لإجبارهم على التعامل بهذه الفلوس تارة ثانية ، ثم الأمر بعدم تداول الفلوس مالم تكن عليها علامة دار سك النقود تارة ثالثة ، فإن الأسعار ظلت ترتفع حتى عاد السلطان الناصر محمد بن قلاون من سفره ، وأمر بسك فلوس جديدة بسعر جديد، كما تحدد سعر الفلوس القديمة على أساس الوزن فانفرجت الأزمة[١٠٨].

١٠٧- المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٩٤١ – ص٩٤٤ .

١٠٨- المقريزى، السلوك ، جـ٢ ، ص٢٠٥-٢٠٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك حدث فى سنة ٧٢٥ هـ أن كثر غش الفلوس « ... فتوقف الناس عن أخذ الفلوس وكثر ردها وعقوبة الباعة على ذلك بالضرب والتجريس إلى أن فسد الحال، وغلقت الحوانيت وارتفعت الأسعار... » وتكررت مثل هذه الأزمة فى سنة ٧٤٥هـ وفى سنة ٧٤٩هـ[١٠٩].

وكانت الدولة تلجأ فى بعض الأحيان إلى إصدار عملات جديدة بأسعار جديدة لمواجهة التزييف وما ينتج عنه من آثار سلبية على الأسواق الداخلية . بيد أن حرص السلاطين على تحقيق المكاسب من سك النقود الجديدة بأسعار تفوق قيمتها الشرائية من ناحية ، وعدم وجود سياسة ثابتة فى هذا الصدد من ناحية ثانية، فضلا عن تعود الناس على عدم ثبات سياسة الحكام من ناحية ثالثة- كل هذا كان يؤدى بالضرورة إلى ازدياد منحنى التدهور بمرور الزمن .

وفى عصر الجراكسة تفاقمت أزمة النقد فى مصر ، وأخذ الناس يخلطون الفلوس النحاسية- التى كان التعامل بها على أساس الوزن- بقطع الرصاص والحديد . ونتيجة لانهيار سلطة الدولة تمادى الناس فى ذلك حتى أن القُفَّة التى تزن مائة رطل « .. لايكاد يوجد بها عشرون رطلا من الفلوس.. » بل إن هذه الفلوس النحاسية كانت تهرب إلى الخارج حيث تباع بسعر أعلى، كما كان الناس فى الداخل يصهرونها ليصنعوا منها القدور والأوانى النحاسية التى كان سعر الرطل فيها أغلى من السعر الذى حددته الحكومة لرطل الفلوس[١١٠].

والنتيجة التى نخرج بها من تحليلنا لهذه المعلومات هو أن الحكومة كانت تخفض من قيمة العملة المتداولة فى الأسواق رغبة فى تحقيق المكاسب للسلاطين من فروق السعر بين هذه العملات، وبين العملات الجديدة التى يصدرونها ، ويؤكد ذلك ما تذكره مصادر تلك الفترة عن تسعير العملات المتداولة، أو إصدار عملات جديدة بأسعار تفوق أسعار جميع العملات المتداولة، أو منع تداول العملات الأجنبية مثل الدينار الأفرنتى الذى حاز ثقة الناس وسيطر على سوق النقد فى مصر[١١١].

١٠٩- المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٢٥٣ ، ص٦٦٩، ص٧٧١ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٩ ، ص٧٧ .

١١٠- المقريزى ، السلوة ، جـ٣ ص٦٢٩ - ص٦٣٠ ، ص٦٣١ .

١١١- يذكر المقريزى فى حوادث سنة ٨٢٦هـ أن السلطان برسباى خفض قيمة الدينار الأفرنتى عشرة =

وهكذا ، كان تدهور النظام النقدى فى مصر زمن الجراكسة ، عاملا حاسما فى تدهور الأسواق والتجارة الداخلية. فإن نضوب رصيد الدولة من الذهب والفضة أدى إلى تخفيض قيمة الدراهم الفضية بشكل مطرد ، ثم اختفائها من الأسواق المصرية تماما، على حين سيطرت العملات الأجنبية الذهبية (الدينار الأفرنتى) على السوق الداخلى، ثم ظهور الفلوس النحاسية كقاعدة لنظام التسعير. وما لحق بهذه الفلوس من غش وتزييف أو تهريب أو صهر لأغراض ذات ربح - نقول هذا كله انعكس على الأسواق بشكل سلبى فركبها الكساد ، وأغلق منها عدد كبير، كما انكمش العدد الباقى إلى عدد هزيل من الحوانيت ، بل إن بعض البلاد، لاسيما فى الصعيد ، عادت إلى نظام المقايضة البدائى[١١٢].

وثمة عامل هام ارتبط بالأسواق من حيث تأثيره السلبى على الزسواق، ونقصد به حالة الأمن الداخلى فى البلاد ، فمن المعروف أن التجارة وحركة الأسواق لاتزدهران وتروجان إلا فى ظل استقرار الأمن واستتبابه، سواء على طول الطرق التجارية أو فى داخل البلاد. والعكس صحيح تمامًا . وتنسحب هذه المقولة على حركة الأسواق المصرية فى عصر المماليك كما تنسحب على غيرها فى العصور التاريخية الأخرى.

ذلك أن تدهور النظام السياسى تمثل فى فشل الدولة فى السيطرة علي كافة شئون البلاد، وانعكس هذا الفشل على حالة الأمن فى البلاد فى عصر الجراكسة على نحو خاص . بيد أن

= دراهم فخسر التجار كثيراً (السلوك ، جـ٣ ، ص٦٣٨)، كما يذكر ابن الصيرفى حوادث سنة ٨٧٣ ما نصه : «نودى على الفلوس العتق المنقاة من الرصاص والحديد بأربعة وعشرين درهما الرطل على عادتهم ، وضربت فلوس جدد كل أربعة بدرهم ونصف ، والرطل بستة وثلاثين درهما. وهذا فيه ضياع أموال المسلمين ليحصل الشياطين أهل دار الضرب مقصودهم من جمع المال فإنهم يأخذون من الناس الفلوس بأربعة وعشرين ويخرجونها بستة وثلاثين فيخسرون المسلمين الثلث فى أموالهم ...» (إنباء الهصر، ص١٣٣) وذكر ابن إياس (بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٢٠ ، ص٢٩) أن الأسواق تعطلت عدة أيام سنة ٩٠٧هـ بسبب فلوس جدد سكها السلطان الغورى تخسر فى المعاملة الثلث، كما كانت البضائع تباع بسعرين وفقًا للفلوس القديمة والفلوس الجديدة.

لمزيد من الأمثلة انظر المقريزى ، السلوك ، جـ٣، صفحات ٧١٠- ٧١٢ ، ٨٠٥، ٨٥١ - ٨٥٣، ٩١٢ .

١١٢- يذكر المقريزى (السلوك ، جـ٣ ، ص٧٠٥) ما نصه «... وقد شمل الخراب إقليم مصر ، مدينتها وأريافها لاسيما الوجه القبلى، فمن شدة فقر أهله وسوء أحوالهم لايتبايعون إلا بالغلال لعدم الذهب والفضة . بعد أن كانوا من الغنى والسعة فى الغاية...».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الواقع التاريخى يقتضى منا أن نقرر أن عصر المماليك البحرية ، قد شهد هو الآخر ، فترات من اضطراب الأمن لاسيما فى عهود السلاطين الضعاف ، أو حين يتنافس الأمراء على السلطة كما أوضحنا من قبل . ولكن التدهور الأمنى اتخذ صفة الدوام والثبات فى أواخر القرن الرابع عشر، ومنذ ذلك الحين فصاعدا بات هذا التدهور نغمة دالة فى حياة المصريين اليومية .

فإن حوادث سرقات الأسواق على أيدى عصابات كبيرة العدد من الفرسان والمشاة أصبحت مادة ثابتة فى حولية ابن اياس[١١٣] التى تؤرخ لأواخر عصر المماليك فيما يشبه اليوميات ، وكانت تلك العصابات تنهب البضائع من الأسواق وتقتل الخفراء دون أن تجد من يتعقبها .

كذلك فإن العربان- الذين سببوا كثيرا من المتاعب طوال عصر المماليك- كثيراً ما تسببوا فى اضطراب الأحوال، وانعدام الأمن فى سائر أنحاء البلاد. إذ تتحدث مصادر تاريخ هذا العصر عن كثير من هذه الحوادث فى عصر الجراكسة والتجاريد التى خرجت لردعهم دون أدنى فائدة . بل إن البدو كانوا يهاجمون المدن أحيانًا فى وضح النهار وينهبون الناس وقد يقتلون البعض، أو يطلقون المساجين من السجن[١١٥].

ومن مظاهر انهيار الأمن أيضا هروب السجناء ، كما حدث سنة ٩١٣هـ، واضطراب الأحوال فى البلاد، أو حوادث العثور على قتلى دون التوصل إلى الجناة[١١٦].

ومن نافلة القول أن نكرر أن هذه الحوادث والاضطرابات كانت تسبب نوعا من الكساد فى حركة الأسواق، مماكان يساعد ، مع العوامل الأخرى، على مزيد من التدهور . وهكذا نصل إلى صورة عامة للعوامل الاقتصادية والسياسية والأمنية والاجتماعية التى أثرت بشكل أو بآخر، وبدرجة أو بأخرى على حركة الأسواق الداخلية فى مصر زمن المماليك. بيد أن هناك من العوامل والظروف الطبيعية ما كان يساهم ، بدرجة تتزايد باطراد ، فى التأثير السلبى على

١١٣- ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٣٣٤، جـ٤ ، ص٢٠ ، ص٢٥٩- ص٢٦٠ .

١١٤- ابن الصيرفى، إنباء الهصر، صفحات ٩ ، ١٠ ، ٣٧ ، ٧٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ صفحات ١٢ ، ١٣ ، ٢٣ ، ٤٣ ٧١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٦ ، ١٦٩ .

١١٥- ابن الصيرفى، المصدر السابق، ص٤٤٣-ص٤٤٤ ؛ ابن إياس ، المصدر السابق جـ٣ ، ص١٠٥ .

١١٦- ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٣٣٥ ، ص٢٠٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حركة الأسواق والتجارة الداخلية . هذه العوامل الطبيعية تتداخل فى بعضها البعض ومنها نقص مياه الفيضان عن منسوبها العادى، وما كان ينتج عن ذلك من مجاعة قد يتبعها الوباء، ومنها تلك الأوبئة والطواعين التى حصدت بمنجلها الفتاك نسبة كبيرة من السكان . وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا الضمور الديموجرافى على الأسواق من حيث أعدادها التى تناقصت بدرجة كبيرة، ومن حيث حركتها التى أصبحت أقرب إلى الكساد منها إلى الحركة التجارية . وإن نظرة على الإحصائية التى أمدنا بها كل من ابن دقماق[١١٧] (ت ٨٠٩هـ) والمقريزى (ت ٨٤٥هـ) [١١٨]، لأسواق القاهرة والفسطاط وما خرب منها لتؤكد ما ذهبنا إليه .

وأخيراً ، فإننا لانستطيع أن نحصر العوامل المؤثرة فى حركة الأسواق فى إطار واحد بعينه، سياسيًا كان أم اقتصاديا ، واجتماعيا كان أم طبيعيا ، فالواقع أن هذه العوامل كلها تداخلت وتشابكت فى حركتها بحيث يصعب تحديد دور كل منها ولكن أبرز مظاهر التدهور هو انخفاض السكان بشكل ملحوظ نتيجة لسلسلة الأوبئة والمجاعات المتتالية [١١٩]. ولعل قيمة المؤرخ تقى الدين المقريزى تتجسد من خلال ربطه للظاهرة الاقتصادية المتمثلة فى كساد الأسواق بفساد الجهاز الحاكم وظلم رجال الدولة، فضلا عن الجهاز القضائى وإهمال وسائل الرى والزراعة وزلزلة القيم الاجتماعية وتدهور الأمن وتخلخل البناء الاجتماعى[١٢٠]. ولعل مؤرخنا كان يتنبأ بنهاية الدولة التى جاءت فى العقد الثانى من القرن السادس عشر .

١١٧- ابن دقماق ، الانتصار، جـ٣ ص٣٢ ، ص٣٣ .

١١٨- المقريزى، الخطط ، جـ١ ص٣٤١- ص٣٣٢ ، جـ٢ ص٩٣ - ص١٠٦ .

١١٩- انظر دراستنا عن الأوبئة والأزمات الاقتصادية فى هذا الكتاب .

١٢٠- المقريزى، السلوك ،جـ٣ ، ص٦٧٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأقليات الدينية فى المجتمع المصرى

طوائف النصارى واليهود (المسيحيون : الملكانية واليعاقبة- اليهود : الربانون، والقراءون، والسامرة) - طبيعة العلاقة بين سلاطين المماليك والأقليات الدينية- نفوذ أهل الذمة فى الجهازين الإدارى والمالى للدولة- دور اليهود والنصارى فى الحياة الاجتماعية - التأثيرات المسيحية واليهودية فى عادات وتقاليد المصريين- موقف المجتمع من أبناء الأقليات الدينية (الأعياد) - دور اليهود والمسيحين فى الحياة الثقافية .

لم يكن هناك من الأقليات الدينية فى مصر زمن المماليك سوى المسيحيين واليهود. بيد أن المسيحيين لم يكونوا أقلية بالمعنى الاجتماعى وإنما بالمعنى الدينى فقط كانوا ينقسمون- آنذاك- إلى فرقتين أساسيتين هما : الملكانية (أو الملكية) [1]، واليعاقبة . أما اليهود ، فكانت ، طوائفهم ثلاثا هى : الربانون (الربانيون أو الربيون) ، والقراءون والسامرة . ومن الطبيعى أن يكون سبب تعدد الطوائف فى أية ديانة راجعا إلى الخلافات والمنازعات التى تنشب بين أتباعها حول تفسير أمور معينة ، وهو ما يصدق- بالضرورة - على كل من الديانة اليهودية والديانة المسيحية .

١- تستخدم المصادر العربية كلا اللفظين ، ولكن لفظ «ملكية » هو الأكثر شيوعا فيها. وذكر القلقشندى أن أبناء هذه الطائفة ينسبون إلى «ملكان» الذى ظهر ببلاد الروم «وقيل مركان أحد قياصر الروم» كما ذكر أنهم يدينون بطاعة «الباب» الذى هو بطريك رومية (صبح الأعشى، جـ١٣ ، ص٢٧١- ٢٧٦) . والواضح أن القلقشندى اقترب من حقيقة اشتقاق الاسم، ولكنه جانب الصواب حين ذكر أنهم يدينون بالولاء للبابا فى روما . إذ إنه من المعروف أن كنيسة القسطنطينية كانت خاضعة لسلطة الإمبراطور البيزنطى، كما بدأت العلاقة تتدهور بين بيزنطة وروما بشكل مطرد منذ بدأ نجم البابوية فى البزوغ نتيجة للفراغ السياسى الناجم عن سقوط السلطة الإمبراطورية فى الغرب - انظر :

Norman F Cantor, Med. Hist., (2nd. ed., Macmillan, New York 1969) pp. 171-79 .

وفيما يتعلق بالمسيحيين ، فإن انقسامهم إلى طائفتين فى مصر زمن المماليك ، إنما هو امتداد لذلك النزاع الذى كان قد اندلع فى أنحاء العالم المسيحى حول طبيعة السيد المسيح، لاسيما بعد أن انحسرت موجة الاضطهادات التى شنها أباطرة الرومان ضد المسيحية وأتباعها، وبعد مرسوم ميلانو الشهير الذى أصدره الامبراطور قنسطنطين الأول وشريكه ليكينيوس فى سنة ٣١٣ بإباحة حرية العقيدة للمسيحيين . فمنذ ذلك الوقت المبكر بدأ الصراع حول طبيعة المسيح عليه السلام، وهل هو إله أم بشر؟ وكان مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م هو أول المجامع المسكونية (العالمية) المسيحية التى تتصدى لمناقشة هذا الموضوع . ومنذ ذلك الحين تفرق المسيحيون حول طبيعة المسيح ولم يجتمعوا بعدها قط . وفى سنة ٤٥١ دعا الامبراطور البيزنطى «مر قيانوس» (مركيان Mericianus ٤٥٠- ٤٥٧م) إلى ذلك المجمع الدينى الذى عقد فى خلقدونية لمناقشة المذهب الذى قال به ديوسقورس Dioscorus ثامن بطاركة الاسكندرية ، وهو المذهب الذى يتلخص في أن للمسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية . وقد حاول ذلك المجمع تبنى وجهة نظر الإمبراطور البيزنطى فى المصالحة بين مختلف المذاهب المسيحية . ومن ناحية أخرى قرر مجمع خلقدونية عزل ديوسقورس وتكفيره ونفيه. وكانت النتيجة أن التف الأقباط حول بطريركهم ، ووجدت فى مصر وسوريا حركة مقاومة قوية ضد المذهب الجديد الذى تبنته الدولة. ونشأ عن ذلك أن تباعد الشرق المونوفيزيتى عن الغرب الكاثوليكى من ناحية ، وبدأت حركة اضطهاد عنيفة من جانب الإمبراطورية البيزنطية ضد الأقباط من أنصار مذهب الطبيعة الواحدة من ناحية أخرى .

ولكن بعض المصريين اعتنقوا المذهب الملكانى (الذى نادى به الإمبراطور مركيانوس) كما أن العائلات البيزنطية والموظفين البيزنطيين الذين استقروا بمصر كانوا- بطبيعة الحال- يدينون بهذا المذهب . ومن هؤلاء وأولئك تكونت الطائفة الملكانية (الروم الأرثوذكس) فى مصر . ويستفاد من النصوص التى أوردها المؤرخون المصريون أن طائفة النصارى الملكية فى عصر المماليك لم تكن كبيرة العدد، كما أنهم فى غالبيتهم لم يكونوا من أصول مصرية [٢].

وكان لأبناء هذه الطائفة بطريرك خاص بهم ، وقد حددت الوثائق سلطات هذا البطريرك الذى كان عليه تنظيم العلاقة بين أبناء الطائفة من جهة، وبين الطائفة والدولة من جهة أخرى.

٢- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١١ ، ص٣٩٢ ؛ تاريخ ابن الوردى، جـ١ ص٢٨٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما كان له الإشراف على الكنائس والأديرة الملكانية بمصر ، فضلا عن تعيين رجال الاكليروس التابعين له[٣]. بيد أن وثائق دير سانت كاترين تكشف عن أن هذا البطريرك لم تكن له أية سلطة على دير سانت كاترين ورهبانه على الرغم من أنه دير ملكانى [٤]. بل إن هذه الوثائق تكشف عن أن مقدم دير سانت كاترين كان يحمل لقب بطريرك فى بعض الأحيان [٥].

والحقيقة أن المصادر العربية لم تذكر البطريرك الملكانى إلا قليلا ، ويبدو أن ذلك كان راجعا إلى قلة عدد أتباعه مما جعل دوره فى أحداث تلك الفترة ضئيلا . وفى سنة ٦٧٩هـ (١٢٨٠م) توجه بطريرك الملكية فى سفارة إلى الإمبراطورية البيزنطية بناء على طلب من الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن [٦]. ولم تتحدث هذه المصادر عن بطريرك الملكانية مرة أخرى سوى فى سنة ٨٤٦هـ حين كان البطريرك الملكانى فيلوتاوس ضمن زعماء الأقليات الدينية الذين حضروا اجتماعا برئاسة السلطان الظاهر جقمق لمناقشة بعض الأمور المتعلقة بطوائفهم [٧].

وكان لأبناء هذه الطائفة عدد قليل من الكنائس فى أنحاء البلاد ، منها «كنيسة مارنقولا» بخط البندقانيين ، «وكنيسة غبريال الملاك» بالفسطاط. وكان مسكن البطريرك الملكانى يقع على مقربة من هذه الكنيسة . وفى الفسطاط أيضًا كانت لهم كنيسة تسمى «بكنيسة السيدة» وكنيسة أخرى هى «كنيسة ماريوحنا» [٨]. كذلك كانت الأديرة التابعة لأبناء هذه الطائفة قليلة هى الأخرى، وهو ما يبدو منطقيا فى ضوء الحقيقة القائلة بأن أعدادهم كانت ضئيلة بالفعل [٩].

٣- ابن فضل الله العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص١٤٤- ص١٤٥ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى جـ١١ ، ص٣٩٢- ٣٩٣ .

٤- مجموعة وثائق سانت كاترين . مرسوم رقم ٨٣ (قنصوه الغورى) .

٥- س . ك ، مرسوم ٥٥ ·خشقدم) .

٦- ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، جـ٧، ص١٧٩ ؛ المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ص٤٧١- ص٤٧٢ .

٧- السخاوى، التبر المسبوك ، ص٣٩ .

٨- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص٥١٨ .

٩- المصدر نفسه، جـ٢ ، ص٥١٠ .

أما اليعاقبة ، فهم الأقباط اتباع مذهب الطبيعة الواحدة Monophysite وهم ينسبون إلى يعقوب البراذعى أحد زعمائهم. وقد ذكرت المصادر التاريخية أن هذا الإسلام نسبة إلى البطريرك ديسقورس نفسه لأن اسمه كان قبل تولى البطريركية «يعقوب» كما ذكرت هذه المصادر أنه يحتمل أن يكون الاسم نسبة إلى أحد تلاميذ ديسقورس واسمه «يعقوب» [١٠]. على أية حال: فقد كان اليعاقبة الأقباط الأرثوذكس - ولايزالون- يمثلون غالبية المسيحيين فى مصر.

وكان لهذه الطائفة بطريرك هو المسئول عن تنظيم الشئون الداخلية لجماعته ، وتحديد العلاقة بين أبناء هذه الطائفة والدولة . وقد تركت للجماعة القبطية حرية انتخاب البطريرك . ولم تكن الدولة تتدخل فى هذا الخصوص إلا بدافع من الرغبة فى الحصول على المال، أو بسبب شكاوى المنافسين[١١].

وقد أحصى المقريزى فى خططه ما يزيد على إثنتين وثمانين كنيسة لليعاقبة فى الوجه القبلى بعضها مستحدث بخلاف الكنائس التى تهدمت لأسباب مختلفة [١٢]. ونستطيع من خلال التركيز الشديد لكنائس الأقباط فى الوجه القبلى أن نستنتج أن غالبية الأقباط النصارى كانوا من سكان الصعيد. ونستدل على صحة هذا الفرض بما جاء فى بعض المصادر التاريخية من أن غالبية سكان بعض قرى الصعيد مثل أبنوب من النصارى [١٣]. كذلك ذكر المقريزى أن «طنبدى» كانت تسكنها غالبية مسيحية ، وأن «درنكه» بالقرب من أسيوط كانت قرية قبطية وأن أهلها يتحدثون اللغة القبطية ، كما ذكر أن المسيحيين من رعاة الأغنام كانوا يشكلون أغلبية سكان «بومقروفة» بالقرب من أسيوط أيضًا[١٤]. وكان لليعاقبة - كما ذكر المقريزى- تسع عشرة كنيسة فى القاهرة والفسطاط ، أما كنائس الوجه البحرى فقد ذكر منها خمس عشرة كنيسة ، على حين ذكر من كنائس الإسكندرية أربعا فقط[١٥].

١٠- القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ١٣ ، ص٢٧١ ؛ الخالدى، المقصد الرفيع ، (مخطوط) ، فى ١٣٩ . المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ص٤٨٨ .

١١- لمزيد من التفاصيل انظر قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى، (دار المعارف، ١٩٧٩ط. ثانية) ، ص١٠٦ يتبع .

١٢- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص٥١٦- ص٥١٨ .

١٣- ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، جـ٩ ، ص٤٦٩ .

١٤- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص٥١٧-٥١٨ .

١٥- المصدر نفسه، جـ٢ ص٥١٠-٥١٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن المنطقى أن الأعداد التى أوردها المقريزى ليست سوى صورة تقريبية . كما يجدر بنا أن نشير إلى أن هذا العدد لم يظل ثابتا طوال عصر سلاطين المماليك بسبب هدم بعض الكنائس أو بناء كنائس أخرى جديدة .

أما الأديرة ، فقد أحصى المقريزى منها ستة وثمانين ديرا، كان من بينها عدد قليل للسوريان والأحباش اليعاقبة[١٦].

وعرف تاريخ اليهود الطويل انقسامهم إلى عدة فرق دينية تزعم كل منها أنها صاحبة المذهب الأمثل والأقرب إلى أصول الديانة اليهودية. وتركز الخلاف بين تلك الفرق حول الاعتراف بأسفار التوراة والتلمود أو إنكار بعض هذه الأصول . وكانت الفرق اليهودية الثلاث بمصر زمن المماليك هى : الربانون ، والقراءون ، والسامرة.

أما الربانون (الربيون . الربانيون)، فقد كانوا يمثلون غالبية يهود مصر آنذاك ، وهذه التسمية تحريف للكلمة العبرية «ربانيم» التى تعنى الإمام أو الحبر أو الفقيه . وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء .. الآية »[١٧] ويعود سبب هذه التسمية إلى أن «الربانيون» أخذوا بتفسيرات أحبار اليهود وعلمائهم التى تضمنها التلمود[١٨]. والمشناه[١٩] . وقد ذكرت المصادر العربية أن الربانيين

١٦- المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٥٠٠ - ص٥١٠ ؛ قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة ، ص١٣١- ص١٣٦ . حيث توجد تفصيلات عن الأديرة ومبانيها ونظمها .

١٧- سورة المائدة : آية ٤٣ .

١٨- التلمود كلمة مشتقة من مصدر عبرى هو «لمدّ» التى اشتقت منها كلمة «تلميد» العبرية التى تعنى «تلميذ» فى اللغة العربية . وذلك لأن التلمود يعلم الفقه والدين وتفسير التوراة. وهو جزءان : «المشناه» و«الجمارا» والذى هو شروح «المشناه» ويضم التلمود بحوث أحبار اليهود التى كتبوها على مر السنين، وهو يتألف من ثلاثة وستين سفرا. وهناك تلمودان : أورشليمى، وبابلى، والتلمود الأورشليمى أقدم من البابلى، وكان يضم أربعة أسفار فقط من المشناه، ثم اكتشف السفر الخامس أخيرا وأضيف إليه، كذلك فإن الجمارا فيه ناقصة فى مواضع كثيرة . انظر حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى(معهد الدراسات العربية ١٩٧١) ، ص٩٥ ، ص١٠٨ ؛ مراد فرج ، القراءون والربانيون (القاهرة ١٩١٨)، ص٣٦- ص٤١ .

١٩- المشناه ، كتاب عبرى بمثابة التفسير للتوراة ، ويعتقد الربانون أنه سنة عن موسى أوحى بها الله=

فى مصر زمن المماليك تميزوا عن غيرهم من الفرق اليهودية بشروح لغوامض التوراة كتبها أحبارهم ، كما أنهم انفردوا بتلك التفريعات المنسوبة إلى النبى موسى عليه السلام . كذلك ذكرت هذه المصادر أنهم أباحوا تأويل نصوص التوراة،ولم يكونوا يعتقدون بسابق القدر[٢٠].

وقد ذكر ابن الوردى أنهم يشبهون المعتزلة فى الإسلام، والحقيقة أنه قد جانبه الصواب فى هذا التشبيه لأسباب كثيرة لانرى مجالا لذكرها ، بيد أننا نعتقد أن السبب فى هذا التشبيه بين الربانيين والمعتزلة هو أن هذا المؤرخ قد خلط بين الربانيين والفريسيين الذين كانوا يشكلون ما يشبه الجمعية من كبار أحبار اليهود وفقهائهم. وكلمة «الفريسيون» (تنطق فروشيم فى اللغة العبرية) تعنى المفروزين أو المعزولين، والسبب فى هذه التسمية أن أعضاء هذه الجماعة كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر معرفة من أى إنسان آخر بالشريعة اليهودية كما جاءت فى النصوص المقدسة. وثمة اسم آخر كان أعضاء هذه الجماعة يطلقونه على أنفسهم ، وهو اسم «حسيديم» أى الأتقياء، كما كانوا يسمون أنفسهم «حبريم» بمعنى الرفاق والزملاء . كذلك فإن الفريسيين أطلقوا على جمهور اليهود اسم «عوام الأرض» نظراً لأن الأفراد العاديين من اليهود كانوا يجهلون أصول الدين، ومن ثم فإنهم كانوا بحاجة إلى القيادة والتوجيه من جانب «الفريسيين» . والجدير بالذكر أن أحد الباحثين قد خلط بين جماعة الصفوة هذه من أحبار اليهود ، وبين عامة اليهود من أبناء الفرقة المعروفة بالربانيين أو «الربيين » وذلك على اعتبار أنهم فرقة واحدة من الفرق اليهودية التى عرفها تاريخ اليهود الطويل[٢١].

أما الفرقة الثانية، من فرق اليهود فى مصر آنذاك ، فهى طائفة «القرائين» الذين اشتق اسمهم من الكلمة العبرية التى تعنى «قرأ» . وذلك لأنهم لايؤمنون بغير التوراة المكتوبة التى

= إليه أثناء الأيام الأربعين التى قضاها فى طور سيناء ، وأمره ألا يكتبها وأن يبلغها شفويا. ولذا فإنها تعرف باسم «التوراة الشفوية» والمشناه تعنى «الثانى» ، أى الكتاب الثانى بعد التوراة وظلت المشناه تتداول شفويا حتى عصر «يهودا الناسى» الذى جمعها ودونها خوفا من النسيان أو التحريف وهى ستة أسفار .

٢٠- الخالدى ، المقصد الرفيع، ق١٤٠- ص١٤١ ؛ تاريخ ابن الوردى، ص٧٥ .

٢١- على عبد الواحد وافى، اليهودية واليهود (١٩٧٠) ص٨٤-٨١ . وعن الفريسيين انظر حسن ظاظا، الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص٢١٢- ص٢١٦ ؛ إسرائيل ولفنسون ، تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام (القاهرة١٩٤١) ص٢٠- ص٢١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يمكنهم قراءتها . ومن ثم فإنهم لم يكونوا يعترفون بما جاء فى التلمود أو فى غيره من الكتب التى اعترف بها الربانون[٢٢].

ويرجع بعض الباحثين أصل هذه الفرقة إلى «عنان بن داود» (ت ٨٠٠م) الذى دعا إلى مذهب جديد بسبب الخلاف الذى نشب بينه وبين أخيه الأصغر «حنانيا» حول تولى منصب رأس الجالوت (أى رئيس الطائفة اليهودية فى العالم الإسلامى) . ويرى هؤلاء الباحثون أن بعض علماء اليهود الذين تأثروا بالمعتزلة والمتكلمين المسلمين، كانوا فى ذلك الوقت قد أخذوا ينقدون تعاليم الربانين. ويخرجون على أحكام التلمود. وتزعم هذه الحركة الجديدة ثلاثة من علماء اليهود ، ووجد هؤلاء فى «عنان» ضالتهم المنشودة، نظراً للمكانة والنفوذ اللذين كان يتمتع بهما فنصبوه زعيمًا لحركتهم الانشقاقية . وقامت قيامة الربانيين فأسرعوا بالشكوى إلى الخليفة العباسى «أبى جعفر المنصور» الذى أمر بحبس «عنان» . ويروى أحد مؤرخى اليهود أن «عنان بن داود» التقى فى سجنه بالإمام «أبى حنيفة النعمان» الذى أشار عليه أن يدعى أنه صاحب دين جديد وليس ثائراً على رأس الجالوت . وقيل إن أتباع «عنان» بذلوا أموالاً جمة وجهوداً كبيرة حتى أطلق سراحه بشرط أن يرحل إلى فلسطين ، وانتقل عنان ورفاقه إلى فلسطين حيث شيدوا لأنفسهم معبداً ، وألف «عنان» كتابين ضمنهما أسس المذهب الجديد[٢٣]. إلا أن الدكتور حسن ظاظا يرفض رواية السجن ويقرر أنها رواية مختلقة من أساسها ، وينفى ما زعمه علماء الربانيين من تأثير القرائين بالشيعة ، وفى رأيه أن «عنان بن داود» كان تلميذاً للمعتزلة الذين وقفوا موقف الحذر من الروايات الشفوية فى الإسلام ، وتحرجوا من اعتبار الحديث النبوى مصدراً أساسيًا من مصادر التشريع الإسلامى ، وذلك هو جوهر رفض عنان للتلمود ، وليس حقده على الربانيين بسبب الصراع على منصب رئيس الجالوت [٢٤].

٢٢- مراد فرج ، القراءون والربانون ، ص٣٦- ص٤١ ؛ الخالدى، المقصد الرفيع، ق١١٠ ؛ القلقشندى صبح الأعشى، جـ١١ ، ص٢١٧ ؛ رحلة بنيامين التطيلى (ترجمة عزرا حداد بغداد١١٨١هـ) ص١٩٢ .

٢٣- عزرا حداد ، رحلة بنيامين التطيلى، ص١٩٢ ؛ على عبد الواحد وافى؛ اليهودية ص٩١- ص٥١ ، أنظر أيضًا: U. J . E . Art Karaites

٢٤- حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى، ص٢٩٥- ص١٠٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثمة مؤرخ من اليهود القرائين يعود بنشأة هذه الفرقة إلى عصر قديم سابق على العصر الذى عاش فيه «عنان» ويرى أن جذور القرائين، كفرقة دينية يهودية ، تعود إلى أعماق التاريخ اليهودى . حقيقة أن عنان» لعب دوراً هامًا فى تاريخ هذه الفرقة ، كما أنه أعاد القرائين إلى التقويم القمرى، مما زاد من اتساع الفجوة بين القرائين والربانين ، ولكن ذلك الانقسام لم يكن هو أول أدوار الانقسام التاريخى بين الطائفتين ، ولكنه جاء مكملا للانقسام الذى حدث منذ عصور موغلة فى القدم[٢٥]. ومما يؤكد كلام هذا المؤرخ أن المقريزى الذى كان صاحب دراية واسعة بهذه الأمور ذكر أن «العنانية» (نسبة إلى عانان بن داود » فرقة أخرى غير القرائين الذين أرجع تاريخ نشأتهم إلى فترة سابقة فى تاريخ اليهود[٢٦]. وتتفق دائرة المعارف اليهودية مع المقريزى فى هذا[٢٧].

وعلى أية حال ، فإن مؤرخى عصر سلاطين المماليك اعتبروا أن كلا من الربانيين والقرائين بمثابة الفرقة اليهودية الواحدة. على الرغم من تفهمهم لحقيقة الخلافات بين الجانبين .

أما «السامرة» فقد كانوا أقلية صغيرة العدد فى مصر أيام سلاطين المماليك كما يتضح من الوثائق [٢٨]. وعلى الرغم من أن الباحثين اليهود (قراءون وربانون) لايعتبرون السامرة فرقة يهودية فالواضح أن الدولة آنذاك قد عاملتهم على أساس أنهم فرقة يهودية تنطبق عليهم شروط أهل الذمة[٢٩].

يرجع تاريخ هذه الفرقة إلى الفترة التى أعقبت تدمير مملكة إسرائيل التى انشقت على مملكة سليمان بعد وفاته. وقد تدمير تم هذه المملكة على يد الملك الآشورى «تغلت فلا سر» فى سنة ٧٣٨ ق.م . وقد أجلى اليهود عن فلسطين وأسكنهم فى منطقة شمال إيران الحالية . وجلب بعض القبائل لتسكن فى مدينة السامرة القديمة بدلاً من اليهود . ويعتمد أصحاب هذا

٢٤- حسن ظاظا، الفكر الدينى الإسرائيلى، ص٢٩٥- ص١٠٦ .

٢٥- مراد فرج ، القراءون والربنون ، ص٤١ .

٢٦- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ص٤٧٢- ص٤٧٦ .

٢٧- U. J. E., Art. Karaites.

٢٨- ابن فضل الله العمرى، التعريف ، ص١٤٤ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١١ ، ص١٩١ .

٢٩- المصدر نفسه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرأى فى نشأة السامرة على نص الكتاب المقدس الذى يحكى هذه الحادثة[٣٠] وهم بهذا يصمون السامرة بأنهم حثالة من الأجانب المتعاونين مع أعداء اليهود .

ويذهب البعض إلى أن نشأة السامرة ترجع إلى أيام السبى البابلى سنة ٥٨٦ ق.م لأنهم بنوا هيكلهم المقدس فوق جبل جرزيم القريب من مدينة نابلس فى هذا التاريخ[٣١]. ويتهم اليهود أبناء هذه الطائفة بأنهم تعاونوا مع الرومان ضد اليهود أثناء ثورتهم ضد الحكم الرومانى، وأن المكافأة التى منحها الرومان للسامرة لقاء هذا هى إعادة بناء مدينة السامرة القديمة (شيكيم) وأطلق عليها اسم «فلافيا نيابوليس Flavia Neapolis » التى عرفت باسم نابلس فيما بعد[٣٢] .

إلا أن التطورات التى أعقبت انتصار المسيحية بحيث صارت هى الديانة الرسمية لأباطرة الرومان، سببت الكثير من المتاعب والاضطهادات التى شملت اليهود والسامرة . ومن ثم تقارب الطرفان ، واعتبر اليهود أن السامرة فرقة يهودية ذات صبغة خاصة، وأضيف إلى التلمود فصل خاص بالسامرة هو سفر «الكوتيين» الذى ينظم العلاقات بين السامرة واليهود من أبناء الطوائف الأخرى.

ولايعترف السامرة سوى بأسفار موسى الخمسة مما جعل بعض المصادر العربية تقول بأن لهم توراة خاصة غير القرائين والربانيين. كذلك أنكر السامرة نبوة من أتى بعد «موسى» فيما عدا «يوشع» «وهارون» . أما قبلتهم فهى جبل الجزريم قرب نابلس ، وهم يقدمون أضاحيهم على هذا الجبل الذى يزعمون أن الله كلم موسى عليه، ولهم لهجة عبرية خاصة ، ولغة خطية متمايزة يزعمون أنها العبرية الصحيحة كما وصلتهم من عهد موسى عليه السلام[٣٣].

٣٠- الملوك الثانى: ١٧ .

٣١- مراد فرج ، القراءون والربانون ، ص١٣-١٨ ؛ حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى، ص٢٤٧-٢٤٨ .

٣٢- عزرا حداد ، رحلة بنيامين ، ص١٨٥-١٩٠ .

٣٣- القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ١٣، ص٢٦٨- ص٢٦٩ ؛ ابن القيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، جـ١ . ص٩٠- ص٩٢ ؛ عزرا حداد، المرجع السابق، ص١٨٥- ص١٩٠ ؛ حسن ظاظا ، المرجع السابق . ص٢٤٩ .

أما زعيم الطائفة اليهودية فى مصر ، فقد عرفته المصادر والوثائق التى ترجع إلى عصر سلاطين المماليك باسم «رئيس اليهود» ، كما أطلقت عليه اسم «الرئيس» . أما الاسم العبرى فهو «الناجد». ومعناها الزعيم أو الأمير . وبينما يرى بعض الباحثين أن وظيفة الناجد أو رئيس اليهود فى مصر كانت من نتائج الفتح الفاطمى الذى ترتب عليه استقلال مصر عن الخلافة العباسية ، وبالتالى عدم تبعية يهود مصر لرأس الجالوت فى عاصمة الخلافة[٣٤]، يرى البعض الآخر أن هذه الوظيفة قد أنشئت فى مصر فى فترة لاحقة[٣٥].

وعلى أية حال ، فقد تمتع رئيس اليهود بسلطات واسعة على أبناء الطائفة اليهودية ، كما كان له حق الإشراف على شئون الطوائف الثلاث فى بداية ذلك العصر. كذلك كان عليه تنظيم علاقة اليهود بالدولة . كما كان من حقه تنظيم شئونهم الدينية واختيار واحد من كل فرقة يهودية لتنظيم شئون الفرقة[٣٦] ويبدو أنه قد أصبح لكل من السامرة والقرائين رئيس مستقل فى فترة متأخرة من عصر سلاطين المماليك [٣٧].

وقد أحصى المقريزى أحد عشر معبداً يهوديًا فى القاهرة والفسطاط والأقاليم[٣٨]. ويبدو من بعض وثائق الجينيزا التى نشرها «Mann» أن أعمال صيانة وإصلاح المعابد اليهودية كانت تتم عن طريق الهبات والتبرعات التى يدفعها بعض أثرياء الطائفة اليهودية[٣٩]. وتكشف أعداد المعابد اليهودية الضئيلة عن أن يهود مصر آنذاك كانوا أقلية ضئيلة بالفعل .

٣٤- Mann, (J.), The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs (Oxford 1920) , I, pp. 251-252 .

٣٥- Bosworth (C.E.) "Christian and Jewish digntaries in Mamluk Egypt" (J. M. E. S., Jan . 1972) II, pp. 210-211 .

٣٦- ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور ، ص٢١٦- ص٢١٧ ؛ ابن فضل الله العمرى التعريف ، ص١٤٢- ص١٤٣ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى؛ جـ١ ، ص١٨٨- ص١٠٠ .

٣٧- انظر مناقشة هذا الموضوع بالتفصيل فى كتابنا ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى، ص١١٥- ص١١٧ .

٣٨- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ص٤٦٣ .

٣٩- Mann, op. cit., I, p. 247 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه هى طوائف الأقليات الدينية التى عرفها المجتمع المصرى زمن المماليك، ويبقى علينا أن نناقش موقف سلاطين المماليك من هذه الأقليات ، ومحاولة تفسير هذا الموقف فى ضوء النظرية السياسية التى قام عليها حكم أولئك السلاطين من جهة ، والمفاهيم السياسية التى كانت تحركهم من جهة ثانية. وهو ما يسهل علينا دراسة دور أبناء هذه الأقليات فى الحياة الاجتماعية ومدى تفاعلهم مع المجتمع الذى ينتمون إليه .

فعلى الرغم من أن النظرية السياسية للدولة الإسلامية ظلت تمثل الإطار العام لكل من الدول التى قامت فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى فى العصور الوسطى، فإن طبيعة نظام الحكم فى دولة سلاطين المماليك جعلت لهذه الدولة خصائص ميزتها كظاهرة متفردة[٤٠] . فلم تكن النظرية السياسية لهذه الدولة قائمة على مبدأ الوراثة فى الحكم، أو التفويض الشعبى أو الانتخاب بل قامت على أساس التنافس بين الأمراء على السلطنة . ومن ثم اتخذت العلاقة بين سلاطين المماليك ورعاياهم من أهل الذمة طابعًا خاصا . وفى هذا المجال حرص السلاطين على تقرير التزامهم العدالة تجاه أبناء الأقليات الدينية- عملاً بتعاليم الدين الإسلامى- من ناحية ، كما أنهم مارسوا عليهم ضغوطًا شتى إرضاءً لأهل العمامة الذين اعتمد عليهم السلاطين كثيراً نظراً لنفوذهم الواسع من ناحية أخرى، كما أن الثروات التى اقتناها بعض اليهود والنصارى- نتيجة عملهم فى الجهاز الإدارى- كانت تسيل لعاب السلاطين ، لاسيما فى أوقات الشدة ، فيبادرون إلى مصادرتها . وهنا ينبغى أن نشير إلى أن المصادرة كانت سمة عامة من سمات السياسة الداخلية فى عصر المماليك ولم تكن انطلاقًا من دوافع دينية . وإنما كانت تعبيراً عن طبيعة علاقة أولئك الحكام العسكريين برعاياهم من المسلمين وأهل الذمة على السواء [٤١].

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الحروب الصليبية قد خلفت فى العالم الإسلامى كله تراثًا يفيض بالمرارة والعداء تجاه الغرب المسيحى، كما جعل الدولة تتشكك كثيراً فى ولاء رعاياها من المسيحيين الملكانيين على وجه الخصوص . وقد زادت الحملات الصليبية المتأخرة من هذه الشكوك[٤٢]. كما أن علاقات الدولة بالقوى العالمية المعاصرة كانت تؤثر على أحوال المسيحيين ، بالذات، إما سلبًا أو إيجابًا .

٤٠- انظر مدخل هذه الدراسات .

٤١- عن تفاصيل العلاقة بين السلاطين ورعاياهم من اليهود والمسيحيين انظر كتابنا، أهل الذمة ، ص٦٣- ص١٠١ .

٤٢- Atiya (A.S.) The Crusades in the latter Middle Ages (London 1938) pp. 272-73 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن ناحية أخرى ، احتل أبناء الأقليات الدينية مكانة هامة فى جهاز الدولة الإدارى. والواقع أنه منذ سمح المسلمون للمسيحيين واليهود بأن يحلوا محل الموظفين البيزنطيين تكونت منهم فئة من الخبراء فى شئون المال والإدارة- لاسيما من الأقباط- لم تستطع الدولة الاستغناء عنهم على الرغم من كل المحاولات التى بذلت فى هذا السبيل، والحملات الضارية التى شنها ضدهم القضاة والفقهاء المسلمون. فقد أمسى وجودهم فى الإدارة الحكومية ضروريًا بحيث لا يمكن الاستغناء عنهم فى دواوين السلطان والأمراء .

وقد فزع المسلمون من نفوذ أبناء هذه الأقليات الناتج عن توليهم لوظائف الإدارة المالية. فاتهموهم بالتحكم فى مقدرات المسلمين ، وبأنهم استخدموا نفوذهم «.. فى دفع من يتعرض لهم ..» ، وغير ذلك من التهم [٤٣].

وعلى أية حال، فإنه يهمنا أن نركز فى هذه الدراسة على دور الأقليات الدينية فى الحياة الاجتماعية آنذاك فقد شارك اليهود والنصارى فى نشاط المجتمع المصرى الذى كانوا جزءًا لايتجزأ منه، يتأثرون بأحداثه الجارية ويؤثرون فيها، ، كما يخضعون للظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية التى يخضع لها المجتمع .

ففى تظاهرات الاستقبال السياسية- التى كانت سمة عامة من سمات الحياة المصرية فى عصر المماليك- كان أبناء الطوائف اليهودية والمسيحية يشاركون المصريين المسلمين فى استجابتهم لأوامر السلطات الحاكمة (ممثلة فى الوالى أو المحتسب) بتزيين الحوانيت والأسواق والتجمع على طول طريق الموكب السلطانى وهم يحملون كتبهم المقدسة والشموع الموقدة مشاركة منهم فى هذه المناسبة. ومن الأمثلة التى تحفل بها المصادر التاريخية على هذا ما حدث سنة ٦٥٨هـ. (١٢٦٠م) حين أعاد السلطان الظاهر بيبرس إحياء الخلافة العباسية بمصر؛ فقد خرجت كافة طوائف المصريين للقاء الخليفة العباسى «أبو القاسم أحمد» وبينهم اليهود يحملون التوراة والنصارى يحملون الأناجيل[٤٤]، وأثناء عودة الظاهر برقوق إلى عرش

٤٣- الإسنوى، الكلمات المهمة فى مباشرة أهل اذمة (مخطوط) ق٩ ، ق٣٠-٢٢ ؛ ابن النقاش ، المذمة فى استعمال أهل الذمة (مخطوط) ق٩٦- ق٩٧ ؛ ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة، ص٣٩ ، ص٤١ ابن أيبك الدوادار ، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، ص٤٧-٥٠ .

٤٤- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٧، ص١٠٩ .

السلطنة فى سنة ٧٩٢هـ. (١٣٩٠م) تكررت هذه التظاهرة السياسية التى رتبها أنصاره وشارك فيها اليهود والنصارى. وفى العام نفسه استقبله المصريون. المسلمون واليهود والنصارى، بتظاهرة مماثلة لدى عودته من إحدى رحلات الصيد . وفى سنة ٨٨٠هـ خرج المصريون وبينهم اليهود والنصارى لاستقبال السلطان الأشرف قايتباى بمناسبة عودته من رحلة صيد(٤٥).

ومن الناحية الاقتصادية ساهم المسيحيون واليهود فى أعمال صيانة مرافق الرى مثل حفر الترع وبناء الجسور وما إلى ذلك . وكان اشتراكهم فى مثل هذه الأعمال يتم برغبتهم فى بعض الأحيان، أو بإجبارهم وتسخيرهم مثل سائر المصريين أحيانًا أخرى.

ففى سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) حدث أن جفت مياه النيل تجاه ساحل القاهرة بحيث صارت المياه ضحلة وملوثة لاتصلح للشرب، فارتفعت أسعار المياه. وتم الاتفاق على بناء جسر على شاطئ النيل من ناحية الجيزة باتجاه القاهرة. وتقرر جمع نفقات بناء هذا الجسر من كافة طوائف الرعية بما فى ذلك اليهود والنصارى، ولم يعف أحد من أداء هذه الضريبة الطارئة، بل إن الدولة أخذتها أيضًا من الجوامع والمساجد والخوانق والزوايا والأديرة والكنائس فضلاً عن المنازل والحوانيت (٤٦). وفى سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م) ركب السلطان «المؤيد شيخ المحمودى» إلى موقع العمل فى شق خليج جديد من النيل، ونودى بخروج الناس للعمل فى هذا المشروع ، وألزم والى القاهرة اليهود والمسيحيين بالخروج ضمن طوائف الرعية للمساهمة فى أعمال الحفر(٤٧). وفى جمادى الأولى من العام نفسه. خرج الأمير «صارم الدين ابراهيم» ابن السلطان ، لتفقد سير العمل فى المشروع وألزم الناس من المسلمين وأهل الذمة بالخروج ليعملوا فى الحفر لمدة يومين(٤٨).

ويغلب على الظن أن الأقباط قد انفردوا بالمشاركة فى النشاط الزراعى فى البلاد ، على اعتبار أن الزراعة هى المهنة الرئيسية للمصريين منذ القدم، وقد احتفظ الأقباط الذين لم يعتنقوا الإسلام. بأراضيهم على مر السنين منذ أمر الخليفة عمر بن الخطاب بأن يعامل

٤٥- ابن الفرات ، تاريخ الدولة والملوك ؛ ص١٩٩ ؛ ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ١٢ ، ص١٣ .

٤٦- المقريزى، الخطط ، ج، ص١٦٧ .

٤٧- المقريزى، السلوك ، جـ٤ ص٣١٣ ، ص٣١٤ ؛ العينى، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد، ص٣٣٢ .

٤٨- المقريزى : المصدر السابق، جـ٤ ، ص٣١٧- ص٣١٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصريون على أساس أن بلادهم فتحت صلحًا ، وهو ما يعنى أن يحتفظوا بالأرض مقابل ضريبة الخراج[٤٩]. أما جوانب النشاط الاقتصادى الأخرى التى مارسها اليهود والمسيحيون المصريون، فقد تنوعت ما بين التجارة والصناعات الصغيرة ، وبعض المهن الأخرى .

وفيما يتعلق باليهود فقد أثبتت الدراسات التى اعتمدت على وثائق الجنيزا أن عدد يهود مصر فى عصر سلاطين المماليك كان ضيئلا [٥٠]. وهو ما تؤيده أقوال بنيامين التطيلى عن أعداد اليهود فى العصر الأيوبى ، ولايبدو معقولاً أن يزيد عدد يهود مصر زيادة كبيرة خلال فترة تقل عن قرن من الزمان . كذلك فإن قلة عدد معابدهم تدل على ضآلة عددهم كما أسلفنا القول .

وعلى أية حال فإنه يبدو أن اليهود قد عملوا فى مختلف الحرف التى عرفها المجتمع المصرى آنذاك. ولاسيما النشاط المصرفى والأعمال المالية[٥١]. كذلك كان لبعض اليهود صناعات صغيرة يتعيشون منها ، فقد ذكر «ابن دقماق» أنه كانت توجد بالقاهرة ثلاثة مطابخ للسكر يملكها ثلاثة من اليهود. كما ذكر أنه كان لليهود سوق يعرف باسمهم فى القاهرة [٥٢]. ويستفاد من إحدى وثائق دير سانت كاترين أن بعض نساء اليهود كنّ يعملن كدلالات[٥٣] وكانت الدلالة تقوم بالمرور على السيدات فى منازلهن لعرض ما يحتجن إليه من ملبوسات أو مفروشات وغيرها ، مما يوفر عليهن مشقة الخروج إلى الأسواق، إذا كن من الشرائح الاجتماعية الثرية [٥٤].

وقد عمل بعض اليهود فى مهنة التنجيم وحاز فيها شهرة واسعة ، فقد ذكر ابن دقماق أن يهوديًا كان يمتلك حانوتًا فى القاهرة يمارس فيه مهنة التنجيم مدة تزيد على أربعين سنة حتى

٥٠- Bosworth, Chrisitian and Jewish dignitaries, I pp. 65-66 .

٥١- المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٤٤٣ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى، ص٤٠- ص٤١ ؛ تريتون ، أهل الذمة فى الإسلام (ترجمة د. حسن حبشى) ص٣٠٧ .

٥٢- ابن دقماق ، الانتصار، جـ٤ ، ص٤١ ، ص٤٢- ص٤٤ .

٥٣- س. ك . وثيقة رقم ٢٥٢ (تاريخها ١٦ صفر سنة ٨٨٩هـ) .

٥٤- Ahmed Abd Arraziq , La femme au temps des Mamlouks en Egypte (Insitut Francait d'Archéologie du Caire) pp. 63-64 .

اشتهر المكان باسمه[٥٥]. ويتضح من بعض وثائق الجنيزا التى تعود إلى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أن بعض اليهود كانوا يعملون فى حرفة النسخ . فهذه الوثيقة عبارة عن خطاب من يهودى يعمل ناسخًا متجولاً بأقاليم البلاد إلى زوجته [٥٦].

أما المسيحيون ، فقد ساهموا بطبيعة الحال فى كافة مناحى النشاط الذى مارسه المجتمع المصرى فى ذلك الحين، ويبدو أثرهم واضحًا فى النشاط التجارى الداخلى، مثلاً ، فيما أوضحته بعض كتب الحسبة من أن بعض مثاقيل الموازين كانت تحمل كتابة عربية على أحد وجهيها ، وتحمل على الوجه الآخر كتابة قبطية[٥٧]. كما يتضح من وثائق سانت كاترين أن المسيحيين من الملكانيين واليعاقبة قد عملوا فى النشاط التجارى الداخلى والخارجى على حد سواء[٥٨]. كما تكشف إحدى وثائق بطريركية الأقباط الأرثوذكس أن بعض المسيحيين قد اشتغلوا بالبيطرة ، إذ تذكر الوثيقة اسم «المعلم شحاته النصرانى اليعقوبى البيطار بالفحامين»[٥٩].

وهكذا يتضح لنا من هذه الأمثلة أن أبناء الأقليات الدينية سواء من اليهود أو من المسيحيين قد مارسوا كل المهن والحرف التى مارسها المسلمون تقريبًا. ومن ناحية أخرى فإن الوثائق تشير بوضوح إلى أن اليهود والنصارى قد تملكوا العقارات فى شتى أنحاء البلاد إما عن طريق البيع والشراء، وإما عن طريق الوراثة[٦٠]. كما تدل هذه الوثائق على أن اليهود والمسيحيين كانوا يتعاملون مع المسلمين فى عمليات البيع والشراء فى حرية تامة فى ظل

٥٥- ابن دقماق ، الانتصار : جـ٤ ، ص٤٩ .

٥٦- Mann, The Jews, I, p. 242 .

٥٧- ابن بسام ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة (بغداد ١٩٦٨)، ص١٨٦ .

٥٨- س. ك . وثيقة رقم ٢٥٦ (تاريخها سنة ٨١٠هـ) ، ورقم ٢٦٢ (سنة ٨٥٤هـ) ، ورقم ٢٩٥ (سنة ٨٨٢هـ) ورقم ٢٥٨ (سنة ٨٤٩هـ) .

٥٩- ب. أ، رقم ٢٣ .

٦٠- س. ك. ، رقم ٢٥٢ (٨٨٩هـ) رقم ٢٥ (سنة ٩٠٧هـ)، رقم ٢٥٨ (سنة ٨٤٩هـ) ورقم ٢٦٢ (سنة ٨٥٤هـ) ، ورقم ٢٩٥ (سنة ٨٨٢هـ) ، انظر كذلك السخاوى، التبر المسبوك ، ص٣٦- ص٣٨ ؛ ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص٤١- ص٤٢ .

القوانين الحاكمة آنذاك [٦١]. بل إن لدينا وثيقة تشير إلى المدين (وهو مسيحى) قد أحال الدائن (وهو مسيحى أيضًا) على أحد تجار «مدينة الطور» المسلمين لكى يضمنه فى تأجيل سداد دينه ، ويتضح من هذه الوثيقة أن الدائن قبل بالفعل تأجيل الدين للسنة التالية «... لعلمه بحاله أنه لايقدر عليه...»[٦٢]. ولدينا المزيد من الوثائق التى توضح أن التعامل فى مسائل البيع والشراء كان يتم بين اليهود والنصارى والمسلمين فى شكل طبيعى يكشف عن أنهم جميعًا تساووا فى حقوقهم فى هذا المجال [٦٣].

كذلك كانت تصرفات أبناء الأقليات الدينية القانونية ، مثل البيع، والرهن ، والوقف ومصادقة شرعية، واستيفاء الديوان ، وتصفية التركات... وغير ذلك ، تتم على يدى أحد القضاة المسلمين[٦٤]. ويتضح من وثائق سانت كاترين ووثائق بطريركية الأقباط الأرثوذكس ، أنه فى بعض الأحيان كان الشهود على هذه التصرفات القانونية من المسلمين[٦٥]. وفى أحيان أخرى كان بعضهم من الذميين [٦٦].

ومن الناحية الاجتماعية ، تشير المصادر المتوفرة لدينا إلى أن أهل الذمة قد تمتعوا بحرياتهم الاجتماعية داخل إطار الحياة العامة للمجتمع ككل ؛ بل إن بعض الوثائق اليهودية المعروفة باسم «الجنيزا» كتبت بأيدى بعض المسلمين والمسيحيين الذين كانت تربطهم باليهود علاقة من نوع ما [٦٧]. ولكن هذه الحريات الاجتماعية كانت تخضع ، من حين لآخر ، لبعض

٦١- س. ك. أرقام ٢٥٥، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ .

٦٢- س. ك. رقم٢٨٣ (وثيقة مصادقة شرعية. آخر محرم سنة ٨٠١هـ) .

٦٣- س.ك. رقم ٢٥٣ (وثيقة مصادقة شرعية ١٦ صفرسنة ٨٨٩هـ).

٦٤- س.ك. رقم ٢٤١ (بيع)، ، ٢٦٢ (بيع) ، ٢٥٥ ، ٢٥٠ (بيع) ٢٥٤ (بيع) ، ٢٤٤ (مصادقة شرعية) . ٢٥٩ (وقف) ، ٢٦١ (بيع) ، ٢٨٣ (إقرار بدين)، ب . أ، أرقام ٨ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٣ (وقف) .

٦٥- س. ك. أرقام ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ب. أرقام ٨ ، ١٦ .

٦٦- س.ك . أرقام ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٨٢ حيث نجد أن الشهود جميعا من المسيحيين، ب . أ، رقم ٨ .

٦٧- Rabie, The financial System of Egypt A. H. 567-741- 1169 / 1341 . (Oxford University Press1972),p. 3 .

القيود التى كانت الدولة تفرضها لسبب أو لآخر . بيد أن ذلك لم يمنع أبناء الأقليات الدينية من القيام بدورهم فى المجتمع والمشاركة الإيجابية فى الحياة اليومية، التى يؤثرون فيها بقدر ما تسمح ظروف تعدادهم وأوضاعهم الاجتماعية، ويتأثرون ، بأحداثها ومجريات الأمور فيها .

ولعل الظاهرة الطبيعية والجغرافية الأولى فى مصر هى نهر النيل الذى قامت عليه حياة المصريين منذ العصور السحيقة وحتى الآن . وفى جميع العصور أدرك المصريون ومن جاوروهم أو خالطوهم أهمية نهر النيل فى حياة مصر والمصريين باعتباره الشريان الرئيسى لحياة البلاد وساكنيها . ومن ثم فإن القلق الذى يسود البلاد، فى حالة انخفاض مياه النهر أو تأخر الفيضان ، كان يشمل اليهود والمسيحيين المصريين بطبيعة الحال ؛ فيخرجون مع غيرهم من أبناء مصر إلى الصحراء لأداء صلاة الاستسقاء يحملون كتبهم المقدسة، ويبتهلون إلى الله تعالى أن يجرى مياه النيل .

وقدأمدتنا المصادر التاريخية العربية بالكثير من الأمثلة الدالة على هذا منها ما حدث سنة ٧٧٥هـ (١٣٧٣م) حين توقفت مياه الفيضان عن الزيادة ، واختفى الخبز من الأسواق وبدأ شبح المجاعة بوجهه المرعب يتهدد البلاد ؛ فخرجت جموع المصرين وبينهم اليهود والمسيحيون على اختلاف مشاربهم إلى الصحراء لصلاة الاستسقاء[٦٨] . وفى سنة ٨٥٤هـ (١٤٥٠م) نقص النيل وانخفض منسوب المياه ، فاشتد قلق الناس ، وخرجت جموعهم ، كما خرج اليهود والنصارى إلى الصحراء حيث ظلوا معظم ساعات النهار يبكون ويضرعون إلى الله أن يزيل عنهم هذه الشدة [٦٩].

وظهر تأثير اليهود والنصارى واضحًا فى عادات وتقاليد المجتمع المصرى آنذاك فيما أشار إليه ابن الحاج من أن بعض نساء المسلمين كنَّ يأتين بعض التصرفات فى حياتهن تبدو التأثيرات اليهودية والمسيحية فيها واضحة تامًا . فقد اعتادت بعض النساء ألا يشترين السمك ، أو أكله أو إدخاله فى بيوتهن يوم السبت (ومن المعروف أن اليهود قد حرموا على أنفسهم صيد السمك أو أكله يوم السبت) كما أن بعض النسوة تعودن عدم دخول الحمام

٦٨- ابن إياس ، بدائع الزهور (ط. بولاق) ، جـ١ ، ص٢٢٩ .

٦٩- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة . (ط. كاليفورنيا) ، جـ٧ ، ص٢٠٦-٢٠٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو شراء الصابون وغسل الثياب فى يوم السبت متأثرات فى ذلك ببعض العادات اليهودية المتعلقة بحرمة يوم السبت، كما ظهر تأثرهن بالعادات المسيحية فى عدم الاشتغال بشئ فى ليلة الأحد . وإذا كانت المرأة حائضًا لاتكيل القمح أو غيره من الطعام ولاتدخل إلى مكان الطعام(٧٠) والمعروف أن اليهود يعتبرون الحيض نجاسة شاملة للمرأة يجب تجنبها .

كذلك ذكر ابن الحاج أن من عادات نساء مصر فى ذلك الزمان أنهن كن يمنعن خروج أوانى المنزل بعد العشاء ، وأنهن اعتدن شراء اللبن فى أول ليلة من شهر المحرم (بداية السنة الهجرية) تفاؤلا منهن بأن تكون السنة كلها بيضاء(٧١). كما كان من عادات المصريين أنهم لاينظفون البيت أو يكنسونه عقب سفر أى من أهل البيت ويتشاءمون إن هم فعلوا ذلك خشية ألا يعود المسافر مرة أخرى(٧٢).

ومن العادات الاجتماعية التى أثارت احتجاج ابن الحاج واستنكاره ، باعتبارها ذات أصل غير إسلامى، تلك العادة التى أشار إليها بقوله : «إذا نزلت الشمس فى برج الحمل فيخرجون فى صبيحة يومهم ذلك رجالاً ونساء وسبانًا ، يجمعون شيئًا من نبات الأرض يسمونه بالكركيس فيقطعون ذلك من موضعه بالذهب والفضة والخواتم النفيسة والأساور وغير ذلك ، ويتكلمون بكلام أعجمى يحتمل أن يكون كفراً ويجعلون ما يقطعونه من تلك الحشيشة فى خرائط مصبوغة بالزعفران ثم يجعلون الخريطة فى صندوق ويزعمون أن ذلك ما دام فى البيت يكون سببًا لإكثار الرزق عليهم... »(٧٣).

ويبدو أن تأثير اليهود والمسيحيين فى العادات والتقاليد المصرية فى عصر سلاطين المماليك كان واضحًا لدرجة أثارت استياء ابن الحاج الذى يشكو أسفا من أن المصريين المسلمين «... وضعوا تلك العوائد موضع السنن ... »(٧٤). وفى رأينا أن هذا كان ميراثًا ثقافيًا للمصريين جميعا بغض النظر عن دياناتهم .

٧٠- ابن الحاج ، المدخل، جـ١ ، ص٢٧٨- ص٢٧٩ ، جـ٢ ، ص٦٨ .

٧١- المصدر نفسه ، جـ١ ، ص٢٧٩ .

٧٢- المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٦٧ .

٧٣- ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص٢٨١ .

٧٤- المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٦٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولعل من أكبر الدلائل على أن روح الوئام الاجتماعى قد سادت فى كثير من الأحيان بين المسلمين وأبناء الأقليات الدينية فى ذلك العصر ما حدث سنة ٧١٤هجرية (١٣١٤م) حين استعار الأقباط بعض قناديل وأثاث جامع عمرو بن العاص لكى يستخدموها فى أحد اجتماعاتهم الدينية فى الكنيسة المعلقة بمصر القديمة[٧٥] . وهو ما يبعث على الاعتقاد بأن ثمة علاقات ودية وطيدة كانت تربط بين أبناء الأقليات الدينية وغيرهم من المصريين فى ظروف الحياة العادية . وتحفل مصادر ذلك العصر بالكثير من الأمثلة التى تحمل من الدلائل على روح الوئام الاجتماعى ما لايمكن تجاهله .

ومن ناحية أخرى ، كان للمسيحيين واليهود نصيبهم من الأمراض الاجتماعية المتفشية فى مصر آنذاك. وهو أمر طبيعى باعتبارهم جزءاً يرتبط عضويًا بالكل المصرى. وطبيعى أنهم خضعوا للعقوبات ذاتها التى كانت توقع على كل من يرتكب هذه الجرائم . بيد أن هناك اختلافًا بين عقوبة المسلم وعقوبة غير المسلم، وهو ما يتوافق مع روح الشريعة الإسلامية . ففى إحدى الحوادث زنى نصرانى بإحدى المسلمات فرجم الاثنان حتى الموت، وأحرقت جثة النصرانى ودفنت المرأة [٧٦]. ومن الطريف أن جريمة مماثلة وقعت بين يهودى ومسلمة من بنات الطبقة الحاكمة فاختلفت العقوبة رجم اليهودى حتى الموت ثم أحرقت جثته وصودرت أمواله، على حين اكتفى بحبس المرأة [٧٧]. وفى جريمة أخرى زنى يهودى متزوج بيهودية ، ونجا الاثنان من عقوبة الرجم بفضل تدخل بعض أصحاب النفوذ ، مما أثار استياء واستنكار المؤرخ تقى الدين المقريزى [٧٨]. كذلك كان على المحتسب - من الوجهة النظرية على الأقل- إذا رأى مسلمًا يشرب الخمر علنًا أن يريقها ويؤدبه ، أما إذا كان الفاعل من أهل الذمة اكتفى المحتسب بتأديبه لأنه يشربها علنًا[٧٩]. ويبدو أن هذه العقوبة لم تكن تنفذ فى كثير من الأحوال ، إذ

٧٥- المقريزى، السلوك ، جـ٤ ، ٤١٠ ؛ السيوطى، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة جـ٢ ص٢١٨؛ ابن حجر ، إنباء الغمر، جـ٣ ، ص١١١ .

٧٦- المقريزى، السلوك ، جـ٢ ص١٣٥ ص١٣٦ ؛ النويرى، نهاية الأرب، جـ٣ (مخطوط) ص٢٩٦- ق٢٩٩ .

٧٧- تاريخ ابن الوردى، جـ٢ ص٣٠٦ .

٧٨- المقريزى، المصدر السابق، جـ٤ ، ص١٢١١ - ص١٢١٢ .

٧٩- ابن الأخوة ،معالم القربة، ص٣٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يذكر «ابن الحاج» أن النصارى كانوا يشربون الخمر علنًا فى عيد النيروز ويقلدهم فى ذلك بعض العامة من المسلمين[٨٠].

ويبدو أن أبناء الأقليات اليهودية والمسيحية فى عصر المماليك قد كونوا الثروات الطائلة، وتباهوا بمظاهر العز والرفاهية نتيجة لعملهم فى الجهازين المالى والإدارى لدولة سلاطين المماليك مما جعلهم هدفًا لمطامع السلاطين وأمراء المماليك التواقين إلى جمع المال عن أى طريق من ناحية، وامتصاصهم لأحقاد عامة المسلمين المطحونين تحت أعباء «المظالم» و«المغارم» التى كانت أعباؤها تتزايد عليهم فى ذلك العصر من ناحية ثانية ، فضلاً عن أن الأوبئة والأزمات الاقتصادية التى أرهقت كاهل المصريين جميعًا ، والتى زاد معدل وقوعها فى أواخر ذلك العصر، جعلت الفقراء يتطلعون بعيون ملؤها الحسرة والحقد نحو أولئك الذميين الذين رأوا فيهم أدوات السلطة فى ابتزازهم .

وينهض دليلاً على ذلك ما ذكره المقريزى من أن اليهود والنصارى «... قد تزايد ترفهم بالقاهرة ومصر، وتفننوا فى ركوب الخيل المسومة ، والبغلات الرائعة بالحلى الفاخرة ، ولبسوا الثياب السرية. وولوا الأعمال الجليلة...»[٨١]. كما أن ابن الأخوة الذى عاش فى الفترة التى تحدث عنها المقريزى (القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى) يقرر أن دور المسيحيين واليهود فى مصر كانت تعلو على دور المسلمين ومساجدهم ، وأنهم اتخذوا لأنفسهم ألقاب المسلمين وكناهم ، كما ذكر أن اليهودى أو النصرانى من موظفى الدولة كان يسير بدابته والمسلم يجرى فى ركابه يطلب منه قضاء حاجة له. أما النساء الذميات فكن يتمتعن باحترام الجميع فى الحمامات والأسواق، لأن ملابسهن كانت عادية بحيث أن أحداً لم يكن ليميزهن عن النساء المسلمات[٨٢].

ويستفاد من إحدى وثائق مجموعة سانت كاترين[٨٣]. أنه إذا اشترى أحد أبناء الأقليات الدينية داراً تعلو على دور جيرانه المسلمين . كان من حقه أن يحتفظ بها دون أن يهدم الجزء

٨٠- ابن الحاج، المدخل ، جـ٢ ، ص٥١ .

٨١- المقريزى، السلوك ، جـ٢ ، ص٩٢٣- ص٩٢٥ .

٨٢- ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص٤٢- ص٤٣ .

٨٣- س. ك . ، رقم ٢٨٦ (١٣جمادى أولى سنة ٨٨٣هـ) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العالى الذى يتيح له كشف عورات جيرانه. كما أن المؤرخ ابن تغرى بردى يذكر فى حوادث سنة ٨٥٦هـ (١٤٥٢م) أن والى القاهرة أمر المسيحيين بإحضار ما لديهم من الجوارى بعد أن بلغه أنهم يملكون الجوارى المسلمات «... فمن وجدها مسلمة فى الأصل، أو سابيها، ردها إلى الإسلام، وأمر صاحبها ببيعها...»[٨٤]. وهو ما يدل على أن أهل الذمة المصريين كانوا يعيشون فى بحبوحة من العيش تسمح لهم باقتناء الجوارى. ومن المنطقى أن نقرر أن هذا لايمثل الحقيقة بالنسبة لجميعاليهود والنصارى ، وإنما ينطبق على أغنيائهم فقط.

وإذا كنا قد عرضنا فى الصفحات السابقة لبعض الأمثلة الدالة على أن روح الوئام والوفاق الاجتماعى كانت تسود المصريين جميعًا فى ذلك العصر، فإنه يجدر بنا أن نشير إلى أن هذه الحال لم تكن هى السائدة على الدوام فى العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة، فإن ذلك يبعد عن الحقيقة إلى حد كبير، كما أنه يتناقض مع المفاهيم التى أشرنا إليها . فالواقع أن حوادث المشاحنات بين الفريقين قد حدثت فى بعض الأحيان لكى تعكر من صفو العلاقات بينهما . ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما حدث سنة ٧٥٤هـ (١٣٥٣م) حين نشب خلاف بين المسلمين والمسيحيين فى أحد الأقاليم بسبب شخص مسيحى ، ادعى بعضهم أن جده كان مسلما وحبسه القاضى على اعتبار أنه يعتبر مرتداً عن الإسلام. ولكن المسيحيين فى هذا البلد لجئوا إلى الوالى ، بل إنهم أغلقوا الحوانيت وعطلوا الأسواق لقتال الوالى الذى جمع بدوره بعض الأعوان لقتال الأهالى. وحين علم السلطان فى القاهرة بما حدث أمر بعزل كل من القاضى والوالى[٨٥]، وثمة مثال آخر حدث فى سنة ٧٨٥هـ (١٣٨٣م) فى إحدى قرى الأقاليم ، فقد كان المسيحيون يحتفلون بزواج أحدهم، وكان من عادتهم فى مثل هذه الاحتفالات أن يحضروا المطربين والموسيقيين لإحيائها. ويبدو أن سكان هذه القرية من المسيحيين كانوا يشكلون الأغلبية لأنه حين أراد المؤذن أن يؤذن لصلاة الفجر، وأثناء قيامه بالتسبيح قبيل الصلاة صعد إليه عدد من المسيحيين وأنزلوه ثم اعتدوا عليه بالضرب ، وحين حاول إمام المسجد والخطيب أن يدافعا عن المؤذن نالهما ما ناله. وسافر ثلاثتهم إلى القاهرة لعرض شكواهم ، وانتهى الأمر بعد فترة من الزمن بضرب رقاب ستة من مسالمة ذلك البلد الذين شاركوا فى الاعتداء بدعوى أنهم زنادقة[٨٦].

٨٤- ابن تغرى بردى، حوادث الدهور ، جـ١ ، ص١٢٤ ؛ السخاوى، التبر المسبوك، ص٣٨٥ .

٨٥- المقريزى، السلوك ، جـ٢ ، ص٩٠٠-٩٠١ .

٨٦- ابن حجر ، إنباء الغمر، جـ ، ص٢٧٣- ص٢٧٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما حدث فى سنة ٨٤٣هـ (١٤٣٩م) أن خرج جماعة من المسلمين المتطوعين من دمياط لقتال قراصنة الفرنج فى البحر المتوسط، ولكنهم استشهدوا عن بكرة أبيهم . وأقام أهل البلد مأتمًا لهم. وأثناء تقبل الأهالى العزاء فى شهدائهم أقام أحد النصارى فرحًا «وأظهر الشماتة والمسرة بما حل بالمسلمين» . ومن ناحية أخرى كان ذلك الرجل النصرانى متهمًا بالتجسس لحساب الفرنج ، فرفع الأهالى دعوى ضده لدى القاضى الذى حكم بإدانته ، فلما أدرك أنه سوف يقتل أعلن إسلامه. ولكن ذلك لم يمنع المسلمين من قتله ، ثم اشتعل غضبهم على جميع نصارى دمياط فهاجموا كنائسهم ونهبوها(٨٧).

لكن مثل هذه الحوادث - التى اتخذت طابعًا فرديًا على الدوام- يمكن أن نفسرها فى ضوء المفاهيم التى حكمت الناس فى تلك العصور من ناحية ، وفى ضوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى مصر آنذاك من ناحية ثانية ، كما أن هذه الحوادث التى لم تأخذ طابع الاستمرار لايمكن أن تقلل من قيمة الحقيقة القائلة بأن أبناء الأقليات الدينية من المسيحيين واليهود فى مصر عاشوا فى رحاب المجتمع المصرى كجزء عضوى منه، ومن الطبيعى دائمًا أن تحدث بعض المشاحنات بين أبناء البلد الواحد الذين تجمعهم ديانة واحدة، فما بالنا بالذين تجمعهم ديانات مختلفة فى زمن كان للدين فيه قوة تأثير طاغية على سلوك الفرد والجماعة على السواء ؟

وفى ذلك العصر كان المفروض - نظريًا على الأقل- أن يتمايز المسيحيون واليهود بملابس معينة حتى يمكن التفرقة بينهم وبين المسلمين فى زحام الحياة اليومية، ولكننا ينبغى أن نشير إلى أنه من الثابت أن أهل الذمة لم يلزموا بارتداء الملابس المميزة أو ما اصطلحت المصادر على تسميته «بالغيار» فى أيام النبى عليه الصلاة والسلام . ومن البديهى، كذلك ، أن المسلمين فى بداية مرحلة الفتوح الإسلامية . كانوا مختلفين بملابسهم عن أهالى البلاد التى فتحوها ، ومن ثم لم تكن هناك ضرورة لفرض أية قيود خاصة بالملابس على غير المسلمين فضلاً عن أن ذلك يتنافى مع روح الإسلام التى كان الفاتحون قريبى العهد بتطبيقها المثالى على أيدى الرسول وخلفائه . إلا أنه مع مضى الوقت بدأ المسلمون يتجهون صوب الأخذ بأسباب الترف والرفاهية من جهة ، فضلاً عن أن بعض أبناء البلاد المفتوحة أخذوا يحاكون المسلمين شأن كل الشعوب المغلوبة فى محاكاة الغالبين فى عاداتهم .

٨٧- المقريزى، المصدر السابق، جـ٤ ، ص١١٧٠ .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن القيود على ملابس أهل الذمة وسائر ما يتعلق بمظاهر حياتهم اليومية إنما ترجع إلى «العهد العمرى» أو «الشروط العمرية» المنسوبة إلى «عمر بن الخطاب» بيد أن هذا العهد بصورته التقليدية التى تناقلتها معظم المصادر العربية لم يبدأ فى الظهور سوى فى أواخر القرن الثانى الهجرى[٨٨]. وهو يعنى عدم صحة نسبة هذا العهد إلى الخليفة العظيم. وعلى أية حال ، فإن هذا العهد كان هو الأساس الذى فرضت بمقتضاه قيود الملابس على أهل الذمة ومظاهر حياتهم اليومية. فقد كان على النصارى اتخاذ اللون الأزرق لملابسهم فضلاً عن الزنار الذى يشدونه حول أوساطهم (وهو خيط غليظ يشبه الحبل اشترط أن يكون من الكتان) فوق الثياب. ويبدو أن الزنار كان كافيًا فى بعض الأحيان لتمييز أبناء الطائفة المسيحية، على حين فرض على اليهود أن تكون ملابسهم صفراء اللون ، وتحدد اللون الأحمر لأبناء طائفة السامرة . أما النساء المسيحيات واليهوديات ، فكان عليهن الألتزام بهذه الألوان فى ملابسهن ، وتلتزم المسيحية الزنار فوق ثيابها تحت الإزار[٨٩] كما كما كان على المرأة الذمية أن تنتعل خفين من لونين متباينين. بيد أن طريقة حياكة الملابس وطرزها كانت واحدة بالنسبة لجميع النساء مسلمات وذميات فى ذلك العصر[٩٠].

وبالإضافة إلى قيود الملابس تعرض أبناء الأقليات الدينية- من الناحية النظرية – لبعض القيود على مظاهر نشاطهم فى الحياة اليومية. فقد حرم عليهم ركوب الخيل- التى كانت امتيازاً موقوفًا على الطبقة الحاكمة وحدها دون سائر المصريين- وحمل السلاح. كما كان المفروض ألا يدخلوا إلى الحمامات العامة دون علامة تميزهم عن المسلمين[٩١] وكان على رؤساء

٨٨- قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر، ص٢٦- ص٢٨ .

٨٩- الإزار : ملاءة فضفاضة كانت نساء عصر سلاطين المماليك يرتدينها فوق ملابسهن . انظر ماير، الملابس المملوكية، ص١٢٥-١٢٦ .

٩٠- ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص٤١- ص٥٣ ؛ ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص٢٠٧ - ص٢٠٨ ؛ القلقشندى. صبح الأعشى ، جـ١٣ ، ص٣٦٢-٣٦٥ ؛ ماير المرجع السابق، ص١١٦ .

٩١- ابن طلحة ، العقد الفريد للملك السعيد، ص١٨١ ؛ القلقشندى، المصدر السابق، جـ١٣ ، ص٣٦٢

يتبع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طوائف الأقليات أن يلزموا أتباعهم بالحرص على مراعاة هذه القيود التى اعتبرها الفقهاء من شروط عقد الذمة[٩٢].

كذلك كان من المفروض أن تكون لأهل الذمة ألقابهم الخاصة بهم ، ومن الطريف أن غالبية هذه الألقاب تبدأ بكلمة «الشيخ» . وكان منهم من يحمل لقبًا مضافًا إلى الدولة مثل : «ولى الدولة» و«شمس الدولة» ومنهم من يحذف المضاف إليه ويُعرف اللقب بالألف واللام مثل «الشيخ الصفى» و«الشيخ الشمسى» . فإذا أسلم أحدهم تغير لقبه ليصبح «ولى الدين». مثلاً أو «شمس الدين» . أما إذا كان للذمى الذى اعتنق الإسلام لقب ليس له ما يوافقه فيما يضاف إلى الدين، فإن اللقب يتغير فى حالة إسلامه، إلى أقرب الألقاب إليه «فالشيخ السعيد» ، مثلاً يتحول إلى «سعد الدين» وهكذا[٩٣]. إلا أن هذا التحديد النظرى لألقاب أهل الذمة لم يوجد سوى بين سطور الصفحات التى سطرها الفقهاء وغيرهم ؛ فها هو أحد المعاصرين يشكو أسفًا من أن اليهود والمسيحيين «... يدعون بالنعوت التى كانت للخلفاء ، ويكنون بأبى الحسن وهو على بن أبى طالب، وبأبى الفضل وهو العباس عم رسول الله عليه الصلاة والسلام..»[٩٤] وهوما يشير إلى أن الحكام لم يكونوا يتذكرون هذه القيود إلا تحت وطأة ظروف معينة . كما كان من المفروض أيضًا أن يكون لأهل الذمة دعاء خاص بهم يشترط فيه ألا يكون فيه تمنى القوة لهم أو الرغبة فى إلحاق الضرر بالمسلمين ، وكانت لهم، أيضًا أيمان خاصة يحلفون بها ومن الواضح أن الألتزام بمثل هذه الأمور فى الحياة اليومية أمر مستحيل تمامًا ، والظاهر أن الصيغ التى حددها القلقشندى بهذا الصدد إنما قصد بها أن تستخدم فى المكاتبات الرسمية الصادرة عن ديوان الإنشاء فقط.

وبوسعنا أن تؤكد ، اعتماداً على المصادر التاريخية لتلك الفترة، أن مثل هذه القيود لم تعرفها مصر فى عصر سلاطين المماليك قبل سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) . ففى هذه السنة زار وزير المغرب مصر. فى طريقة إلى الحجاز للحج، وانتابه الغضب الشديد من جراء ما شاهده من تمتع

٩٢- العمرى، التعريف ، ص١٤٤- ص١٤٥ ؛ ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص٢١٦- ص٢١٧ ؛ القلقشندى، المصدر السابق، جـ١٣ ، ص٣٩٢ .

٩٣- القلقشندى ، المصدر السابق، جـ٥ ، ص٤٩٠-٤٩١ .

٩٤- ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص٤٢ .

٩٥- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٦ ، ص٢٨٦ ؛ الخالدى، المقصد (مخطوط) ق٣٣ ، ٣٠٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبناء الأقليات الدينية بكل مظاهر الحريات السياسية والاجتماعية ، وتقلدهم لأعلى الوظائف، وهو أمر لم يكن مألوفًا بالنسبة للأقليات الدينية وفقًا لمفاهيم العصور الوسطى . ومن ثم أخذ الوزير المغربى فى شن حملة ضد أهل الذمة، وآتت هذه الحملة ثمارها فى تلك الضغوط التى تعرض لها اليهود والمسيحيون فى ذلك العام . فقد ألزم اليهود بلبس العمائم الصفراء ، على حين تعيَّن على النصارى أن يلبسوا العمائم الزرقاء ، وتحدد لعمائم السامرة اللون الأحمر . كذلك حرم على أبناء هذه الطوائف أن يركبوا الخيول وفرض عليهم ركوب الحمير «بالأكف عرضًا» أى من جهة واحدة ، كما تجددت كافة القيود الواردة فى تلك الشروط المنسوبة إلى عمر بن الخطاب. وأعقب ذلك طرد اليهود والمسيحيين من الوظائف التى كانوا يتولونها فى ديوان السلطان أو فى دواوين الأمراء[٩٦].

وأصدر السلطان «الناصر محمد» مرسومًا فى هذا الشأن ، ولكن بنود المرسوم كانت أكثر شدة من تطبيقاته ، وما لبث التهاون والتغاضى عن مخالفات أهل الذمة لهذا المرسوم أن غلبا على تصرفات الحكومة. وفى سنة ٧٠٩هـ حاول الوزير (ابن الخليلى» أن يقضى على ما تبقى من مظاهر حملة سنة ٧٠٠هـ، وحاول إقناع السلطان «الناصر محمد بن قلاون» أن يسمح لليهود والنصارى بالعودة إلى ارتداء العمائم البيضاء بالعلامات مقابل مبلغ من المال، وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه من أنه لم تكن هناك قيود على ملابس الأقليات قبل أحداث سنة ٧٠٠هـ سوى العلامات التى كانوا يضعونها فوق العمائم. على أية حال، فإن معارضة الشيخ «تقى الدين بن تيمية» قد حالت دون تنفيذ اقتراح الوزير[٩٧].

وفى سنة ٧٠٢هـ، تجددت أوامر فرض القيود على أهل الذمة . وجاءت القيود فى هذه المرة نتيجة لرد الفعل الغاضب من قبل الناس والدولة تجاه الحريق الذى دبره بعض الرهبان الملكانيين، والذى التهم أجزاء كبيرة من أحياء مدينة القاهرة، كما أثار الرعب والسخط فى نفوس الناس الذين تملكتهم المشاعر الدينية الجارفة، فمارسوا ضغوطهم على الحكومة التى استجابت لهم بعد عدة مصادمات شهدتها شوارع القاهرة بين الناس والمماليك [٩٨].

٩٦- ابن أيبك الدوادار، الدر الفاخر، ص٤٧-٥١ ؛ السيوطى، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٢١١ .

٩٧- العينى، عقد الجمان (مخطوط) حوادث سنة ٧٠٩ ؛ السيوطى، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٢١٢ .

٩٨- المقريزى، السلوك ، جـ٢ ، ص٢٢٢- ص٢٢٨ .

وكان من القواعد المرعية فى ذلك العصر أن يتناسب حجم العمامة تناسبًا طرديًا مع مكانة الفرد فى المجتمع، بحيث لايجوز لشخص ذى مركز اجتماعى متواضع أن يضع على رأسه عمامة كبيرة. ولذلك كان الغضب يستبد بالمتعممين من فقهاء المسلمين وقضاتهم إذا تجاوزت عمامة الذمى الحد المألوف. لأن فى ذلك اعتداء على حقوقهم . ولدينا الكثير من الأمثلة الدالة على ذلك. ففى سنة ٧٥٥هـ تعين على أهل الذمة ألا يزيدوا شال عمائهم عن عشرة أذرع[٩٩]. كما نودى فى سنة ٨٢٠ هـ بألا يتشبه اليهود والنصارى بقضاة المسلمين فى ملابسهم . وفى سنة٨٢٢هـ تجددت حوادث الاضطهاد ضد المسيحيين واليهود رداً على ما لحق بمسلمى الحبشة من أذى على يد الإمبراطور الحبشى المسيحى، وحرم عليهم أن يزيدوا فى شال العمامة عن سبعة أذرع[١٠٠]. وفى سنة ٨٣٠هـ . تقدم لنا المصادر مثالاً آخر على فرض هذه القيود ، ولكن شكوى أهل الذمة للسلطان جعلته يعقد اجتماعًا فى القلعة بحضور القضاة ، وانتهى الاجتماع إلى قرار بتخفيف حدة هذه القيود[١٠١].

وتدلنا كثرة المراسيم الصادرة فى عصر سلاطين المماليك بشأن فرض القيود على أبناء الأقليات الدينية بوضوح على أن تلك القيود لم تكن مطبقة بصفة دائمة طوال ذلك العصر. كما أن فرض تلك القيود غالبًا ما كان يأتى ضمن حملة عامة ضد أهل الذمة يكون مبعثها سببا أو آخر . ومن المهم أن نورد فى هذا المقام ما قرره القلقشندى ، الذى عاش فى أوائل القرن التاسع الهجرى (١٥م) من أن كل ما كان يميز اليهود والنصارى عن المسلمين فى ذلك الوقت هو لون عمائهم، وكونهم يركبون الحمير على البراذع ويثنى الواحد منهم رجله قدامه «... ولايميز يعتادونه الآن سوى ما قدمناه...»[١٠٢]. مما يؤكد أنه فيما عدا هذه القيود الضئيلة مارس الذميون حياتهم الاجتماعية فى إطار النشاط العام للمجتمع المصرى جنبًا إلى جنب مع المسلمين .

٩٩- المصدر نفسه، جـ٢ ، ص٩٢٤- ص٩٢٥ .

١٠٠- المقريزى، السلوك جـ٨ ، ص٤٨٦ ، ص٤٩٥ ؛ العينى ، عقد الجمان ، (مخطوط) حوادث سنة ٨٢٢هـ.

١٠١- ابن حجر ، إنباء الغمر، جـ٣ ، ص٣٨٢ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم ، جـ١٥ ، ص٤٠٧ .

١٠٢- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٣ ، ص٢٦٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وينهض دليلاً على قوة العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأبناء الطوائف الذمية فى مصر العصور الوسطى أن بعض المواسم والأعياد الخاصة بالمسيحيين اتخذت طابعًا عامًا. وقد ارتبطت بعض هذه الأعياد بنهر النيل، مما يشيرإلى جذورها التى تمتد إلى أيام قدماء المصريين. كما شارك المسلمون المسيحيين واليهود فى بعض الأعياد الأخرى بمظاهر المجاملة الاجتماعية ، وتبادل الأطعمة والحلوى وغيرها من الهدايا[١٠٣].

كذلك ارتبطت بعض عادات المصريين الاجتماعية ببعض الأعياد المسيحية ، فقد اعتاد المصريون أن يصنعوا نوعا من العصيدة فى «عيد الميلاد» وكانوا يعتقدون أن من يأكل منها لايصاب بالبرد طوال السنة [١٠٤]. كذلك تعود الناس على مشاركة المسيحيين عادة غمس أطفالهم فى المياه فى عيد «الغطاس» الذى يحل فى الشتاء ، بسبب ما اعتقدوه من أن ذلك يقيهم شر المرض طوال حياتهم[١٠٥]. وكان من عادة النساء أن تطلقن البخور فى بيوتهن فى «خميس العهد» بزعم أنه يصرف عنهن العين والكسل والأمراض[١٠٦]. وفى «سبت النور» كان البعض يكتحلون بالكحل الأسود على أساس أن ذلك يكسبهم نوراً زائداً فى أبصارهم[١٠٧].

ورب قائل بأن أبناء الأقليات الدينية فى مصر زمن المماليك مصريون مثل المسلمين، ومن ثم فإن لهم الحقوق نفسها. وهذا الكلام صحيح فى ضوء مفاهيمنا المعاصرة التى تتسم بالعقلانية إلى حد كبير . بيد أنه ينبغى أن نعيش الحدث التاريخى من داخله لكى نتفهمه بشكل يقربنا إلى الحقيقة قدر الإمكان . ويعنى هذا أن نحاول أن نتمثل المفاهيم والقيم التى كانت تتحكم فى الناس فى تلك الفترة التاريخية . ومن العبث المضلل أن نحاول إلزام الناس فى تلك العصور بمثلنا وقيمنا ، ونحاسبهم إذا لم يتصرفوا على أساسها، لسبب بسيط هو أنهم لم يكونوا يعلمون شيئًا عن هذه المثل والقيم والمفاهيم التى نطالبهم بها .

١٠٣- انظر دراستنا عن الأعياد والاحتفالات » فى هذا الكتاب.

١٠٤- ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ص٥٨ ، ص٥٩ .

١٠٥- المصدر نفسه ، جـ٢ ص٥٩ .

١٠٦- المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٥٤ .

١٠٧- المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٥٨ .

وفى تلك العصور كانت فكرة «الوطن» فكرة دينية بحتة ، وتتعلق بجماعة المؤمنين أكثر مما تتعلق بالأرض بحدودها الجغرافية ، أى أن «الوطن» الذى يجمع الناس فى الحياة الدنيا - التى هى مقام زائل - ليس هو الأرض كتعبير جغرافى، بقدر ما هو الدين والعقيدة التى تربط بين أبناء الأمة . وتعيش الأقليات الدينية فى حماية جماعة المؤمنين، ويتمتعون بكافة حقوقهم بشرط ألا تعلو مكانتهم فوق مكانة جماعة المؤمنين .

صحيح أن هذه المفاهيم تبتعد عن روح الإسلام وموقف الشريعة من أهل الذمة [١٠٨]. ولكن تراث الاحتكاك الحضارى بين المسلمين والغرب المسيحى، بما تخلله من حروب طويلة وعنيفة ، منها تلك السلسلة المعروفة باسم الحروب الصليبية ، خلف شعوراً بالمرارة تجاه غير المسلمين. كما أن ثروات أهل الذمة التى كونوها بفضل عملهم فى الجهاز الحكومى، والتدهور الاقتصادى المستمر لجموع المسلمين جعلت الناس يعبرون عن موقفهم الاجتماعى المتعالى على غير المسلمين تعبيراً دينيًا . وبعبارة أخرى، فإن العوامل الاقتصادية والاجتماعية قد ألبست ثوبًا دينيًا لتخلق هذا الموقف الاجتماعى على الرغم من تعارضه مع روح الإسلام. وعلى هذا الأساس يمكن ، فى تصورنا ، أن نفسر النظرة التى كانت تفترض ألا يكون أبناء الأقليات الدينية فى مصر زمن المماليك أعلى فى مكانتهم الاجتماعية من المسلمين .

ومهما يكن من أمر ، فالواضح أن المسيحيين قد عاشوا حياتهم بشكل عادى داخل إطار المجتمع المصرى. وغالبًا ما كان واقع حياتهم يتجاوز هذه المفاهيم التى ظلت فى كثير من الأحيان كامنة فى الصدور ولاتعبر عن نفسها سوى فى لحظات الإثارة أو الغضب .

أما عن دور أهل الذمة فى الحياة الثقافية والعلمية فى عصر المماليك ، فالواقع أن المعلومات المتاحة بهذا الشأن قليلة بدرجة لاتمكننا سوى من إعطاء صورة عامة عن نشاط اليهود والنصارى الثقافى.

وبالنسبة لليهود، فإننا نستطيع أن نقرر أن النضال المذهبى ، لاسيما بين القرائين والربانين. والذى كان محوره الأساسى ترجمة الكتاب المقدس وتفسيره ، قد أنتج نشاطًا أدبيًا واسع النطاق فى تلك العصور ، وقد تمثل هذا النشاط فى تلك الأعمال اللاهوتية التى كتبت غالبيتها باللغة العربية. وعلى الرغم من تمسك اليهود فى معظم أنحاء العالم باللغة العبرية ،

١٠٨- قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة ، الباب الأول حيث يناقش هذا الموضوع بالتفصيل .

فإنهم فى مصر قد استخدموا لغتين إحداهما العربية والثانية هى اللغة العبرية . والواضح أن لغة الحياة اليومية كانت هى اللغة العربية، على حين ظلت العبرية هى اللغة المرتبطة بالتراث الدينى إلى حد بعيد . وكان الشعر اليهودى يكتب بالعبرية فى غالب الأحيان ، أما النثر فإن معظم إنتاج الكتاب اليهود منه كان يكتب باللغة العربية. وفيما عدا بعض التعبيرات . والمفردات العبرية الخالصة التى وجدت طريقها إلى اللغة العربية. استخدم اليهود فى زمن المماليك اللغة العربية فى كتاباتهم ، حتى ما يتعلق بشروح الكتاب المقدس والتعليق على التلمود ، وذلك بعكس يهود البلاد المسيحية الأوربية الذين لم يستخدموا فى مثل هذه الكتابات ذات الطابع الدينى لغة أخرى غير اللغة العبرية . والحقيقة أن ظاهرة استخدام اليهود للغة العربية فى كتاباتهم وبحوثهم لاتقتصر على مصر وحدها وإنما تنسحب على يهود العالم الإسلامى عامة ، وهو ما تشهد بصحته مؤلفاتهم العربية فى شتى ضروب المعرفة. وفى رأى بعض الباحثين المحدثين أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن الكتابة باللغة العربية آنذاك، كانت هى الشئ الطبيعى والأقل جهداً ، كما أن اللغة فى المؤلفات التى تتناول موضوعًا علميًا لاتحمل مفهومًا إيديولوجيًا كما هو الحال فى الإبداع الفنى مثل الشعر(١٠٩) بيد أننا ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أن الأسباب المباشرة لهذه الظاهرة إنما تتمثل فى تسيد اللغة العربية فى ذلك الحين، فضلاً عن رغبة المؤلف فى أن ينتشر لدى جمهور عريض . وثمة دليل قوى على تسيد اللغة العربية بين يهود مصر فى تلك الفترة هو أن وثائق الجنيزا كتبت باللغة العربية فى حروف عبرية أو العربية اليهودية التى كانت لغة يهود مصر (١١٠).

وعلى الرغم من أن طائفة القرائين فى مصر قد عاشت فى سلام فى العصر المملوكى، فإن ما أفرزته هذه الجماعة من مفكرين كانوا رجالاً عاديين من أمثال «صمويل بن موسى المغربى» (القرن الثامن الهجرى- ١٤م) . وقد دارت كتابات أولئك الرجال من أهل الفكر حول تلخيص وتطوير كتابات أسلافهم. والاستثناء الوحيد بينهم هو «موسى بن ابراهام الدارى» الذى عاش فى القرن السابع (١٣م) ، وهو شاعر ذو موهبة متميزة ، بيد أنه كان يعتمد على محاكاة الأنماط الشعرية والأساليب التى استخدمها شعراء اليهود فى الأندلس. وفى القرن التاسع الهجرى (١٥م) كتب أحد اليهود القرائين حولية تحدث فيها عن الكتاب اليهود ، وتعتبر

١٠٩- Ibraham S. Halkin, "The Arab- literature" (The Jews; their History , Culture , and Civilization, ed., Finkelstein L. New York) I, pp. 1116-1146 .

١١٠- Rabie, H Financial System of Egypt, pp. 3-4 .

حوليته هذه بمثابة وثيقة عبرية هامة [١١١]. كما أن «ابراهيم بن فرج الله بن عبدالكافى اليهودى العانانى» (ت ٨٤٤هـ) - والذى يبدو من لقبه أنه كان من القرائين- كان يجمع بين معرفة حاذقة بالطب، كما يبدو من كلام السخاوى عنه، وبين الإلمام بأصول الديانة اليهودية «... ولم يخلف بعده من يهود مصر مثله كثرة فى حفظ نصوص التوراة وكتب الأنبياء...»[١١٢].

وعلى العموم ، فقد كان للجماعات اليهودية التى عاشت فى بلاد العالم الإسلامى تاريخ أدبى طويل، بيد أن حظ الربانين منه كان أكبرمن حظ غيرهم من طوائف اليهود. وتميز الربانون بذلك التراث الأدبى الذى تراكم على مدى عدة قرون . وعلى الرغم من المؤثرات الخارجية، فإن النتاج الأدبى اليهودى كان نتاج الثقافة التى عاشوا فى رحابها . وقد تأثر اليهود بما لمسوه من نشاط ثقافى فى العالم الإسلامى، مما دفعهم إلى التخلى عن اللغة العبرية واللغة الآرامية، الأمر الذى جعل الأدب اليهودى يسلك بالضرورة دوريًا جديدة. ومن ثم ظهرت اهتمامات جديدة عالجها الأدب اليهودى فى العصور الوسطى شعراً ونثراً . وكانت غالبية هذا النتاج الأدبى - لاسيما المنثور منه - مكتوبة باللغة العربية . وقد وجد اليهود الفرصة متاحة أمامهم للتعبير عن اهتماماتهم الجديدة فى لغة العصر والثقافة آنذاك ، أعنى اللغة العربية [١١٣].

ونستطيع من خلال وثائق الجنيزا أن نستنتج أن غالبية يهود مصر فى ذلك الحين كانوا يجهلون اللغة العبرية ، فالوثيقة التى لدينا عبارة عن خطاب أرسله ناسخ متجول بالأقاليم إلى زوجته بالقاهرة . والخطاب مكتوب باللغة العبرية ويرد فى الخطاب اسم من سيترجم الكتاب للزوجة [١١٤]. ويتضح هذا أيضا من عبارات الأسف والاحتجاج على تجاهل يهود مصر للغة العبرية (وهى عبارات صاغها أشخاص يهود فى ذلك العصر. على الرغم من أنهم ظلوا يستخدمون اللغة العربية لنشر إنتاجهم الأدبى)[١١٥].

١١١- U. J. B., Art. " Karaites" .

١١٢- السخاوى، الضوء اللامع فى أهل القرن التاسع، جـ١ ، ص١١٦ .

١١٣- Ibraham S. Halkin, The Arab- Jewish Lit., I, pp. 118-19 .

١١٤- Mann, The Jews, I, p. 242 .

١١٥- Halkine, op. cit., I pp. 1111-22

وتمدنا المصادر التاريخية العربية بأسماء بعض اليهود الذين لمعت أسماوهم فى سماء النشاط الثقافى منهم «موسى بن كجك» (ت ٧٦١هـ) الذى برع فى الطب وغيره من العلوم ، كما ألف كثيراً من الكتب، وقد أسلم هذا الرجل فى مرحلة متأخرة من حياته[١١٦]، ومنهم «صدر الدين بن النفيس» الذى تقاسم رياسة الأطباء بعد إسلامه مع أحد بنى دينه ومنهم أيضا «أحمد بن المغربى الإشبيلى» الذى عاش فى أواخر القرن السابع الهجرى واعتنق الإسلام فى عهد «الأشرف خليل بن قلاون» وتولى رياسة الأطباء وكان ملمًا بالتنجيم والفلسفة[١١٨].

أما المسيحيون فقد اشتهر من بينهم عدد ممن تميزوا فى الساحة الثقافية وإن كانت معظم مؤلفاتهم تدور حول الاهتمامات ذات الطبيعة الدينية أو الكهنوتية كما أن بعض تلك المؤلفات اتخذت شكل الردود على اليهود أو المسلمين ، أو الدفاع عن مذهب بعينه من المذاهب المسيحية ؛ مما يوحى بأن نوعًا من النقاش والحوار الثقافى قد دار فى تلك الفترة بين أبناء الديانات الثلاث .

وقد اشتهر من مثقفى المسيحيين أسرة «أبناء العسال» ومنهم «أبو إسحق ابن فخر الدولة أبو الفضل بن أبى البشر العسال». وله عدة مؤلفات دينية وألف كتابًا فى قواعد اللغة القبطية. وكان أخواه «الأسعد أبو الفرج هبة الله» و«الصفى أبو الفضائل ماجد» - الذى ألف كتابًا فى الرد على «تقى الدين بن تيمية» - يسيران على دربه [١١٩]. كذلك عاش فى القرن السابع الهجرى (١٣م) كاتب آخر هو «ابن الدهيرى المصرى القبطى» الذى ألف كتابًا فى أصول اللغة القبطية . وفى تلك الفترة نفسها عاش المؤرخ النصرانى المعروف «بابن العميد» (ت ١٣٧٣م) وقد ألف عدة كتب فى التاريخ منها كتاب لايزال مخطوطًا يبدأ بالخليقة وينتهى بالهجرة، وله كتاب آخر مختصر لتاريخ الطبرى وعليه تتمة حتى عهد المعز أيبك . ومن المؤرخين الأقباط الذين عاشوا فى مصر عصر المماليك المؤرخ «المفضل بن أبى الفضائل» الذى ألف كتابًا فى التاريخ قصد به أن يكون ذيلاً على تاريخ «ابن العميد» كما ذكر هو نفسه فى مقدمة كتابه[١٢٠].

١١٦- المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص٥٦ .

١١٧- ابن حجر ، إنباء الغمر، جـ١ ، ص٢١٦ .

١١٨- المقريزى، المصدر السابق، جـ٢ ، ص١٨٧- ص١٨٨ .

١١٩- لويس شيخو ، المخطوطات العربية لكتبة النصرانية (بيروت ١٩٤٢) جـ٤ ، ص١١- ص١٣ .

١٢٠- Patrologia Orientalis, XII, pp. 347-49 .

وفى القرن الثامن الهجرى (١٤م) ألف أحد مثقفى الأقباط، وهو «بطرس أسقف مليج» بعض الكتب للدفاع عن المذهب اليعقوبى ضد أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى، كما ألف كتابًا يرد فيه على المسلمين دفاعًا عن المسيحية[١٢١].

والواضح أن معظم المؤلفات المسيحية فى عصر سلاطين المماليك قد كتبت باللغة العربية باستثناء ما كان متعلقًا منها بقواعد وأصول اللغة القبطية التى يبدو أنها لم تكن لغة التخاطب اليومى بين الأقباط، فيما عدا بعض قرى الصعيد. كما أنها من ناحية أخرى لم تكن معروفة لدى المسيحيين الملكانيين . والواضح أيضًا أن هذه المؤلفات كانت ذات موضوعات دينية فى أغلب الأحوال، وهو ما يمكن أن يفسر لنا سبب عدم إشارة المؤرخين المسلمين إلى الكثير من الكتاب النصارى. كما أن حقيقة تركز معظم هذه الكتابات حول المواضيع الدينية والكهنوتية جعل تأثير المسيحيين فى النشاط الثقافى العام محدوداً.

وفى بعض الأحيان قامت العلاقات الطيبة بين المفكرين المسلمين والمفكرين من أهل الذمة . فقد ذكر السخاوى أن المؤرخ «تقى الدين المقريزى» كان ملمًا بمذاهب أهل الكتاب حتى أن أفاضلهم كانوا يترددون عليه للاستفادة منه [١٢٢]. كما أن «الشيخ تقى الدين بن تيمية» يذكر أنه ألف كتابًا «... رداً على كتاب ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى...» مما يوحى بأن الحوار الدائر بين أبناء الديانات الثلاث فى تلك الفترة قد تعدى حدود البلاد إلى خارجها .

ومن ناحية أخرى كانت مشاعر التزمت تفرض نفسها على الحوار بين المسلمين واليهود والنصارى، فيأخذ شكل الهجاء والسخرية من معتقدات الآخر. وقد بلغت العلاقة بين المثقفين المسلمين من جهة ، والمثقفين الذميين من جهة أخرى، درجة من التزمت والتأزم فى بعض الأحيان بحيث نجد بعض المسلمين يعارضون مظاهر التقارب والوفاق الاجتماعى بين المسلمين وأبناء الأقليات الدينية، بل إن البعض كانوا يعتبرون هذا التقارب خروجًا على الدين[١٢٤].

١٢١- لويس شيخو ، المرجع السابق، جـ٤ ، ص٦٢ .

١٢٢- السخاوى : التبر المسبوك ، ص٢٣ .

١٢٣- ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (القاهرة ١٣٢٣هـ) ، جـ١ ص١٩ .

١٢٤- ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ، ص٤٦- ص٤٨ ، جـ٣ ، ص٥٦ .

ولابأس أن نكرر ما سبق قوله من أنه من الخطأ أن نحكم على تلك الأمور بموازين عصرنا أو وفقًا لمفاهيمنا الحالية ، وإنما يجدر بنا أن نحاول تقييم تلك الظاهرة فى ضوء ظروف العصر الذى وقعت فيه. وعلى أية حال، فإن المثقفين كانوا من فئة المعممين من القضاة والفقهاء الذين كان بعضهم يرى أن من واجبه أن يحمى دينه، وأن هذه الحماية تتأتى بفرض بعض القيود على أهل الذمة. كما أن الطابع الخاص لدولة سلاطين المماليك، وحرص السلاطين على الواجهة الدينية أتاحا لجماعة المتعممين نفوذاً واسع النطاق . فضلاً عن أن بعض العلماء والفقهاء كانوا يريدون أن يستأثروا لأنفسهم بوظائف الإدارة المالية التى نافسهم فيها أهل الذمة بمالهم من خبرة متوارثة فى هذا المجال فادعوا أن فى استخدام المسيحيين واليهود فى الوظائف مخالفة صريحة لتعاليم الدين الإسلامى.

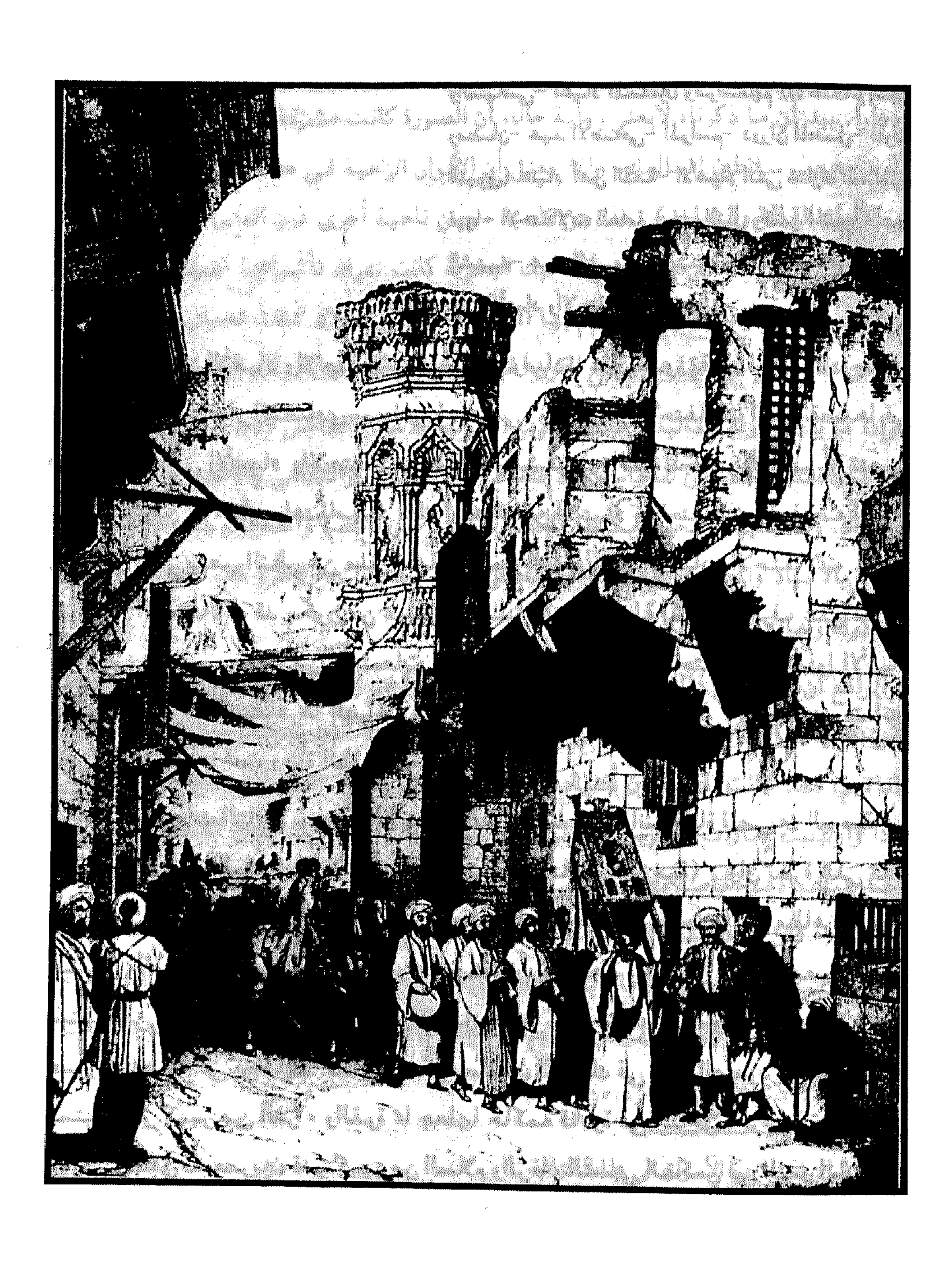
على أن هذا لايعنى بأى حال من الأحوال أن رجال العلم المسلمين اتخذوا من أهل الذمة موقف العداء الأعمى على الدوام. فالواقع أن لدينا من الشواهد ما يؤكد عكس ذلك ؛ فقد كان بعض القضاة يرفضون مجاراة المشاعر العامة فى أوقات الاضطرابات ، إذ وقف الشيخ «ابن دقيق العيد» موقفًا حازمًا تجاه مسألة هدم الكنائس التى أفتى الفقهاء بوجوب هدمها أثناء حوادث سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) [١٢٥]. هذا عدا الوثائق العديدة التى تشير بعدم جواز تعرض المسلمين لأهل الذمة أو أموالهم، وتقرر أن على الحاكم أن يضمن ذلك حتى ينال ثوابه[١٢٦]. كذلك تشهد بعض الوثائق بأن الحماية كانت تتوفر لهم ولأملاكهم من خلال أحكام القضاة المسلمين [١٢٧].

١٢٥-ابن النقاش، المذمة، ص٩٩ .

١٢٦- س.ك. ٢٣٠ ، ٣٢٥ ، ٢٢٨ (فتاوى) .

١٢٧- س.ك ، ٢٦٨، ٢٦٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأعياد الدينية والاحتفالات العامة

مظاهر الأعياد وارتباطها بالاستقرار الاجتماعي والسياسي- أعياد المسلمين ومواسمهم (الاحتفال بشهر رمضان- عيد الأضحى- المواسم- دوران المحمل- المولد النبوي) أعياد أهل الذمة- الأعياد التي شارك المسلمون فيها- الاحتفالات العامة (وفاء النيل وكسر الخليج - عيد الشهيد- عيد النيروز)- التدهور والاضمحلال وأثرهما على الأعياد والاحتفالات

لاشك في أن الأعياد والاحتفالات مؤشر هام وصادق على مدى تقدم المجتمع ودرجة ما يتمتع به من استقرار اقتصادي وسياسي اجتماعي. والأعياد والاحتفالات التي نقصدها في هذه الدراسة هي الأعياد والاحتفالات المرتبطة بالشعوب والتي تنبع من تراثهم أو تتصل بدياناتهم ومن ثم تحظى باهتمامهم . ذلك أن هناك من الأعياد والاحتفالات ما يفرضه الحكام لسبب أو لآخر بغض النظر عن مدى رغبة واهتمام الناس بهذه الأعياد والاحتفالات . وهذا النوع من الاحتفالات قد يكون من عوامل التضليل عند محاولة المؤرخ التعرف على ملامح الحياة اليومية في مجتمع من المجتمعات ؛ فكم من الحكام أقاموا الاحتفالات وحددوا الأعياد وبالغوا في الاحتفال بمظاهرها الصاخبة في محاولة لتغطية الواقع بمرارته ، وحجب صوت أنين شعوبهم وهي ترزح تحت وطأة الظلم والفاقة ؟ !

وفي الصفحات التالية سنحاول أن نتعرف على جانب من جوانب حياة المصريين اليومية في عصر سلاطين المماليك من خلال أعيادهم الدينية والعامة (القومية) . وإن نظرة على تلك الكثرة من الأعياد والاحتفالات المصرية في ذلك الحين، وما كان يصحبها من مظاهر البهجة والسرور والرفاهية ، لتكشف لنا عن صورة تفيض بالبهجة والإشراق لمجتمع يعيش حياة مستقرة في ظل نظام سياسي متين ، واقتصاد مزدهر ، وأوضاع أمنية وطيدة الأركان. وهذه الصورة صحيحة في مجملها. فقد كانت دول سلاطين المماليك في طور الصعود والنمو والقوة، تتمتع بقدر كبير من الثراء والقوة مما جعلها حاكمة قادرة في الداخل، مرهوبة مهابة في الخارج. وتحقق للمصريين قدر كبير من السلام والرخاء النسبي انعكس في النمو السكاني

والرواج التجارى الداخلى[١]. كما تمثل فى اهتمام الناس بجوانب التسلية والترفيه فى حياتهم. وقد ذكر ابن بطوطة ، الذى زار مصر فى عصر الناصر محمد بن قلاون (النصف الأول من القرن الرابع عشر) أن أهل مصر «ذوو طرب وسرور ولهو...»[٢]. ولاشك أن عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون يعتبر من أهم فترات التاريخ المملوكي وأكثرها استقراراً وازدهاراً. بيد أن ما ذكرناه لايعنى، بأية حال، أن الصورة كانت مشرقة على الدوام فى الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك، وإنما يعنى أن الألوان الزاهية فى هذه الصورة كانت غالبة على الألوان القاتمة والشاحبة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الفترات التى شهدت صراعًا على كرسى الحكم فى عصر المماليك البحرية كانت تترك تأثيراتها السلبية بالضرورة على الأعياد والاحتفالات التى يهتم بها المصريون . ولكن البلاد كانت تعيش حياة أفضل كثيراً من تلك التى شهدتها مع مطلع القرن الخامس عشر وحتى نهاية ذلك العصر.

وإذا ما بدأت دولة المماليك رحلتها صوب الغروب والأفول، انعكس ذلك بوضوح على كافة مظاهر الحياة على المستوى السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى والأمنى ، فإذا بالحال غير الحال، وإذا بالبهجة تخلى مكانها للكآبة ، وتعتم صورة مصر والمصريين وتتواضع مظاهر الاحتفال بالأعياد والمواسم والمناسبات العامة إلى أدنى مستويات. ولاغرو فقد كان ذلك إيذانًا بمغيب دولة ونهاية عصر .

والواقع أن مصر فى ذلك الزمان قد عرفت عدداً كبيراً من الأعياد والاحتفالات التى اهتم الناس بإحيائها . ومن الطبيعى أن عدداً من هذه الأعياد كان يتصل بعقائد المصريين ودياناتهم، فقد كانت للمسلمين أعيادهم ومواسمهم التى اتخذ الاحتفال بكل منها مظهراً محدداً وارتبطت بعادات المصريين وتقاليدهم الاجتماعية. كذلك كان لأهل الذمة من اليهود والنصارى أعيادهم الخاصة بهم. وينبغى أن نشير إلى أن بعض هذه الأعياد- لاسيما أعياد المسيحيين- كان يتخذ سمة اجتماعية لافتة للنظر على نحو ما ستكشف عنه الصفحات القادمة ، وثمة من الأعياد ما كان يتخذ شكل الاحتفال القومى. على حد تعبيرنا المعاصر، وذلك لارتباطه بحياة المصريين جميعًا (مثل الاحتفال بوفاء النيل) ، أو لارتباطه بالتراث الموروث عن قدماء المصريين .

١- انظر دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب .

٢- ابن بطوطة ، الرحلة ، ص٣٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا بدأنا بدراسة **الأعياد الدينية** ، وجدنا أن أهم احتفالات المسلمين وأعيادهم كانت تتركز حول شهر رمضان وإحياء لياليه ، ثم الاحتفال بعيد الفطر في نهاية شهر رمضان، ويأتي بعد ذلك الاحتفال بعيد الأضحى المبارك. وعلى مدار السنة الهجرية كانت هناك مواسم ومناسبات دينية حرص المسلمون على إحيائها ، واتخذ بعضها شكل الاحتفال العام مثل دوران المحمل والمولد النبوى.

ويبدأ الاحتفال بشهر رمضان باستطلاع هلال الشهر الجديد، وقد شهد الرحالة ابن بطوطة الاحتفال بهذه المناسبة فى مدينة أبيار (بالقرب من المحلة الكبرى) ووصفه وصفًا دقيقًا فقال : «وعادتهم أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى ويقف على الباب نقيب المتعممين ، وهو ذو شارة وهيئة حسنة . فإذا أتى أحد الفقهاء أو أحد الوجوه تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلاً : باسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضى ومن معه فيقومون له، ويجلسه فى مجلس يليق به فإذا تكاملوا هناك ، ركبوا جميعًا وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان ، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال عندهم . وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش ، فينزل القاضى ومن معه، فيرقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس. ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع، ويصل الناس مع القاضى إلى داره ثم ينصرفون . هكذا فعلهم فى كل سنة[٣].

ولاشك فى أن هذه الصورة التى ترسمها كلمات «ابن بطوطة» لاحتفال الناس برؤية هلال شهر رمضان كانت متكررة فى جميع أنحاء البلاد، وإذا كانت ثمة اختلافات طفيفة؛ فإن الشكل العام للاحتفال كان واحداً . وتمدنا المصادر التاريخية بما يؤكد هذا، فإن بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى ذلك الحين استرعى انتباههم أن القاهرة فى شهر رمضان كانت تسبح فى الضوء نتيجة الأنوار والمشاعل والشموع والفوانيس فى الطرقات والأسواق وبأيدى الناس[٤]. وقد ذكر ابن الحاج أنه كانت من عادة المصريين فى ذلك العصر أن يعلقوا الفوانيس «... التى جعلوها علمًا على جواز الأكل والشرب وغيرهما ما دامت معلقة موقودة...»[٥].

٣- ابن بطوطة ، الرحلة، ص٢٦- ص٢٧ .

٤- سعيد عاشور ، المجتمع المصرى، ص١٨٥ .

٥- ابن الحاج، المدخل، جـ٢ ، ص٢٥٧ .

وفى ليالى شهر رمضان كانت أسواق القاهرة والأقاليم تزدهر احتفالاً بهذه المناسبة. وقد لاحظ بعض الرحالة الأجانب أن المطاعم والمطابخ فى العاصمة كانت تظل مفتوحة طوال الليل لكى تستقبل زبائنها[٦]. والواقع أن المصريين ، فى معظمهم ، كانوا لايطهون الطعام فى بيوتهم، وكانت غالبيتهم من رواد المطاعم، كما كان بعضهم يرسل ما يحتاج طهيه من طعام إلى حوانيت الشرائحية لتجهيزه[٧]. ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن يعولوا على هذه المطابخ والمطاعم فى وجبتى الفطور والسحور .

ومن ناحية أخرى. كانت بعض الأسواق ترتبط بموسم شهر رمضان ومنها سوق الحلاويين، وسوق الشماعين. ففى هذا الشهر كان سوق الحلاويين يمتلئ بكافة أصناف التماثيل السكرية التى كانت تصنع على هيئة تماثيل الحيوانات من قطط وسباع وغيرها. وكانت هذه التماثيل السكرية تعرف باسم «العلاليق» (ومفردها .. علاقة) . لأنها كانت تعلق بخيوط على أبواب الحوانيت. ويتراوح وزن «العلاقة» ما بين ربع رطل وعشرة أرطال. وكانت أسواق القاهرة والأقاليم تمتلئ بهذه الحلوى التى يحرص الناس على شرائها لأطفالهم وأقاربهم ، كما يحدث الآن فى المولد النبوى[٨] .

كذلك كان سوق الشماعين من الأسواق التى ارتبطت بشهر رمضان ؛ ففى ليالى هذا الشهر كانت حوانيت السوق تفتح أبوابها إلى ما بعد منتصف الليل. وقد تلألأ السوق بأضواء مختلف أنواع الشموع الموكبية والفانوسية والطوافات . وقد ذكر المقريزى فى خططه أن حوانيت هذا السوق كانت تعلق الشموع التى عرفت آنذاك باسم الفوانيس «فتصير رؤيته من أنزه الأشياء..» وفى شهر رمضان كانت تباع بهذا السوق كميات كبيرة من الشموع الموكبية (أى التى تستخدم فى المواكب) ، وكانت الواحدة منها تصل فى وزنها إلى عشرة أرطال .أما الشموع الضخمة التى كانت تصل فى وزنها إلى ما يزيد على قنطار ، فكانت تؤجر لكى تستخدم فى موكب صلاة التراويح . وقد وصف المقريزى لنا هذا الموكب الذى « ... يعجز البليغ عن حكاية وصفه .. » فقد كان هذا الموكب يتجمع حول إحدى الشموع الضخمة التى

٦- سعيد عاشور ، المرجع السابق، ص١٨٥ .

٧- انظر دراستنا عن الأسواق .

٨- المقريزى ، الخطط ،جـ٢ ، ص٩٢ - ص١٠٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يجرها الأولاد على عجلات، وقد أمسك كل منهم بفانوسه وهم يهزجون بأغنيات دينية جميلة، ويطوف الموكب المضئ دروب البلد وأزقته من بعد المغرب حتى موعد صلاة العشاء والتراويح(٩).

وفى موعد السحور يطوف «المسحراتى» بطبلته مردداً أهازيجه وأغنياته وحوله بعض الأطفال. ويدق بطبلته مناديًا أصحاب البيوت الذين يعرفهم . أما فى الإسكندرية فكانوا يدقون الأبواب على أصحاب البيوت «وينادون عليهم : قوموا كلوا.. »(١٠).

وفى ليلة عيد الفطر كان بعض الناس يسهرون لتجهيز ملابسهم الجديدة حتى الصباح، على حين يسهر الأتقياء منهم فى الاستماع إلى القرآن الكريم والأذكار . ومع طلوع النهار يتوجه الرجال لأداء صلاة العيد فى موكب كبير وهم يهللون ويكبرون حتى يصلوا إلى المسجد . ثم تتبادل البيوت التهنئة بالعيد، كما يتبادلون أطباق الكعك الذى كان تجهيزه يتم خلال الأيام الأخيرة من شهر رمضان . ويبدو أن البعض كان يفضل شراء الكعك جاهزاً، إذ إن «ابن الحاج» يعيب على معاصريه أنهم يشترون الكعك الذى كان يصنعه اليهود بمناسبة عيد الفطر. وكانت الوجبة الأولى لغالبية الناس فى عيد الفطر من السمك المملح المشقوق. وكان من عادة الناس أن يشتروا الحلوى والتماثيل السكرية ويهادون بها أقاربهم وأصهارهم لاسيما إذا كانت المصاهرة جديدة ، أو إذا لم يكن العريس قد دخل بعروسه بعد(١١).

وفى أيام العيد يخرج الناس لزيارة القبور ، ويجتمعون فى القرافة التى كانت من أشهر أماكن التنزه والفرجة . وكانت النساء تركب الدواب فى الذهاب والرجوع من القرافة ، وهناك يجتمع الكل رجالاً ونساء يمزحون ويغنون . كما كان القراء يقرءون القرآن ، وقد عاب عليهم ابن الحاج أنهم كانوا « .. يقرأون القرآن بالترجيع والزيادة والنقصان، ورفع الأصوات الخارجة عن حد السمت والوقار والتمطيط والمد.. على ترتيب هنوك الغناء ..»(١٢)، كذلك كان الوعاظ يعظون الناس من فوق الكراسى والمنابر التى أقيمت بين القبور ، كما كان المحدثون من القصاص يروون القصص الدينية للناس الذين يتحلقون حولهم .

٩- المصدر نفسه .

١٠- ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ، ص٢٥٥ .

١١- المقريزى، الخطط، جـ٢ ، ص٩٨ ؛ ابن الحاج، جـ١ ، ص٢٨٧ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى. ص١٨٤- ص١٨٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك كان البعض يتوجهون إلى شاطئ النيل ويستأجرون القوارب، وتكتسى صفحة النهر بهذه القوارب وبها الناس يلهون ويطربون ومعهم نساؤهم وأطفالهم .

وفى عيد الأضحى كان البعض يجهزون الأضاحى منذ ليلة العيد، كما كان بعضهم يقضى هذه الليلة فى تجهيز ثيابهم الجديدة ، وربما يسهر أحدهم عند الخياط حتى ينتهى من إعداد ثياب العيد [١٣]. وجرت عادة بعض الناس على عدم ذبح الأضحية فى العيد على الرغم من قدرتهم على ذلك، وكانوا يكتفون بشراء اللحوم من الجزارين ويطبخون منها عادة أصناف.

وبعد صلاة العيد، التى كان الخروج لأدائها يتم فى موكب يشبه موكب صلاة عيد الفطر،كان الناس يخرجون لزيارة القبور والتجمع فى القرافة أيضًا. وكانت النساء تتزين «وتتجملن بغاية الزينة» وتسير العربات التى تجرها الدواب فى شوارع المدينة، وفوقها مجموعة من البنات والنساء وهن يغنين وينقرن على الدفوف [١٤].

ولم تقتصر احتفالات المسلمين على شهر رمضان والعيدين ، وإنما كانت هناك مناسبات أو مواسم دينية أخرى حرص المسلمون على إحيائها، واتخذ بعضها شكل الاحتفالات العامة .

ففى أول شهر المحرم من كل سنة كان المصريون يحتفلون بعيد رأس السنة الهجرية . ويبدو أن الاحتفالات بهذه المناسبة كان يقتصر على تبادل التهانى وتوزيع العطايا على الفقراء . ومن العادات المصرية التى ارتبطت بهذه المناسبة أن النساء كن يشترين اللبن حتى تكون السنة بيضاء لا شر فيها [١٥].

وفى عاشر شهر محرم كان المسلمون فى مصر يحتفلون بيوم عاشوراء ، وقد جرت عادتهم فى هذا الموسم على ذبح الدجاج وطبخ حبوب القمح، التى ما يزال المصريون يجهزونها حتى اليوم باسم «عاشوراء» ، ويتهادون بها. كذلك من عادة الناس فى يوم عاشوراء أن يتبخروا بالبخور الذى يخزنونه طوال السنة لهذه المناسبة . وكانوا يعتقدون أن السجين إذا بخر بهذا

١٢- ابن الحاج ، المصدر السابق، جـ١ ، ص٢٦٨ .

١٣- المصدر نفسه، جـ١ ، ص٢٩٠ .

١٤- المصدر نفسه، جـ١ ص٢٨٣- ص٢٩٠ .

١٥- ابن الحاج ، المدخل، جـ١ ، ص٢٧٧ ، ص٢٨٨ .

البخور خرج من سجنه . وأن هذا البخور يبرئ من العين والحسد . وفى هذا اليوم تتزايد أعداد زوار مشهد زين العابدين ، كما تخصص مسجد عمرو بن العاص للنساء اللاتى يمكثن به طوال اليوم ويتمسحن بالمصاحف والمنبر والجدران وتحت اللوح الأخضر[١٦].

أما ليلة أول شهر رجب، فكانت من مواسم المصريين العامة التى كان الجميع يحتفلون بها على اختلاف مستوياتهم الاقتصادية . فيشترون لأطفالهم تماثيل الحلوى التى صنعت من السكر على هيئة الخيول والقطط والسباع ، وتمتلئ أسواق القاهرة والفسطاط والأرياف بهذه التماثيل السكرية . وكان العرف يحتم على الناس مهاداة أقاربهم وأصهارهم بهذه الحلوى فى هذا الموسم كما كانوا يفعلون فى غيره من المواسم على نحو ما ذكرنا . وفى المساء يجتمع النساء والرجال حول القراء والمنشدين الذين يقرءون القرآن وينشدون الأغنيات الدينية احتفالاً بهذه المناسبة[١٧].

وفى ليلة الإسراء والمعراج يجتمع الناس فى أكبر مساجد المدينة، رجالاً ونساء، وتعلق فى أرجاء المدينة المشاعل والفوانيس والشموع ، كما يفرشون البسط والسجادات داخل المساجد وعليها الأوانى والأباريق التى امتلأت بالمشروبات التى اعتاد الناس احتساءها فى هذا الموسم، ويستمعون إلى مشاهير قراء عصرهم وهم يرتلون آيات القرآن الكريم [١٨].

كذلك كان ليلة نصف شعبان من المناسبات التى يقبل الناس فيها على شراء الحلوى لأطفالهم ، وفيها كانت تسطع المساجد بالأضواء ويتحول ليل المدينة إلى نهار، لأن الناس كانوا يربطون الحبال بالشرفات والأعمدة ويعلقون بها عدداً كبيراً من القناديل المضيئة ، وتمتلئ الجوامع بالرجال وبالنساء والأطفال الذين يحتفلون بهذه المناسبة [١٩].

أما المولد النبوى فكان الاحتفال به يتخذ شكلاً من الفخامة والعظمة يتناسب مع ما عرفته الحياة المصرية من رفاهية فى بداية عصر سلاطين المماليك. وكان السلاطين يحرصون على

١٦- المقريزى، الخطط ، جـ١ ، ص٤٣٥ ؛ ابن الحاج ، المصدر السابق، جـ١ ص٢٩٠ .

١٧- ابن الحاج ، المدخل، جـ١ ، ص٢٩١- ص٢٩٣ .

١٨- ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص٢٩٤- ص٢٩٧ .

١٩- المصدر نفسه، ص٣٠٨ ؛ المقريزى، الخطط، جـ٢ ، ص٩٦- ص١٠٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مشاركة رعاياهم فى الاحتفال بهذه المناسبة ، وهو الاحتفال الذى كان يبدأ مع مطلع شهر ربيع الأول ويستمر حتى الثانى عشر منه. ومنذ عهد السلطان الأشرف قايتباى جرت عادة السلاطين على أن يقيموا خيمة كبيرة عجيبة الأوصاف هى «خيمة المولد»، وعند أبواب هذه الخيمة حوض جلدى قد ملئ بعصير الليمون والسكر، وقد وقفت طائفة من صغار الخدم يناولون الناس أكواب الليمون بالسكر . وكان الاحتفال الرسمى يبدأ ظهراً ويستمر حتى ساعة متأخرة، ويبدأ الاحتفال بقراءة القرآن ، ثم يقوم الوعاظ بدورهم ويأخذ كل منهم نصيبه من النقود والملابس التى يمنحها لهم السلطان والأمراء. وبعد صلاة المغرب تمد موائد الحلوى على اختلاف ألوانها ويتخطفها الفقهاء ، وبعد ذلك يبدأ المنشدون بأهازيجهم فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام حتى ثلث الليل [٢٠].

هذا هو الاحتفال الرسمى، ولكن الناس كانوا يحتفلون بالمولد النبوى على طريقتهم . فكان من المعتاد أن يقيم الناس الحفلات بهذه المناسبة فى بيوتهم أو أمامها . ويبدأ الاحتفال بالقرآن الكريم الذى يتلوه مشاهير القراء المعروفين بالتطريب وحسن الصوت . ثم يعقب ذلك المنشدون الذين تصاحبهم الآلات الموسيقية ، ويصدحون بالقصائد والأغانى فى مدح النبى، عليه الصلاة والسلام . فإذا ما انتهى المنشدون أقيمت حلقات الذكر «فيقوم الواحد منهم ويعيط وينادى ويبكى ويتباكى ويتخشع ، وربما مزق ثيابه وعبث بلحيته..» على حين تطل النساء من أسطح البيوت المجاورة لمشاهدة الاحتفال المقام أمام المنزل . كذلك كانت تقام فى داخل البيوت حفلات نسائية احتفالاً بهذه المناسبة وتلتف النساء حول إحدى محترفات الوعظ لسماع حديثها الدينى.

وكان بعض الناس الأتقياء يتحرج من أن يحتفل بالمولد النبوى فى بيته بالأغانى ومن ثم يكتفى بأن يحضر أحد القراء لتلاوة القرآن الكريم، ويقتصر الاحتفال على هذه التلاوة ، وعلى حلقات الذكر.

ومن الطريف أن البعض كانوا يحتفلون بالمولد النبوى بغية استرداد الهدايا والنقوط التى كانوا قد أهدوها للآخرين فى المواسم والأفراح ، وهو ما يكشف عن أن المصريين كانوا يتبادلون النقوط والهدايا فى هذه المناسبة [٢١].

٢٠- سعيد عاشور ، المجتمع المصرى، ص١٧٧- ص١٨٨ .

٢١- ابن الحاج ، جـ٢ ، ص٢٥ .

وفى عصر المماليك اتخذ موسم الحج مظهراً اجتماعياً جعل منه مناسبة هامة فى حياة أبناء مصر فى ذلك الحين . فقد كان هذا الموسم محط اهتمام الجميع ، سواء كانوا على كراسى الحكم، أم كانوا من عامة الناس. وفى هذا الموسم كانت تسرى الحركة والنشاط فى أوصال المجتمع المصرى فتزدهر الأسواق المخصصة لبيع لوازم الحجاج ويستعد أهل الدولة والمماليك للسفر فى ركب الحاج، على حين ينتظر أبناء الرعية هذا الاحتفال بشوق وشغف .

ويحتفل المصريون بهذا الموسم فى الاحتفال الذى عرف بدوران المحمل[٢٢]. والجدير بالذكر أن سلاطين المماليك قد اهتموا اهتماماً كبيراً بكسوة الكعبة فى إطار حرصهم على الواجهة الدينية لحكمهم، والظهور بمظهر حماة الحرمين الشريفين[٢٣].

وكانت كسوة الكعبة توضع على جمل مزين يطوف القاهرة والفسطاط، وكان المحمل يدور مرتين فى العام ، وكان المصريون على اختلاف مشاربهم يحرصون على المشاركة فى الاحتفال بدوران المحمل . وكانت المرة الأولى لدوران المحمل فى نصف رجب، أما المرة الثانية فكانت فى شوال. وفى رجب يظل المنادون يجوبون شوارع القاهرة والفسطاط وينادون فى الأسواق بموعد دوران المحمل. وذلك قبل الموعد بثلاثة أيام يتكرر النداء خلالها ودعوة الناس إلى المشاركة فى الاحتفال . ويقوم أصحاب الحوانيت التى سيمر بها المحمل بتزيينها، وهناك تبيت النسوة والأطفال حتى يتمكنوا من مشاهدة موكب الاحتفال فى اليوم التالى. ويكون دوران المحمل فى يوم الاثنين أو الخميس. وعلى طول الطريق تحتشد الجموع لمشاهدة موكب المحمل الذى يشق طريقه من باب النصر حتى ميدان الرميلة تحت القلعة . ويسير جمل المحمل وهو يتهادى وعليه الحرير الملون وفوقه المحمل قد غطى بالحرير تعلوه قبة فضية . وأمام هذا الموكب تركض كوكبة

٢٢- كان السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى هو أول من أدار المحمل بمصر سنة ٦٥٧هـ أنظر المقريزى، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص١١ ؛ السيوطى، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٨٨ .

٢٣- المعروف أن العرب كانوا يكسون الكعبة فى جاهليتهم ، وأستمرت كسوتها بعد الإسلام . وحين سقطت الخلافة العباسية تولى سلاطين المماليك كسوة الكعبة . وكانت الكسوة تصنع من الحرير الأسود المرقوم بالحرير الأبيض ، ثم صارت الكتابة باللون الأصفر المشعر بالذهب . وكان هناك موظف هو «ناظر الكسوة» يشرف على إعدادها من الأموال التى أوقفت لهذا الغرض (القلقشندى)، صبح الأعشى، جـ٤ ، ص٥٨٧ ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة، ص١٩٩ ، السخاوى، التبر المسبوك ، ص٢٠١ ؛ المقريزى ، الذهب المسبوك ص٤٣- ص٤٤ السيوطى، حسن المحاضرة ؛ جـ١ ص٨٨) .

من فرسان المماليك بملابس الميدان الزاهية ومعداتهم وأسلحتهم تخطف الأبصار ببريقها. المشاهدين وهم يستعرضون مهاراتهم فى القتال بالرماح. وفى الموكب مجموعة من صغار المماليك يقومون بأداء بعض الألعاب البهلوانية بالرماح وهم وقوف على ظهور الخيل.وتختلط أصوات الجماهير الصاخبة بدقات الطبول والموسيقى النحاسية ، ويمضى الموكب الصاخب إلى ميدان الرميلة حيث يطل السلطان عليه من القلعة، وتشتد جلبة الاحتفال والمحتفلين ويقوم المماليك باستعراض مهاراتهم أمام السلطان . ثم تتجه الجموع إلى الفسطاط حيث يخترق الموكب الشوارع الرئيسية ليعود مرة ثانية إلى ميدان الرميلة. وكان هذا الاحتفال الصاخب يتكرر مرة أخرى فى شهر شوال . وفى هذه المرة لايتوجه إلى الفسطاط وإنما يخرج إلى الريدانية مباشرة فى طريقه إلى الحجاز.

ويخرج موكب الحج على هذا الشكل المهيب يقوده أحد كبار أمراء المماليك ويلحق به من يريد الحج من الناس . وكان من الضرورى لركب الحج أن يضم بين أفراده عدداً من الأطباء والأدلة والمؤذنين والقاضى والشهود والأمناء وحتى مغسل الموتى[٢٤].

أما أعياد أهل الذمة، فقد كان الاحتفال ببعضها قاصراً على أبناء الطائفة وحدهم على حين شاركهم المسلمون الاحتفال ببعض أعيادهم . ويبدو من مصادر تلك الفترة أن اليهود على نحو خاص قد اقتصروا فى احتفالاتهم على أبناء الطائفة فقط. وكانت للطوائف اليهودية فى مصر زمن المماليك عدة أعياد يتصل بعضها بشريعتهم ، ويتعلق البعض الآخر بتاريخهم وتراثهم .

وكانت الأعياد اليهودية الشرعية خمسة أعياد أولها «عيد رأس السنة» واسمه العبرى القديم «راش هيشا » وبالعبرية الحديثة «روش هشاناه» وهو عندهم عيد يقدمون فيه الأضاحى فى ذكرى افتداء اسماعيل ، ويحل أول شهر تشرى اليهودى، ويعتبر هذا العيد أيضًا عيد عتق وحرية عند اليهود لأنه يرتبط بخلاصهم من فرعون . وقد أسماه المقريزى «عيد البشارة»[٢٥] وثمة اختلافات بين طريقة كل من الربانين والقرائين فى الاحتفال بهذا العيد رصدتها مصادر تلك الفترة ؛ إذ كان الربانيون ينفخون الأبواق فى معابدهم أثناء الصلاة ،

٢٤- القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٤ ص٥٧- ص٥٨ ؛ ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص١٩٩ - ص٢٠٠ ؛ السيوطى، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص١١٩ ؛ ابن بطوطة ، الرحلة، ص٤٢- ص٤٣ ؛ ابن الحاج المدخل، جـ١ - ص٢٧٢- ص٢٧٥ .

٢٥- المقريزى ، الخطط جـ٢ ص٤٧١ .

اعتماداً على تفسيرهم لبعض النصوص المقدسة المتعلقة بهذا الاحتفال ، على حين اكتفى القراءون بالصلاة والتهليل حمداً وشكراً لله لأنه يوم عتق رقاب بالنسبة لهم[٢٦].

والعيد اليهودى الثانى هو «عيد صوماريا» أو «الكبور» ، وهو يوم الغفران عندهم وعقوبة من لايصوم هذا اليوم أن يقتل . ويرى بعض الباحثين أن هذا العيد الذى يرجع إلى عصور العبرانيين الأولى مرتبط بأصول الشريعة اليهودية التى قررت يومًا فى العام لحساب الذات. وأن اليهود ، من طول ما عانوه من اضطهادات على طول تاريخهم ، جعلوا هذا اليوم لنقض مواثيقهم وأكل الديون التى يدينون بها لغير اليهود ، مما سبب معارضة بعض فقهاء اليهود فى العصر الحديث [٢٧].

أما «عيد المظلة» أو عيد «الظلل» فكان الاحتفال به يبدأ فى الخامس عشر من شهر تشرى ويستمر سبعة أيام يعيدون فى أولها ، واليوم الثامن هو عيد الاعتكاف عند الربانين. وفى هذا العيد يحتفل اليهود بذكرى الغمام الذى أظلهم الله به فى التيه، فيجلسون تحت سعف النخل الأخضر وأغصان الزيتون وغيرها من الأشجار الدائمة الخضرة[٢٨].

والعيد الرابع هو عيد الفطير الذى سُمِّى أيضًا بعيد الفصح ، وهو أيضًا يتصل بذكريات خروجهم من مصر . ويحل موعده فى الخامس عشر شهر نيسان اليهودى. وقد اختلفت الفرق اليهودية حول مدة الاحتفال به، فهى سبعة أيام عند القرائين، وثمانية أيام عند الربانين، وستة فقط عند السامرة ، ويعتبر هذا العيد أيضًا من أعياد التضحية ومواسم الحج لدى اليهود. وبينما يحج الربانون والقراءون فى هذا العيد إلى بيت المقدس ويضحون على الصخرة المقدسة ، يحج السامرة على جبل جرزيم القريب من نابلس فى فلسطين ويضحون هناك[٢٩].

٢٦- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٢ ، ص٤٢٦- ص٤٢٨ ؛ المقريزى، الخطط، جـ٢ ، ص٤٧١ يتبع النويرى ، نهاية الأرب، جـ١ ، ص١٨٧- ص١٨٩ ؛ مراد فرج ، القراءون والربانون، ص١٢٤-١٢٥ .

حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى، ص١٩٤- ص١٩٨ .

٢٧- حسن ظاظا ، المرجع السابق، ص٢٠٢- ص٢٠٣ .

٢٨- المقريزى، الخطط، جـ٢ ، ص٤٧٢ .

٢٩- القلقشندى : صبح الأعشى، جـ١٣ ، ص٢٦٨- ص٢٦٩ ؛ عزرا حداد؛ رحلة بنامين البطيلى، ص١٨٥- ص١٩٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخامس أعياد اليهود الشرعية هو عيد «الأسابيع» أو «العنصرة» أو «الخطاب» الذى يحتفلون فيه بذكرى الوصايا العشر التى أنزلها الله على نبيه موسى عليه السلام . وهذا العيد يحل فى السادس من شهر سيوان اليهودى. وكان اليهود يصنعون القطائف ويتفننون فى صنعها لكى يأكلوها فى هذا العيد فى ذكرى المن الذى أنزله الله عليهم فى التيه(٣٠).

وأشهر الأعياد التى استحدثها اليهود من واقع تاريخهم عيد الفوز «البوريم» وعيد «الحنكة» أو «الحانوكة» .

وعيد الفوز هو ذكرى انتصار اليهود على الوزير الفارسى «هامان» الذى أخذته الغيرة من اليهود وأراد القضاء عليهم . ولكن نفوذ أستير الجميلة لدى الإمبراطور الفارسى جعله يقتل هامان ورجاله. على ما يحكيه سفر أستير عن الأسر البابلى لليهود . ويبدأ هذا العيد بصيام (صيام استير) يستمر من الثالث عشر من آذار حتى الخامس عشر منه، ثم يقيم اليهود مهرجانًا صاخبًا يحرقون فيه تمثالاً من الورق المملوء بالنخالة رمزاً لهامان . ويبدو أن هذا العيد كان يرتبط بمظاهر اللهو والخلاعة فى عصر المماليك لدرجة جعلت المؤرخين المسلمين يطلقون عليه اسم «عيد المساخر» أو «عيد المسخرة» وكان اليهود يتبادلون الهدايا والهبات فى هذا العيد (٣١).

أما عيد «الحانوكة» أو «الحنكة» فكان الاحتفال به يستمر على مدى ثمانية أيام تبدأ فى ليلة الخامس والعشرين من شهر كسليو فى ذكرى انتصار اليهود على «أنطيوخوس ابيفانس» الذى حاول إرغام اليهود على عبادة الأصنام ، ولكنهم استعادوا هيكلهم وطهروه من الأصنام. والكلمة العبرية «حانوكة» تعنى التنظيف لأن اليهودنظفوا الهيكل من تماثيل آلهة اليونانيين. وفى عصر المماليك كان اليهود يوقدون المصابيح على أبواب دورهم ، وفقًا لعد تصاعدى، ففى الليلة الأولى يوقدون قنديلاً واحداً، وفى الليلة الثانية قنديلين ... وهكذا حتى تتم ثمانية قناديل فى اليوم الثامن . ولم يكن القراءون يعترفون بهذا العيد على الإطلاق كما أن السامرة لم يهتموا به(٣٢).

٣٠- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٢ ، جـ٢ ، ص٤٢٦ ؛ المقريزى ، الخطط جـ٢ - ص٤٧٢ .

٣١- تاريخ ابن الوردى، جـ١ ، ص٧٨ ؛ النويرى نهاية الأرب، جـ١ ، ص١٨٩ ؛ قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة ص١٢٦- ص١٢٧ .

٣٢- النويرى ، المصدر السابق، جـ١ ،ص١٧٨ ؛ القلقشندى ، المصدر السابق، جـ٢ ،جـ٢ ، ص٤٢٧- ص٤٢٨ ؛ المقريزى ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٤٧٢ .

ويبدو من خلال المصادر العربية أن المصريين من المسلمين والمسيحيين لم يكونوا يساهمون فى إحياء هذه الأعياد بشكل فعال، وربما لم يكونوا يساهمون فيها على الإطلاق نظراً لما اشتهر به اليهود من الحرص على العزلة .

أما النصارى فقد عددت المصادر لهم سبعة أعياد كبار، وسبعة أعياد صغار[٣٣]. وأول الأعياد الكبار هو عيد البشارة فى التاسع والعشرين من برمهات فى ذكرى البشارة التى ساقها غبريال (جبريل عليه السلام) إلى مريم العذراء بمولد المسيح عليه السلام .

والعيد الثانى هو عيد الزيتونة (أو الشعانين ومعناها التسبيح) فى ذكرى دخول المسيح إلى القدس، ثم دخوله الهيكل. وفى عصر المماليك كان المسيحيون يخرجون إلى الأماكن الخلوية والمتنزهات لاسيما فى ضاحية المطرية حيث كان يوجد بئر البلسم التى يعتقد المسيحيون أن مريم العذراء غسلت فيه ثياب المسيح[٣٤].

وكان العيد الثالث هو عيد الفصح الذى يفطرون فيه، ويحتفلون فيه بذكرى قيام المسيح من قبره- حسب اعتقادهم- واجتماعه مع حوارييه وتناول الطعام معهم .

أما العيد الرابع فيتصل بالتراث الدينى المسيحى الذى يقول إن السيد المسيح صعد إلى السماء بعد أربعين يومًا من قيامه وذلك بعد أن أكمل ثلاثًا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ، ويسمى هذا العيد «خميس الأربعين» .

والعيد الخامس هو «عيد الخميس» أو «عيد العنصرة» فى السادس والعشرين من شهر بشنس . ويعتقد المسيحيون أنه فى هذا اليوم حلت روح القدس فى حواريى المسيح بعد أن تجلى لهم روح القدس فى شبه ألسنة من نار ، وتفرقت عليهم ألسنة الناس فتكلموا بجميع اللغات، وذهب كل منهم إلى البلد التى يعرف لغتها للدعوة إلى دين المسيح .

وفى «عيد الميلاد » الذى يحل فى التاسع والعشرين من كيهك كان النصارى يوقدون المصابيح بالكنائس ويزينونها، ويلعبون بالمشاعل . ويقول المقريزى إنه شاهد احتفالات الميلاد التى كانت «موسما جليلا» ، تباع فيه الشموع المصبوغة بالألوان الرائعة ويشتريها الناس جميعًا ، ويزدهر سوق الشماعين لهذا السبب . وقد بالغ الناس فى الإنفاق على تزيينها[٣٥].

٣٣- ابن الحاج ، المدخل، جـ٢ ، ص٥٩- ص٦٠ .

٣٤- المقريزى ، المصدر السابق، جـ١ ؛ ص٢٦٣- ص٢٦٥ .

٣٥- المقريزى، المصدر السابق،جـ١ ؛ ص٢٦٣- ص٢٦٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والعيد السابع من أعياد النصارى الكبار هو عيد الغطاس الذى كان النصارى يحتفلون به فى حادى عشر طوبة فى ذكرى تعميد المسيح عليه السلام على يد يوحنا المعمدان(النبى يحيى بن زكريا عليهما السلام) فى مياه الأردن ، وفى هذا العيد كان النصارى يغمسون أولادهم فى المياه على الرغم من شدة البرد اعتقاداً منهم أن ذلك يقيهم شر المرض طوال حياتهم(٣٦).

أما أعياد المسيحيين الصغار فكانت سبعة أيضًا(٣٧) والجدير بالذكر أنه كانت للنصارى فى مصر أعياد أخرى غير تلك الأعياد الشرعية «... لكنها عندهم من المواسم الشرعية...» وقد أحصى القلقشندى من هذه الأعياد والمواسم المسيحية مائة وثمانية وسبعين عيداً وموسمًا مرزعة على شهور السنة القبطية وقد انفرد الأقباط ببعض الأعياد التى اتخذ الاحتفال بها شكالا عامًا وشارك المسلمون فى الاحتفال بها .

فقد احتفل المسلمون مع المسيحيين ببعض الأعياد المسيحية ذات الطابع الدينى البحت مثل عيد الميلاد الذى كان المصريون يصنعون فيه نوعًا من العصيدة ويزعمون أن من يأكلها يتقى البرد طوال السنة (٣٩). وشاهد المقريزى احتفالات هذا العيد التى كانت تفيض بالبهجة والسرور قبل تدهور الأحوال مع بداية القرن الخامس عشر ، وفى هذا العيد كان الناس يتنافسون على شراء الشموع المصبوغة (الفوانيس) ويعلقونها فى الأسواق وعلى أبواب الحوانيت حتى أن المقريزى يقرر أنه شاهد شمعة تكلفت ألفًا وخمسمائة درهم. ومن الطريف أن بعض الشحاذين فى الطرقات كانوا يسألون الناس أن يتصدقوا عليهم بفانوس «... فيشترى لهم من صغار الفوانيس ما يبلغ ثمنه الدرهم وما حوله...»(٤٠).

وفى عيد الغطاس كان بعض المسلمين يشاركون المسيحيين عادة غمس أطفالهم فى المياه الباردة لاعتقادهم أن ذلك يمنع عنهم المرض فى حياتهم(٤١) .

٣٦- ابن الحاج ، المدخل، جـ٢ ، ص٥٩ .

٣٧- قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة ، ص١٢٠ - ص١٢٣ .

٣٨- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٢ ، ص٤٢٠- ص٤٢٥ .

٣٩- ابن الحاج ، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٤٩ .

٤٠- المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص٢٦٣- ص٢٦٥ .

٤١- ابن الحاج ، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٥٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى خميس العهد، أو خميس العدس، كما درج الناس على تسميته آنذاك من باب الدعابة ، كان المسيحيون يهدون إلى المسلمين أنواع العدس المصفى والسمك المقلى والبيض الملون . وكان من عادة النساء أن تخرجن فى هذا اليوم إلى الأسواق لشراء الخواتم والبخور الذى يطلقنه فى بيوتهن حتى تصرف عنها العين والحسد والكسل والأمراض [٤٢]. وكان هذا العيد المسيحى من المواسم المصرية الهامة فى زمن المماليك ، وكانت تباع فى الأسواق كميات هائلة من البيض الملون مما كان يغرى العبيد والصبيان والغوغاء بأن يقامروا بها ، فينتدب المحتسب بعض أعوانه لكى يعاقبهم على ذلك[٤٣] . وكان الناس من كافة الشرائح الاجتماعية يشتركون فى الاحتفال ببعض الأعياد المسيحية، ويزيدون النفقة فى تلك الأعياد لإدخال السرور على أهلهم ، كما كانوا يتبادلون الهدايا مع أهل الذمة فى أعيادهم [٤٤].

وفى سنة ٨٣٦هـ (١٤٣٢م) حدثت مصادفة غريبة ، إذ توافقت بداية السنة الهجرية مع السنة القبطية والسنة اليهودية[٤٥] وهكذا احتفل أبناء الديانات الثلاث بأعيادهم فى وقت واحد .

ومن أشهر الأعياد التى اتخذت طابعًا عامًا فى عصر سلاطين المماليك عيد وفاء النيل وكسر الخليج، فقد كان فيضان النيل السنوى محط اهتمام المصريين على اختلاف مشاربهم ، يرقبون موعده ، ويحسبون حسابه، ولا غرو فقد كان النيل، ولايزال، هو قوام الحياة المصرية وعليه مدارها . وكان المصريون يهتمون بقياس مقدار الزيادة التى يسببها فيضان النهر يومًا بيوم . ففى السادس والعشرين من شهر بؤونة القبطى كان يؤخذ قاع النهر (أى يقاس ارتفاع منسوب الماء القديم فى النهر ليكون أساسًا تحسب عليه الزيادة) . ويبدأ إعلام الناس بمقدار الزيادة منذ اليوم التالى مباشرة. وفى عصر كل يوم يقيس المشرف على مقياس النيل فى جزيرة الروضة مقدار زيادة مياه النيل . لكى يعلنها المنادون فى الطرقات والأسواق حتى يطمئن الناس. ويذكر بيلوتى الكريتى Piloté de Créte ، الذى زار مصر فى مطلع القرن

٤٢- المصدر نفسه، جـ٢ ، ص٥٤ .

٤٣- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص٢٦٥- ؛ ابن إياس ، نزهة الأمم، ص٢١٩- ص٢٢٣ .

٤٤- ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ص٤٦- ص٤٨ .

٤٥- المقريزى، السلوك ،جـ٤ ،ص٨٨٠ ؛ ابن الصيرفى، نزهة النفوس ، جـ٣ ص٢٤٨ .

الخامس عشر أنه شاهد فى زمن الفيضان عدة فرسان يخرجون كل يوم وهم يرفعون الأعلام فوق أكتافهم ، ثم يتجهون إلى المقياس لكى يعرفوا مقدار زيادة النهر ثم يسيرون خلال الشوارع والطرقات يصيحون «أن النهر زاد كذا» [٤٦]. وهؤلاء الفرسان الذين وصفهم بيلوتى هم الذين أطلقت عليهم المصادر العربية اسم «مناديو البحر» [٤٧]. ويبدو دورهم مشابهًا لدور وسائل الإعلام فى عصرنا الحاضر من حيث نقل أخبار الفيضان اليومية إلى الناس .

وحين يكمل النهر ستة عشر ذراعًا (علامة الوفاء) يبدأ «مناديو البحر» فى التصريح بعدد الأذرع ، وعلامة الوفاء أن يسدل الستار الخليفتى على الشباك الكبير فى صدر مبنى المقياس بجزيرة الروضة ، فإذا شاهده الناس استبشروا بالوفاء[٤٨].

ويكون ذلك إيذانًا ببدء المهرجان الشعبى الضخم احتفالاً بهذه المناسبة التى يشارك الجميع فى إحيائها باعتبارها عيداً عامًا «قوميًا» . وكانت تحيط باحتفالات وفاء النيل وكسر الخليج كل مظاهر الفخامة والعظمة التى ميزت عصر سلاطين المماليك فى شطره الأول .

وتبدأ الاحتفالات بتعليق الستار الخليفتى بلونه الأصفر على الشباك الكبير فى الجهة الشرقية من دار المقياس . وتكون تلك الليلة من الليالى البهيجة فى القاهرة والفسطاط، إذ يوقد الناس عدداً هائلاً من القناديل والشموع فيتحول ليل القاهرة إلى نهار من كثرة الأضواء. ثم يحضر كبار الأمراء ، ومعهم الاستادار (المشرف على البيوت السلطانية) ثم توزع الخلع على من له عادة فى هذا الموسم. ثم يحضر القارئون ويتناوبون قراءة القرآن الكريم فى دار المقياس طوال الليل. ويعقبهم المغنون والمنشدون الذين يغنون طوال الليل [٤٩].

وفى صباح اليوم التالى تمد مائدة حافلة بأنواع اللحوم المشوية والحلوى والفاكهة ويحضر السلطان أو من ينوب عنه من أمراء المماليك، ويتخاطف العامة أنواع المأكولات «ولايمنع أحد من ذلك..» وفى بعض الأحيان كان يجبى من سكان العاصمة ثمن المأكولات التى تجهز لهذا الاحتفال، وقد أبطل السلطان المنصور قلاون ذلك وجعل نفقات الاحتفال من بيت المال[٥٠].

٤٦- Dopp, L'Egypte au Commencement du quanzieme siccle, pp. 20-21 .

٤٧- السيوطى ، كوكب الروضة ، (مخطوطة) ، ق٤٧ .

٤٨- ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٢٩٧ .

٤٩- ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ص١١٤-١١٥ .

٥٠- ابن إياس، بدائع الزهور ، ص١٢١ . (بولاق) .

وبعد الإنتهاء من الأكل يبدأ احتفال وفاء النيل وكسر الخليج وهو مرحلتان: تخليق المقياس. وكسر سد الخليج . وكانت المرحلة الثانية من الاحتفال تتم فى اليوم الثالث أو الرابع من المرحلة الأولى فى العصر الفاطمى، ولكن الاحتفال صار يتم بمرحلتيه فى يوم واحد أيام المماليك[٥١].

ويبدأ الاحتفال بنزول السلطان «أو من ينوب عنه» من قلعة الجبل، وفى خدمته كبار الأمراء من قادة الجيش وخواص الدولة . ثم ينزلون إلى النهر ويركبون المراكب التى تزينها الأعلام الملونة والشارات الزاهية وغيرها من الزينات ، وتدق الطبول وتطلق الألعاب النارية (النفوط) من المراكب حتى يصل الموكب النهرى إلى دار المقياس. وبعد الفراغ من الطعام الذى سبقت الإشارة إليه، يذاب الزعفران فى ماء الورد بإناء فضى ، ويعطى السلطان هذا الإناء للمسئول عن المقياس الذى يلقى بنفسه . بكامل ملابسه ، فى فسقية ومعه ذلك الإناء الفضى فيخلق عمود المقياس (أى يدهنه بالعطر) . ثم يخرج السلطان أو نائبه فيجلس بالشباك الكبير تحت الستار ويفرق الخلع والتشاريف على «من له عادة بذلك»، مثل والى الفسطاط وريس (قائد) مركب السلطان المعروفة باسم الذهبية، ورؤساء مراكب الأمراء . ثم يركب السلطان «الذهبية» (وهى السفينة السلطانية) وحولها مراكب الأمراء المزينة بكافة أنواع الزينات وقد اختفت صفحة النهر تحت عشرات المراكب والقوارب المليئة بالمتفرجين يسيرون خلف مركب السلطان ومراكب الأمراء حتى فم الخليج [٥٢].

وفى موقع سد الخليج يكون نائب السلطنة أو حاجب الحجاب منتظراً ومعه بعض كبار الأمراء فوق قنطرة السد. وهناك يتوجه السلطان بفرسه من فم الخليج حتى موقع السد البرانى ويمسك بمعول من الذهب الخالص ويضرب السد ضربات ثلاثا ، ثم يركب ثانية، فيأتى جمع غفير من الناس بفئوسهم فيحفرون هذا السد حتى يجرى الماء فى الخليج، ثم ينصرف السلطان إلى القلعة[٥٣]. والواقع أن قليلين من السلاطين كانوا يحرصون على حضور الاحتفال بأنفسهم، مما جعل المؤرخين يجدون فى اشتراك السلطان بنفسه فى هذه الاحتفالات أمراً جديراً بالتسجيل[٥٤].

٥١- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣ ص٥١٢-٥١٤ .

٥٢- الكتبى، مباهج الفكر ومناهج العبر (مخطوط) ، جـ١ ، ق٨٦ ؛ السيوطى، حسن المحاضرة ، جـ٢ ص٣٠٧ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم ، جـ١١ ، ص٢٢٣ ؛ ابن شاهين الظاهرى؛ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص٨٧ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤ ، ص٤٧- ٤٨ .

٥٣- Dopp, L'Egypte, p. 21 .

٥٤- السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٣٠٧، كوكب الروضة (مخطوط) ق٩٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولما كان الاحتفال بوفاء النيل يتم نهاراً فقد ربط بعض المفسرين بين قوله تعالى إخباراً عن فرعون «قال موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى»، وبين الاحتفال بوفاء النهر على أساس أنه يكون فى وقت الضحى(٥٥).

ولم تكن احتفالات وفاء النيل وكسر الخليج هى المظهر الاجتماعى الوحيد المرتبط بنهر النيل بل إن من الأعياد الدينية الطابع ما ارتبط بالنهر ارتباطًا مباشراً مثل «عيد الشهيد» ، و«عيد النيروز».

وقد اتخذ الاحتفال بعيد الشهيد طابعًا دينيًا وعامًا فى آن واحد، وكان موعده السنوى فى ثامن شهر بشنس القبطى . ويتم الاحتفال على شكل مهرجان كبير على ساحل النيل بناحية شبرا . وهو يرتبط بما كان أقباط مصر آنذاك يزعمونه من أن النيل لايزيد فى موسم الفيضان إلا بعد غسل إصبع أحد القديسين فى مائه . وكان هذا الإصبع يحفظ فى تابوت بكنيسة فى شبرا ، وقيل إنه إصبع أحد أسلافهم من الشهداء (٥٦).

وفى هذا العيد يتوافد الأقباط من شتى أنحاء البلاد، كما يخرج أهل العاصمة على اختلاف أديانهم واهتماماتهم إلى ساحل شبرا لمشاهدة هذا المهرجان الضخم ، حيث تقام الخيام بأعداد هائلة على ساحل النيل وفوق الجزر، ويحفل المهرجان بشتى صنوف اللهو والمرح ، فيجتمع الفرسان بخيولهم التى يرقصون بها على إيقاعات الطبول وأنغام الزمور ويجتمع المطربون من البدو وغيرهم من كل أنحاء البلاد . . «ولايبقى مغن ومغنية ، و لا رب ملعوب، ولابغى ولامخنث، ولاباض ولاخليع ، ولافاسق ولافاتك ، إلا ويخرج لهذا العيد...». وكانت تصحب هذا العيد مظاهر الفساد والانحلال والفوضى ، إذ ترتكب المعاصى علانية ، وتثور الفتن ، وتقع حوادث القتل (٥٧).

وفى بعض الأحيان كانت الاحتفالات بهذا العيد تمتد إلى يومين بثلاث ليال(٥٨). كما كان فلاحو شبرا يعتمدون على مبيعاتهم من الخمور فى هذا العيد للوفاء بما عليهم من الخراج(٥٩) مما يبين مقدار الخمور التى كانت تستهلك فى هذا العيد .

٥٥- المقريزى ، الخطط، جـ١ ، ص٦٠ .

٥٦- المقريزى، الخطط ، جـ١ ، ص٦٨ ، السلوك ، جـ١ ص٩٤١ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم ، جـ٨ ص٢٠٢ ؛ السيوطى، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٢٦٩ .

٥٧- المقريزى، الخطط، جـ١ ، ص٦٨ ؛ السيوطى، كوكب الروضة ، ق١٣١ .

٥٨- المقريزى، السلوك ، جـ٢ ، ص٤٥١- ص٤٥٢ .

٥٩- المصدر نفسه، جـ١ ، ص٩٤١ ؛ السيوطى، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٢٩٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى سنة ٧٠٢هـ (١٣٠١م) أبطل الأمير بيبرس الجاشنكير الاحتفال بهذا العيد بسبب مظاهر الفساد والانحلال التى كانت تصحبه ، وحاول الأقباط إعادته ثانية لقاء مبلغ من المال ولكنهم فشلوا . وظل الأمر على ما هو عليه حتى سنة ٧٣٨هـ (١٣٣٧م) حينما أعاد السلطان الناصر محمد بن قلاون الاحتفال به لسبب غريب هو أن الأمير «يلبغا اليحياوى» والأمير «الطنبغا الماردينى» طلبا الخروج للصيد، ولكن السلطان لم يوافق «لشدة غرامه بهما وتهتكه فى محبتهما ...» ، فعمل عيد الشهيد ليصرفهما من ذلك . وكانت مدة إبطاله ستا وثلاثين سنة ، ثم أبطل الاحتفال به نهائيًا سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٣م) بعد أن هدم الأمير «صرغتمش» الكنيسة، وأحرق التابوت الذى فيه الإصبع بحضور السلطان ثم ذرى رماده فى النهر [٦٠].

وثمة عيد عام آخر هو «عيد النيروز» ، وهو عيد رأس السنة القبطية فى أول شهر توت . ويغلب على الظن أن عادة الاحتفال بهذا العيد متوارثة عن قدماء المصريين على الرغم من اسمه الفارسى (ومعناه اليوم الجديد) ، فقد كان المصريون فى عصر الفراعنة يحتفلون بهذا اليوم إكرامًا لنهر النيل. وقد اعتبر هذا العيد عيد الربيع الذى تبدأ بعده زيادة مياه النهر الذى يستكمل مياهه فى الخريف أو أواخر الصيف . ولعل هذا هو ما يفسر لنا السبب فى أن المصريين جميعًا، بغض النظر عن دياناتهم ، كانوا يشاركون فى الاحتفال بهذا العيد.

وفى عصر سلاطين المماليك كان الاحتفال بعيد النيروز يأخذ شكل الاحتفالات القومية العامة [٦١]، إذا اعتبر ذلك اليوم بمثابة عطلة عامة ، فكانت الأسواق تغلق فى ذلك اليوم كما كانت المدارس تعطل .

وإذا ما حل عيد النيروز دبت الحركة والنشاط فى الشوارع والطرقات . ففى شوارع القاهرة وأزقتها كان بعض العامة يتجمعون فى موكب (كرنفال) يطوف القاهرة حول شخص يركب حماراً، وقد دهن وجهه بالدقيق أو الجير، ووضع لحية مستعارة ، ويرتدى ثوبًا أحمر أو أصفر،

٦٠- المقريزى، السلوك ، جـ٢ ، ص٩٢٦ . ويذكر السيوطى (حسن المحاضرة، ص٢٩٩) وابن تغرى بردى (النجوم : جـ٨ ، ص٢٠٢) أن هذا العيد قد أبطل نهائيا منذ سنة ٧٠٢هـ) .

٦١- شيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص٢٧٨ ؛ ابن الحاج ، المدخل جـ٢ ، ص٤٩ ص٥٠ ؛ المقريزى، الخطط . جـ١ ، ص٢٦٦- ص٢٦٨ ؛ ابن إياس ، نزهة الأمم ق٢٢٣- ق٢٢٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى رأسه طرطور طويل ، ويمسك كل من المحيطين به بالجريد الأخضر وسعف النخيل وشماريخ البلح. وفى يد الشخص دفتر وقلم . ويجول ذلك الموكب الصاخب العابث فى شوارع المدينة وأزقتها، ويطرق أبواب البيوت ، ويدخل الأسواق ويمر على الحوانيت لتحصيل النقود على شكل الإتاوات. وإذا امتنع أحد عن إعطائهم ما يريدون صبوا عليه وابلاً من الشتائم والكلام الفاحش ، وربما رشوه بالماء القذر . أما من يغلق بابه دونهم ، فكان يتعرض لما هو أكثر من ذلك[٦٢].

وفى الطرقات يقف بعض الناس يتراجمون بالبيض، ويتضاربون بأنطاع الجلود ويتراشون بالماء ، فلا يجسر أحد على الخروج من بيته [٦٣]. بل إن بعض كبار القوم كانوا يفعلون ذلك فى بساتينهم وداخل بيوتهم[٦٤].

ويبدو أن ذلك اليوم قد اعتبر بمثابة راحة أو عطلة عامة يتحرر الناس فيها من جميع قيود حياتهم اليومية وتقاليدهم بما فى ذلك سطوة القانون، فلم يكن الوالى يحكم لأحد ممن ينالهم الضرر من جراء الجرائم والحوادث التى كانت تحدث فى يوم النيروز [٦٥].

وفى بعض الأحيان كان الأمر يخرج عن نطاق المعقول والمحتمل ، مما كان يدفع بالحكام إلى فرض العقوبات ومنع بعض مظاهر هذا الاحتفال . ففى سنة ٧٨٢هـ (١٣٨٠م) نودى فى القاهرة والفسطاط بمنع اللعب بالماء فى يوم النيروز ، وهدد من يفعل ذلك بضربه ومصادرة أمواله، وأمسك أربعة من المخالفين فضربوا وشهروا، فكف الناس عن ذلك [٦٦]. فقد أبطل الأمير الكبير برقوق (قبل أن يتولى العرش) الكثير من مظاهر الاحتفال بعيد النيروز ، لاسيما التراجم بالبيض ، والتصافع بالجلود، والتراش بالماء[٦٧] وعلى الرغم من أن السلطان الناصر فرج بن برقوق قد أعاد الاحتفال بهذا العيد، فإن مظاهر هذا الاحتفال

٦٢- ابن الحاج ، المدخل، جـ٢ ، ص٥٢- ص٥٣ ؛ ابن إياس ، نزهة الأمم ، ص٢٢٥ ب ، يتبع.

٦٣- ابن إياس ، نزهة الأمم ، ق٢٢٣- ق٢٢٧.

٦٤- ابن الحاج، المدخل، جـ٢ ، ٤٩ .

٦٥- المصدر نفسه، ص٥٢- ص٥٣ .

٦٦- المقريزى، السلوك ، جـ٣ ، ص٣٩٤ .

٦٧- القلشندى ، صبح الأعشى ، جـ٢ ، ص٤١٩- ٤٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تواضعت إلى حد كبير بسبب الأزمات التى توالت على البلاد منذ منتصف القرن الثامن الهجرى(١٤م) (٦٨).

وارتبطت بالاحتفال بعيد النيروز بعض الأطعمة والحلوى التى كان المعاصرون يحرصون على توفيرها فى هذا اليوم حتى صارت من لوازم ذلك الاحتفال، وربما نشأت المشاكل بسببها داخل البيوت. ومن هذه الأطعمة والحلوى، الزلابية والهريسة التى كان بعض الناس يحضرون الصانع ليبيت عندهم ليجهزها قبل طلوع النهار. وفى هذا العيد كان المصريون يتهادون بهذه الحلوى. كذلك جرت العادة على أن تؤكل فى هذا اليوم أنواع معينة من الفواكه مثل البطيخ والخوخ والبلح «.. وغير ذلك مما تلزمه النساء لأزواجهن...»(٦٩).

هذه ، بشكل عام ، أهم أعياد المصريين الدينية واحتفالاتهم العامة. ولعل الصورة التى حاولنا رسم ملامحها من خلال المعلومات التى أمدتنا بها المصادر التاريخية لذلك العصر الزاخر بالأحداث والمتناقضات، تشى بحياة صاخبة لاهية. وهذه حقيقة تصدق على الواقع فى مصر فى الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك إلى حد كبير. بيد أن الألوان البهيجة الزاهية فى هذه الصورة أخذت تنحسر أمام مد الألوان القاتمة والحزينة مع بداية الأزمات والتدهور الذى أخذ ينخر فى بنيان الدولة منذ أخريات القرن الثامن الهجرى (١٤م) .

وانعكس هذا التدهور بالضرورة على شكل احتفالات المصريين وأعيادهم. وإذ أفردنا لمظاهر التدهور والاضمحلال دراسة مستقلة فى الصفحات التالية، فإننا سنكتفى بالإشارة إلى بعض ملامح التدهور من خلال ما طرأ على الاحتفالات والأعياد .

ففى أواخر ذلك العصر كانت الفتن والاضطرابات قد صارت نغمة معتادة فى حياة المصريين كما صار من المألوف فى حياة الناس اليومية أن تتحول شوارع المدن والأسواق إلى ميادين القتال بين طوائف المماليك المتصارعة(٧٠)، ونسوق مثالاً على هذا ما حدث سنة ٨٩٩هـ

٦٨- المصدر نفسه، ص٤٢٦- ص٤٣٠؛ المقريزى، الخطط، جـ١ ، ص٢٦٨ ؛ السيوطى، كوكب الروضة ق١٩٥ .

٦٩- ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ، ص٤٩ .

٧٠- انظر على سبيل المثال ابن الصيرفى ، إنباء الهصر، ص٣٧ ،٧٩ ، نزهة النفوس، جـ٢ ، صفحات ١٠٩ ،١١١ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ،١٨٨- ١٨٩ ، ٢١٢ ، ٢٦٨-٢٦٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص١٤٧ ، جـ٤ ، ص٤٦٣، ٤٦٤ .

(١٤٩٣م) حين كسر سد الخليج بدون احتفال، إذ كانت القاهرة تموج بفتنتها ، وحروب الشوارع قائمة على أشدها بين المماليك ولم يخرج أحد من الناس للاحتفال «... لأن كل أحد كان مشغولاً بنفسه عن ذلك...» (٧١). وفى بعض الأحيان كان السلطان يمتنع عن المشاركة فى الاحتفال خوفًا على حياته من مؤمرات أمراء المماليك واعتداءاتهم (٧٢).

وكان احتفال وفاء النيل وكسر الخليج يتم فى الصباح ، كما أسلفنا القول، ولكن حدث فى سنة ٩٠٤هـ (١٤٩٨م) أن تم الاحتفال ليلاً، وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى يحدث فيها ذلك. والسبب كما يورده ابن إياس هو أن السلطان «محمد بن قايتباى» أراد أن يحضر الاحتفال بنفسه ولكن الأمراء منعوه خوفًا عليه من المماليك المتربصين به، فنزل ليلاً مع حاشيته وفتح السد. وأصبح الناس ليجدوا الماء فى الخلجان والبرك ، فتعجبوا ودهشوا لأن ذلك «... ما وقع قط فى الجاهلية ولا فى الإسلام ... وقد ضيع على الناس فرحتهم بيوم الوفاء»(٧٣).

كذلك انعكست مظاهر التدهور العام فى أواخر عصر سلاطين المماليك على احتفال دوران المحمل ، فقد قل الاهتمام بأمر المحمل، ولم يعد الحكام يلتزمون بمواعيده التقليدية، كم كانت الأوبئة والمجاعات ، التى تحصد بمنجلها الفتاك أعداداً كبيرة من السكان ، تؤثر على شكل الاحتفال فيقل عدد المماليك الرماحة ، كما يقل إقبال الناس على مشاهدة الاحتفال بسبب حزنهم على موتاهم (٧٤).

ومن ناحية أخرى، انعكست حالة التدهور الأمنى على احتفال دوران المحمل ، فقد ابتكر المماليك الجلبان بدعة جديدة هى «عفاريت المحمل» . وهم مجموعة من المماليك يركبون خيولهم وقد غيروا من هيئتهم بشكل مزعج ، فيطرقون أبواب الأعيان والأمراء ويجبون منهم الأموال قسراً، ويعترضون الناس فى الشوارع والطرقات وينزلون بهم شتى صنوف المهانة

٧١- ابن إياس ، بدائع الزهور (بولاق) ، جـ٢ ص٣١٧ .

٧٢- المقريزى، السلوك ، جـ٣ ، ص١٠٢٢ .

٧٣- ابن إياس ، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٢٤٥ (بولاق) .

٧٤- المقريزى، السلوك ، جـ٤ ، ص١٠٠٦ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم ، جـ١٤ ص٣٧ ، ص٣٤٥ ؛ ابن الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان، جـ٢ ص٣٩٤ ، ص١٨٠- ص٣٨١ .

«...وما كفاهم ذلك حتى صار العفريت منهم يجبى الدكاكين...»[٧٥]. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن أولئك الأجلاب كثيراً ما كانوا ينتهزون فرصة ازدحام الناس فى الاحتفال فيخطفون النساء والصبيان ويفسقون بهم جهراً وينهبون الأمتعة ويثيرون الرعب والفوضى[٧٦]. ولما ضج الناس بالشكوى وطالبوا بإلغاء احتفال المحمل أمر السلطان بإلغاء بدعة «عفاريت المحمل» هذه [٧٧].

وفقدت الأعياد بهجتها بسبب توالى الأزمات الاقتصادية والأوبئة فضلاً عن تدهور الأحوال السياسية الداخلية وانتشار الخوف والفزع من ظلم الحكام وانعدام الأمن، إذ يذكر ابن الصيرفى أن عيد الفطر فى سنة ٨٤١هـ. دخل على الناس وهم «فى نكد وجزع وقلق وهم ومصاب..» بسبب تزايد ضحايا الوباء من ناحية، وكساد الحركة فى المدينة بسبب أوامر السلطان بعدم خروج النساء من بيوتهن ، فضلاً عن ظلم الحكام وتخبط سياسة الدولة من ناحية أخرى [٧٨]. ويذكر المقريزى أن بعض الأسواق التى ارتبطت بالمواسم والأعياد ، والتى كانت تزدهر وتموج بالحركة والنشاط أثناءها ، قد تعرضت للذبول والاضمحلال، إذ أن «سوق الشماعين» على سبيل المثال والذى يرتبط بليالى رمضان والعيد عند المسلمين، والميلاد والغطاس لدى المسيحيين تعرض للكساد بسبب عدم إقبال الناس على شراء الشموع بعد تدهور الأحوال فى منتصف القرن التاسع الهجرى (١٥م) حتى آل أمره إلى خمسة حوانيت فقط[٧٩] كما تواضعت مظاهر الاحتفال بأعياد المسيحيين لهذا السبب نفسه[٨٠].

ولعل الدراسة التى نقدمها فى الصفحات التالية عن المجاعات والأوبئة والأزمات الاقتصادية تلقى مزيداً من الضوء على عوامل التدهور والسقوط التى أخذت تنخر فى بنيان الدولة حتى أودت بها عندما طرقتها جيوش العثمانيين .

٧٥- ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ١٦ ، ص١٢٣ .

٧٦- المقريزى، السلوك ، جـ٤، ص١٠٢٦ ، ويذكر ابن الصيرفى (نزهة النفوس، جـ٣، ص١٥٥) أنه حدث فى سنة ٨٣٢هجرية أن تصدى الناس لعبث المماليك الأجلاب وقتلوا اثنين منهم، كما حدث فى سنة ٨٤١هجرية أن نشب قتال بينهم وبين العبيد أثناء الاحتفال (المصدر نفسه، جـ٣، ص٣٩٩) .

٧٧- ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ١٦ ، ص١٢٣ .

٧٨- ابن الصيرفى: نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص٤٠٧ .

٧٩- المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص٩٣- ١٠٦ .

٨٠- المصدر نفسه، جـ١ ، ص٢٦٦- ص٢٦٨ ؛ القلقشندى ، جـ٢ ، ص٤٢٦- ص٤٣٠ ؛ السيوطى كوكب الروضة ، ق١٩٥ ؛ ابن إياس ، نزهة الأمم، ق٢١٩- ق٢٢٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحرف المتصلة بالحياة اليومية

مدخل إلى الدراسة- الحرف والبناء الاجتماعي- طبيعة الحرف المتصلة بالحياة اليومية- التقسيم النوعي للحرف (حرف تتصل بالغذاء- حرف تتصل بحياة الأسرة اليومية- حرف الخدمات اليومية- حرف العمارة - حرف اللهو والتسلية) ملاحظات ختامية

تعتبر الحرف والصناعات في المجتمع الإنساني عامة من المؤشرات الدالة على طبيعة هذا المجتمع واتجاهاته . كما أنها تكشف ، من ناحية أخرى، عن حال هذا المجتمع من حيث درجة ثرائه. ورفاهية أبنائه ، أو العكس ، وبقدر ما تتعدد الحرف والصناعات وتتنوع في مجتمع ما ، بقدر ما يتضح لنا مدى التطور والرقي الذي وصل إليه هذا المجتمع. فإذا ما تقلصت الحرف كما وكيفا . واختفت بعض الصناعات ، كان ذلك علامة دالة على حال من التدهور والذبول في المجتمع . وهذه الدراسة تهتم بالحرف التي تتصل بالحياة اليومية في مصر زمن سلاطين المماليك؛ وهي بهذا محاولة لتوضيح جانب جديد من جوانب الحياة الاجتماعية في مصر آنذاك .

أشرنا في الدراسات السابقة إلى أن المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك كان مجتمعًا طبقيًا في اتجاهاته وعلاقاته ؛ وهو الأمر الذي انعكس بوضوح على كافة مظاهر الحياة اليومية في المجتمع المصري. كذلك أشرنا إلى أن المجتمع المصري لم يبق على حال من الجمود والثبات طوال ذلك العصر الذي امتد في رحاب الزمان إلى ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان. ففي مرحلة بناء الدولة المملوكية وطور نموها كانت مظاهر الحياة المصرية تنبئ عن الفتوة والحيوية الدافقة التي تعتبر، دائما، من سمات مراحل البناء والتقدم، ولكن التدهور الذي ألم بالبلاد منذ الدولة المملوكية الثانية (أو بعد بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) ، والذي كانت بذوره كامنة في ثنايا النظام منذ البداية ، نشر الألوان القاتمة الحزينة في صورة المجتمع المصري. وكانت تلك الألوان والظلال تعبيراً عن يوم يميل إلى الغروب، وعصر في طريقه لأن يتوارى في ذمة التاريخ [١].

١- لمزيد من التفاصيل راجع المدخل إلى هذه الدراسات في بداية الكتاب .

هذا المجتمع الطبقى انقسم إلى طبقتين رئيسيتين ، الحاكم والرعية كما أسلفنا القول. ومع تسليمنا بوجود الفوارق بين الشرائح الاجتماعية داخل كل من هاتين الطبقتين ، فالواقع ، كما تكشف عنه المصادر التاريخية لعصر سلاطين المماليك، يشى بأن الطبقة الحاكمة قد عاشت حياة اجتماعية خاصة بها لايمكن أن نقول إنها كانت حياة اجتماعية مصرية. فقد جاء المماليك إلى مصر غرباء، وعاشوا فيها غرباء ، وحافظوا على غربتهم باعتبارهم أبناء طبقة عسكرية يحترفون القتال كمهنة يرتزقون منها . ولم تكن لهم أية روابط تجمعهم مع الرعية ، أو تجعلهم يشعرون بأن ثمة ما يربطهم بالبيئة الاجتماعية. ومن ثم كان اهتمامهم محصوراً فى ذواتهم، وكان كل ما يعنيهم من الناحية المعنوية هو الشعور بالسيادة، وإشاعة الرهبة والخوف فى نفوس المصريين . ولم يكن ذلك ممكنا بالاندماج فى حياة المجتمع المصرى، وإنما بالانفصال عنه والتعالى على أبنائه . أما المصريون ، فقد واصلوا حياتهم دون أن يعبأوا بالحكام وقسوتهم ، وكانت لهم فى أغانيهم وأزجالهم وبلاليقهم ونكاتهم ، والأوصاف الساخرة التى أطلقوها على أولئك الحاكم سلوى وعزاء . بيد أن حياتهم الاجتماعية سارت سيرتها المعتادة منذ بدأ المصريون فى بناء الحضارة على ضفاف النيل .

ولم تكن العلاقة بين «السلطان» و«الرعية» فى مصرآنذاك قائمة على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة ؛ فإن ذلك كان أبعد ما يكون عن مفاهيم أولئك الحكام المجلوبين عبيداً فى طفولتهم ، والذين كان ولاؤهم خاصًا وشخصيًا بالدرجة الأولى (وهو ما تكشف عنه مسميات فرقهم المختلفة ؛ مثل «الظاهرية» نسبة إلى الظاهر بيبرس البندقدارى ، أو مثل «المنصورية» نسبة إلى المنصور «قلاون»، أو «الناصرية» نسبة إلى الناصر محمد بن قلاون ، أو غيرها من الفرق المملوكية) . ويمكن بشئ من التجاوز أن نقول إن العلاقة بين الطرفين ، أى السلطان والرعية . كانت علاقة نهبية . فقد كان على الرعية أن تقدم ثمار عملها إلى الحاكم الذى لم يكن يرى فى الرعية سوى مصدر للدخل من خلال الضرائب التى عرفت فى مصطلح ذلك العصر بأسماء معبرة مثل «المظالم» و«الكُلَف» و«المغارم» ؛ وهى جميعًا أسماء تزيح النقاب عن نظرة المصريين لهذه الضرائب وعن تصورهم لفلسفتها . لقد كانت هذه العلاقة إفرازاً للنظام الإقطاعى المملوكى الذى فرض نوعًا من التخصص فى النشاط الاقتصادى والاجتماعى والعسكرى على كل طبقة من طبقات المجتمع. فقد كانت الحرب فى ذلك الزمان حرفة تعتمد على القوة البدنية والمهارة القتالية ؛ وهو ما يعنى أن تكون حياة العسكريين مكرسة للتدريب

على فنون القتال أو على القتال الفعلى، ومن ثم كان لابد لطبقة اجتماعية أخرى أن تتولى إعالة الجنود، وكانت الرعية بغالبيتها من الفلاحين تتولى هذه المهمة . ومن ناحية أخرى ، لم تكن حكومة المماليك تلتزم تجاه رعاياها بأية مسئوليات عامة فى مجالات التعليم ، والرعاية الصحية والتغذية وغيرها . وباستثناء الأمن الداخلى والدفاع عن الحدود الخارجية ، ظلت مسئولية الخدمات العامة من مهام المؤسسات الخاصة مثل نظام الأوقاف الذى كان من أهم دعائم الحياة الاجتماعية فى عصر سلاطين المماليك(٢). ومثل التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية الخاصة التى كانت تنظم شئون الطوائف الدينية مثلا (٣) أو التى ترعى أحوال أصحاب الحرف والصناعات .

على أية حال، كانت بداية عصر سلاطين المماليك فى مصر مصحوبة بأحداث تاريخية جعلت من مصر المعقل الأخير للحضارة العربية الإسلامية ، على حين كان العالم الإسلامى فى مشرقه ومغربه يتعرض لضربات موجعة من التتر ومسيحيى الغرب الكاثوليكى ؛ وهو الأمر الذى يفسر لنا أسباب الهجرات الكثيرة التى جاءت إلى مصر آنذاك ؛ سواء من الشرق أو الغرب (٤). ومن الطبيعى أن تكون لهذه الهجرات آثارها الإيجابية على معدلات النمو السكانى .

هذا النمو السكانى ، مع ظروف الاستقرار والأمن التى كفلتها دولة سلاطين المماليك فى عصرها الأول، انعكست آثارهما فى حال من الرواج الاقتصادى والازدهار الاجتماعى تجلت من خلال أسواق البلاد التى كانت كثيرة العدد مكتظة بكافة أصناف البضائع الأساسية والكمالية والتى كانت تمور بالحيوية والنشاط وتشى بمدى رخاء المجتمع المصرى فى بداية ذلك العصر . كانت الأسواق المصرية هى الواجهة التى كشفت عن مدى تنوع الحرف والصناعات

٢- انظر حول هذا الموضوع : محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر - ٦٤٨- ٩٢٣هـ - ١٢٥٠ -١٥١٧م . دراسة تاريخية وثائقية (دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٨٠م) .

٣- انظر الفصل الخاص بالأقليات الدينية فى هذا الكتاب .

٤- ابن أيبك الدوادار ، كنز الدرر وجامع الغرر، جـ٨ ، ص٣٦١ ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية (دار المعارف ١٩٦٧م) ص١٩٤-ص١٩٩ ، حيث يورد تفاصيل الهجرات المغولية إلى مصر وأعدادها ، انظر كذلك :

Ashtor , A Social and Economic Hist., pp. 282 - ff .

المتصلة بالحياة اليومية فى المجتمع المصرى من ناحية، كما كشفت عن متانة البناء الاجتماعى فى بداية عصر سلاطين المماليك من ناحية أخرى .

بيد أن طبيعة النظام السياسى فى ذلك العصر (وهو نظام إقطاعى عسكرى) وعلاقته بالرعية. وطبيعة البناء الاجتماعى (وهو بناء طبقى فى أساسه واتجاهاته)، هى التى فرضت ، إلى حد ما ، أنماط الحرف والصناعات التى ازدهرت فى خدمة المجتمع المصرى فى حياته اليومية آنذاك ، كما أنها هى التى جعلت بعض هذه الحرف والصناعات ترتبط بالناس العاديين فى حياتهم اليومية ، على حين ارتبطت حرف أخرى بالحكام الذين استأثروا بالشطر الأكبر من ثروة البلاد ومواردها (سواء كانت أرضًا زراعية أم أرباحًا جنوها من تجارة المرور) . وهكذا ازدهرت حرف وصناعات فى خدمة الأغراض الاستهلاكية اليومية وأخرى ارتبطت بحياة القصور وساكنيها المولعين باقتناء التحف ومظاهر الرفاهية ، وبناء المبانى الفخمة ، إلى جانب اهتمامهم بزينة ملابسهم وأسلحتهم وخيولهم وحرصهم الزائد على مظاهر الأبهة والعظمة فى مواكبهم .

ولعل من المفيد أن نبدأ هذه الدراسة بحرف الغذاء على اعتبار أن هذه الحرف تكون عادة أكثر الحرف ارتباطًا بالمجتمع فى حياته اليومية ، وأكثرها تعبيراً عن اتجاهات هذا المجتمع ومدى ثرائه أو فقره . وفى عصر سلاطين المماليك أحصى لنا أحد كتب الحسبة سبع عشرة حرفة تتصل بالغذاء وتتنوع ما بين الجزارة والطبخ وصناعة الحلوى [٥]. فقد أورد هذا الكتاب العلافين والطحانين، والفرانين والخبازين والشوايين [٦]، والنقانقيين ، والكبوديين والبوارديين[٧] ، والجزارين ، والرواسين . والطباخين ، والشرائحيين ، والهرائسيين ، وقلايين

٥- ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة (تحقيق . محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦) ، ص٤٧- ص٤٨.

٦- (أو الشوائين) كما يفهم من كلام ابن الاخوة (ص١٥٦- ص١٥٧) كانوا يقومون بشى الحيوانات ، وقد وضعت عدة شروط لضمان النضج ، وتوفر الشروط الصحية فى الشواء ذكرها ابن الأخوة كما ذكر الوسائل التى كانوا يغشون بها وكانت هناك طائفة تتولى بيع الشواء على قطع من الخشب تسمى القرم (مفردها قرمة) فى الأسواق.

٧- النقانق، كما يتضح من كلام ابن الأخوة ، (ص١٥٨) كانت نوعًا من السجق » تصنع من لحم الضأن. أما الكبوديون ، فهم الذين يبيعون الأكباد (الكبدة) بعد طهيها ، وقد حدد لنا ابن الأخوة (ص١٥٩) طريقة طهيها ، والبوارديون هم تجار المشهيات (الطرشى) الذى كان يتألف من الكرنب واللفت واللوبيا والباذنجان ، والرجلة (١٥٩-١٦٠) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السمك ، وقلايين الزلابية والحلوانيين ، والشرابيين واللبانين. وإن نظرة على الأسواق المصرية فى بداية عصر سلاطين المماليك، والحرف التى خلعت أسماءها على بعض هذه الأسواق، لتكشف لنا عن مدى ازدهار المجتمع المصرى فى بداية ذلك العصر، كما تكشف عن مدى التدهور الذى أصابه فى نهايته (٨).

ومن خلال أسماء أسواق ذلك العصر نستطيع التعرف على كثير من حرف التغذية آنذاك ، كما نستطيع أن نتعرف على كثير من عادات المصريين الاجتماعية ، ويجدر بنا أن نلاحظ أن أسواق المواد الغذائية كانت منتشرة فى جميع أنحاء البلاد، وهو أمر يتمشى بالضرورة مع توزيع التجمعات السكانية . وتحفل مصادر عصر سلاطين المماليك بأسماء وأخبار عدد كبير من الأسواق التى تخصصت فى بيع المواد الغذائية ، ولم تكن الحركة تنقطع ليلاً ونهاراً فى بعض الأسواق المقامة فى الأحياء ذات الكثافة السكانية العالية .

ومن ناحية أخرى، تكشف دراسة بعض الحرف المتصلة بالغذاء عن بعض عادات المصريين الاجتماعية فى مجال الغذاء . فالواقع أن عامة المصريين فى ذلك الزمان لم يعتادوا الأكل فى بيوتهم.

وكانت حوانيت الطباخين هى المكان الذى يشترى منه المصريون طعامهم. وقدّر أحد الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر فى ذلك العصر عدد المطاعم والمطبخ فى القاهرة وحدها بما يزيد عن إثنى عشر ألف مطعم (٩). وكانت غالبية رواد هذه المطاعم من سواد العامة ومن الفقراء(١٠) وإلى جانب هذه المطاعم ، التى تبدو أنها كانت تقدم نوعا من الوجبات المطهية الساخنة بأسعار رخيصة ، كان هناك عدد كبير من باعة الطعام الجائلين يطوفون بشوارع القاهرة ومعهم الطعام المطهى على عربات، أو «الطبليات» وتحته المواقد مشتعلة حتى يظل ساخنًا (وهو مشهد ما يزال يفرض نفسه على كل من يتجول فى شوارع المدن المصرية حتى اليوم) كذلك كان بعض باعة الطعام المطهى ، بكافة أنواعه ، يفترشون الأرض فى الأسواق والشوارع

٨- انظر دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب .

٩- سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (الطبعة الثانية) ، ص٨٧ .

١٠- المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص٩٤ .

والطرقات وبجوار المساجد وأمامهم «طبليات» تحتها مواقد يبيعون عليها الطعام للمارة[١١] وفى شهر رمضان كانت مطاعم القاهرة ومطابخها تظل مفتوحة طوال الليل، وحتى وقت السحور لاستقبال الرواد ، وهو الأمر الذى استرعى انتباه بعض الرحالة الأجانب [١٢].

أما الأثرياء وميسورو الحال، فكانوا يرسلون ما يريدون طهيه من طعام إلى مطابخ تخصصت فى ذلك . وقد عرفت هذه الطائفة باسم «الشرائحية» ، أو «الشرائحيين» ، أو «الشرايحيين» فى عصر سلاطين المماليك. وكانوا يطهون الأطعمة ويرسلونها إلى المنازل مع صبيانهم فى قدور مغطاة حتى لاتتلوث بغبار الطريق ، ولكى لايعلم الناس ما بداخلها . وكان الطعام الذى يطهى عند الشرائحيين يخلط بالتوابل والأفاويه لكى يكتسب مذاقا ونكهة طيبة. وعلى الرغم من أن كلا من المقريزى وابن دقماق قد ذكر أنه كان هناك سوق خاص بهذه الطائفة فى القاهرة ؛ فإن ما نقرؤه فى ثنايا المصادر التاريخية لتلك الفترة يكشف عن أن حوانيتهم كانت منتشرة فى سائر أنحاء البلاد[١٣]. وهو أمر نراه منطقيًا فى ضوء النظر إلى التوزيع السكانى . وقد ذكر صارم الدين بن دقماق «مصطبة الطباخين»[١٤] التى تبدو أنها كانت مكانًا خاصًا باجتماعاتهم فى غير أوقات العمل لأن حوانيتهم كانت منتشرة فى شتى الأنحاء. وربما كانت «مصطبة الطباخين» هذه مكانًا شبيهًا بالمقاهى التى يرتادها أبناء حرفة معينة فى عصرنا الحالى .

ويكشف كلام المؤرخ تقى الدين المقريزى عن مدى رفاهية الحياة المصرية فى بداية عصر سلاطين المماليك ، من خلال حديثه عن معدل الاستهلاك اليومى للمواد الغذائية ؛ إذ يقول «... وسمعت الكافة يفاخرون بمصر سائر البلاد ، ويقولون : يرمى بمصر كل يوم ألف دينار ذهبا على المزابل والكيمان، ويعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والطباخون والجبانون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن والجبن والتى يأكل فيها الفقراء بحوانيت الطباخين وما يستعمله

١١- ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ، ص٧٩- ص٨٠ ؛ المقريزى، الخطط جـ٢ ص٦٣ وما بعدها ؛ تافور الرحلة ، ص٧٧- ص٧٨ .

١٢- عاشور ، المرجع السابق، ص١٨٥ .

١٣- ابن الحاج ، المدخل ، جـ٣ ، ص١٨٦- ص١٨٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص٩٤- ص١٠٦ .

١٤- ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص١٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بياعو الجبن من الخيط والحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف ، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق المقوى والخيوط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاويه وغيرها ... »[١٥] ومن المهم أن نشير إلى أن بائعى الحلوى والطعام لم يقتصر وجودهم على الأسواق وشوارع المدن فحسب ، بل كانوا يتجمعون أحيانًا فى أماكن نزول السلطان للنزهة وأماكن العمل العام (مثل بناء جسر على النيل، أو شق ترعة ، أو تشييد مدرسة) ، كما كانوا يتجمعون فى الموالد وغيرها لكى يبيعوا الطعام إلى رواد هذه الأماكن سواء كانوا من العمال أو القادمين للاحتفال بالموالد[١٦].

أما الخبز ، فكان هناك ما يباع منه جاهزاً فى الأسواق والحوانيت، ومنه ما كان يعد فى البيوت، ثم يرسل إلى الأفران لخبزه (وهى عادة ماتزال موجودة فى المجتمع المصرى حتى اليوم، وإن كانت فى طريقها إلى الاختفاء الآن). وكان صبيان الأفران يمرون على البيوت لأخذ العجين. ويبدو أن الناس فى عصر سلاطين المماليك كانوا يرسلون عبيدهم وخدمهم ، أو أبناءهم إلى الأفران أحيانا لمراقبة الخبز. إذ أن أحد المعاصرين يحكى لنا أن الفران كان يختلس من خبز الناس « الرغيف والرغيفين». كذلك كان بعض الناس يخبزون عجينهم فى الفرن نظير أجرة شهرية يتفقون عليها مع الفران ، على حين كان البعض الآخر يدفع أجرة عن كل مرة يخبز فيها عجينه[١٧] ويبدو من استقراء مصادر ذلك العصر أن الميسورين من الناس كانوا هم فقط الذين يرسلون خبزهم إلى الأفران ؛ فالواقع أن عدداً كبيراً من عامة المصريين كانوا يشترون الخبز جاهزاً من الأسواق مثلما كانوا يرتادون المطاعم لتناول الوجبات الجاهزة . وكان هؤلاء أيضا هم الذين يعانون من أى نقص فى الغلال والخبز، فيهجمون على الخبز والعجين المرسل إلى الأفران كما أوضحنا من قبل .

١٥- الخطط ، جـ٢ ، ص٩٤ .

١٦- المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ٢ ، ص٢٥١ ؛ ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور ، ص٢٤- ص٢٦ ؛ تاريخ ابن الوردى، جـ٢ ، ص٢٣٠ ، ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٣ ، ص٤٤ ؛ قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى، ص٣٥- ص٣٧ .

١٧- ابن الحاج ، المدخل ، جـ٤، ص١٧٠- ص١٧٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والجدير بالذكر أن «الخباز» فى عصر سلاطين المماليك كان هو الذى يصنع الخبز لبيعه فى الأسواق ، أما «الفران» فهو الذى يخبز خبز البيوت لقاء أجر معلوم[١٨] ولكن يبدو أن مثل هذا التفريق لم يكن قائمًا فى كل الأحوال ، فكثيراً ما خلط الناس بين الفران والخباز باعتبارهما صاحبى حرفة واحدة. ومن ناحية أخرى، كانت هناك أفران ضخمة تخدم الأحياء ذات الكثافة السكانية العالية فى القاهرة ؛ فقد ذكر المقريزى أنه كانت فى أول الحسينية فرن تخبز فيها يوميًا نحو سبعة آلاف رغيف [١٩].

وكانت صناعة السكر إحدى الحرف الهامة المتصلة بالغذاء . وقد أحصى لنا ابن دقماق ، الذى توفى سنة ٨٠٥ هجرية، ثمانية وخمسين مطبخًا للسكر فى الفسطاط وحدها. ومن المهم أن نشير إلى أن هذه الصناعة كانت من الصناعات الغذائية الهامة فى عصر سلاطين المماليك لارتباطها بمظاهر حياة الرفاهية التى عاشها السلاطين والأمراء من ناحية ، ولارتباطها ببعض الاحتفالات والعادات والتقاليد الاجتماعية من جهة أخرى، كانت بعض مطابخ السكر مملوكة لأفراد من عامة المصريين. كما كان اليهود المصريون فى ذلك الزمان يعملون فى هذه الصناعة وامتلك بعضهم مطابخ السكر فى بعض أحياء القاهرة . وفى بعض الأحيان كان أصحاب هذه المطابخ يتولون إدارتها بأنفسهم ، لاسيما إذا كانوا من أبناء الرعية ، على حين كان البعض من الأثرياء والأمراء يؤجرونها لمن يتولى إدارتها . كما أن بعض أمراء المماليك كانوا يملكون مطابخ للسكر، وكانت هذه المطابخ تمثل مصدراً هامًا من مصادر دخلهم . بل إن بعض السلاطين كانوا يمتلكون مطابخ خاصة بهم؛ فقد ذكر ابن دقماق . أن مطابخ السكر السلطانية التى كانت بخط دار الملك كانت سبعة مطابخ على صف واحد. ثم خصص السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون ثلاثة من هذه المطابخ لبنيه وخصص واحداً للدولة ، على حين جعل الثلاثة الباقية ضمن أملاكه الخاصة . وتكشف كلمات هذا المؤرخ عن أن مصانع السكر هذه كانت كبيرة بالقدر الذى استوجب أن يكون هناك مسئول عن إدارتها يتولى الإشراف على العمال العاملين بها. وينبغى أن نشير إلى أن مدينة الفسطاط قد اشتهرت بكونها أحد مراكز صناعة السكر الهامة فى ذلك العصر، وربما كانت أشهر من غيرها من المدن المصرية فى هذه الصناعة [٢٠].

١٨- نفسه ، جـ٤ ، ص١٧٢ .

١٩- الخطط جـ٢ ، ص١٠٥ .

٢٠- ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص٤١- ص٤٦ ، المقريزى، الخطط ، جـ١ ، ص٣٦٦ .

وقد قامت صناعة الحلوى على صناعة السكر. ويبدو أن قائمة الطعام المصرية فى عصر سلاطين المماليك قد عرفت طائفة كبيرة من الحلويات . فقد ذكرت بعض مصادر ذلك العصر قائمة بما هو مشهور من الحلوى فى مصر آنذاك تحوى أسماء لثلاثة وخمسين نوعًا[٢١]، وهو الأمر الذى يكشف عن رفاهية وثراء المجتمع المصرى فى ذلك الحين .

بيد أننا ينبغى أن نأخذ فى اعتبارنا أن معظم أسماء الحلوى الواردة فى هذه القائمة لم تكن معروفة لدى سواد الشعب من العامة الذين كانوا يشترون ما يحتاجونه من حلوى من الأسواق ومن الباعة الجائلين، وربما كانت «الزلابية» هى أشهر الحلويات الشعبية لدرجة أن كتب الحسبة تفرد فصلا للحديث عن «الحسبة على قلائين الزلابية»[٢٢] فقد كانت «الزلابية» من الحلوى التى كان المصريون يحرصون على توفيرها فى احتفالهم بعيد النيروز وربما نشبت الخلافات والمشكلات فى بيوت بعض المصريين بسبب حرص الزوجات على وجود هذا النوع من الحلوى بالمنزل فى عيد النيروز . وكان البعض يحضرون صانع «الزلابية» ليبيت عندهم وليجهز «الزلابية» قبل طلوع النهار[٢٣].

كذلك ارتبطت بصناعة السكر فى مصر آنذاك صناعة أخرى ارتبطت بحياة المصريين الاجتماعية . هى صناعة التماثيل السكرية التى كان لها سوق خاص هو «سوق الحلاويين» الذى كانت له مواسم بعينها يزدهر فيها. ففى شهر رمضان من كل عام، كان هذا السوق يمتلئ بكافة أنواع وأحجام التماثيل السكرية التى صنعت على هيئة مختلف أنواع الحيوانات . وقد عرفت هذه التماثيل باسم «العلاليق» (ومفردها عُلاقة) لأنها كانت تعلق بخيوط على أبواب الحوانيت . وكان وزن «العلاقة» يتراوح ما بين ربع رطل وعشرة أرطال، وكان الناس يحرصون على شرائها لأطفالهم وأقاربهم وأصهارهم فى هذه المناسبة [٢٤]، مثلما يحدث الآن فى

٢١- ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة، ص١٨١- ص١٨٣ . نذكر منها على سبيل المثال «الصابونية» وهى نوع من الحلوى يصنع من الدقيق المحمص بالسمن ، ثم يضاف إليه السكر واللبن ويعمل منه قوالب مثل الصابون و«القطايف» وهى المعروفة حاليا ، و«الفستقية» وهى معروفة حتى الآن «وخبيصة اليقطين» ، وهى تصنع من دقيق الحنطة مع دهن اللوز أو الشيرج ، ويضاف العسل إليها بعد الطبخ ، وترفع عن النار لتجمد ، و«لقيمات القاضى» وهى لقمة القاضى المعروفة حاليا .

٢٢- ابن الأوة ، معالم القربة ، ص١٨٠ .

٢٣- ابن الحاج، المدخل، جـ٢ ، ص٤٩ .

٢٤- انظر دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب ، كذلك : المقريزى، الخطط ، جـ ٢ ، ص٩٣- ص١٠٦ .

الاحتفال بالمولد النبوى. ومن الواضح أن سوق الحلاويين لم يكن قاصرا على بيع هذه التماثيل السكرية ، ومن المنطقى أن يكون تجار هذا السوق قد تخصصوا فى صناعة وبيع سائر أصناف الحلوى. ولكن موسم ازدهار هذا السوق كان يرتبط بهذه التماثيل السكرية أو «العلاليق» .

وليس الهدف من هذه الدراسة أن تقدم إحصاء شاملاً للحرف والصناعات ، وإنما هدفنا أن نكشف من خلال بعض الحرف المتصلة بالحياة اليومية عن بعض ملامح الحياة الاجتماعية فى مصر زمن سلاطين المماليك. وتكشف النماذج التى درسناها من حرف الغذاء عن أن المجتمع المصرى فى ذلك الزمان قد عرف قائمة كبيرة ومتنوعة من الأطعمة والحلوى ، كما تكشف عن أن معدل الاستهلاك اليومى كان مرتفعًا ، وأن الاستهلاك الترفى كان سمة اجتماعية واضحة . وهو أمر يتمشى بالضرورة مع الحقيقة القائلة بأن المجتمع كان يعيش فترة ازدهار ونمو وتقدم واكبت قيام الدولة المملوكية وصعودها ، وهو عكس ما نراه فى العصر المملوكى الثانى حين بدأت الدولة رحلتها صوب الغروب والذبول .

أما الحرف والصناعات الصغيرة المتصلة بالحياة الأسرية ، والتى يمكن أن نضعها فى إطار حرف الخدمات ، فكانت من الكثرة والتعدد والرقى فى بداية عصر سلاطين المماليك، بحيث تكشف عن صدق ما ذهبنا إليه فى السطور السابقة . فعلى سبيل المثال يذكر المؤرخ تقى الدين المقريزى أن الناس فى بداية ذلك العصر كانوا مولعين للغاية بالنحاس المكفت (أى المطعم بالذهب والفضة) ويقول : «... فلا تُكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مُكَفَّت ، ولابد أن يكون فى شورة العروس دكة نحاس مكفت...»[٢٥] وهو الأمر الذى يشى

٢٥- وصف المقريزى هذه الدكة بأنها «.. عبارة عن شئ شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس ، أو من خشب مدهون . وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض تبلغ كبراها ما يسع نحو الأردب من القمح ، وطول الأكفات التى نقشت بظاهرها من الفضة نحو ثلث ذراع فى عرض إصبعين، ومثل ذلك دست أطباق عدتها سبعة بعضها فى جوف بعض ، ويفتح أكبرها نحو الذراعين وأكثر ، وغير ذلك من المنابر والسرج (أدوات الإضاءة) وأحقاق الأشنان ، والطشت ، والأبريق . والمبخرة فتبلغ قيمة الدكة من النحاس زيادة على مائتى دينار ذهبا ..» ويكشف هذا الوصف عن أنها كانت تستخدم لحفظ أدوات المائدة . والجدير بالذكر أنه بينما كان عامة الناس يكتفون بدكة واحدة لتجهيز بناتهم ، كانت بنات الأمراء والأعيان تجهز بسبع دكك من طرز فاخرة ، انظر : المقريزى، الخطط جـ٢ ، ص١٠٤ .

بأن مظاهر الترف والتمسك بالكماليات فى الحياة المصرية آنذاك ، كانت انعكاسًا للوضع الاقتصادى والاجتماعى المزدهر فى بداية عصر سلاطين المماليك، كما كانت تعبيراً عن حال الاستقرار والأمن النسبى التى تمتع بها المجتمع فى ذلك الحين .

وإذا ما تتبعنا الأسواق التى تخصصت فى بيع لوازم البيوت والأثاث فى مصر حينذاك ، أمكننا أن نقف على بعض الحقائق المتعلقة بالحياة الأسرية . فقد كانت هناك حوانيت خاصة فى «سوق الخراطين» لبيع المهد الذى يربى فيه الأطفال ، كما خصص سوق بأسره لبيع الأثاث المنزلى من الأسرة والخزائن والصناديق ، وهو السوق الذى عرف باسم «سوق الصنادقيين»[٢٦] ويبدو أنه كان هناك مكان أساسى لبيع الحصر التى كان الناس فى ذلك العصر يستخدمونها فى منازلهم وفى فرش المساجد أيضا . هذا المكان عرف باسم «فندق الحصر» ، وفيه كانت تباع الحصر الرفيعة والحصر القطبان التى اشتهر إقليم الفيوم بصناعتها فى عصر سلاطين المماليك[٢٧]. ويبدو أن الرهبان المسيحيين كانوا يساهمون فى هذه الصناعة ؛ إذ شكا أحد المعاصرين من أن الرهبان كانوا يبيعون الحصر التى يضفرونها فى المساجد [٢٨].

كذلك ازدهرت صناعة الأقمشة والمنسوجات والحرف المتصلة بالملابس ازدهاراً كبيراً فى ذلك العصر، بيد أننا لن نهتم سوى بالجوانب المتصلة بالحياة الاجتماعية من هذه الصناعة . ويتضح من مدى تنوع الحرف المتصلة بالملابس مدى حرص الناس على أناقتهم بشكل عام . وهو أمر يتفق ، فى تصورنا ، وحقيقة البناء الطبقى لذلك المجتمع . وثمة حقيقة مؤداها أن هذا البناء الطبقى قد أفرز مجموعة من المبادئ والمثل والقيم الاجتماعية تحرص على المظهر والشكل دون الجوهر، وهو الأمر الذى يكشف عن نفسه بجلاء فى اهتمام سلاطين المماليك الفائق بمراسم البلاط، وعنايتهم الشديدة بزينة مواكبهم وفخامتها ، فضلاً عن أناقة ملابسهم وكسوة خيولهم مما تفيض المصادر التاريخية لذلك العصر فى وصفها. وفى مجال الملابس كانت لكل فئة فى المجتمع ملابس خاصة بها لايجب لغير أفراد هذه الفئة أن تتزيا بها. ويمكن أن نستنتج من صمت مصادر ذلك العصر عن وصف ملابس العامة، أن هذه الملابس كانت عاطلة من الزخارف

٢٦- المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص١٠١- ص١٠٢ .

٢٧- ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص٤٠ .

٢٨- ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ، ص٢٣٢- ٢٣٣ .

والزينة التى اقتصرت على ثياب الحكام . والقضاة ، والفقهاء من أرباب العمامة ، والتجار وأمثالهم .

ويبدو أن عمليات تصنيع القماش فى مراحله المختلفة قد عرفت باسم «القزازة» كما عرف أصحاب هذه الحرفة باسم «القزازين» فى مصطلح ذلك العصر. ويستفاد من بعض المصادر أن الصناع فى هذه الحرفة كانوا ينقسمون إلى قسمين : قسم يعمل بالأجرة لدى غيره من أصحاب المصانع الصغيرة ، والقسم الآخر يعمل لحسابه . وكان القسم الأخير ينقسم بدوره إلى فئتين : فئة تأخذ الغزل من الناس لكى تنسجه لهم لقاء أجر معلوم ، وهذه هى العملية التى عرفت آنذاك باسم «القبالة» وفئة تشترى الغزل وتنسجه وتبيعه أثوابًا جاهزة[٢٩] وقد أطلقت بعض كتب الحسبة اسم «الحائك» على من يقوم بهذا العمل [٣٠]. أما صناع الحرير فقد عرفوا باسم «الحريريين» وكان أولئك هم الذين يقومون بتصنيع الحرير وصبغه ، كما كان بعضهم يبيع الحرير غزلا لمن يطرز به ؛ والبعض الآخر ينسجونه ويبيعونه أثوابا ، على حين كان البعض يعمل منه الحاشية التى تستخدم فى صناعة الملابس ، والبعض الآخر يمزج الحرير مع الغزل وثوب الطرح لإكسابها رقة الملمس ونعومة وليونة تتفقان مع استخدامها كغطاء للرأس أو الكتفين[٣١].

كانت المرحلة التى تلى عملية نسج القماش تعرف باسم «القصارة». فقد كان النسج يتم بواسطة أنوال يدوية مما كان يستدعى القيام بعمليات تكميلية حتى تتداخل لحمة النسيج وسداه تداخلاً كاملاً . فكان القماش بعد نسجه ، يرش بالماء ، ثم ينشر حتى يجف ، ويعاد رشه ونشره عدة مرات حتى يبيض. ومن الطريف أن بعض «القصارين» فى ذلك الزمان كان يتصرف فى قماش الناس بشكل يدل على افتقاره للأمانة (وهى على أية حال آفة أخلاقية وجدت آنذاك ، ومازال موجودة حتى اليوم) ؛ إذ يبدو من كلام بعض المعاصرين أن بعض أولئك القصارين كان يأخذ القماش ويستخدمه فى بيته، وكأنه ملك له « ... ويتعلل لصاحبها كلما طالبه بها أنها لم تفرغ قصارتها ... »[٣٢].

٢٩- ابن الحاج، المدخل ، جـ٢ ، ص١٥ .

٣٠- السبكى، معيد النعم ومبيد النقم ، ص١٩٣ ، ابن الأخوة ، معالم القربة - ٢١٨ .

٣١- ابن الأخوة ، المصدر السابق، ص٢١٨ ، ابن الحاج ، المصدر السابق، جـ٤ ، ص١١ .

٣٢- ابن الأخوة ، المصدر السابق، ص٢٢١ ؛ ابن الحاج ، المصدر السابق، جـ٤ ، ص١٦-١٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتتصل بصناعة الملابس أيضا حرفة الصباغة ؛ فقد كان الناس يرسلون أقمشتهم إلى الصباغ لكى يقوم بصباغتها. ويبدو أن العرف قد جرى على إلزام الصباغ بدفع التعويض المناسب إذا أفسد لأحد الناس قماشه[٣٣] وقد اتهم ابن الأخوة ، الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى، غالبية الصباغين فى زمنه بأنهم «يرهنون أقمشة الناس، ويعيرونها لمن يلبسها ويتزين بها. وهذه خيانة وعدوان»[٣٤].

وكانت هناك مجموعة من حوانيت «الرفائين» و«الحبَّاكين» و«الرسامين» ، و«الفرائين» ، و«الخياطين» وكانت هناك منطقة فى الفسطاط لسكنى رفائى الثياب عرف باسم «خوخة الرفايين»[٣٥] ويبدو أن الحبَّاكين، ، كانوا مثل الرفائين متخصصين فى مداواة عيوب الثياب . أما الرسامون فكانوا يرسمون الأشكال الزخرفية التى تطرز بها الملابس . وقد ذكر المقريزى أنه كانت توجد بخط البندقانيين عدة حوانيت لرسم أشكال ما يطرز من الذهب والحرير على الملابس[٣٦] وكان الفراءون يتولون تركيب قطع الفراء فى الملابس، ويبدو من مصادر تلك الفترة أن سائر المصريين كانوا مولعين باستخدام الفراء لتزيين ملابسهم. وكان من المألوف ، حتى فى عصر الجراكسة الذى شهد تدهور الأحوال الاقتصادية ، أن يرتدى الجنود والكتاب وعامة الناس وكل امرأة من الشرائح الاجتماعية الدنيا الفراء المستورد[٣٧].

ويبدو أن سعر خياطة الثوب كان يتحدد على أساس وزنه . كما كان العرف جاريًا على أن يتسلم الخياط الثوب بالوزن ويسلمه لصاحبه ، بعد اتمام عمله ، بالوزن أيضًا لاسيما إذا كان الثوب من قماش غالى الثمن ، وربما كان ذلك احتياطًا ضد الغش واستبدال ثوب نفيس بآخر رخيص . ولكن بعض الخياطين من أصحاب الذمم الخربة كانوا يتحايلون على ذلك بسرقة جزء من الثوب ثم يرشونه بالماء بعد خياطته «حتى يزيد فى الوزن قبالة ما أخذه» كما كانت الشكوى من عدم ضبط المواعيد شائعة فى ذلك العصر[٣٨]. كما هو الحال فى أيامنا هذه .

٣٣- السبكى ، معيد النعم ، ص١٩٤ .

٣٤- معالم القربة، ص٢٢٤ .

٣٥- ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص٤١ ؛ المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص١٠٠ .

٣٦- المقريزى، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٣١ .

٣٧- نفسه، جـ٢ ، ص١٠٣ ؛ ماير ، الملابس المملوكية ، ص١٣١ .

٣٨- ابن الاخوة ، معالم القربة، ص٢١٩ ؛ ابن الحاج ، المدخل، جـ٤ ، ص١٨-١٩ .

ومن الحرف التى اتصلت بحياة الأسرة فى عصر سلاطين المماليك أيضا غسل الثياب وكيها. وقد عرف أصحاب هذه المهنة آنذاك باسم «البابية» (مفردها البابا) . ويبدو أن المصريين من أبناء الشرائح الاجتماعية الميسورة الحال قد اعتادوا على أن يرسلوا ثيابهم ومفروشاتهم إلى مغاسل عامة لغسلها وصقالها (أى كيها) لأن بيوت ذلك العصر لم تكن مجهزة بالمياه بحيث تسمح لهم بالغسل . بل إن ابن الحاج ، وهو مغربى زار مصر فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى، يتعجب من أن المصريين ينفقون مبالغ طائلة على شراء بيوت أو بنائها دون أن يكون بها حمام أو موضع للوضوء[٣٩]. على أية حال كان بسوق الجملون ، وهو أحد الأسواق الكبرى بالقاهرة المملوكية، عدد كبير من أولئك البابية .. «المعدين لغسل الثياب وصقالها » بل إن بعض الأثرياء كانوا يحرصون على أن يحتفظوا فى بيوتهم بعمال مخصصين لكى الملابس[٤٠] أما الفقراء ، فكانوا يتولون غسيل ملابسهم بأنفسهم فى أماكن معينة على شاطئ النيل عرفت باسم «المناشر»[٤١].

وفى مجال الزينة الشخصية لعب «المزين» و«الحلاق» دوراً هاماً فى المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك . بيد أنه يظهر من مصادرنا أن «المزين» كان يقوم بأعمال غير تلك التى كان «الحلاق» يقوم بها؛ فثمة إشارة واضحة تفرق بين «المزين» و«الحلاق» . فقد ذكر السبكى أن من الناس من يأتى «المزين» ليثقب أذنيه ويضع فيهما حلقتين، كما يفهم من بعض الروايات أن «المزين» كان يقوم بختان الأطفال أيضاً[٤٢] أما «الحلاق» فكان يتولى قص الشعر وتهذيب الشوارب والذقون . وتشير كتب الحسبة إلى وجوب الاتفاق على الأجرة مما يشير إلى أنه لم تكن هناك تسعيرة ثابتة أو أجر متعارف عليه لمثل هذه الأعمال. ويبدو أن الناس غالبًا ما كانت تحلق فى الحمامات العامة قبل الاستحمام. ومن ناحية أخرى ، وجدت طائفة من الحلاقين يطوفون الشوارع والطرقات وقد ثبتوا المرايا إلى صدورهم ، وكانوا

٣٩- ابن الحاج، المصدر السابق، جـ٢ ، ص١٧٠ .

٤٠- السبكى، معيد النعم، ص١٩٦ ؛ المقريزى، الخطط، جـ٢ ، ص١٠٠ ؛ السخاوى، الضوء اللامع جـ٢، ص١٢٦ ؛ عاشور ، المجتمع المصرى، ص٢٢٣ .

٤١- ابن الحاج ، المصدر السابق، جـ٢ ص٥٨ .

٤٢- السبكى، المصدر السابق، ص١٩٠- ص١٩٢؛ ابن الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان، جـ٢ ، ص١٨٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقومون بحلاقة رؤوس الناس وتزيين وجوههم فى الشوارع أيضًا (من الملاحظ أن مثل أولئك الحلاقين الجوالين ما يزالون موجودين حتى اليوم) وكانوا يحوبون شوارع المدينة وهم ينادون على صناعتهم . كذلك كان بعض الحلاقين يقومون بتهذيب الشوارب والذقون للناس فى المساجد والجوامع مما أثار سخط المتدينين من معاصريهم[٤٣].

وقد شهد الرحالة الأوربى «بيرتافور» ، الذى زار مصر فى القرن الخامس عشر، عدداً من الصبية السود تتراوح أعمارهم ما بين العاشرة والثانية عشرة يجوبون أنحاء مدينة القاهرة وهم يصيحون : «من يريد الزيانة؟» وذكر أنهم يقومون بخدمة النساء اللاتى يردن النظافة سرا[٤٤]. ولاشك أن هناك حرفًا نسائية أخرى تخصصت فيها النساء، وهى كلها حرف تتعلق بزينة النساء ونظافتهن ، ولكن الميدان الذى كانت تتم فيه ممارسة مثل هذه الحرف كان قاصراً على البيوت أو حمامات النساء . وقد تعرض أحد الباحثين المحدثين لهذه الحرف جميعًا فى دراسته عن المرأة فى عصر سلاطين المماليك [٤٥].

ويقودنا هذا إلى الحديث عن الحمامات العامة التى كانت من أهم المنشآت الاجتماعية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك . فقد أشرنا من قبل إلى أن بيوت المصريين فى ذلك العصر كانت تفتقر إلى الحمامات التى كانت قاصرة على بيوت السلاطين والأمراء وكبار الأثرياء فقط . ومن ثم كان المصريون، من جميع الفئات ، يقصدون الحمامات العامة حيث ينظفون أجسادهم وينعمون بالحديث وتبادل الأخبار مع رفاقهم . وقد أحصى لنا ابن دقماق خمسا وأربعين حمامًا بمدينة الفسطاط وحدها. وذكر هذا المؤرخ أن بعض هذه الحمامات التى ذكرها قد خرب ، وأمدنا بأسماء إحدى عشرة حماما قديمة أولها «حمام الفار» التى كانت أول حمام يبنيها العرب بعد فتح مصر[٤٦] أما حمامات القاهرة فإننا لانعرف عن أعدادها معلومات

٤٣- السبكى، معيد النعم ، ص١٩٢ ، رحلة تافور ، ص٩٧ ؛ ابن الحاج ، المدخل، جـ٢ ، ص٢٣٥ .

٤٤- رحلة تافور ، ص٩٧ .

٤٥- انظر الدراسة التى قام بها الدكتور أحمد عبد الرازق بعنوان :

La femme au temps des Mamlouks en Egypte, Le Caire 1973 .

٤٦- يذكر لنا ابن دقماق معلومات طريفة فى سياق بيانه للسبب فى تسمية الحمام بهذا الاسم الغريب؛ فيقول إن هذه الحمام كانت صغيرة جداً بالقياس إلى الحمامات التى اعتاد المصريون ، والبيزنطيون فى مصر =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دقيقة ، وإن كنا نعرف أنها بلغت حوالى الثمانين حمامًا فى العقد الثامن من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى(٤٧) ويبدو من كلام مصادر تلك الفترة أن المدن المصرية الأخرى كانت بها أعداد من الحمامات العامة ، تقل وتكثر تبعا للكثافة السكانية فى تلك المدن ، وتبعا لأهميتها التجارية أو الثقافية . بيد أننا لانملك أى دليل إحصائى على أعدادها الحقيقية بسبب الاهتمام الشديد من جانب المؤرخين آنذاك بحاضرة السلطنة وكرسى الملك. أى القاهرة التى كانت محور النشاط السياسى والاقتصادى والثقافى فى ذلك العصر .

على أية حال ، فإننا نعرف أنه كانت هناك حمامات خاصة بالرجال وأخرى خاصة بالنساء والجدير بالملاحظة أن معظم هذه الحمامات كانت تبنى من أموال السلاطين والأمراء والأثرياء لتكون أوقافًا جارية للإنفاق على ذرية الواقف ، أو على أحد وجوه النشاط الدينى، أو الثقافى، أو الصحى ومؤسساته مثل المساجد ، والأسبلة ، والخوانق ، والزوايا ومثل المدارس والمكاتب (الكتاتيب المخصصة لتعليم الأطفال) ، أو البيمارستانات .. وما إلى ذلك . وبطبيعة الحال ، كانت بعض الحمامات التى عرفها عصر سلاطين المماليك قد بنيت قبل ذلك العصر، كما كان الوالى يقوم بتجديد بعض الحمامات القديمة أحيانا (٤٨)، وذلك باعتبارها من المنشآت العامة التى يجب على الدولة وممثليها أن يقوموا برعايتها . وقد انتشرت الحمامات فى جميع المدن المصرية ، كما أسلفنا القول ، مما يشير إلى الحقيقة التى ذكرها ابن خلدون ومؤداها أن كثرة الحمامات فى المدن من مظاهر الترف والغنى . وما ينتج عن ذلك بالضرورة من رغبة فى التنعم(٤٩).

كان المسئول عن الحمام هو «الحمامى» الذى حددت كتب الحسبة واجباته . ويذكر أحد هذه الكتب أنه يجب أن يكون لدى الحمامى مآزر يؤجرها للناس لستر عوراتهم ، وأن تكون هذه

= قبل الفتح الإسلامى، وهى حمامات كانت تتألف من ثلاث طبقات تتصل ببعضها البعض . وحين شاهد المصريون والبيزنطيون الذين اختاروا البقاء بمصر بعد الفتح الإسلامى، هذه الحمام الصغيرة سخروا منها وقالوا إنها لاتصلح إلا للفأر ، فعرفت «بحمام الفأر» انظر : ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص١٠٤ - ص١٠٦ .

٤٧- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص٧٩ .

٤٨- نفسه ، جـ٢ ، ص٧٩- ص٨٠ .

٤٩- المقدمة، ص٤٢٢ .

المآزر عريضة بحيث تستر ما بين السرة والركبتين ، كما ينبغى عليه أن يمنع المجذومين والبُرصاء من دخول الحمام. ويبدو أنه كان هناك مساعد للحمامى هو الذى أطلقت عليه كتب الحسبة اسم «الوقّاف» الذى كانت مهمته حفظ ملابس الناس(٥٠) وارتبطت بالحمام مهن وحرف أخرى مثل «البلان» الذى يتولى نظافة أجساد الرجال فى الحمام ، ويبدو أنه كان هو نفسه «المزين» الذى ذكر «ابن الأخوة» أنه يجب أن يكون «خفيفا رشيقًا بصيرا بالحلاقة»(٥١) وربما كانت الحرفتان متشابهتين . ومن ناحية أخرى كانت «البلانة» تقوم بهذه المهمة فى الحمامات الخاصة بالنساء(٥٢).

وقد ارتبطت الحمامات بالحياة اليومية والعادات الاجتماعية من عدة وجوه. فقد كانت الحمامات مثل الأسواق من مراكز تبادل الأخبار والآراء. ففى هذه الحمامات يكون الناس مضطرين إلى قطع الوقت بالثرثرة حول سائر شئون الحياة . كذلك فقد ارتبطت الحمامات ببعض التقاليد والعادات فى المجتمع المصرى آنذاك ؛ فقد كان دخول أى مريض إلى الحمام بمثابة إعلان بشفائه (٥٣)، كما كان من التقاليد الاجتماعية المرعية أن يتوجه العريس إلى حمام الرجال، على حين تتوجه عروسه إلى حمام النساء فى موكبين منفصلين تصاحب كلا منهما الأغانى والموسيقى والرقصات . وبعد انتهاء الاستحمام يعود الموكبان بشكل مماثل إلى مكان الاحتفال. وفى الحمامات الخاصة بالنساء كانت المصريات تجتمعن بأفخر ملابسهن حيث يتباهين ويتبارين فى إظهار الأناقة. وقد ارتبطت الحمامات ببعض المعتقدات الشعبية التى شاعت بين المصريين فى ذلك الزمان ؛ إذ كان الناس ، مثلا ، يعتقدون أن من دخل الحمام أربعين يوما متتالية يفتح الله عليه فى الدنيا(٥٤) ومن المهم أن نشير إلى أن هذه الحمامات كانت مجهزة بالمياه الساخنة التى لم يكن ممكنا توفيرها فى المنازل .

٥٠- ابن الأخوة، معالم القربة ، ص٢٤٠- ص٢٤١ .

٥١- المصدر السابق، ص٢٤٢ ؛ ابن الحاج ، المدخل، جـ٣ ، ص٢٣٨ .

٥٢- Ahmed Abd Ar- raziq , La Femme ,pp. 44-45 .

٥٣- عاشور ، المجتمع المصرى، ص٩٥- ص٩٦ .

٥٤- ابن الحاج ، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٨٢ ؛ المقريزى ، الخطط، جـ٢ ، ص١٧٣ ، ابن تغرى بردى حوادث الدهور فى مدى الأيام الشهور ، جـ٢ ، ص٢٢٦- ص٢٢٧

كذلك اعتمد المصريون على مياه النيل فى الشرب لعدم وجود دورات المياه والحمامات فى المنازل ، كما سبق القول. وكان السقاءون هم الذين يقومون بأداء هذه الخدمة فى المجتمع المصرى لقاء أجر معلوم. وكان السقاءون يحملون قرب المياه على ظهور جمالهم وحميرهم أو على أكتافهم . ويسيرون فى طرقات المدينة وهم يصيحون بالصلاة على النبى حتى يفسح الناس لهم الطريق. ولفت نظر الرحالة الذين زاروا مصر آنذاك كثرة عدد السقائين الذين قدر البلوى المغربى (زار مصر فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى) أنهم يمتلكون مائتى ألف جمل [٥٥]، كما استرعى نظر الرحالة بيرو تافور كثرة عدد السقائين فى شوارع القاهرة[٥٦] وعلى الرغم من أن رائحة المبالغة تفوح مما ذكره البلوى، فلاشك فى أن عدد السقائين كان كبيرا حتى يقوموا بالخدمات المناسبة لسكان القاهرة الذين كانوا كثيرين بمقاييس ذلك الزمان[٥٧]. والجدير بالذكر أن الماء كان يباع بالقربة ، وفى بعض الأحيان كان السقاءون يأخذون أجورهم مقدمًا ، ثم يرسلون صبيانهم لتفريغ قرب المياه فى أزيار المنازل التى اتفقوا مع أصحابها ، وقد استنكر ابن الحاج هذا الأمر على أساس أنه كان يتم فى غيبة الرجال عن منازلهم مما رآه انتهاكًا لحرمة المنازل وخروجًا على الأصول لأن النساء فى المنازل كن يحادثن صبيان السقائين عند قيامهم بتوريد المياه[٥٨] كذلك كان السقاءون يقدمون خدماتهم للطواحين والمعاصر ومعاجن الطين التى كانت تحتاج إلى كميات كبيرة من المياه .

وقد عرف الشارع المصرى آنذاك طائفة من السقائين عرفوا باسم «سقائى الكيزان وأرباب الروايا والقرب والدلاء» ويبدو أن سقائى الكيزان هؤلاء كانوا هم أصحاب الحوانيت التى توضع بها الأزيار والكيزان ليشرب الناس منها مقابل مبلغ متعارف عليه. وكان على المحتسب أن يراقب نظافة هذه الأزياء والكيزان ويتأكد من عدم غش مياه النيل بمياه الآبار[٥٩]

٥٥- رحلة البلوى المغربى، ص٥٥ .

٥٦- رحلة تافور ، ص٩٨ .

٥٧- قدر أحد الباحثين عدد سكان القاهرة فى بداية عصر سلاطين المماليك بحوالى ستمائة ألف نسمة انظر دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب .

٥٨- ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ، ص٢٣٥ ؛ جـ٣ ، ص١٠٣ ، جـ٤ ، ص١٧٨ - ص١٨٢ ؛ ابن الأخوة معالم القربة ، ص٣٤٩ .

٥٩- ابن الأخوة ، المصدر السابق، ص٣٤٨ .

أما «أرباب الروايا والقرب والدلاء» فيبدو أنهم كانوا يبيعون المياه فى الأسواق من قرب يحملونها فوق ظهورهم . وفى بعض الأحيان كانت تحدث أزمة فى مياه الشرب ويشتد الطلب على السقائين ، الذين لايتمكنون من تلبية كل الطلبات، فيضطر الناس إلى أن يجلبوا المياه من نهر النيل بأنفسهم فى جرار يحملونها على ظهور حميرهم [٦٠].

وفى عصر سلاطين المماليك كانت الحمير بمثابة وسيلة المواصلات الأولى داخل المدن المصرية وربما كانت هى الوسيلة الوحيدة التى يستخدمها الناس فى انتقالهم داخل المدن أو خارجها . وفى المدن المصرية كانت توجد مواقف خاصة بحمير الأجرة التى عرف أصحابها باسم «المكارية» ، فقد ذكر ابن دقماق والمقريزى عدة أماكن خصصت للمكارية فى الفسطاط والقاهرة[٦١]. وقد ذكر الرحالة الشهير ابن بطوطة أن عدد المكارية فى القاهرة وحدها بلغ حوالى ثلاثين ألف مكارى[٦٢] كذلك ذكر بيرو تافور أنه، هو ومرافقيه ، أكتروا حميراً حين نزلوا القاهرة، وكانت هذه الحمير مجهزة خير تجهيز بالبراذع واللجم ، وهى سريعة جداً[٦٣]. وكان المكارية يهتمون كثيراً بتجهيز حميرهم وتزيينها لأنها قامت بدور سيارات الأجرة فى عصرنا [٦٤].

ويبدو أن بعض المكارية ، آنذاك ، لم يكونوا يهتمون سوى بزيادة ربحهم، دون مراعاة المشاعر العامة (على نحو ما يفعل سائقو سيارات الأجرة فى مصر اليوم) ؛ إذ تذكر بعض المصادر أن كثيرين من المكارية «لايعجبه أن يكارى إلا الفاجرات من النساء والمغانى منهن لمغالاتهن فى الكراء فإنهن يعطين من الأجرة فوق ما يعطيه غيرهن»[٦٥].

٦٠- العينى، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق١١٣ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر،جـ٢ ، ١٠٥ . حيث ذكر هذان المؤرخان فى حوادث سنة ٨٠٢ هجرية أن شاطئ النيل قد جف تمامًا ، وانخفض مستوى المياه من بولاق حتى إمبابة بحيث صار الناس يخوضون فيه، وتزاحم الناس على السقائين وصار أكثرهم يستسقون على الحمير لنفسه بالجرار .. «ولم يكن لهم بذلك عهد..».

٦١- ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص٢٧ ؛ المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص١٢٩ .

٦٢- رحلة ابن بطوطة ، جـ١ ، ص١٧ .

٦٣- رحلة عاشور ، ص٦٤ .

٦٤- عاشور ، المجتمع المصرى، ص٨٤ .

٦٥- السبكى ، معيد النعم، ص١٩٩- ص٢٠٠ .

كذلك كانت القوارب والمراكب الشراعية هى وسيلة المواصلات الهامة فى الربط بين البلاد. ومن الطبيعى أن يكون نهر النيل هو الطريق الرئيسى بين أنحاء البلاد لاسيما بين الشمال والجنوب . والواقع أن نهر النيل فى عصر سلاطين المماليك كان وسيلة مواصلات طبيعية لانظير لها فى الربط بين مناطق الصعيد ، ومناطق الوجه البحرى . وقد ذكر أحد الذين رأوا حركة الملاحة فوق صفحة النهر العظيم آنذاك أنه «ليس فى الدنيا نهر تجرى فيه السفن أكثر من نيل مصر» (٦٦) ويؤيد ذلك ما ذكره الرحالة الشهير ابن بطوطة من أن «.. بنهر النيل ستة وثلاثين ألف مركب للسلطان والرعية، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات»(٦٧) ولم يكن مجرى النهر الرئيسى هو وحده طريق المواصلات والتجارة والسفر بين أنحاء البلاد، بل كانت القنوات والترع الخارجة من النيل تقوم بنفس الدور أيضا(٦٨).

وكثيراً ما كانت صفحة النيل والترع الخارجة منه تكتسى بعشرات القوارب التى كان الناس يركبونها للنزهة ، أو لمشاهدة بعض الاحتفالات التى تجرى فوق مياه نهر النيل. ففى الأعياد والمناسبات اعتاد المصريون على تأجير المراكب التى يطوفون بها ومعهم آلات الموسيقى وهم يغنون ويمرحون ويطربون وكثيراً ما صدرت أوامر الحكام بمنع مراكب النزهة من السير بسبب مظاهر المجون والخلاعة التى كانت تصاحب مثل هذه الرحلات النيلية(٦٩) ومن اللافت للنظر أن مثل هذه الأوامر الرادعة لم تكن تظهر سوى فى أوقات الشدة والأزمات ، فإذا ما هدأت الأمور غض الحكام أبصارهم عن هذه الممارسة التى تكشف المصادر عن حرص المصريين عليها .

وثمة تقليد كان سلاطين المماليك يراعونه على الدوام ؛ ذلك أنه بعد الفراغ من بناء السفن العسكرية كان يقام احتفال كبير فوق مياه النيل ، وتقوم المراكب والسفن الحربية بعدة استعراضات ومناورات كانت تستهوى المصريين فتحتشد جموعهم لمشاهدة هذه

٦٦- ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص١٣٦ .

٦٧- ابن بطوطة ، الرحلة ، جـ١ ، ص٩٦ .

٦٨- قاسم، النيل والمجتمع المصرى، ص٧٩- ص٩٨ .

٦٩- المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص١٤٢ : السيوطى، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٣٠٦ .

الاستعراضات بأعداد غفيرة على شاطئ النيل، ويقبلون على استئجار المراكب بأسعار مرتفعة [٧٠].

وثمة ضريبة كانت تفرض فى عصر سلاطين المماليك على المراكب والقوارب النيلية وكانت تُسمى «حماية المراكب» وهى عبارة عن مبلغ يدفعه صاحب المركب ويجبى من المسافرين فى هذه المراكب. سواء كانوا من الفقراء أو الأغنياء. وقد أبطلها الناصر محمد بن قلاوون فيما أبطله من مكوس[٧١] لكن هذه الضريبة أعيدت مرة أخرى فيما بعد ؛ إذ يذكر ابن إياس أن السلطان الأشرف قايتباى قد فرض عدة ضرائب من بينها الضريبة على المراكب حين احتاج إلى المال سنة ٨٩٦ هجرية لتمويل إحدى حملاته العسكرية[٧٢] كما كانت هناك رقابة من نوع ما على السفن والمراكب التى تسافر فوق صفحة نهر النيل ؛ إذ كان يتم فرض بعض القيود على أصحاب السفن والقوارب النيلية بقصد تأمين سلامة الركاب والسفن . فقد كان على أصحاب السفن عدم تحميلها أكثر من طاقتها «خوف الغرق» كذلك لم يكن مسموحًا للسفن بالسفر أثناء هبوب الرياح . وفى حالة وجود ركاب من الجنسين على ظهر السفينة أو المركب ، كان يفرض على صاحب المركب أن يفصل بين النساء والرجال من ركابه بحاجز[٧٣].

هذه الحرف التى ذكرنا أمثلة منها هى تلك الحرف التى يمكن أن نسميها «حرف الخدمات» وهى حرف تؤثر وتتأثر بالحياة اليومية وباتجاهات الحركة فى المجتمع. وبقدر ازدهار المجتمع وتقدمه تنتعش هذه الخدمات وتزدهر لأن حركة المجتمع ونشاطه ، والنمو السكانى فيه، وعلاقاته مع العالم الخارجى ، وتجارته - كل هذه أمور تفرض نوعًا من الازدهار والانتعاش فى حرف الخدمات التى تقدم المواصلات والمياه ، وسائر أعمال الخدمة ، مثل النظافة العامة ، والنظافة الشخصية . ومن ثم كان طبيعيا أن تزدهر الحمامات ، والمهن المرتبطة بها ، وتنتعش

٧٠- النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب (مخطوط) ، جـ٢٨ ق٢٤ ؛ المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ص٩٢٨ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ١١ ، ص٣٥- ص٤٦ ؛ السيوطى، كوكب الروضة (مخطوط)، ق٣٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص٢٧٦- ص, ٢٧٧

٧١- المقريزى، السلوك ، جـ٢ ، ص٧٥٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٩ ، ص٤٧ .

٧٢- ابن إياس ، بدائع الزهور (ط. بولاق) جـ٢ ، ص٢٦٨ .

٧٣- ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص٢٢٢ .

وسائل المواصلات (البرية والنهرية على السواء) فى بداية عصر سلاطين المماليك وهى فترة تميزت بالنمو والاستقرار والهدوء والأمن النسبى. وهى بدورها أمور أحس المجتمع المصرى بافتقادها فى الشطر الثانى من ذلك العصر بالقدر الذى ترك آثاره السلبية على هذه الحرف .

نأتى بعد ذلك لمناقشة بعض الحرف المتعلقة بالعمارة والبناء ، وهى فنون ازدهرت تمامًا آنذاك. وعلى الرغم من أن فنون العمارة لاتعد من الحرف المتصلة بالحياة اليومية عند النظر إليها للوهلة الأولى. فإن إنشغال عدد كبير من طوائف الحرفيين فى العمائر المملوكية كان يؤثر بالضرورة على شكل الحياة اليومية . كما أن طبيعة الوظيفة الاجتماعية لمعظم العمائر التى شيدت فى عصر سلاطين المماليك جعلت بصماتها واضحة على الحياة اليومية آنذاك .

وقد خلف لنا عصر سلاطين المماليك من العمائر ما يملأ القاهرة القديمة حتى الآن، سواء من المساجد ، أو المدارس ، والأسبلة ، والأضرحة ، والحمامات ، والبيمارستانات.. وغيرها. وهو ما يعطينا فكرة واضحة عن مدى تقدم فنون العمارة فى عصر سلاطين المماليك الذين حرصوا على الظهور بمظهر حماة الدين، واهتموا بالواجهة الدينية لحكمهم بالقدر الذى انعكس فى الحقيقة القائلة بأنه لايوجد سلطان واحد ، تقريبًا ، لم يخلف مسجداً ، أو ضريحًا، أو غير ذلك من العمائر[٧٤] ومن نافلة القول أن نذكر أن هذه العمائر قد شيدت بأيدى مجموعة من العمال المهرة فى مختلف المهن المتصلة بالعمارة .

وقد عددت لنا مصادر ذلك العصر عدة حرف مثل البنائين ، والحجارين ، والقطاعين والصقالين ، والمرخمين، والمبيضين ، والدهانين ، والطيانين ، والجباسين، والجبارين ، فضلاً عن النجارين والنشارين [٧٥]. وكان يساعد البنائين طائفة من العمال أو «الفعلة» الذين عرفوا فى مصطلح ذلك العصر باسم «الرقاصين» أو «رقاصى البنايين» .

٧٤- زكى محمد حسن، فنون الإسلام ، ص٧٣ .

٧٥- السبكى ، معيد النعم، ص١٨٤- ص١٨٥ ؛ ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص٣٤٣- ص٣٤٧ ؛ ابن دقماق، الانتصار ، جـ٤ ، ص٢١- ص٢٢ ؛ المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ص٥٠٢ . ويبدو من كتب الحسبة أن «الطيان» كان هو الذى يقوم بتغطية الجدران بطبقة من الطين تمهيداً لطلائها عوضًا عن الملاط المستخدم حاليًا، وربما كان ذلك فى بيوت عامة الناس فقط . أما «الدهان» فكان يقوم بالطلاء سواء فى الأبنية المعمارية أو المساجد.. أو غيرها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحين يكون هناك بناء يتم تشييده ، كان يتم تعيين أحد الأشخاص لمراقبة سير العمل. وكان من يتولى القيام بهذا العمل يعرف فى مصطلح ذلك العصر باسم «الشاد» . وعليه كانت تقع مسئولية جمع العمال وأرباب الحرف الذين سيتولون إقامة البناء. ويعقد معهم الاتفاق على أجورهم التى كانت تجمع أحيانًا بين الأجر النقدى والأجر العينى. وإذا كان البناء عمارة للسلطان أو أحد الأمراء، كان يتم انتداب أحد المماليك للقيام بمهمة الشاد[٧٦].

ويبدو من استقراء مصادر عصر سلاطين المماليك أن العمال كانوا يتعرضوا أحيانًا لأكل حقوقهم ، وربما تعرضوا لأعمال القسوة والاضطهاد من جانب مستخدميهم ؛ بل كثيراً ما كان يحدث أن يسخرهم بعض الأمراء فى بناء له، أو أن تسخرهم الدولة للعمل فى المشروعات العامة[٧٧] بيد أنه غالبًا ما كان العمال ينالون حقوقهم ، ولاسيما إذا كانوا يعملون فى الأعمال ذات الطابع الخيرى[٧٨] ومن ناحية أخرى كثرت شكوى الناس فى ذلك العصر من تصرفات عمال ذلك الزمان وأخلاقيات العمل لديهم ، لأنهم حين كانوا يعملون بأجر يومى لدى الناس كانوا يتأخرون فى الحضور ويبكرون فى الإنصراف ، على الرغم من اتفاقهم على الأجر اليومى[٧٩] وربما كان معظم العمال المهرة فى حرف العمارة يتركزون بمدينة القاهرة[٨٠].

ولأن فن العمارة ارتبط بطبقة الحكام على نحو أساسى ؛ فقد كان النابغون فى هذا الفن يحظون باهتمام وتقدير السلاطين والأمراء، كما كان يتم تكريم بعضهم عند الاحتفال بافتتاح مدرسة ما ؛ فعند افتتاح المدرسة الظاهرية (نسبة إلى السلطان الظاهر برقوق) سنة ٧٨٨ هجرية، مثلا ، خلع السلطان خلعة تكريم على المهندس وخلعًا أخرى على مباشرى العمارة[٨١] كذلك اهتمت مصادر ذلك العصر كثيرا بتعقب أخبار كبار المهندسين [٨٢].

٧٦- السبكى ، معيد النعم، ص١٧٣ ؛ المقريزى، السلوك ، جـ٢ ، ص٢٦١ .

٧٧- السبكى، المصدر السابق، ص١٧٣ ؛ المقريزى، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٣٨٣ .

٧٨- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص٣٢٧- ص٣٢٨ .

٧٩- ابن الأخوة ، معالم القربة، ص٣٤٣ .

٨٠- المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٣٧٠ .

٨١- ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان ، جـ١ ، ص١٣٦ .

٨٢- المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص٣٨٣ . حيث يتحدث عن شهرة المعلم «ابن السيوفى» المهندس =

وثمة حرفة أخرى يختلف مجالها كانت ترتبط بالحكام وبالرعية فى آن معًا . فقد كان الاشتغال بالموسيقى والغناء من الحرف التى احتفل بها المصريون ، واهتموا بها فى هذا العصر، شأنهم فى كل العصور . اهتمت المصادر التاريخية بذكر آلات الطرب فى مصر آنذاك ومنها العود الذى وصفه البعض بأنه «.. أفخر آلات الطرب وأرفعها قدراً وأطيبها سماعًا ...» والجنك وهى آلة وترية ويقترب صوتها من صوت العود، وإن اختلفت عنه فى الشكل ، ثم الرباب التى كانت هى الآلة الموسيقية المفضلة لدى البدو العربان آنذاك ، والشبابة التى يبدو أنها كانت نوعا من أنواع الناى تصنع من القصب المجوف ، والمزمار العراقى، والدف ذو الصنوج الذى عرف أيام المماليك باسم «الصراصير» . وكان هناك سوق محدد تباع فيه هذه الآلات الموسيقية ، وفيه أيضا كان يجلس العاطلون من الموسيقيين والمطربين والمطربات والراقصات فى انتظار من يدعوهم لإحياء حفل أو عرس . ومن الطريف أنه شاع فى أوساط المصريين آنذاك أن من يمر من هذا المكان لاتقضى له حاجة[٨٣] وهو ما يكشف عن موقف مزدوج من المجتمع المصرى فى ذلك الحين تجاه أصحاب هذه الحرفة ، فعلى الرغم من إقبال المصريين على الموسيقى والغناء والاستمتاع بهما، كما لاحظ الرحالة الذين زاروا مصر حينئذ، فإنهم تحفظوا فى نظرتهم للفنانين الذين كانوا يقدمون لهم هذه الفنون . وهو موقف ما زالت بقاياه موجودة فى مجتمعنا الحالى.

وفى ذلك العصر ذاع صيت عدد كبير من الموسيقيين والمطربين مما جعل السلاطين يقربونهم وعقد الأمراء صداقات معهم، كما اهتم المؤرخون برصد أخبار كبارهم ومشاهيرهم . والجدير بالذكر أنه فى ذلك العصر الذى لم يعرف الراديو أو التليفزيون ، أو التسجيلات بأنماطها المختلفة ، كان الفن الراقى وقفا على القصور وساكنيها . وقد أدى هذا إلى حرص السلاطين والأمراء على أن يحتفظوا بأشهر المطربين والموسيقيين ؛ بل إن العادة جرت فى عصر سلاطين المماليك على أن يكون لكل سلطان «جوقة من المغانى» فى قصره . كذلك كان المطربون يصحبون السلاطين فى سفرهم ، وفى حلهم وترحالهم [٨٤].

= الذى كان أول من بنى مئذنة من الحجر فى مصر بعد أن كانت تبنى من الآجر . انظر أيضا : ابن حجر ، إنباء الغمر، جـ٢ ص٥٧- ص٥٨ فى ترجمة أحمد بن محمد على الطولونى كبير المهندسين الذى توفى سنة ٨٠١ هجرية .

٨٣- القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٢ ، ص١٤٣ ؛ المقريزى ، جـ١ ، ص٣٧٩ .

٨٤- ابن إياس . بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٥٥ ؛ عاشور ، المجتمع المصرى، ص٦٧ .

وأوردت لنا مصادر ذلك العصر طائفة من أخبار المطربين والموسيقيين ؛ إذ يذكر ابن حجر أن «ابراهيم بن بابى العواد المغنى» كان مقربا عند السلطان المؤيد شيخ[٨٥] كما يحصى ابن الصيرفى أسماء خمسة من كبار الموسيقيين توفوا فى سنة واحدة[٨٦] ويتحدث المؤرخ نفسه، فى كتاب آخر ، عن وفاة مطرب كبير بصحبة أحد كبار الأمراء فى بلاد الشام[٨٧]. كذلك يحدثنا ابن إياس عن مطربة نالت شهرة واسعة وحُظوة هائلة لدى الأعيان وأرباب الدولة الذين أغدقوا عليها من مظاهر العز والعظمة «مالا رآه غيرها من أرباب هذا الفن»[٨٨] بل إن السلطان الأشرف شعبان حين واجه انقلاب مماليكه ، والذى أودى بحياته ، هرب ليختفى عند مطربة كان يعرفها من قبل[٨٩].

أما عامة الناس ، فكان لهم ولع كبير بالموسيقى والغناء ، سواء فى الأفراح والحفلات المنزلية أو فى الاحتفالات العامة ، أو فى حياتهم اليومية . كما أن المصريين فى ذلك العصر كانوا يسعون إلى الأماكن التى يغنى فيها المطربون لكى يستمعوا إليهم . فقد اعتاد المصريون آنذاك على إحياء حفلات الزواج بالغناء والموسيقى، بل إنه كانت توجد فى المدن المصرية قاعات مخصصة لعمل حفلات الزواج والأفراح[٩٠] كذلك كان المصريون يحتفلون بالمولد النبوى فى منازلهم بإحضار الفرق الموسيقية والمطربين مما أثار استياء بعض المتدينين . ومن الطريف أن البعض كانوا يحتفلون بالمولد النبوى بهذه الطريقة بغية استرداد الهدايا والنقوط التى كانوا قد أهدوها للآخرين فى المواسم والأفراح [٩١]. وهو ما يكشف عن أن تبادل الهدايا العينية والنقدية (النقوط) كان عرفًا اجتماعيًا سائدًا فى مصر آنذاك . كما أن ولع المصريين بالموسيقى

٨٥- ابن حجر ، إنباء الغمر، جـ٣ ، ص١٧٧ .

٨٦- ابن الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان ، جـ١ ، ص٢١١ .

٨٧- ابن الصيرفى، إنباء الهصر ، ص٢١١ .

٨٨- ابن إياس ، المصدر السابق، جـ٤ ، ص٨ .

٨٩- ابن حجر ، المصدر السابق، جـ١ ، ص١٢٩ .

٩٠- ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ؛ ص١٣ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان ، جـ١ ، ص٦٧ .

٩١- ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ص٢ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ١ ، ص٣٥١ ؛ ابن الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان، جـ١ ، ص١٦٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والغناء بلغ حداً جعلهم يصطحبون معهم آلات الموسيقى والغناء فى القوارب للقيام بنزهة على مياه النيل ، وعندما يتوجهون إلى القرافة [٩٢].

ولاشك فى أن الفلاحين والأعراب فى مصر كانت لهم الفنون الموسيقية والغنائية التى تعبر عنهم، بيد أن افتقارنا إلى الدليل الوثائقى يحول دون محاولة رسم صورة نطمئن إليها فى هذا الصدد . لقد كان الفلاحون هم الغالبية الخرساء الذين أهملتهم المصادر المعاصرة وكانوا محل سخرية وامتهان هذا المجتمع الإقطاعى الذى فرض عليهم «التخصص» فى الإنتاج والفقر[٩٣].

وقد أثارت روح المرح وحب التسلية اللتان اشتهر المصريون بهما انتباه الرحالة ابن بطوطة الذى قال عن أهل مصر إنهم «ذوو طرب وسرور ولهو»[٩٤] وقد عرفت مصر آنذاك عدداً كبيراً من حرف اللهو والتسلية . ففى رحبة باب اللوق ، مثلا ، كان يجتمع أصحاب الحلق «وأرباب الملاعب والحرف كالمشعبذين، والمخايلين والحواة، والمتأففين ، وغير ذلك ؛ فيُحشر هناك من الخلائق للفرجة وعمل الفساد ما لاينحصر كثرة»[٩٥] وكانت مثل هذه الحلقات تعقد فى الميادين والأسواق فى شتى المدن المصرية ، كما كانت الموالد مجالا ومراحًا لأرباب مثل هذه الحرف .

وفى بعض الأحيان كان الناس يشاهدون بعض الألعاب البهلوانية فى شوارع المدن المصرية[٩٦] ففى سنة ٨٢٨ هجرية على سبيل المثال، وصل يشبك الجركسى الذى أقام فى بلاد الفرنج فترة «وتعلم ما يصنعه البهلوان» .. وحين عاد نصب حبلاً بين مئذنتين ومشى عليه، ورمى بالمكحلة وهو فوق هذا الحبل ، ثم رمى بالقوس فأهداه السلطان خلعة . ويحدثنا المقريزى عن عدة أناس كانوا يقومون بمثل هذه الألعاب البهلوانية فى شوارع القاهرة .

٩٢- ابن الحاج ، المدخل ، جـ١، ص٢٤٦ ، ص٢٦٨ ، ص٢٨٣- ص٢٩٠ .

٩٣- انظر ، عاشور ، المجتمع المصرى، ص٤٨- ص٥٢ .

٩٤- رحلة ابن بطوطة ، ص٣٢ .

٩٥- المقريزى، الخطط، جـ٢ ، ص٥٠ .

٩٦- المقريزى، السلوك ، جـ٤ ، ص٧١٣- ص٧١٤ ، ص٧١٦ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر، جـ٣ ، ص٣٤٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن ناحية أخرى يبدو أن الدولة فى عصر سلاطين المماليك كانت قد خصصت أماكن بعينها احتفظت فيها ببعض الحيوانات المدربة والغريبة . ويبدو أن مثل هذه الأماكن كانت تجمع بين بعض خصائص حدائق الحيوانات ، وبعض صفات السيرك فى العصر الذى نعيش فيه الآن . وكان الناس يذهبون إلى هذه الأماكن للنزهة والتسلية . وربما كانت هذه الأماكن من المعالم البارزة فى مدينة القاهرة ؛ فقد ذكر بيروتافور أنه شاهد المكان الذى يحتفظون فيه بالفيلة ، وقال إنه شاهد سبعة من هذه الفيلة ، وهى مدربة على بعض الألعاب ، مثل قذف الرمح فى الهواء بخرطومها ، ثم الإمساك به، كما أنها تقوم بألعاب أخرى كثيرة . ويذكر الرحالة نفسه أنه شاهد الزرافة فى مكان آخر[٩٧] ومن المعلوم أن هذه الحيوانات كانت ترد إلى مصر على سبيل الهدية ، وكان حكام العالم المعاصرون يرسلونها إلى حكام مصر التى كانت قوة دولية مهابة فى ذلك الزمان .

وفى عصر سلاطين المماليك أقبل الناس بشغف زائد على التسلية بمشاهدة خيال الظل. فقد كانت تمثيليات خيال الظل (التى عرفت من مصطلح عصر سلاطين المماليك باسم «البابات» ومفردها «بابة») تجتذب الحكام والمحكومين إلى مشاهدتها ، بل إن القصور كانت تضم بين جدرانها بعض «المخايلين» الذين كانوا يقدمون عروض «خيال الظل» لساكنى هذه القصور . وكانت «المخايلة» من أكثر فنون ذلك العصر شعبية بحيث ورد ذكرها كثيراً فى المصادر التاريخية والأدبية لذلك العصر. وقد اشتهر عن بعض السلاطين حبهم لهذا النوع من وسائل التسلية وإن كان البعض الآخر قد اعتبرها من الأعمال المنافية للأخلاق والدين . ويبدو أن السبب فى ذلك كان راجعًا إلى أن كثيراً من تمثيليات خيال الظل كانت تتضمن أقبح عادات المصريين فى عبارات بذيئة مكشوفة وحركات شهوانية فاضحة ، فضلا عن أن الجنس كان هو الموضوع المفضل لهذه التمثيليات مما روج له فى ذلك العصر ، الذى شهد شطره الثانى تفشى مظاهر الانحلال الخلقى بشتى مستوياتها [٩٨].

٩٧- رحلة تافور ، ص٧٢- ص٧٣ .

٩٨- خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال (دراسة وتحقيق ابراهيم حمادة القاهرة ١٩٦٣) ، ص٥٢- ص٥٨ ؛ السخاوى التبر المسبوك فى ذيل السلوك، ص٢٥٣ ؛ عاشور ، المجتمع المصرى، ص٢٢٥ ، وما بعدها حيث يكشف عن كافة مظاهر الانحلال الخلقى فى ذلك العصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت الدعارة من المهن التى تحظى برعاية الدولة المملوكية ؛ لأنها كانت تفرض عليها ضريبة معينة كانت تدر دخلاً كبيراً للخزانة السلطانية . فقد كان على كل من ترغب فى احتراف الدعارة أن تذهب إلى «ضامنة المغانى» . والغريب فى الأمر أن صاحبة هذه الوظيفة كانت بمثابة النقيب لمن يحترفن الدعارة ، ولكنها كانت مسئولة أيضا عن حرف نسائية أخرى مختلفة ، بل ومتناقضة مع هذه الحرفة ؛ إذ كانت «ضامنة المغانى» هذه مسئولة عن المغنيات والواعظات ، والقارئات والندابات . فضلا عن مسئوليتها عن بنات الليل[٩٩] ويبدو أن محترفات الدعارة فى عصر سلاطين المماليك قد تميزت بملابس خاصة بهن ، ففى سياق حديثه عن «سوق الشماعين» ذكر تقى الدين المقريزى أن حوانيت هذا السوق كانت تظل مفتوحة طوال الليل «وكان يجلس به بالليل بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين ، لهن سيما يعرفن بها وزى يتميزن به ، وهو لبس الملاءات الطرح . وكن يعانين الزعارة. ويقفن مع الرجال المشالقين فى وقت لعبهم ، وفيهن من تحمل الحديد معهم»[١٠٠] ويبدو أنه كانت هناك أماكن خاصة بالبغايا فى المدن والريف ؛ إذ يذكر المقريزى أن الأرمن قد اتخذوا من المنطقة التى عرفت باسمهم وكراً لبيع الخمور والدعارة «حتى أن المرأة إذا تركت أهلها أو زوجها ، أو الجارية إذا تركت مواليها ، أو الشاب إذا ترك أباه ،ودخل عند الأرمن بخزانة البنود لايقدر أن يأخذه منهم . «ولو كان من كان»[١٠١] كما يذكر ابن حجر أنه كان ببلاد الريف حارات مخصصة للدعارة «ومن اجتاز بها غلطًا ألزم أن يزنى بخاطئة ، فإن لم يفعل فدى نفسه بشئ»[١٠٢].

هذه هى أهم الحرف المتصلة بالحياة اليومية فى عصر سلاطين المماليك، وهى حرف تكشف عن جوانب متعددة من صورة الحياة الاجتماعية فى مصر آنذاك . وإذا كنا فى هذا البحث لم نتناول التنظيم الداخلى للحرف ، أو لعلاقة أصحاب الحرف والمهن المختلفة بالدولة ، فلأننا نتصور أن هذا موضوع لبحث آخر يخرج عن نطاق هذا البحث .

٩٩- ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ١ ، ص١٢٧ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان ، جـ١ ، ص٢١١ .

١٠٠- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص٩٥ .

١٠١- المقريزى السلوك ، جـ٢ ، ص٦٤٠- ص٦٤١ .

١٠٢- ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ١ ؛ ابن الصيرفى، إنباء الهصر ، ص٢٠٥ ؛ نزهة النفوس والأبدان ، جـ١ ، ص١٦٨ جـ٣ ، ص١٤٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيد أنه يبقى علينا أن نوضح حقيقة هامة مؤداها أن التدهور العام الذى بدأت دولة سلاطين المماليك تعانيه منذ القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى، والذى انتهى بسقوط هذه الدولة تحت سنابك الخيول العثمانية فى مرج دابق والريدانية ، قد ترك أثره السلبى بالضرورة على شكل الحياة فى المجتمع المصرى، وعلى الحرف المتصلة بالحياة اليومية بشكل جعل من الدولة المملوكية فى عيون المصريين وحشًا لايستحق الإنقاذ .

وقد أورد لنا المؤرخ ابن إياس قصيدة طويلة لأحد الشعراء المصريين تحمل نقداً مريراً لاذعًا لفساد الحياة الاجتماعية فى مصر فى أواخر العصر فضلا عن فساد الجهاز الإدارى وخراب ذمم القضاة والموظفين الحكوميين . ونورد فى السطور التالية عدة أبيات من هذه القصيدة التى نظمها جمال الدين السلمونى، والتى وصفها ابن إياس بأنها «قصيدة مُطوَّلة فيها ألفاظ فاحشة إلى الغاية وإساءة مفرطة» ومنها :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها	ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها
أينكر فى الأحكام زورٌ «وباطلٌ»	وأحكامه فيها بمختلفاتها
إذا جاءه الدنيار من وجه رشوة	يرى أنه حِلٌّ على شبهاتها

ويقول ابن إياس إن هذه القصيدة «دارت بين الناس» حتى أزعجت القضاة الفاسدين فأرادوا أن يحكموا عليه بأن يجلد بالسياط .. «ولكن جماعات كثيرة من العوام تعصبوا للشاعر وقصدوا يرجمون قاضى القضاة »[١٠٣] هذه الواقعة التى يحدثنا عنها ابن إياس تمثل جانبًا من جوانب انهيار الجهاز العصبى للدولة المملوكية ، وهى تعبير عن انهيار كلى مس الأساس الاقطاعى للدولة[١٠٤] وقد وصل تخلخل البناء السياسى وتفكك النظام الاقطاعى إلى الحد الذى جعل قنصوه الغورى يرفض الجلوس على عرش السلطنة ويبكى خوفًا من تبعات المنصب السلطانى حين اختاره الأمراء لهذا المنصب [١٠٥].

ونتيجة لذلك التدهور السياسى والاقتصادى الشامل، تدهورت حرف كثيرة وماتت صناعات صغيرة منها ما يتصل بالغذاء ومنها ما يتصل بالعادات الاجتماعية ، مثل صناعة

١٠٣- ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ٤ ، ص١١٣- ص١١٤ .

١٠٤- قاسم ، أسواق مصر فى عصر سلاطين المماليك ، ص٥٤ ، وما بعدها .

١٠٥- ابن إياس ، المصدر السابق، جـ٤ ، ص٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السكر والحلوى التى يوضح المقريزى فى خططه مدى ما أصابها من بوار [١٠٦]. كما أن إحصاء لعدد «القزازين» (صناع القماش) فى الإسكندرية سنة ٨٣٧ هجرية أثبت أنهم حوالى الثمانمائة ، على حين كان عددهم قبل حوالى نصف قرن فقط (٧٩٠هجرية) أكثر من أربعة عشر ألفا . وسبب هذا التدهور الحاد فى هذه الصناعة الهامة، كما تقرره المصادر التاريخية ، يرجع إلى التدهور العام « .. ففشا فيهم الظلم من الحكام، وكثرة الجور، وشؤم السيرة ، فشتتوا شذر مذر»[١٠٧].

وما حدث بالنسبة لصناعة السكر والحلوى وصناعة الأقمشة يصدق على كافة الحرف والصناعات الأخرى. وهو بدوره انعكاس لمدى التدهور الذى تضافرت عوامل كثيرة لصنعه[١٠٨] لقد أحصى السلطان برسباى قرى مصر فى سنة ٨٣٧هـ فكانت ألفين ومائة وسبعين قرية فقط بعد أن كان عددها فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى عشرة آلاف قرية. بل إن عد القرى تناقص بعد سنة ٨٣٧هـ .. «بخراب ما خرب منها من الظلم وخراب الأرض»[١٠٩] كذلك تقلصت مساحة مدينة القاهرة فى منتصف القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى بنسبة ١ : ٢٤ مما كانت عليه فى بداية عصر سلاطين المماليك[١١٠].

هذه الضمور فى المجتمعات السكانية والخراب الريفى والحضرى يحملان دلالات لايخطئها الباحث عن أن الدولة كانت فى منحنى هبوطها ، وفى طور غروبها . وعندما تمزقت البيارق المملوكية تحت سنابك خيول العثمانيين فى مرج دابق والريدانية ، وعندما اهتز جسد طومانباى، آخر سلاطين المماليك، فى مشنقته على باب زويلة ، لم يكن ذلك سوى الحصاد المر لسنوات التدهور والذبول التى عاشتها الدولة المملوكية فى شطرها الثانى .

١٠٦- الخطط، جـ٢ ، ص٩٨ ؛ السلوك ، جـ٤ ، ص٦٥٥ ، حيث يتحدث عن احتكار السلطان برسباى للسكر.

١٠٧- ابن الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان ، جـ٣ ، ص٢٧٩ .

١٠٨- انظر الدراسة عن الأسواق فى هذا الكتاب .

١٠٩- ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص١٣ .

١١٠- Ashtor , A social and Economic history, p. 304

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجاعات والأوبئة والأزمات الاقتصادية

الأسباب والعوامل : تأخر الفيضان وقصور النيل- الأوبئة- العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية - عرض لبعض هذه المجاعات والأوبئة- : مقارنة إحصائية- موقف الدولة أثناء هذه الأزمات- النتائج والآثار : اجتماعيا (التدهور السكانى- بؤس الحياة الاجتماعية - تدهور البناء الاجتماعى - التدهور الأخلاقى) - اقتصاديا (تدهور الإنتاجين الزراعى والصناعى- انكماش حركة التجارة الداخلية- تخلخل النظام النقدى والسعرى- الأزمات الموسمية) - سياسيا (انهيار النظام الاقطاعى- تدهور السلطة السياسية- انعدام الأمن - التخبط فى السياسة الداخلية) .

ثمة حقيقة يجمع عليها مؤرخو عصر سلاطين المماليك ، سواء من كان منهم معاصراً للأحداث أو من الباحثين المحدثين. ونقصد بهذه الحقيقة ذلك الفرق الواضح بين خط الصعود والنمو فى عصر المماليك البحرية (١٢٥٠- ١٣٨٢م) وخط التدهور والاضمحلال فى عصر الجراكسة (١٣٨٢-١٥١٧) . بيد أن واقع ما تمدنا به المصادر التاريخية المتاحة يكشف عن أن كافة مظاهر التدهور التى عانت منها مصر والمصريون (وبلاد الشام أيضًا) تحت حكم الجراكسة، كان موجودة ، بشكل أو بآخر ، منذ قيام دولة سلاطين المماليك ، ولكن الدولة فى طور شبابها كانت قادرة على أن تتغلب على هذه العوامل أو تكبتها إلى حين ، بفضل بعض السلاطين الأقوياء القادرين وبفضل توفر الموارد اللازمة. فإذا ما بدأ التفسخ والانهيار وجدنا الأسباب والنتائج تجر بعضها بعضا فى دائرة حلزونية لتخلق أزمة لدولة المماليك لاتنتهى إلا بالقضاء على هذه الدولة نفسها . ومن نافلة القول أن نكرر ما سبق ذكره من مظاهر هذا التفسخ ، إلا أننا يمكن أن نقرر أن عوامل الهدم أخذت تدق بمعاولها فى بنيان دولة المماليك منذ وقت مبكر ، وحين باتت الثمرة دانية سقطت تحت أقدام العثمانيين عند الهزة الأولى .

ولعل الظاهرة الأساسية في تلك الفترة - أي عصر الجراكسة - هي ظاهرة التدهور السكاني، وما ينتج عن ذلك بالضرورة من آثار سياسية واجتماعية واقتصادية . ومنذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي ، بات واضحًا أن فترة النمو الديموجرافي التي نعمت بها مصر مع بداية عصر المماليك قد ولت ، وبدأت البلاد تعاني من نقص متزايد في أعداد السكان نتيجة لتلك السلسلة المتوالية الحلقات من الأوبئة والمجاعات التي زاد معدل وقوعها منذ أواخر القرن الرابع عشر فصاعداً . وزاد من وقع المأساة تلك الأزمات الاقتصادية التي عاني منها الناس جميعًا في ذلك الحين .

ويجدر بنا أن نشير إلى حقيقة هامة مؤداها أن غالبية المجاعات والأوبئة التي ألمت بمصر في ذلك الحين، إنما كانت مرتبطة بنهر النيل وفيضانه السنوي الذي تعتمد عليه الزراعة في البلاد . ففي عصر سلاطين المماليك كما في غيره من العصور ، ظل النهر العظيم قوام الحياة المصرية وعليه مدارها . وعلى الرغم من الأرباح التي جنتها البلاد من تجارة المرور ، فإن النيل ظل بفيضه وغيضه هو المؤثر الأول والفعال في حياة البلاد. فقد قام النظام السياسي على أساس إقطاعي يعتمد بدوره على الأرض كمصدر الثروة وحين تضطرب إنتاجية الأرض تضطرب دعامة هامة من دعامات دخل الطبقة الحاكمة . ومن ناحية أخرى، اعتمدت جماهير المصريين على إنتاجية الزراعة ، على حين استأثر السلطان ومن يدورون في فلكه بأرباح التجارة ، وهكذا لعب الفيضان السنوي دوراً هامًا وحيويًا في حياة المصريين ، فإذا كانت المياه كافية لري الأرض الزراعية «خرجت تلك السنة على خير» أما إذا هبطت مياه النيل عن حد الوفاء انتشرت حالة من الفوضى والفزع ، وماجت البلاد بمشاعر الخوف والترقب ، وتجسد شبح المجاعة بوجهه المرعب يتوارى خلفه شبح الوباء .

وقد أدرك المعاصرون هذه الحقيقة تمام الإدراك ، وصاغها «تقي الدين المقريزي» في عبارة تقول «لولا ما جعل الله في نيل مصر من حكمة الزيادة في زمن الصيف على التدريج حتى يتكامل ري البلاد، وهبوط الماء عنها عند بدء الزراعة ، لفسد إقليم مصر وتعذر سكناه لأنه ليس فيه أمطار كافية، ولاعيون جارية ، تعم أرضه إلا بعض إقليم الفيوم»[١].

والواقع أن توقف مياه النيل عن الزيادة في موسم الفيضان كان يخلق موقفًا صعبًا وخطيراً في البلاد، إذ تتأخر الزراعة ومن ثم يضطر الناس إلى أكل واستهلاك المخزون من الغلال ،

١- المقريزي، الخطط ،جـ١ ، ص٦٢ .

وربما يستهلكون تقاوى الزراعة أيضا ، وبالتدريج يفرض الغلاء نفسه على مظاهر الحياة ، ثم تبدأ المجاعة التى تقتل الكثيرين من عامة الناس جوعًا ، وتمتلئ الشوارع والطرقات والحقول بالجثث التى ما تلبث أن تجيف ، وتنشر الأمراض الوبائية التى تسكن ألوف المصريين تراب بلادهم . وقد عاصر بيلوتى الكريتى ، الذى زار مصر فى مطلع القرن الخامس عشر ، إحدى هذه المجاعات ، وذكر أنه مات فيها عدد لايحصى [٢].

والواقع أن قصور الفيضان وتعطل الزراعة كانا كارثة يخشاها الجميع ويحسبون لها ألف حساب . وتنتاب الناس المخاوف فيسارعون إلى تخزين الغلال، ويشتد التزاحم على الأفران ، ويتبع ذلك بطبيعة الحال تصعيد رهيب فى أسعار الغلال والخبز ، وتمتد حمى الأسعار إلى «كل ما يباع ويشترى من مأكول ومشروب وملبوس»[٣].

وفى بعض الأحيان يكون الوباء سببًا فى المجاعة أو العكس ، وربما يواكب كل منهما الآخر. والأمثلة كثيرة ومتواترة فى مصادر تلك الفترة [٤]. فقد تتسبب المجاعة فى موت البعض ، ثم ينتشر الوباء نتيجة لذلك . وقد يأتى الوباء ليقضى على أعداد كبيرة من السكان بحيث لاتجد الأرض من يزرعها وتكون النتيجة أن تنشب الماجعة مخالبها فى البلاد من جديد، وهو ما عبر عنه المقريزى بقوله «إذا تأخر جرى النيل بمصر يمتد الغلاء سنين»[٥].

ولكن الغلاء أو المجاعة وما يتبعها من مظاهر الفوضى على شتى المستويات ، لم تكن فى جميع الأحوال ناجمة عن هبوط النهر ، أو غرق الأراضى الزراعية . إذ أن ثمة من الأسباب ما يتصل بالأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فقد كان من أسباب تفاقم الأمور أثناء المجاعة التى حدثت سنة ٦٩٤هـ (١٣٩٤م) أن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون كان قد فرق المخزون من الغلال على الأمراء قبل موته ، فلما قصَّر النيل على الوفاء ، اشترى الوزير الغلال الموجودة فى الأسواق لسد حاجة السلطان

٢- Dopp, L'Egypte, p. 20 .

٣- المقريزى، إغاثة الأمة ، ص٤١- ص٤٢ .

٤- انظر الإحصائية فى اصفحات التالية .

٥- المقريزى المصدر السابق، ص٤١ .

ومماليكه ، وكانت النتيجة أن ارتفعت أسعار القمح وتكالب الناس على شرائه [٦]. ويكشف هذا المثال وغيره[٧] عن أن الحكام بسياستهم التى اهتمت بتكوين الثروات لأنفسهم ، وتأمين احتياجاتهم ، كانوا يتسببون فى خلق مثل هذه الأزمات ، أو يزيدون من حدة المجاعة وضراوتها. بل إن بعض السلاطين ، لاسيما فى عصر الجراكسة ، كانوا يشترون الغلال من الأسواق وهى رخيصة ويخزنونها طمعًا فى أن يهبط النيل ويحققوا لأنفسهم مكسبا ، ويذكر ابن الصيرفى فى حوادث سنة ٨٣٥[٨] أن السلطان برسباى أمر بشراء الغلال لحسابه «كونها رخيصة ، وربما توقفت زيادة النيل، فغلت الأسعار ، فتكون الفائدة للسلطان» وكانت نتيجة ذلك أن ارتفعت الأسعار وزاد الإردب القمح عن قيمته ما يزيد عن ثلاثين ديناراً ، كما يذكر ابن إياس[٩] فى حوادث سنة ٨٧٤هـ أن ارتفاع أسعار الغلاء بسبب احتكار الدوادار الكبير لغلال الوجه القبلى .

ويتصل بالعامل السابق عامل آخر هو تدهور النظام السياسى فى الدولة، والذى عبر عن نفسه فى عدم الاهتمام بصيانة الجسور التى تحفظ مياه النهر . وكثيراً ما تخبرنا مصادر تلك الفترة بحوادث انقطاع الجسور وغرق الأراضى وما ينتج عن ذلك من ارتفاع الأسعار ، وتزاحم الناس على الأفران وحوانيت بيع الخبز [١٠].

كما أن الفتن والمنازعات الداخلية وحروب الشوارع بين طوائف المماليك، والتى زادت فى العقود الأخيرة من ذلك العصر، كانت تسهم بشكل أو بآخر فى خلق هذه الفوضى الاقتصادية- الاجتماعية ، إذ كان مجرد إشاعة موت أحد السلاطين ، أو ركوب أمراء المماليك بالسلاح للاقتتال. يسبب فزعًا شديداً للناس فتغلق الأسواق والحوانيت ، وتبدو المدينة وكأن سكانها من الموتى، مثال ذلك ما حدث سنة ٦٩٣هـ، حين جاءت الأنباء بمقتل السلطان الأشرف خليل، وخلت الطرقات والأسواق من روادها ، واختفى الخبز من الأسواق «.. وقاسى الناس شدة عظيمة »[١١] وفى عصر الجراكسة تزايد تأثير حوادث القتال والشغب من طوائف

٦- النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٢٨ ؛ السيوطى، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٢٦٧

٧- ابن الصيرفى، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص٢٣٨ .

٨- ابن الصيرفى، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص٢٣٩

٩- ابن إياس ، بادئع الزهور ، ص٢٣ .

١٠- ابن الصيرفى، المصدر السابق، جـ٣ ، ص٢٤١ ؛ ابن إياس ، المصدر السابق، جـ٣ ، ص١٤٦ .

١١- ابن أيبك الدوادار ، كنز الدرر ، جـ٨ ، ص٢٧٣ .

المماليك بشكل جعل من هذه الحوادث مادة دائمة في حوليات المؤرخين المتأخرين . بل إن الأمر وصل ببعض السلاطين إلى أن يصرح للماليك الجلبان بمهاجمة بيوت كبار موظفى الدولة وأخذ ما ينهبونه منها لأن رواتبهم تأخرت عليهم[١٢].

ويكفى للدلالة على مدى التدهور السياسى أن نورد ما ذكره ابن إياس من أن سنة ٨٧٢ هـ قد حكم فيها أربعة سلاطين منهم خاير بك «سلطان ليلة» الذى لم يحكم سوى ليلة واحدة «وخرجت هذه السنة وقد وقع فيها من الفتن والشرور والانكاد ما لا يكاد أن يضبط»[١٣].

وفى تقديرنا أن هذا التدهور السياسى كان من أسباب التدهور الاقتصادى بقدر ما كان نتيجة له. ذلك أن النظام الإقطاعى المملوكى الذى اعتمد على الأرض وإنتاجها بشكل أساسى، قد استهدف أيضًا عدم التمكين لقيام أسرات إقطاعية قوية ؛ ففرق الإقطاعات فى أنحاء متفرقة ، كما كان الإقطاع يتغير مع تغير وظيفة صاحبه . وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن حرص كل صاحب إقطاع على أن يكون لنفسه الثروة بقدر الإمكان ، دون الاهتمام بوسائل زيادة إنتاج الأرض مثل الجسور والترع وغيرها. وفى النهاية زاد اعتماد أبناء الطبقة الحاكمة على الرواتب النقدية لكى يحافظوا على حياة الترف والبذخ التى عاشوها ،على حين كان إنتاج البلاد من المصنوعات التى اشتهرت بها قد تواضع إلى أدنى حدوده [١٤]. وكانت النتيجة مزيداً من استنزاف رصيد البلاد من الذهب والفضة ومزيداً من التدهور الاقتصادى والأزمات الاقتصادية .

ومن ناحية أخرى، فإن انعدام الأمن فى ربوع البلاد كان يخلق هذا الاضطراب الاقتصادى فى أحيان كثيرة . فقد سبب العربان كثيراً من المتاعب للسلاطين منذ بداية دولتهم وحين وهنت قبضة الدولة فى أخريات أيامها صاروا يهاجمون القرى وينهبونها ، بل ويهاجمون المدن ، وفى كل مرة تخرج إليهم إحدى الحملات تفسد المزروعات وتنزل بالريف ألوانًا من البلاء والظلم مما

١٢- ابن الصيرفى، المصدر السابق، جـ٣ ، ص١٧٤ .

١٣- ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص١٨ .

١٤- فى سنة ٧٩٠ هجرية كان عدد القزازين (صناع الأقمشة) أكثر من أربعة عشر ألف نول فى الإسكندرية وانخفض العدد سنة ٨٣٧ هـ إلى ثمانمائة فقط لأن الظلم وجور الحكام شتتاهم فى البلاد (ابن الصيرفى، نزهة النفوس : جـ٣، ص٢٧٩) .

يزيد فى متاعب الناس الاقتصادية ، وقد يتوقف جلب الغلال إلى أسواقه فى القاهرة والفسطاط لهذا السبب [١٥].

كذلك كان التجار يفتعلون الأزمة الاقتصادية أحيانًا ، لاسيما فى زمن الفيضان حتى يمكنهم تحقيق الربح فى ظل القلق الذى كان يساور الناس دائمًا حول وفاء النيل إذ أدى تدهور الاهتمام بوسائل الرى إلى تكرار حوادث انقطاع الجسور ، أو تأخر الزراعة ، ثم ما يعقب ذلك من أزمات ، وقد كان التجار «عند ابتداء زيادة النيل كانوا يشرعون فى مشترى الغلال وحوزها عندهم .. ثم يعقب ذلك توقف الزيادة فيغلو السعر» ومن الطريف أن المعاصرين كانوا يسمون مثل هذه الأزمة المفتعلة «الكذابة» [١٦]. على أن أخطر ما قاساه المصريون فى ذلك العصر لم يكن ارتفاع الأسعار أو غير ذلك من مظاهر الأزمة الاقتصادية ، وإنما تلك السلسلة الرهيبة من الأوبئة والمجاعات . وسنحاول فى الصفحات القليلة التالية أن نعرض لبعض مظاهرها حتى يمكن للقارئ أن يتصور مدى فداحة خطرها .

كانت أول مجاعة يرصدها مؤرخو عصر المماليك هى تلك التى حدثت سنة ٦٦٢هـ (١٢٢٥م) نتيجة لقصور النيل عن حد الوفاء ، واختفت الغلال والخبز من الأسواق تقريبًا ، واضطر الناس إلى أكل حشائش الحقول وأوراق اللفت والكرنب[١٧] واستمرت الأسعار فى تصاعدها حتى جنيت المحصولات الجديدة ، فأخذت الأسعار فى النزول وانتهت الأزمة .

وفى ما بين سنتى ٦٩٤هـ، ٦٩٥ هـ (٤-١٢٩٥م) حدثت مجاعة رهيبة عقب هبوط نهر النيل، وكانت الصورة قاتمة للغاية «فقد كثر الشح ، ووقفت الأحوال واشتد البكاء وعظم الضجيج فى الأسواق من شدة الغلاء » ووصل الأمر بالناس إلى أكل القطط والكلاب والحمير والبغال، حتى أن الكلب السمين صار يباع بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة دراهم على ما يذكر ابن إياس[١٨].

١٥- انظر على سبيل المثال ابن الصيرفى، إنباء ، ص١٧ ، ص١٤٤- ص١٤٥ ، ص١٥٣ ، ص١٩٢ - ص١٩٥ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص١٢- ص١٣ ، ص٢٣ ، ص٢٥ ، ص٤٣ ، ص٧١- ص٧٢ ، ص١٠٢ ، ص١٠٥ ، ص١٠٦ ، ص١١٣ ، ص١٤٣.

١٦- ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ٣ ،ص٢٦١- ص٢٦٢ .

١٧- المقريزى ، السلوك، جـ٣ ص٥٠٦ ؛ العينى، عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٦٢هـ ؛ ابن تغرى بردى. النجوم جـ٧ ص٢١٣ . ويذكر النويرى (نهاية الأرب، جـ٢٨ ، ق٢٧) أن هذه المجاعة وقعت سنة ٦٦١هـ .

١٨- ابن إياس ، بدائع الزهور (ط. بولاق)، جـ١ ، ص١٣٣- ص١٣٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد عاصر ابن أيبك الدواداري هذه المجاعة وشاهد بعض أحداثها وسجلها بقوله : « .. كان يقول الإنسان الفقير لبابة الله، ويموت مكانه وعادوا يخرجون إلى الكيمان يلتقطون ما يكون مدفونا بها من حبة قمح أو شعير أو فول أو ما أشبه ذلك، ولقد نظرت بعينى برا باب البرقية ظاهر القاهرة فى الخندق برا السور جماعة كبيرة شبه الوحوش الضارية قد تغيرت عنهم ملامح الإنسانية ، وكل جماعة عندهم قدر ينتظرون الميتات التى تخرج وترمى بكيمان البرقية ، فيأخذونها بالضراب بينهم من قوى على صاحبه فيطبخونها يأكلونها.. »(١٩) ثم يحدثنا عن أن الناس صاروا يأكلون القطط والكلاب . ويذكر أن الناس صاروا يأكلون الأطفال ، ويأكلون بعضهم بعضًا . وعلى الرغم من تحفظنا من قبول مثل هذه الأقوال ، فالواضح أن عامة المصريين كانوا يقاسون الأهوال ويقعون فريسة سهلة للمجاعة حتى إنهم ينتظرون الميتات التى تلقى إليهم من القلعة أو قصور الأمراء الذين لاتنالهم المجاعة بالأذى . بيد أن المجاعة سرعان ما كانت تجر الوباء وراءها . ففى أثناء هذه المجاعة مات آلاف الناس جوعا، وانتشرت جثثهم فى كل مكان ؛ فانتشر الوباء وصار الناس يتساقطون صرعى الجوع والمرض فى الطرقات والحقول ، وعلى صفحة النهر والترع وأخذت الكلاب تنهش جثث الضحايا ، على حين يطاردها الأحياء لكى يأكلوها . ولم يجد الموتى من الغرباء من يدفنهم « .. لاشتغال الأصحاء بموتاهم والسقماء بأمراضهم .. » وخلت القرى من سكانها لدرجة أن القرية التى كان بها مائة شخص لم ينج منها سوى حوالى العشرين على ما تذكره مصادر تلك الفترة . وكان تأثير هذه المجاعة رهيبا بحيث أثرت على مقدرات الدولة كما سنرى(٢٠).

وقد شهدت الفترة ما بين عام ٦٩٥هـ (١٢٩٥م) وعام ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) عدة مجاعات وأوبئة كان سببها فى غالب الأحوال راجعا إلى قصور فيضان النيل عن الوفاء، ولكن تأثيراتها لم تكن مدمرة مثل المجاعة السابقة(٢١).

١٩- ابن أيبك ، كنز الدرر ، جـ٨ ، ص٣٨٣ .

٢٠- المقريزى، السلوك جـ١ ، ص٨٠٨- ص٨١٥ ، إغاثة الأمة ص٣٧- ص٣٨؛ النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٩ ، ق٨٢ ؛ تاريخ ابن الوردى، جـ٢، ص٢٤١ ؛ السيوطى حسن المحاضرة ، جـ٢، ص٢٩٧ - ص٢٩٨ .

٢١- ابن أيبك ، المصدر السابق ، جـ٩ ، ص٢٥٨ ، ص٣٥٩ ؛ ابن الوردى ، جـ٢ ، ص٣٤٩ ؛ المقريزى، السلوك جـ١ ، ص٨١٥ ، يتبع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجاءت سنة ٧٤٩هـ لتشهد ذلك الوباء المروع الذى اجتاح الأرض من أقصاها إلى أقصاها ليخرب البناء السكانى فى العالم المعروف آنذاك . وقد كان هذا الوباء المروع مقدمة لتناقص أعداد السكان فى الشرق الأدنى وفى أوربا على حد سواء[٢٢]. وقد عرف المسلمون هذا الوباء الشامل باسم «الفناء الكبير» . على حين عرفه الغرب الأوروبى باسم «الموت الأسود Black Death » وكان من أعراض هذا الوباء الذى أفاض المؤرخون والرحالة فى وصف تأثيراته أن يبصق المصاب دمًا ثم يصيح ويموت . وقد بدأ هذا الوباء المروع ينشب أنيابه فى مصر فى خريف سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) ثم اشتدت وطأته مع بداية العام التالى. واستمر يمزق فى الجسد المصرى حوالى عامين. وقد تراوحت أعداد ضحاياه ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف نسمة يوميا وتزايد عدد الموتى بحيث صار الناس يحملونهم على السلالم والأبواب والألواح الخشب. وانقطع البعض لتغسيل الموتى، كما انقطع البعض الآخر للصلاة عليهم . ويبدو أن القبور كانت أقل من أن تستوعب هذه الأعداد الكبيرة ، فلجأ الناس إلى دفن عدة جثث فى الحفرة الواحدة .

وامتلأت الطرقات والمساجد بجثث الضحايا ، وكان الوباء فتاكا لدرجة أن الأدوية لم تكن تجدى نفعا ، وذلك «لسرعة الموت» وصار الموت يطالع الناس فى كل الطرقات « .. فلاتجد بيتا إلا وفيه صيحة ، ولاتمر بشارع إلا وفيه عدة أموات.. ».

وقد شمل هذا الوباء كل شئ فقد امتد أثره إلى « .. حيتان البحر ، وطير السماء ، ووحش البر» . كذلك فسدت الزراعات بفعل وجود الدود فيها ، كما تسممت الأسماك فى النهر والترع والبحيرات .

ثم أخذ الوباء يتناقص فى سنة ٧٥٠هـ ، ومالبث أن ارتفع نهائيا [٢٣]، ولكن آثاره ونتائجه ظلت تفرض نفسها على الحياة المصرية فترة طويلة، بل إننا لانغالى إذا قلنا إن هذا الوباء كان هو المقدمة الحقيقية للتدهور الذى بدا أشد وضوحا مع مطلع القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) .

٢٢- Ashtor , A social and economic hist. , pp. 301 , ff Asht

وعن تأثير «الموت الأسود Black Death على حضارة أوربا العصور الوسطى انظر رواية الشاعر القصاص الإيطالى جيوفانى بوكاشيو Giovanni Boccaccio (١٣- ١٣٧٥) التى يعتقد أنه جمعها من أقوال الفارين من هذا الوباء: the Decameron (translated by J. M. Rigg, George Routledge and sons, London 1995) , pp 4-12 .

٢٣- المقريزى ، السلوك جـ٢ ، ص٣٢١ ، يتبع ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٤ ، حوادث سنة ٧٤٩هـ، وسنة ٧٥٠هـ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم ، جـ١٠ ، ص٢٠٤ ، السيوطى، حسن المحاضرة ، جـ٢، ص٣٠٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد هذا الوباء المروع تعرضت البلاد لعدة أوبئة نذكر منها الوباء والمجاعة المتقطعة التى عاصرها المؤرخ تقى الدين المقريزى، والتى استمرت من سنة ٧٩٦ حتى سنة ٨٠٨هـ . وقد هاله ما شاهده أثناء هذه المجاعة ، ولمس بنفسه أسبابها الحقيقية ، ومن ثم أفرد كتابا لهذا الموضوع هو كتابه المسمى «إغاثة الأمة بكشف الغمة»[٢٤]. وفى هذا الكتاب تعرض مؤرخنا لأهم المجاعات التى ألمت بمصر منذ القدم وحتى سنة ٨٠٨هـ وقد تضمن هذا الكتاب معلومات قيمة وهامة عن أوضاع مصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى ذلك الحين . كما وضع يده على أهم المجاعات ولخصها فى قوله «إذا تأخر جرى النيل بمصر يمتد الغلاء سنين» ، ذلك أن الناس تضطر إلى استهلاك المخزون من الغلال القديمة ، والتى يستخدم جزء منها فى زراعة المحاصيل الجديدة عند وفاء النيل، ويأتى عام جديد ليجد أن التقاوى قد استهلكت . وهكذا كان تأخر الفيضان سنة يؤدى ، بالتداعى ، إلى سلسلة من سنوات القحط والمجاعة . وهذا ما يصدق على المجاعة التى نحن بصددها ، فقد بدأت بقصور النيل فعلا ثم استمرت عدة سنوات بشكل متقطع . وكان طبيعيا أن يصحبها الوباء الذى يذكر المقريزى وغيره[٢٥] أنه قضى على أكثر من نصف سكان البلاد . وقد أرجع المقريزى سبب هذه الحال الرهيبة إلى «.. سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد..»[٢٦].

وقد شهدت السنوات المائة الأخيرة من عصر سلاطين المماليك عدة مجاعات وأوبئة لعل من أشهرها الأوبئة الثلاثة التى رزحت البلاد تحت وطأتها فى عصر السلطان قايتباى ، وكان آخرها سنة ٨٦٧هـ (١٤٩١م) . وتذكر مصادر تلك الفترة أن واحداً من هذه الأوبئة قضى على حوالى مائتى ألف شخص ، وهلك فيه ثلث المماليك تقريبا ، بل إن السلطان فقد ابنته وزوجته فى يوم واحد على الرغم من مستوى معيشة الحكام الذى لايمكن مقارنته بمستوى معيشة عامة الناس . وصاحب هذه الأوبئة مجاعة رهيبة أمسكت بخناق الناس، على حين انفجر الصراع بين طوائف المماليك ليزيد من المساحة القاتمة الكئيبة فى الصورة[٢٧].

٢٤- نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠م .

٢٥-المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص٤١- ص٤٣ ، السلوك جـ٣ ، ص٨٢٦ ، ٨٩١ ، ص١٠٠٣ ، ١١١٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٣ ، ص٥٢ ؛ العينى، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٤٠ ، ق١٩٨ .

٢٦- المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص٤٣ .

٢٧- ابن الصيرفى، إنباء الهصر ، ص٤٦ ، ٥٠ - ص٥٩ ، ص٦٠ - ص٦١ ؛ ابن إياس بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص١٨ ، ٣٧ ، ١٢٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحقيقة أن الأوبئة والمجاعات فى ذلك العصر، لاسيما فى شطره الثانى ، كثيرة ومترادفة بحيث لايمكن أن نتتبع كلا منها على حدة، ولكنها جميعا تشترك فى كونها تحالفت مع ظلم الحاكمين وعبث العربان واللصوص والمماليك المفسدين لطحن جموع المصريين ، فقد عاشت فى مصر آنذاك طائفة كبيرة من سواد العامة الذين لايكادون يحصلون على قوت يومهم ، أو يجدون ما يستر أجسادهم فضلا عن جماهير الفلاحين الذين كانت حياتهم فى عصر سلاطين المماليك تجسداً لمأساة الإنسان حين تتضافر عليه كوارث الطبيعة وظلم الحكام . وكان طبيعيا أن تبدو الحياة مستحيلة وكريهة فى نظر عامة المصريين بسبب عوامل الإحباط المتحكمة فى حياتهم اليومية .

ومهما يكن الأمر، فإننا ينبغى أن نقدم محاولة إحصائية للمجاعات والأوبئة فى كل من عصر البحرية وعصر الجراكسة ، لعل تحليلها ودراستها يمكن أن تساعدنا على زيادة توضيح الصورة .

جدول المجاعات والأوبئة زمن المماليك البحرية[٢٨]

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف والملاحظات
٦٦٢هـ (١٢٢٥م)	قصر النيل عن حد الوفاء ، فارتفعت أسعار الغلال ، وتكالب الناس على الأفران وحوانيت الخبز، ثم اضطروا لأكل أوراق اللفت والكرنب ، لم يكن هناك ضحايا بسبب تدخل بيبرس وإلزامه للأمراء بإطعام الفقراء ، وحين ظهرت المحصولات الجديدة ارتفع الوباء .
٦٧٢هـ (١٢٧٣م)	انتشر فى البلاد مرض وبائى ، كان أكثر ضحاياه من النساء والأطفال ويبدو أنه لم يكن ذا تأثير خطير .
٦٩٤- ٦٩٥هـ	مجاعة رهيبة ووباء نتيجة للفيضان الهابط فى ذلك الوقت .
(٩٤- ١٢٩٥م)	قضى الوباء على أعداد كبيرة من السكان . وتخلخل البناء السكانى فى الريف على وجه الخصوص .

٢٨- مصادر معلوماتنا عن هذا الجدول الآخر موضحة فى كتابنا «النيل والمجتمع المصرى» ص١٢٩ ، يتبع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧٠٩هـ (١٣٠٩م) انتشار مرض وبائى ولكنه لم يتسبب فى موت الكثيرين، كما حدث فى السنة نفسها أن قصر النيل عن الوفاء وارتفعت الأسعار حدث فى السنة نفسها أن قصر النيل عن الوفاء وارتفعت الأسعار.

٧١٦ هـ (١٣١٦م) حدث الوباء عقب هبوب ريح سوداء أعقبها مطر . ولكن انتشاره كان فى بلاد الصعيد فقط على ما يبدو .

٧٢٠هـ (١٣٢٠م) انتشر الطاعون ، بيد أن ضحاياه كانوا من القلة بحيث أغفلت بعض المصادر ذكره .

٧٣١هـ (١٣٣٠م) انتشار محدود لأحد الأمراض الوبائية وصفته المصادر بأنه «وباء يسير» .

٧٣٦ (١٣٣٥م) فى عصر السلطان «الناصر محمد بن قلاون» توقف النهر عن الزيادة، وحدثت مجاعة ولكن أمكن التغلب عليها قبل أن تستشرى ، فقد أمر السلطان بتوزيع الغلال على الفقراء من الشون السلطانية وشون الأمراء .

٧٤٧هـ (١٣٤٦م) حدثت أزمة اقتصادية ، ويبدو أن تأثيرها كان محدوداً .

٧٤٨هـ/ ٧٤٩هـ (٤٧-١٣٤٨م) «الفناء الكبير»، أو الموت الأسود .

٧٦١هـ (١٣٥٩م) وباء بالقاهرة وبلاد الوجه البحرى استمر حتى السنة التالية ومات فيه كثير من الأعيان .

٧٦٤هـ (١٣٦٢م) انتشرت بعض الأمراض الوبائية فى القاهرة وعامة بلاد الوجه البحرى ، ولكن ضحاياها كانت محدودة للغاية .

٧٦٩هـ (١٣٦٧م) وباء شديد الوطأة استمر يحصد الأرواح على مدى أربعة شهور، وبلغ عدد ضحاياه فى القاهرة والفسطاط حوالى مائة نفس يوميا ممن سجلهم ديوان المواريث .

٧٧٥هـ (١٣٧٣م) توقف نهر النيل عن الزيادة فى موسم الفيضان، ومات عدد ضخم من ذوات الأربع ، ثم أنشبت المجاعة أظفارها الحادة فى الناس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	وأخذ ضحايا الجوع يتساقطون فى كل مكان .
٧٧٦هـ (١٣٧٤م)	نتيجة لما حدث فى العام السابق ، انتشرت الأمراض الوبائية الفتاكة وتقدر المصادر عدد الذين سجلتهم الأوراق الرسمية بحوالى مائتين ، وعدد الضحايا المجهولين بحوالى خمسمائة يوميا .
٧٧٧هـ (١٣٧٥م)	استمرت المجاعة والوباء ، وأخذ الناس يأكلون القطط والكلاب والميتات . كما تذكر المصادر أن بعض الناس كانوا يبيعون أطفالهم بل يذكر ابن حجر أن بعضهم أكل الأطفال .
٧٧٩هـ (١٣٨٧م)	كانت بقايا المجاعة والوباء ما زالت باقية ، ولو أن عدد الضحايا قل كثيراً .
٧٨٢هـ (١٣٨٠م)	بدأ الوباء فى مدينة الإسكندرية، ثم أخذ ينتشر تدريجيًا حتى عم بلاد الوجه البحرى، والعاصمة . ويذكر المؤرخون أن عدد ضحايا هذا الوباء فى مدينة القاهرة قد بلغ حوالى ثلاثمائة نسمة فى اليوم الواحد، عدا الضحايا المجهولين «الطرحاء» الذين كانت جثثهم توجد ملقاة فى كل مكان .

هذه، بشكل عام ، أهم المجاعات والأوبئة التى شهدتها مصر فى عصر المماليك البحرية، أو فى عصر دولة المماليك الأولى، كما يحلو لبعض الباحثين أن يسميها . والجدير بالذكر أننا قد أغفلنا ذكر الكثير من الأزمات الاقتصادية التى عادة ما كانت حوليات ذلك العصر تصفها بأنها «غلوة خفيفة» ، وذلك لأنها غالبًا ما كانت من نتائج الأوبئة والمجاعات أو من المظاهر المصاحبة لها وهو ما سنوضحه فيما بعد .

والمتأمل فى الجدول السابق يخرج بعدة استنتاجات لعل من أهمها أن ذلك العصر ، الذى امتد فى الزمان لأكثر من مائة وثلاثين عاما، لم شهد سوى ثلاثة أوبئة كبرى، كان أحدها هو الوباء الشامل الذى اكتسح أنحاء المعمورة فى أواسط القرن الرابع عشر والاستنتاج الثانى هو أن معدل حدوث المجاعات والأوبئة فى مصر قد ارتفع بعد هذا الوباء الشامل ، أو «الفناء

الكبير» على حد تعبير ذلك العصر. وعلى الرغم من أن مؤرخى تلك الفترة قد أسهبوا فى وصف تفاصيل كل من هذه الأوبئة ، فالواضح أن البناء الاجتماعى فى مصر لم يبدأ فى التخلخل إلا بعد منتصف القرن الرابع عشر، أى بعد «الفناء الكبير» . وهو التخلخل الذى تبدت مظاهره واضحة وارتفع معدله بسرعة فى عصر الجراكسة على ما يكشف الجدول .

جدول المجاعات والأوبئة زمن المماليك البحرية(٢٨)

سنة وقوع المجاعة أو الوباء	الوصف والملاحظات
٧٨٤هـ (١٣٨٢م)	حدث غلاء فى القاهرة ، ويبدو أنه كان من بقايا نتائج الوباء الذى حدث فى العامين السابقين .
٧٨٧هـ (١٣٨٥م)	حدث غلاء فى العاصمة بسبب المنازعات السياسية والتنافس على العرش .
٧٨٨هـ (١٣٨٦م)	انتشر الوباء فى الاسكندرية ، ويبدو أنه لم ينتشر خارجها.
٧٩٠هـ / ٧٩١هـ	انتشر فى القاهرة وضواحيها وباء قضى على عدد من السكان ، وقد ظل هذا الطاعون متفشيًا فى البلاد حتى سنة ٧٩١هـ .
٧٩٤هـ (١٣٩١م)	انتشر مرض وبائى قضى على أعداد هائلة من الأبقار حتى كادت أن تختفى من مصر ، ونتج عن ذلك أن ارتفعت أسعار اللحوم ومنتجات الألبان وغيرها من المواد الغذائية.
٧٩٥هـ (١٢٩٢م)	بدأ الوباء ينتشر فى مدينة الاسكندرية .
٧٩٦هـ (١٣٩٣م)	بدأت المجاعة الكبرى الرهيبة التى استمرت حوالى ستة عشر عاما بصورة متقطعة وقد صحبها الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية فى كثير من مراحلها ، ويذكر المقريزى أن هذه المجاعة المخيفة كانت هى فاتحة التدهور الاقتصادى لمصر، ويؤكد المؤرخ الكبير هذا الرأى فى كل مناسبة ، وفى جميع كتبه عن مصر .
٧٩٧هـ (١٣٩٤م)	نتيجة المجاعة التى بدأت فى العام الماضى، حدثت أزمة اقتصادية شديدة وصحبها الوباء ليزيد الطين بلة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧٩٩هـ (١٣٩٦م)	انتشر الوباء واستمر ثلاثة شهور وقضى على عدد من السكان .
٨٠٠هـ (١٣٩٧م)	انتشرت أمراض وبائية فى القاهرة وبلاد الوجه البحرى .
٨٠٢هـ (١٣٩٩م)	حدثت أزمة اقتصادية ، واختفت المواد الغذائية وارتفعت الأسعار وفى هذه السنة أيضا انتشر مرض «السعال والباردة» ولكن المصادر لاتحدثنا عن وقوع ضحايا .
٨٠٤هـ (١٤٠٢م)	توقف النيل عن الزيادة فى موسم الفيضان ، فارتفعت الأسعار واختفى الخبز من العاصمة ثلاثة أيام .
٨٠٦هـ (١٤٠٣م)	اشتدت الأزمة التى لاحت بوادرها فى العام السابق ، ثم انتشر مرض وبائى بين الفقراء من الناس وقضى على عدد كبير منهم ، وتبع ذلك اشتداد الأزمة الاقتصادية .
٨٠٧هـ (١٤٠٥م)	استمر الوباء يفتك بالعامة ، ثم مد مخالبه إلى غيرهم. وزادت حدة الأزمة الاقتصادية .
٨٠٨هـ (١٤٠٥م)	وقع طاعون شامل فى بلاد الصعيد ، ويبدو أن أثره كان من العنف بحيث «شمل الخراب غالب بلاد الصعيد» .
٨١٠هـ (١٤٠٧م)	يذكر السيوطى أن الطاعون انتشر فى البلاد .
٨١٢هـ (١٤٠٩م)	بدأ الوباء ينتشر فى البلاد المصرية .
٨١٣هـ (١٤١٠م)	زادت حدة انتشار الطاعون وقضى على عدد كبير من الناس فى العاصمة وغيرها .
٨١٦هـ (١٤١٣م)	يذكر ابن حجر والسيوطى أن الطاعون انتشر بمصر وقضى على كثيرين .
٨١٨هـ (١٤١٥م)	انتشرت الأمراض الوبائية ، كما أمسكت الأزمة الاقتصادية بخناق البلاد ، وجاءت الفتن والاضطرابات السياسية لتزيد من وطأة الموقف .
٨١٩هـ (١٤١٦م)	استمرت الأمراض الوبائية فى الانتشار حتى شملت كل انحاء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البلاد. وصحب ذلك ارتفاع شديد فى الأسعار واختفاء بعض السلع .

٨٢٠هـ (١٤١٧م) امتد الوباء إلى مناطق الغربية بمصر، فانتشر فى مدينة الإسكندرية ومدينة دمياط .

٨٢٢هـ (١٤١٩م) انتشر الطاعون فى أنحاء البلاد، ويبدو أن انتشاره قد بدأ فى القاهرة ، ثم امتد شرقًا وغربًا إلى إقليمى الشرقية والغربية .

٨٢٣هـ (١٤٢٠م) استمر الطاعون يفتك بالناس ووصل تأثيره إلى الإسكندرية .

٨٢٨هـ ـ١٤٢٤م) انتشر الوباء فى مدينة دمياط، وتسبب فى القضاء على عدد كبير من الأطفال والرقيق .

٨٣١هـ (١٣٢٧م) بدأ الوباء ليشمل أغلب مناطق الوجه البحرى فضلا عن القاهرة وقضى على طوائف بأكملها من الأجانب المقيمين بمصر آنذاك، والمثير للانتباه أن هذا الوباء قد انتشر فى شتاء تلك السنة ، على الرغم من أن الربيع والصيف كانا دائما يشهدان انتشار الأوبئة . وقد قضى هذا الوباء المروع على أسماك الأنهار والبحيرات والتماسيح وعلى الذئاب والظباء فى الصحراء المصرية. ضحايا هذا الوباء أكثر من مائة ألف إنسان وفقا لأقل التقديرات كما يذكر ابن الصيرفى .

٨٤١هـ (١٤٣٧م) شهدت تلك السنة انتشار الوباء ، وتوقفت أحوالهم ، وتزايد ظلم الحكام عليهم . وقد قضى الوباء على عدد كبير من السكان ، ثم امتد ليطول بمنجله الرهيب الأغنام والدواب بأسرها، فضلا عن القطط والكلاب والدجاج والنحل .

٨٤٧هـ / ٨٤٨هـ بدأ الوباء ينتشر منذ أواخر سنة ٨٤٧ هجرية ، وكان أكثر ضحاياه (١٤٤٣ / ١٤٤٤م) من الأطفال والرقيق. واستمر هذا الوباء قائمًا حتى سنة ٨٤٨هـ ثم ارتفع عن البلاد .

٨٥٢هـ (١٤٤٨م) ظهر الطاعون فى مصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨٥٣هـ (١٤٤٩م)	حدثت بالبلاد أزمة اقتصادية عنيفة نتيجة لعدم وفاء النيل. تم موت كثير من الأبقار لعدم توفر العلف ، فارتفعت الأسعار وتكالب الناس على الأفران وحوانيت الغلال.
٨٥٤ / ٨٥٥هـ (١٤٥٠- ١٤٥١م)	ظلت الأزمة قائمة وتفاقمت الأمور ، ولكن يبدو أن الأمور لم تصل إلى حد المجاعة وسقوط الضحايا.
٨٧٤هـ (١٤٥٩م)	انتشر الطاعون بالقاهرة والفسطاط، ثم أخذ ينتشر فى سائر أنحاء البلاد ، ومات فيه عدد ضخم من السكان على ما يذكر المؤرخ ابن تغرى بردى .
٨٧٣هـ (١٤٦٧م)	بدأ الوباء فى الإسكندرية ثم تطرق إلى إقليم البحيرة ؛ ومنه إلى جميع أنحاء البلاد ، وكان ضحاياه فى غالبهم من الأطفال والمماليك ، والعبيد والجوارى والغرباء ، وقد صحبه غلاء شديد فى الأسعار وفيه ماتت ابنة السلطان قايتباى وحفيدته- والجدير بالذكر أن هذا هو الوباء الأول من ثلاثة أوبئة كبرى شهدها عصر ذلك السلطان .
٨٨١هـ (١٤٧٥م)	الوباء الثانى فى عصر السلطان الأشرف قايتباى ، توفيت فيه أخت السلطان وحوالى ألفين من مماليكه ، فضلا عن الأعداد الكبيرة من المصريين. وبدأ يخف مع موسم الخماسين .
٨٨٨هـ (١٤٨٣م)	فشت فى الناس أمراض حادة ومات بذلك جماعة، ولكن يبدو أن تأثير هذه الأمراض الوبائية كان محدودا.
٨٩٢هـ (١٤٨٦م)	حلت بالبلاد مجاعة من جراء قصور النيل زمن الفيضان. وكان عدد الموتى كبيراً فى كل يوم لعدم استطاعتهم الحصول على ما يدفعون به غائلة الجوع .
٨٩٧هـ (١٤٨٦م)	انتشر الوباء فى مصر وأهلك عدداً كبيراً من السكان قدرهم المؤرخ ابن إياس بحوالى مائتى ألف إنسان .
٨٩٩هـ (١٤٩٣م)	قصر النيل عن حد الوفاء ، ولم ترو أغلب الأراضى الزراعية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	وكانت النتيجة أن ارتفعت الأسعار واختفى القمح والخبز وغير ذلك من مظاهر الغلاء .
٩٠٣هـ (١٤٩٦م)	ظهر الطاعون فى سنة ٩٠٢هجرية ، ثم بدأت وطأته تثقل على البلاد فى العام التالى ؛
٩٠٤هـ (١٤٩٨م)	عاد الطاعون مرة أخرى ، ولكنه كان أخف وطأة .
٩٠٩هـ . ٩١٠هـ (١٥٠٢ / ١٥٠٣م)	بدأ الطاعون خفيفا فى سنة ٩٠٩هجرية ، ثم اختفى لمدة ثمانية شهور تقريبا ليعود فى سنة ٩١٠هـ بصورة أشد وأعنف مما كان عليه .
٩١٢هـ (١٥٠٦م)	ظهر الطاعون فى بلاد الصعيد .
٩١٨هـ (١٥١٢م)	ظهر الوباء فى مدينتى الاسكندرية ورشيد وبعض مناطق الساحل الغربى ، ولكنه لم يدخل إلى القاهرة والفسطاط
٩١٩هـ (١٥١٣م)	وصل الوباء فى انتشاره إلى العاصمة حيث بدأ يقضى على العبيد والجوارى، ومع حلول الخماسين اشتدت وطأته ، ثم أخذ يفتك بالناس عموما.

لاشك أن المقارنة السريعة بين الجدولين تعطى انطباعًا لايخطئه الباحث عن مدى الفرق فى منحنى التدهور فى كل من عصر البحرية، وعصر الجراكسة ، فإنه - فضلا عن الفارق الكمى الكبير المتمثل فى عدد الأوبئة والمجاعات - يتضح أن الذبول السكانى قد بات واضحًا بشكل حاسم . كما أن ما يلفت النظر فى الجدول الثانى أن مدة استمرار الأزمة قد طالت بشكل واضح ، بحيث كان يمكن للمجاعة أو الوباء ، أو كليهما ، أن تستمر على مدى ثلاث أو أربع سنوات. ومن الطبيعى أن يكون هناك سبب، أو أسباب ، تفسر هذه الظاهرة ، وإذا كنا قد تعرضنا لبعض هذه الأسباب من قبل؛ فإن تحليلنا لموقف الدولة من هذه الأزمات من ناحية ، واستعراضنا لنتائج وآثار الأوبئة والمجاعات من ناحية ثانية ، يمكن أن يصلا بنا إلى تصور واضح للظاهرة التى ارتبطت الأسباب والنتائج فيها ببعضها بشكل مثير .

أما عن موقف الدولة أثناء هذه الأزمات ، فالحقيقة الواضحة فيه أنه اختلف فى عصر الدولة الأولى عنه فى عصر الدولة الثانية بشكل عام- بيد أن الموقف كان متشابهًا من حيث كونه إفرازاً للعلاقات بين الحكام والمحكومين فى ظل النظام الإقطاعى العسكرى الذى ارتكزت

عليه دولة المماليك، ومن حيث كونه تعبيراً - جزئيًا - عن الواجهة الدينية التى حرص المماليك على التخفى وراءها طوال ذلك العصر .

ففى عصر السلطان الظاهر بيبرس حدثت مجاعة سنة ٦٦٢هـ ، وقبل أن تتفاقم الأزمة، أمر السلطان بإحصاء المحتاجين والفقراء، والتزم بإطعام عدد منهم، كما ألزم الأمراء وكبار رجال الدولة والأعيان والتجار والأثرياء - كل حسب قدرته - بأن يطعم كل واحد منهم عدداً آخر بشرط أن يستمر الفقير فى تناول نصيبه اليومى من الطعام على مدى ثلاثة شهور ، وتم تنفيذ ذلك بالفعل حتى أمكن اجتياز الأزمة[٢٩] وقدتكرر الأمر نفسه أثناء المجاعة التى ألمت بالبلاد فى عهد السلطان العادل كتبغا فيما بين سنتى ٦٩٤هـ- و٦٩٥هـ. فقد أمر السلطان بعد أن اشتدت وطأة المجاعة ، بجمع الفقراء والمحتاجين ، وألزم الأمراء والأعيان والتجار بأن يطعم كل واحد منهم عدداً معينًا من الجياع. فكان البعض يطعمونهم لحم البقر فى المرق ومعه الخبز ، على حين كان البعض الآخر يفرق عليهم الكعك ، ويعطيهم البعض الرقاق «فخف ما كان بالناس من الفقر..»[٣٠]، كذلك حدث سنة ٧٦٦ أن قام الأمير منجك نائب السلطان بتوزيع الفقراء على الدواوين ، وعلى التجار والأثرياء لكى يقوموا بإطعامهم ، ونودى فى العاصم بألا يمارس الجياع الشحاذة «وأى حرفوش شحذ يصلب»[٣١] . وتكرر الشئ نفسه أثناء أزمة ٨٠٨هـ [٣٢]. ولعلها كانت المرحلة الوحيدة التى يحدث فيها مثل هذاالتصرف فى عصر الجراكسة.

كذلك كان الخبز يوزع على المتعبدين ، أو الفقراء على حد تعبير العصر، فى الجوامع وعلى الصوفية فى الزوايا والخانقاوات والربط وغالبا ما كان هذا الخبز الذى يوزع أثناء الأزمات يخرج من الشون السلطانية[٣٣].

٢٩- النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٨ ، ق٢٧ العينى، عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٦٢هـ؛ المقريزى السلوك جـ١ ، ص٧٠٦ ، ٧٠٧ .

٣٠- المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص٣٥ .

٣١- المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص٢٣٠ ؛ العينى، عقد الجمان ، جـ٢٤ ، ق١٨٣ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور ، جـ٢ ص٢٢٩ (بولاق) .

٣٢- ابن تغرى بردى ، النجوم، جـ١٣ ، ص٥٢ ، يتبع .

٣٣- المصدر نفسه، جـ٧ ، ص٢١٣- ص٢١٤ ؛ ابن إياس ، المصدر السابق، جـ١ ، ص٣٠٦ .

وينبغى أن نلاحظ أن هذا التصرف من قبل سلاطين المماليك كان يصدر عن تصور دينى يجعل منه إحسانًا وصدقه للتخفيف من حدة الأزمة على عامة الناس، ولم يكن يصدر عن موقف تلتزم فيه الدولة برعاية الناس وتقديم الخدمات العامة لهم ، إذ إن مثل هذه المفاهيم كانت غائبة عن مجال العلاقة بين سلاطين المماليك ورعاياهم . بل أن هذا التصرف الأخلاقى الطابع تلاشى فى عصر الجراكسة وحل محله موقف مناقض تماما، فقد كان السلاطين وكبار الأمراء يحتكرون الغلال فى شونهم ، ويشترونها حين يكون سعرها منخفضا ويخزنونها حتى وقت الأزمة فيبيعونها بسعر يحقق لهم مكسبا كبيرا[٣٤] وهو ما يمكن تفسيره فى ضوء التدهور الشامل لكافة نواحى الحياة المصرية آنذاك.

وثمة تصرف آخر كانت الدولة تلجأ إليه لمعالجة الأزمة ، فكثيراً ما كان يحدث فى عصر الدولة الأولى أن يأمر السلطان بإخراج الغلال من الشون السلطانية ، ويتم توزيع القمح على الطحانين لكى يقوموا بطحنها لأصحاب الأفران والمخابز حسب طاقة كل منها ، وذلك بقصد تخفيف وقع الأزمة على الناس [٣٥]. كذلك كان السلطان يأمر، أحيانا ، بأن يتم بيع الغلال المستخرجة من الشون السلطانية «للضعفاء والأرامل» ، كما كان يتم فى بعض الأحيان ، تحديد الحد الأقصى للكمية المسموح لكل فرد بشرائها حتى لايلجأ الناس إلى التخزين «ويقع الحجر على من يخزن» ففى سنة ٧٣٦هـ، على سبيل المثال ، أمر السلطان الناصر محمد بن قلاون أن يفتح الأمراء شونهم ويبيعوا الغلال للناس بأسعار يحددها السلطان [٣٦]. وفى بعض الأوقات كان السلطان يتصدى بنفسه لحل مشكلة اختفاء القمح ، ويتابع الأزمة حتى يمكن التغلب عليها باستيراد القمح من الخارج [٣٧].

كذلك كان الخبازون والطحانون يتعرضون للعقوبات البدنية بشتى ضروبها فى حالة تسببهم فى الأزمة، فمن المعروف أن المحتسب كان يتولى مراقبة الأسعار ، ومراقبة عمليات البيع

٣٤- ابن الصيرفى ، إنباء الهصر، ص١٦٧ ، نزهة النفوس ، جـ٣ ،ص١٤٨ ، ص١٨٠- ص١٨١ ، ٢٣٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ٣ ، ص٤١- ص٤٣ .

٣٥- المقريزى، إغاثة الأمة، ص٣٣ .

٣٦- المصدر نفسه: ص٤٠ ، السلوك ، جـ١ ، ص٧٠٥ ؛ العينى، عقد الجمان، جـ٢٥ ، ص٤١٤ .

٣٧- العينى، المصدر السابق، الجزء والصفحة .

والشراء ، وحين يمتنع أصحاب المطاحن والمخابز عن البيع يعاقبهم بأشنع ضروب العقاب ، ويوجه إليهم إنذاراً بفتح حوانيتهم «وأن يبيعوا بسعر الله» ويهددهم بنهب محلاتهم . وتحفل مصادر الفترة الأولى من عصر سلاطين المماليك بالكثير من الأمثلة الدالة على مدى فعالية الدور الذى كان المحتسب ومعاونوه يلعبونه فى هذا المجال [٣٨]، بيد أن وظيفة المحتسب تعرضت للتدهور الذى أصاب كافة وجوه الحياة [٣٩]. ومن ثم قلت فعالية دور هذا الموظف الهام فى حياة المصريين اليومية .

وكان تسعير الغلال إحدى الوسائل التى تلجأ إليها الدولة أثناء المجاعات والأزمات الاقتصادية. ولكن التسعير ، كإجراء اقتصادى، كان يلقى بعض المعارضة من الفقهاء أحيانًا، كما كان يأتى بعكس المرجو منه ،إذ تتفاقم الأمور ويختفى الخبز وتشتد بالناس المجاعة فتضطر الدولة إلى إلغاء التسعير [٤٠]. وقد تدفع الأزمة ببعض الموظفين إلى الاستعفاء (الاستقالة) من مناصبهم لعجزهم عن القيام بأعباء عملهم بصفتهم مسئولين عن مراقبة الأسواق والأسعار ، ففى حوادث سنة ٨١٨هـ ، مثلا ، وحين اشتدت المجاعة واختفت الغلال وسائر المواد الغذائية ، اضطر المحتسب أن يستعفى من الحسبة ، وتولاها رجل آخر لم يلبث أن تركها بعد أيام قلائل بسبب تزايد الأسعار وقلة الخبز واشتداد تزاحم الناس على الأفران[٤١].

وفى بعض الأحيان كان السلطان ، أو نائبه ، هو الذى يعزل المحتسب أو الوالى إذا ما نسب إليه سوء التصرف الذى يؤدى إلى حدوث الأزمة . وكثيراً ما كان المحتسب يلزم بيته ولايخرج خوفا على نفسه من غضب الناس فى الشوارع لأنهم ينسبون إليه ما وصلت إليه الحال باعتباره المسئول عن مراقبة حركة البيع والشراء [٤٢]. وكثيراً ما كان الناس يهاجمون السلطان

٣٨- تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ، ص٣٨٧ ، ٤٢٤ - ص٤٣٥ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ص٣٩١- ص٣٩٢ .

٣٩- انظر فى دراستنا عن الأسواق فى هذا الكتاب .

٤٠- النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٨ ، ق٢٧ ؛ المقريزى، السلوك جـ١ ، ص٧٠٦ إغاثة الأمة ، ص٣٣ العينى، عقد الجمان ، حوادث ، ٦٦١ هـ ، ابن تغرى بردى ، النجوم، جـ٧ ، ص٢١٤ .

٤١- العينى ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٤١٣- ص٤١٤ .

٤٢- نفسه ، جـ٢٥ ، ق٤١٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ، ص٤٣٥ .

بجارح الكلام إذا ما مر موكبه بالقاهرة فى حالة وقوع الأزمة ، فقد ذكر ابن إياس أنه حدث فى سنة ٨٧٢ هـ أن ارتفعت أسعار الغلال «فاستكعب الناس بالسلطان، وصار إذا شق القاهرة يسمعونه الكلام المنكى»[٤٣].

وتبدو قلة اهتمام السلاطين بأمر الناس ومحاولة التخفيف عنهم واضحة فى عصر الجراكسة من خلال ما تمدنا به مصادر تلك الفترة من معلومات نسوق منها، على سبيل المثال ، ما حدث سنة ٨٣٩هـ حين وقف العامة للسلطان الأشرف برسباى ، وشكوا من عدم وجود الخبز «فلم يعبأ بهم. ولا التفت إليهم» [٤٤]. كما حدث فى سنة ٨٨٥هـ أن وقف العامة فى طريق الموكب السلطانى يشكون من أن الخبز لايوجد فى الدكاكين من بعد العصر[٤٥].

كذلك كان بعض سلاطين المماليك يتظاهرون بالعدل خوفا على أرواحهم أثناء انتشار الأوبئة. فيعلنون عن إلغاء الكثير من الضرائب «المغارم والمظالم والكلف». وبمجرد أن يزول الخطر ويقل الخوف تعود الضرائب الفادحة لتفرض على الناس «كما كانت وزيادة»[٤٦]، ففى سنة ٩١٩هـ اشتدت وطأة الوباء على البلاد، «وكان السلطان موهوما على نفسه» فأبطل عددا كبيراً من الضرائب والمكوس .

ومن الطريف أن بعض السلاطين كان يبالغ فى إظهار الرحمة والعدل خوفا من شر الوباء المستشرى ، فيمنع سجن أحد حتى ولو كان مذنبا ، ففى سنة ٧٨٤هـ أمر السلطان الظاهر برقوق بألا يحبس أحد بسبب ديونه ، وأطلق سراح المسجونين[٤٧] كذلك حدث فى سنة ٨٤١هـ أن أمر السلطان برسباى بإغلاق السجون والإفراج عمن فيها من المساجين ، «وصار من له عند أحد حق لايصل إليه، وانتشر السراق فى البلاد »[٤٨]، كما حدث فى سنة ٩٠٩هـ أن أمر

٤٣- ابن إياس : بدائع الزهور (طبعة د. محمد مصطفى)، جـ٣، ص١١ .

٤٤- ابن الصيرفى، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص٣٣٨ .

٤٥- ابن إياس ، المصدر السابق، جـ٣ ، ص١٦٥ .

٤٦- المصدر نفسه، جـ٤ ، ص٧٧ ، ص٣٠٤ .

٤٧- ابن حجر ، إنباء الغمر، جـ١ ، ص١٨١ (مخطوط) .

٤٨- ابن الصيرفى، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص٤٠٠ .

السلطان الغورى بمنع الفقهاء من الجلوس للحكم فى القضايا وأمر أيضا ألا يشتكى أحد أحداً «إلا من الشرع الشريف»(٤٩).

وفى ذلك لم يكن الناس يملكون إزاء كوارث الطبيعة ونوازلها سوى الاستسلام والتضرع إلى الله لكى يرفع عنهم الوباء. ولم تعرف تلك الفترة ما نعرفه اليوم من إجراءات وقائية وعلاجية ، مثل عزل المصابين ، والحجر الصحى ، وإغلاق المناطق الموبوءة وغير ذلك من وسائل العصر الحديث لمقاومة الأوبئة. فلا غرو أن كانت أساليب الدولة فى معالجة هذه الكوارث متمشية مع روح العصر بما تتسم به من قدرية وارتجالية ، وبما فيها من مفاهيم غيبية ، والجدير بالذكر أن هذه الأساليب لم تكن تختلف كثيرا عن أساليب حكام أوربا فى تلك الفترة المتأخرة من العصور الوسطى، بيد أن الطب والعلاج فى الشرق كانا أكثر تقدمًا وازدهاراً منهما فى الغرب الأوربى آنذاك .

وفى غالب الأحوال ، كان الناس يفسرون هذه الكوارث تفسيراً دينيا وأخلاقيا خالصا ، فيرجعون أسبابها إلى غضب الله من جراء فساد الأخلاق وانتشار الفسق والفجور ، وسيادة الظلم . وهنا يلجأ الناس- حكاما ومحكومين - إلى الدين يتسربلون بردائه ، ويكثر إقبالهم على العبادة ، وتقوم الحملات التى يرأسها الوالى أو غيره لمهاجمة أوكار الفساد. وما أن تنقضى الأزمة وتنقشع الغمة حتى تعود الأمور إلى سيرتها الأولى .

وخير مثال على ذلك هو ما كان الحكام يدعون الناس إليه فى أوقات الأزمة من الخروج إلى صلاة الاستسقاء ، إذ يأمر السلطان بخروج المحتسب ومعاونيه لإعلام أبناء الرعية بأنه قد تقررت إقامة صلاة الاستسقاء فى يوم كذا ويحدد لهم مكانها . وفى بعض الأحيان كانت الدعوة توجه إلى الناس بالصيام بضعة أيام تقربا إلى الله حتى يجرى لهم مياه الفيضان . ثم يخرج الناس فى موكب حاشد ومعهم القضاة والأمراء والعلماء والفقهاء ومشايخ الخوانق والصوفية وصبيان المكاتب وعامة الناس وبينهم اليهود والنصارى بكتبهم المقدسة ، وربما يخرج السلطان بنفسه معهم .. وفى الصحراء القريبة من القاهرة يبدأ الوعظ والصلاة ، ثم ترتفع الأصوات بالدعاء والاستغاثة والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ، ويستمر المشهد عدة ساعات، وقد يتكرر خروج الناس لصلاة الاستقساء أكثر من مرة(٥٠).

٤٩- ابن إياس ، بدائع الزهور ،جـ٤ ، ص٧٦- ص٧٧ .

٥٠- المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص٢١٨- ص٢١٩ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم (كاليفورنيا) ، جـ٦ ، =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يكن الناس فى كل الأحيان يخرجون إلى الصحراء لأداء هذه الصلاة ، بل إنهم كثيراً ما كانوا يجتمعون بأحد المساجد الكبيرة ، مثل مسجد عمرو بن العاص أو الجامع الأزهر ، يتوسلون إلى الله ويبتهلون ويتضرعون ، ويستمرون فى قراءة القرآن، وربما لعدة أيام ، أملا فى أن يرفع الله الغمة عنهم (٥١).

ومن الأمور ذات الدلالة فى هذا المقام ما ذكره ابن الصيرفى من أنه حدث سنة ٨٣٣ هـ أن السلطان قايتباى أمر بجمع أربعين شريفا ، كل شريف اسمه محمد ، وأعطاهم من ماله خمسة آلاف درهم وأجلسهم بالجامع الأزهر ، ليقرءوا ما تيسر من القرآن بعد صلاة الجمعة وظلوا يدعون الله حتى حانت صلاة العصر فصعدوا ليؤذنوا ، جميعا ، على سطح المسجد ، ثم عادوا ليصلوا بالناس ، وقد تصرف قايتباى هذا التصرف بمشورة بعض العجم الذين قالوا إن ذلك يرفع الوباء عن البلاد (٥٢).

وكثيراً ما كان توقف النيل عن الزيادة أو انتشار الوباء، وما ينتج عن ذلك من اضطراب وفوضى ، يفسر فى ضوء فساد أخلاقيات الناس وانشغالهم بأمور اللهو والفساد (٥٣). فيقوم ممثلو الدولة بشن الحملات التفتيشية ومهاجمة أوكار الفساد وأماكن الفجور ، ومستودعات الحشيش والخمور. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتواترة فى مصادر تلك الفترة ، منها ما حدث سنة ٨٤١هـ حين ظهر الوباء فى مصر ، وتخوف السلطان برسباى من أن يصاب ، فعقد مجلسا بالقلعة حضره بعض الفقهاء وسألهم إن كان الله يعاقب الناس بالطاعون بسبب ما يقترفونه من الذنوب ، فأجابه البعض بأن الزنا إذا تفشى بين الناس ظهر فيهم الطاعون ، وإن النساء فى مصر يمشين فى الطرقات ليلا ونهارا بزينتهن . وأشار آخر بأن الواجب يقتضى منع النساء من

= ص٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ص٤٩٤ - ص٣٩٥ ؛ ابن الصيرفى نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص١٨٤ وقد علق على خروج الناس للاستسقاء سنة ٨٣٣ ، بقوله : «هذا والحكام والظلمة على ما هم فيه . وقال الشاعر :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت قبيح

٥١- المقريزى ، المصدر السابق، جـ٣ ، ص١١١٣- ص١١١٤ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق، جـ١٠ ، ص٢٠٤ .

٥٢- ابن الصيرفى ، المصدر السابق، جـ٣ ، ص١٩٠- ص١٩١ .

٥٣- ابن تغرى بردى ، النجوم ، ص٧٥٨- ص٧٦٠ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص٢٧٣- ص٢٧٤ .

المشى فى الأسواق ، ونازعه ثالث فى ذلك وطالب بمنع المتبرجات فقط. ولكن السلطان أمر بمنع النساء من الخروج مطلقا «ظنا من السلطان أن منعهن يرفع الطاعون»[٥٤]. ومن الطريف أن السلطان برسباى قد أصيب فى هذا الوباء بحيث اختلت قواه العقلية ، وكان يعيش فى غيبوبة طوال الوقت[٥٥].

ولعل هذه المناقشة دليل جيد على المفاهيم التى كانت سائدة فى تلك العصور، والتى فى ضوئها كانت تعالج الأمور أثناء هذه الأزمات . ومثل هذه المجالس كانت تعقد دائما للتشاور فيما يجب اتخاذه إزاء الكارثة . بل إن المناقشات كانت تدور أحيانا حول جواز التضرع والدعاء والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى حتى يرفع المجاعة أو الوباء عن البلاد والعباد[٥٦].

وكانت مثل هذه التصرفات العاجزة سمة بارزة ونغمة مشتركة فى مواقف الدولة ورجالها الذين يتمسحون برداء الدين إبان الأزمات . وكانت مثل هذه الاجتماعات تفرز دائما الحملات التفتيشية التى تهاجم أماكن اللهو والفساد ومعاقبة من يؤمها بأشنع صنوف العقاب . ففى سنة ٧٨٩هـ، لم يبلغ نهر النيل حد الوفاء ، وأعقب ذلك الاضطراب والفوضى ، فبادر نائب السلطنة (الأمير سيف الدين سودون) بمهاجمة المتنزهين على شاطئ النهر ، وقبض على جماعة منهم ووبخهم ، ثم هاجم أماكن بيع الخمور واستولى على حوالى ألف جرة خمر كسرها تحت أسوار القلعة . وبعدها بعدة أيام هاجم أحد مستودعات الحشيش واستولى على كميات كبيرة ضبطها هناك وأتلفها بالتراب تحت أسوار القلعة أيضا[٥٧] كذلك حدث فى سنة ٨٣٢هـ أن هاجم حاجب الحجاب مواضع الفساد ، فأراق الخمر وأحرق الحشيش ، كما هاجم أماكن تجمع النساء[٥٨] وفى سنة ٨٤١هـ . هوجمت بيوت اليهود والنصارى لإراقة ما فيها من الخمور ، وقد علق ابن الصيرفى على هذا بقوله : «.. والعجب أنهم فى كل سنة عندما يعرفون أوان

٥٤- ابن تغرى بردى ، النجوم ، (كاليفورنيا) : ص٢٧٠ ، ابن الصيرفى، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص٤٠٤- ٤٠٥ .

٥٥- ابن الصيرفى ، المصد السابق ، جـ٢ ، ص٤٢٥ .

٥٦- ابن حجر ،إنباء الغمر، جـ٢ ، ص٢٥٩ .

٥٧- تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ، ص٩ .

٥٨- ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣ ، ص١٤٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عصر الخمر ويساعدونهم بأن يدفعوا لهم العسل ويأخذوا منهم الثمن. فانظر إلى هذه الأمور المتناقضة»[٥٩] كما حدث في سنة ٩١٠ هـ أن أصدر السلطان قنصوه الغوري أوامره بمهاجمة بيوت الأقباط وكسر ما لديهم من جرار الخمر. وحرق أماكن الحشيش والبوزة[٦٠].

بيد أننا ينبغي أن نلاحظ أن الصفة الغالبة على مثل هذه الإجراءات أنها كانت مؤقتة ومرهونة بظروف الأزمة ، فإذا مازال الخطر وارتفع الوباء ، أو خفت حدة المجاعة ، وهبطت الأسعار عادت الأمور سيرتها الأولى .

ومن الأمور ذات الدلالة في موقف الدولة أن السلاطين والأمراء ومن يلحق بهم من كبار موظفي الدولة والفقهاء كانوا يفرون إلى مناطق نظيفة من الوباء تاركين عامة الناس لمصيرهم التعس في مواجهة الجوع والموت . وعلى الرغم من أن مصادر ذلك العصر كانت تركز على وصف مظاهر الوباء أو المجاعة في العاصمة، بحكم وجود المؤرخين بها، فإننا نستطيع أن نقرر أن هذه المظاهر كانت تفرض نفسها على الحياة خارج العاصمة ، بل إن ما أوردته المصادر من إشارات قليلة عن تأثير المجاعات والأوبئة في الريف يؤكد أن الصورة هناك كانت أشد إظلامًا وكآبة .

على أية حال ، كانت سرياقوس هي المكان الذي يفر إليه السلاطين بحواشيهم هربًا من الطاعون في أغلب الأحوال[٦١]، كما كان الأعيان من المتعممين وأرباب الوظائف يرسلون أولادهم إلى الأماكن غير المربوءة حين تنزل بالبلاد كارثة من هذا النوع ، مثال ذلك ما حدث سنة ٩١٩ هـ، إذ أرسل قاضي قضاة الحنفية ، آنذاك ، أولاده إلى ناحية جبل الطور وحذا حذوه جماعة من أمراء المماليك والأعيان ، فأرسلوا أبناءهم أيضا إلى الطور «خوفًا عليهم من الطعن»[٦٢].

٥٩- المصدر نفسه، ص٤٠٠٦ .

٦٠-ابن إياس، بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص٧٦-٧٧ .

٦١- المقريزي، السلوك ، جـ٢ ، ص٧٧٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٠ ، ص٢٤ ، العينى، عقد الجمان جـ٢٤ ، ق١١٨ .

٦٢- ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص٢٩٦- ص٢٩٩ .

ومن المهم ، ونحن بصدد موقف الدولة أثناء الأزمات ، أن نشير إلى أن السلاطين والأمراء لم يحاولوا التخلي عن بعض امتيازاتهم أو مظاهر العز والرفاهية التي عاشوا في ظلها على الرغم من تساقط العديد من الضحايا ، بل إن منهم من كان يحرص على تنمية ثروته باستغلال ظروف الأزمة . ففي سنة ٨٣٣هـ، وعلى الرغم من ثقل وطأة الوباء ، طلب الاستادار تجار السكر في الفسطاط والقاهرة ليطرح عليهم السكر الذي كان السلطان يحتكر إنتاجه ، ففروا وأغلقوا حوانيتهم «وصار السكر لايوجد والمرضى محتاجون إليه ، ولم يجدوا ما يعللونهم به»(٦٣). كما كان السلاطين يحرصون على مظاهر البذخ دون النظر إلى ما تعانيه البلاد من ضيق وعسر، فيقيمون المنشآت التي ينفقون عليها الكثير من الأموال حرصًا على الظهور بمظهر التدين(٦٤). أو يخرجون للنزهة في أنحاء البلاد حيث تقام الاحتفالات الهائلة وتمد الموائد الحافلة . وكان بعض سلاطين المماليك يشتهر بكثرة رحلاته التي ترهق ميزانية البلاد، فضلا عن المتاعب التي تسببها هذه الزيارات لسكان الأقاليم التي يزورها الموكب السلطاني(٦٥).

ومن الأمور اللافتة للنظر أن الكثيرين من أمراء المماليك كانوا يخلفون ، عند موتهم ، تركات هائلة من النقود والخيول والثياب والسلاح والبضائع والغلال والمماليك والضياع وغير ذلك . ففي وفيات سنة ٨٣٩ هـ يذكر ابن الصيرفي أن أحد الأمراء قدرت تركته بمبلغ ستمائة ألف دينار، والآخر بما يساوي مائتي ألف (٦٦). وإذا ما تذكرنا مدى التدهور الذي كانت تعانيه البلاد في ذلك الحين أدركنا مدى صحة الفرض الذي ذهبنا إليه في السطور السابقة . وهو أمر يمكن تفسيره في ضوء الحقيقة القائلة بأن العلاقات بين السلطان والرعية كانت علاقات أفرزها النظام الإقطاعي العسكري الذي فرض نفسه على البلاد بقوة السلاح وبفضل قيامه بالدفاع عنها ضد عدوان الصليبيين والمغول. وبمرور الوقت فقد النظام قدرته على حماية البلاد في الخارج ومع ذلك يظل يفرض نفسه عليها في الداخل. فلاغرو ، إذن ، أن يحرص الحكام على جمع الثروات وزيادتها في ظل ظروف البؤس المحيقة بالمحكومين .

٦٣- ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص١٨٥ . وانظر دراستنا عن الأسواق لشرح نظام طرح البضائع.

٦٤- ابن إياس، المصدر السابق، جـ٣، ص٧- ص٨ ، ص٤٣-٤٥ .

٦٥- المصدر نفسه، جـ٣، ص٥٣-٥٥ . حيث يتحدث عن رحلات الأشرف قايتباي .

٦٦- ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص٣٥٨- ص٣٥٩ .

أما النتائج والآثار التى ترتبت على هذه السلسلة المتوالية الحلقات من الأوبئة ، فكانت فادحة فى كافة جوانب الحياة المصرية آنذاك .

فمن الناحية الاجتماعية تجلت هذه التأثيرات السلبية فى ذلك التدهور الواضح والمطرد فى أعداد السكان. وثمة من الدلائل ما يساعدنا على الوقوف على مدى التقلص السكانى الذى عانت منه البلاد نتيجة للأوبئة والمجاعات التى ألمت بها. فقد ذكر المؤرخ تقى الدين المقريزى فى خططه أن كثيراً من أسواق العاصمة التى عاصرها عامرة بالبضائع ، وشاهدها تموج بالحركة والنشاط، قد خربت بعد العقد الأول من القرن التاسع الهجرى (١٥م) ، كما ذكر اثنين وخمسين سوقًا قد خربت فى غرب القاهرة فقط ، ومن هذه الأسواق ما كانت حوانيته تصل إلى ستين حانوتًا ، ثم يعلق على ذلك بقوله : «وهذه من جملة ظاهرة القاهرة الغربى فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر؟ »(٦٧) ولاشك أن الأسواق الداخلية ترتبط ، فى رواجها أو كسادها ، بالتجمعات السكانية ، ولعل هذه النسبة الكبيرة من الأسواق التى خربت ، فضلا عن الأسواق التى تقلصت مساحة وحركة ، تعطينا انطباعًا عن مدى التدهور السكانى الذى أتت به تلك المجاعات والأوبئة فى العاصمة .

أما الريف ، فقد تقلصت أعداد القرى نتيجة لموت أعداد كبيرة من الفلاحين من ناحية ، وهروب كثيرين غيرهم إلى المدن بحثًا عن الطعام من ناحية ثانية، فضلا عن الفرار من الزراعة وظلم الحكام من جهة ثالثة (٦٨).

وتذكر المصادر العديد من الأمثلة الدالة على ذلك . كما تقدم لنا الأعداد التقريبية لعدد الضحايا فى كل وباء ألم بالبلاد. وعلى الرغم من رائحة المبالغة التى تفوح من بعض التقديرات، فإنها تكشف عن أن التناقص فى أعداد السكان كان مستمراً بصورة مطردة . ففى ٦٩٤هـ على سبيل المثال. تناقص عدد السكان ، ونزل عدد الفلاحين بصفة خاصة إلى درك رهيب من القلة مما سبب استمرار الاضطراب الاقتصادى فى مصر فترة غير يسيرة . فقد قدرت المصادر المعاصرة عدد ضحايا الوباء الذى حدث فى تلك السنة واستمر إلى السنة التالية بسبعة عشر ألفًا وخمسمائة فى أواخر سنة ٦٩٤هـ غير الفقراء والغرباء الذين ذكرت المصادر

٦٧- المقريزى، الخطط ، جـ٢ ، ص٩٣ .

٦٨- المقريزى، إغاثة الأمة ، ص٣٣- ص٣٥ ؛ ابن الصيرفى ؛ نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص٢٤١ .

نفسها أنهم أضعاف هذا العدد ، ونتج عن هذه المجاعة الرهيبة والوباء الذى صحبها أن القرية التى كان بها مائة شخص لم يبق بها سوى عشرين تقريبًا كما تخلخل البناء السكانى فى المدن أيضا[٦٩].

أما «الفناء الكبير» الذى بدأ ينشب مخالبه فى البلاد منذ خريف سنة ١٣٤٧م، فقد قضى على أعداد كبيرة من السكان بحيث لم يستطع الأحياء دفنهم أو تغسيلهم ، وفى الريف لم تجد الأرض من يزرعها ، كما لم تجد المحصولات من يضمها نظراً لكثرة الموتى بين الفلاحين ، وتوقفت أعمال الصيد ، إذ كان الصيادون يخرجون بمراكبهم للصيد فيموت بعضهم فى أثناء الرحلة ويموت الباقون بعد العودة .

كما قضى هذا الوباء المروع على كثيرين من المماليك الذين خلت منهم ثكنات القلعة ، وتذكر مصادر تلك الفترة أن «الفناء الكبير» قضى على ثلثى جمهرة السكان[٧٠].

وفى الوباء الذى حدث سنة ٨٣٣هـ قدر عدد الضحايا بمائة ألف إنسان على الأقل [٧١]. وقضى هذا الوباء على طائفة كاملة من «التكرور السودان عددهم حوالى ثلاثة آلاف» كما قضى على عدد كبير من المماليك السلطانية . وذكر ابن الصيرفى أن النعوش فى النهار كانت كثيرة جدا .. «فتراها فى الشوارع كأنها قطارات جمال لكثرتها متواصلة بعضها فى إثر بعض»[٧٢].

كذلك قضت تلك الأوبئة الثلاثة التى تعرضت لها البلاد فى أثناء حكم السلطان الأشرف قايتباى على أعداد كبيرة من السكان قدرهم المؤرخون بحوالى مائتى ألف شخص ، كما قضت هذه الأوبئة على ما يقرب من ثلث المماليك[٧٣].

٦٩- المقريزى، إغاثة الأمة ، ص٣٧- ص٣٨ ، السلوك ، جـ١ ، ص٨٠٨- ص٨١٥ ، النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٩ . ق٨٢ ؛ السيوطى، حسن المحاضرة ، جـ٣ ، ص٢٩٧- ٢٩٨ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ص١٣٤ .

٧٠- العينى، عقد الجمان، جـ٢٤ ، حوادث سنة ٧٤٩هـ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم، جـ١٠ ، ص٢٠٥-٢٠٦ .

٧١- العينى، المصدر السابق، جـ٢٥، ق٦٣٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ (كاليفورنيا) ، ص٦٦٢، السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٣٠٩ ؛ ابن الصيرفى، نزهة النفوس ، جـ١ ، ص٢٠٣- - ٢٠٢ .

٧٢- ابن الصيرفى ، المصدر السابق، جـ٣ ، ص١٨٩- ص١٩٠ .

٧٣- ابن الصيرفى، إنباء الهصر، ص١٢، ص٥٥- ٥٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣،ص١٢٢ , ١٢٥.

وفى بعض تلك الأوبئة كان الضحايا من الأطفال والرقيق والغرباء بصفة خاصة، وفى تصورنا أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن هذه الفئات هى أقل الناس قدرة على مقاومة الأمراض . فالأطفال بطبيعة الحال، لاتستطيع أجسامهم الغضة مقاومة العدوى، ولاسيما أن ذلك العصر لم يعرف التطعيم ، أو غيره من وسائل الوقاية . أما العبيد والخدم ومن على شاكلتهم من الغرباء المعدمين فكانوا غير قادرين أيضًا على مقاومة الأمراض الوبائية بسبب سوء التغذية والإنهاك الذى كان يتمكن من أجسادهم الضعيفة نتيجة لما يقومون به من أعمال شاقة تفرضها عليهم طبيعة وضعيتهم الاجتماعية .

ويمكن أن نلاحظ أن الأوبئة والمجاعات التى كانت تبدأ بالقضاء على أعداد كبيرة من الأطفال والرقيق والغرباء أخذت تشكل ظاهرة فى الحياة المصرية منذ مطلع القرن الخامس عشر الميلادى تقريبًا . فقد تكررت هذه الظاهرة المؤلمة فى سنوات ٨٠٦هـ (١٤٠٣م) ، ٨٠٧ هـ (١٤٠٤م) ، ٨٢٨هـ (١٤٢٤م) ، ٨٣٣هـ (١٤٢٩م) ، ٨٤١هـ (١٤٣٧م) ، ٨٧٣هـ (١٤٦٨م) ٩١٩هـ (١٥١٣م) .

وإذا ما تأملنا كيفية ارتفاع أسعار المواد الغذائية فى تلك الأوبئة بشكل مطرد فى ذلك الحين، أدركنا أن ارتفاع أسعار المواد الغذائية من جهة ، واختفاء بعضها أحيانًا من جهة ثانية، جعلا من الصعب على عامة الناس آنذاك أن يجدوا كفايتهم من الغذاء . وهو ما يعنى بالضرورة أن فرصة الرقيق والغرباء والمعدمين فى الحصول على كفايتهم الغذائية كانت أقل كثيراً ، ومن ثم كانت هذه الفئات هى الفريسة السهلة للأوبئة والمجاعات التى تفتك بالكثيرين منهم ، ثم لاتلبث أن تنال من بقية الناس. ولعل المثال الذى يقدمه الجدول التالى يكشف كيفية ارتفاع الأسعار باستمرار .

السنة	القمح سعر الأردب بالدرهم	الشعير بالأردب	الفول بالأردب	الخبز بالرطل	أنواع اللحوم بالرطل
٨٢٦هـ	٦٠-٩٠ درهما	٦٠-٦٥ درهما	٧٠-٧٥ درهما	٨,٠ درهم	٥-٨ دراهم
٨٢٧هـ	٢٢٠ درهما	١٠٠ درهما	١٠٠ درهم	١ ٣/٤ درهم	٦-٨ دراهم
٨٢٨هـ	٣٠٠ درهم	٢٨٠ درهما	٣٠٠ درهم	١ ٣/٤ درهم	-
٨٣٢هـ	٥٠٠-٣٠٠ درهم	٣٠٠-٣٣٠درهما	٣٠٠ درهم	-	٤-٦ دراهم
٨٣٩هـ	٣٦٠ درهما	٢٠٠ درهما	٢٠٠ درهم	درهمان	٥-٨ دراهم

وعلى أية حال ، فإن الأوبئة قد استطاعت أن توقف النمو السكانى الذى شهدته البلاد فى بداية ذلك العصر، ثم تسببت فى التناقص المستمر فى أعداد السكان حتى وصلت أعدادهم إلى الثلث تقريبًا حسب تقديرات حوليات ذلك العصر .

بيد أن التدهور السكانى لم يكن هو الأثر السلبى الوحيد للمجاعات على الصعيد الاجتماعى إذ تخلخل البناء السكانى بشكل حاد نتيجة لهبوط المستوى الاقتصادى لكثير من الشرائح الاجتماعية، كما اتخذت حركة المجتمع اتجاها هابطا بشكل واضح .

وكان من الطبيعى أن يتخلخل بنيان المجتمع فى أعقاب هذه الأوبئة والمجاعات ، فقد كانت أعداد الذين لايملكون تتزايد عقب كل من هذه الأزمات، إذ يضطر الناس إلى بيع ما يملكون لشراء ما يقتاتون به، ومن ثم يدخلون فى عداد المعدمين [٧٤]. ومع توالى الأزمات تكثر أعداد أولئك المعدمين، وتقل بالتالى قوة البناء الاجتماعى إذ تزيد القاعدة المعدمة اتساعا، على حين تضيق دائرة الأثرياء الذين تقل درجة ثرائهم أيضا . ومن الآثار الخطيرة على البناء الاجتماعى ما ذكرته المصادر من أن البعض كانوا يضطرون إلى بيع أبنائهم أثناء هذه الأزمات [٧٥]. وهو ما يعنى أن يزيد عدد الرقيق على حساب عدد الأحرار. صحيح أن مثل هذا الأمر لم يشكل ظاهرة بحيث تترك تأثيراً ملموسًا على المجتمع ككل ، بيد أنها مؤشر هام على مدى التدهور الذى عانى منه المجتمع المصرى بسبب هذه الكوارث المتوالية .

ومن دلائل تخلخل البناء الاجتماعى أيضًا تلك الأعداد المتزايدة من أبناء الريف الذين كانوا يتوافدون إلى العاصمة لكى ينضموا إلى جمهرة المعدمين والشحاذين الذين كثرت أعدادهم فى العاصمة بشكل لفت نظر زوارها من الأجانب فى ذلك الوقت [٧٦]. ويبدو أن الوافدين كانوا يشكلون عبئا على البلاد حتى تضطر السلطات أحيانا إلى الأمر برحيل الغرباء عن القاهرة . والجدير بالذكر أن بعض هؤلاء الغرباء كانوا من أبناء بلاد الشام الذين فروا من بلادهم لسبب أو لآخر[٧٧]. ومن الطريف أن بعض الناس كانوا يدعون الحاجة والفقر حتى ينالوا

٧٤- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٧ ، ص٢١٨- ص٢١٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ١ ، ص١٢٣- ص١٢٤ .

٧٥- ابن حجر : إنباء الغمر، جـ١ ، ص١٤٩ .

٧٦- سعيد عاشور ، المجتمع المصرى، ص٣٧-٤٠ .

٧٧- ابن الصيرفى، نزهة النفوس ، جـ٢ ، ص٩٧-١٠١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حظهم من الصدقات التى توزع أحيانًا زمن المجاعات ، فقد ذكر ابن تغرى بردى فى أثناء الغلاء الذى حدث سنة٨٥٥هـ ما نصه : «تمفقر خلائق كثيرة ممن ليس لهم مروءة»[٧٨]...

كذلك كانت الأوبئة تقضى على الكثيرين بحيث يتخلف عنهم أملاك لاتجد من يرثها . فمن نتائج «الفناء الكبير» على سبيل المثال ، ماذكره المقريزى فى خططه من أنه « ... كان يوجد بالحارة الواحدة ما يزيد على عشرين داراً خالية لايعرف أربابها[٧٩] ..» كذلك كانت الأملاك تنتقل بسرعة غريبة بين خمسة أو ستة أشخاص فى اليوم والواحد نتيجة لسرعة الموت. وحدث فى هذا الوباء أن استولى كثيرون من العامة على إقطاعات أجناد الحلقة[٨٠] كما حدث فى وباء سنة ٨٣٣هـ أن انتقل إقطاع أحد أجناد الحلقة بين تسعة أشخاص فى مدى أيام قليلة [٨١].

وثمة عبارة تجسد مدى تخلخل البنيان الاجتماعى فى مصر آنذاك ، ذكرها ابن الصيرفى تعليقا على حوادث سنة ٨٧٥هـ، وتقول كلماتها «أما الناس فصاروا ثلاثة أثلاث : الغنى افتقر ، والمتكسب ما يفى بنفقته ، والفقير فبعد أن كان يسأل فى الرغيف صار يطلب لقمة أو لبابة»[٨٢].

ومن الطبيعى أن يكون لهذه الأوبئة المتوالية أثرها على أخلاقيات الناس، وعلى شكل حياتهم اليومية ؛ فقد كانت الأزمة تدفع بالكثيرين إلى الحرص على ما لديهم من الأطعمة ، وتشح النفوس، إذ كان الأمراء والأعيان والأثرياء لايستقبلون أحداً فى وقت تناول الطعام[٨٣].

وفى الشوارع يتصارع عامة الناس فى سبيل الحصول على القوت، فيتزاحمون على الأفران وحوانيت بيع الخبز والدقيق، وربما يقتتلون فى سبيل الحصول على شئ من هذا أو ذاك . وهنا

٧٨- ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ٧ ، ص٢١٩ .

٧٩- المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص٣٢١ .

٨٠- ابن تغرى بردى، النجوم ، جـ١ ، ص٧٥-٢٠٩ .

٨١- ابن الصيرفى، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص١٨٩ .

٨٢- ابن الصيرفى، إنباء الهصر. ص١٨٨ .

٨٣- المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ص٧٢٨ .

تتوقف كافة مظاهر حياتهم اليومية، وتركد الأسواق ، ويتوجه بعضهم إلى الأفران من منتصف الليل، على حين يتوجه البعض الآخر إلى ساحل النيل عند بولاق فى محاولة للحصول على بعض القمح «فمنهم من يجد بعض شئ ومنهم من يرجع خايبًا» وفى أثناء التزاحم على الأفران كان الناس ينهبون الخبز جهراً ، بل إن الجوع كان يدفع بالبعض إلى اختطاف العجين إذا أرسله أصحابه إلى الفرن، وهو ما جعل البعض يرسلون العجين إلى الفرن فى حراسة عدد من الأفراد المسلحين بالعصى «لحمايته من النهابة» ، ولكن الجوع كان يدفع ببعض الناس إلى إلقاء أنفسهم على الخبز أو العجين دون أن يبالى الواحد منهم بما ينال رأسه وبدنه من الضرب «لشدة ما نزل به من الجوع» وفى مثل هذه الأحوال كان المحتسب أو الوالى يضطر لتعيين الحراسات على أبواب الأفران وحوانيت الخبز ومعهم العصى الغليظة لدفع الجياع إذا ما حاولوا نهب الخبز[٨٤].

ومن المنطقى أن العامة هم الذين كانوا يقومون بمثل هذه الهجمات ، ولاسيما ذلك القسم الذى عرفته مصادر ذلك العصر باسم «سواد العام» أما «بياض العامة» ، أو «مساتير الناس» ، فلم يكن بهم حاجة لمثل هذه التصرفات لأن حاجتهم إلى الطعام فى مثل هذه المرحلة المبكرة من المجاعة كانت تقل كثيراً عن حاجة المعدمين .

أما المراكب التى كانت تصل إلى ميناء القاهرة النهرى على ساحل بولاق، فكانت تربط بالمرسى بعيداً عن الشاطئ خوفًا من النهب،ويتوجه من يريد الشراء إلى هذه المراكب فى القوارب الصغيرة وربما تقع الحوادث ويسقط الضحايا أثناء تصارع الناس وتزاحمهم لشراء القمح[٨٥].

ويبدو أن كثرة الأوبئة والمجاعات التى تعرضت لها البلاد فى تلك الفترة قد جعلت الناس يعتادون عليها، ويتوقعون حدوثها فى كل حين، بل ويتقبلون الأمر الواقع ببساطة مذهلة ، فقد ذكر المقريزى وابن الصيرفى فى حوادث سنة ٨٣٣هـ أن الناس فى العاصمة كانوا يتوقعون الوباء «حتى إن الصغار فى المكاتب يتكلمون بذلك ، ويودعون بعضهم بعضا»[٨٦]، وهو ما

٨٤- ابن حجر ، إنباء الغمر، جـ٢ ، ق٤٨٥ ؛ العينى، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٤١٤ .

٨٥- المقريزى، إغاثة الأمة ، ص٣٣- ص٣٥ ، ص٣٩ ، عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ق٤١٤ ابن حجر ، إنباء الغمر، جـ٣ ، ق٩٢ .

٨٦- المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص٨٢٢ ، ابن الصيرفى، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص١٨٢- ١٨٣ .

يكشف عن أن الحياة قد باتت كريهة ومليئة بعوامل الإحباط بحيث لم يعد الناس يتوقعون من غدهم سوى ما يكرهون : ومن ثم كان طبيعيا أن يتعاملوا مع هذا الواقع المرير بقدر من اللامبالاة والاستسلام المميت . بيد أن طبيعة الإنسان المصرى الذى يسخر على الدوام من متاعبه، عبرت عن نفسها فى بعض ألوان الأدب الشعبى التى بقيت لنا من ذلك العصر، فقد كتب أحد الشعراء عندما تأخر الفيضان فى إحدى السنين:

إن عجل النيروز قبل الوفا　　عجل للعالم صفع القفا

فقد كفى من دمعهم ما جرى　　وما جرى من نيلهم ما كفى[٨٧]

وإذا زادت مياه النهر بحيث أغرقت الحقول فى إحدى السنين ، بحيث تعذرت زراعتها وتفشى الخوف والقلق بين الناس وباتوا يتوقعون المجاعة ، أخذ الشاعر يخاطب النيل كأنه إنسان يفهمه فيقول :

أبحر النيل لاتشره ولاتأت بما نكره

فقد وفيت بالحسنى ولكن زدت فى كره

ولاتترك قفا الخباز يوما يأكل الدره

كم من خازن للقمح أمسى يظهر العُذره

ألم تعلم بأنك إن نزلت تركته عِبرَّة

فشهر دمعه حتى تراه فى الورى نهره

وسر عن مصر فى خير فقد طولت فى العشرة[٨٨]

وحينما عز وجود الخبز فى الأزمة التى ألمت بالبلاد فى سنة ٨٥٣هـ رثاه أحد الشعراء بهذه الأبيات :

قسما بلوح الخبز عند خروجه　　من فرنه وله الغداة نوار

ورغائف تروقك وهى فى　　سحب الثفال كأنها أقمار

من كل مصقول السوالف أحمر　　الخدين للشونيز فيه عذار

٨٧- السيوطى، كوكب الأروضة ، ق٣٦ .

٨٨- السيوطى، حسن المحاضرة ، ق٢ ، ص٣٥٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كالفضة البيضاء لكن يغتدى ذهبا إذا قويت عليه النار
تلقى عليه فى الخوان جلالة لاتستطيع تحده الأبصار
فكأن باطنه بكفاك درهم وكأن ظاهر لونه دينار
ما كان أجهلنا بواجب حقه لو لم تبينه لنا الأسعار
إن دام هذا السعر فأعلم أنه لاحبة تبقى ولامعيار[٨٩]

ومن الأشعار التى قيلت أثناء أحداث «الفناء الكبير» ، الذى قضى على أعداد كبيرة من المصريين وكان بداية للتخلخل الذى بدأ يهز أركان البنيان الاجتماعى منذ ذلك الحين فصاعدا ما قاله أحد شعراء العصر فى سخرية مريرة :

يا طالبا للموت قم واغتنم هذا أوان الموت مافاتا
قد رخص الموت على أهله ومات من لاعمره ماتا[٩٠]

ويضيق بن المقام عن محاولة تتبع الأشعار التى من هذا النوع ، بيد أن النماذج التى أوردناها فى السطور السابقة يمكن أن تكشف عن كيفية معايشة المصريين لواقعهم على الرغم من مرارة هذا الواقع .

ومن ناحية أخرى، فإن الأوبئة والأزمات المتوالية فى الشطر الأخير من عصر المماليك أضفت مسحة من الكآبة على الحياة اليومية لجماهير المصريين فاختفت مظاهر كثيرة من مظاهر البهجة والسرور والاهتمام التى كانت تصاحب احتفالاتهم وأعيادهم بحيث تواضعت مظاهر هذه الأعياد والاحتفالات إلى أدنى حدودها[٩١].

أما النتائج والآثار الاقتصادية لهذه الأوبئة والمجاعات ، فيمكن أن نلمس أهم مظاهرها فى حقيقة تدهور الإنتاج الزراعى، وما كان ينتج عن ذلك بالضرورة من ارتفاع الأسعار بشكل مطرد ، فضلا عن اختفاء الكثير من السلع الضرورية فى كثير من الأحيان، مما يجعل الأسباب

٨٩- ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص٣٢ . (بولاق) .

٩٠- المصدر نفسه، جـ١ ، ص١٩١ ، يتبع .

٩١- انظر ما سبق فى دراستنا للأعياد والاحتفالات .

والنتائج تتشابك فى بعضها البعض بحيث يتعذر الفصل بينهما . إلا أن التدهور الاقتصادى بات واضحًا تمام الوضوح فى قصور الإنتاج الزراعى عن الوفاء بحاجة البلاد من ناحية ، وفى كثرة اختفاء الخبز والقمح بشكل كاد أن يكون سنويا من ناحية أخرى. كما تجلى هذا التدهور الاقتصادى فى انخفاض الإنتاج الصناعى بشكل ملحوظ ، وتقلص النشاط التجارى الداخلى وانكمشت الأسواق تبعا لذلك ، فضلا عن انهيار النظام النقدى واختفاء الذهب والفضة تقريبًا فى السنوات الأخيرة من العصر، وسيطرة العملات الأجنبية على السوق المحلية[٩٢].

ومن نافلة القول أن نكرر ما سبق أن ذكرناه فى الدراسات السابقة عن مظاهر التدهور الاقتصادى ، ولكننا نكتفى بالإشارة بأن هذا التدهور كان من أسباب الأزمات الاقتصادية والمجاعات المتوالية بقدر ما كان من نتائجها . والحقيقة أن التداخل بين العوامل والنتائج واستمرارها بشكل حلزونى فى متابعة كل منها للأخرى يجعلان من الصعب أن نحدد مدى تأثير السبب فى النتيجة التى لاتلبث أن تصبح من الأسباب المؤدية إلى مزيد من التدهور . وإذا كنا قد عرضنا لبعض النتائج والآثار التى نجمت عن الأوبئة والمجاعات على الصعيد الاجتماعى. فإنه ينبغى أن نشير إلى أن التدهور السكانى والاختلال الاجتماعى كانا أيضا من أسباب المزيد من التدهور الاقتصادى، وتضاؤل الإنتاجين الزراعى والصناعى .

وفيما يتعلق بتدهور الإنتاج الزراعى ، فإن ذلك يمكن تفسيره فى ضوء الحقيقة القائلة بأن إهمال وسائل الرى، من جسور وترع وغيرهما ، وارتفاع الأراضى الزراعية عن منسوب مياه النهر بدرجة كبيرة (بفعل التراكم المستمر لطمى النيل مع إهمال شبكة الرى) جعلا المساحة التى تروى من مياه الفيضان تقل تدريجيًا . ومن الجدير بالذكر أن معظم الأرض الزراعية آنذاك كانت تعتمد على نظام رى الحياض الذى يعتمد على مياه الفيضان وتزرع الأرض

٩٢- تتحدث مصادر عصر المماليك كثيراً عن أوامر السلاطين بمنع تداول العملات الأجنبية سواء الذهبية منها أو الفضية . (انظر على سبيل المثال، ابن الصيرفى، نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص٢٤ ، ابن إياس، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٠ ٢ ، ص١٠٥-١٠٦ ، ص١٢١) كذلك كان التلاعب بأسعار العملة يخلق المزيد من المتاعب ويعقد الأزمة الاقتصادية (ابن الصيرفى، إنباء الهصر، ص١٤٣ ، نزهة النفوس، جـ٢ ، ص٢٨٤ ، ص٢٨٧ - ٢٨٩ ، ص٢٩٠، جـ٣ ، ص٢١٥-٢١٧ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص١٢١) ولمزيد من المعلومات انظر دراستنا عن الأسواق .

بمحصول واحد فى العام[٩٣] . ومن ناحية أخرى، فإن توزيع إقطاعات الأمراء فى أنحاء مختلفة من البلاد، ثم تغييرها المستمر مع تغير وظائف الأمراء جعلهم يحرصون على أن يجنوا منها أكبر قدر ممكن من الأرباح ،دون أن يبذلوا جهداً يذكر لتحسين إنتاجيتها أو رعايتها ، وهو ما أدى فى النهاية إلى كثير من حوادث انقطاع الجسور ، وعطش الأراضى وبوار مساحات كبيرة منها .

أما الصناعة ، فقد تسببت سياسة سلاطين المماليك الضريبية الظالمة ، وطرح البضائع على الصناع ، ثم احتكار السلاطين لبعض السلع ، فى القضاء على الرواج الذى كانت تتمتع به بعض الصناعات ، وتدهور أعداد أصحاب الحرف والصناعات . كما أن التدهور الاقتصادى العام قد اضطر الناس إلى الاقتصاد على الضروريات ، مما أدى بالتالى إلى ضمور وذبول كثير من الصناعات التى ترتبط بالرواج الاقتصادى والرفاهية التى يحيا المجتمع فى ظلها .

وتتفاعل هذه العوامل جميعا لتخلق مزيدا من الأزمات التى تساهم بدورها فى المزيد من التدهور وترتبك أمور السياسة الداخلية ويتخبط الحكام ويحاولون الحصول على الأموال من شتى الطرق وبكل الوسائل، فيلجئون إلى الاحتكار فى الداخل وفى الخارج ، ويزيدون من وطأة الضرائب «المظالم» على الرعية، ويصادرون أموال كبار الموظفين، ويستولون على أموال الأوقاف . بيد أن ذلك لايكفى لسد مطالب المماليك الذين بات اعتمادهم على ما يأخذونه من أموال من السلطان كبيراً بعد أن صارت الأرض الزراعية غير قادرة على سد مطالبهم . ويسبب ذلك كثيرا من الفتن والاضطرابات ، ويفقد السلاطين سيطرتهم على مقاليد الأمور حتى تصير السلطنة عبئًا يتهرب الجميع من تبعاته .

وهكذا تنهار دولة سلاطين المماليك من الداخل حتى إذا ما دهمتها جيوش آل عثمان الأتراك تسقط بعد معركتين فاصلتين فى مرج دابق والريدانية وبعض المناوشات ضد شراذم المماليك بقيادة طومانباى الذى يحاول ، عبثًا ، أن يقيم جسداً مات قبل أن يسقط بزمان .

٩٣- قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى، ص١٨ يتبع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصادر والمراجع

إبراهيم حمادة

- خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال - دراسة وتحقيق (القاهرة ١٩٦٣م)

ابن أبى الفضائل (المفضل بن أبى الفضائل)

- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد. (نشره بلوشيه E. Blouchet ضمن مجموعة . . (Patrolagia Orientalis, Toms. XII, XIV , XXII, Paris 1919).

ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمدالقرشى ت٧٢٩هـ)

- معالم القربة فى أحكام الحسب . (نشره ليفى R. Levey كمبردج ١٩٣٧م) .

ابن الحاج (أبو عبدالله محمد بن محمد العبدرى الفاسى ت ٧٣٧هـ) .

- المدخل إلى الشرع الشريف . (٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٤٨هـ) .

ابن الصيرفى (على بن داود الجوهرى)

- إنباء الهصر بأنباء العصر (تحقيق الدكتور حسن حبشى) دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم ت ٨٠٧هـ)

- تاريخ الدول والملوك . (جـ٧ - جـ٩ ، نشره د. قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٤٢) .

ابن النقاش (أبو إمامة محمد بن على ت ٧٧٣هـ) .

- المذمة فى استعمال أهل الذمة . (مخطوط بدار الكتب، رقم ٣٩٥٢ تاري٩ .

ابن الوردى (زين الدين عمر ت ٧٥٠هـ) .

- تتمة المختصر فى أخبار البشر . (القاهرة ١٢٨٥هـ)

ابن إياس (محمد بن أحمد الحنفى)

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور (تحقيق محمد مصطفى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٣م).

ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفى المصرى ت٩٣٠هـ)

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور : (طبعة بولاق ١٣١١هـ، جـ٣ - جـ٥ تحقيق د. محمد مصطفى، جمعية المستشرقين الألمانية، القاهرة ١٩٦٠-١٩٦٣م) .

- نشق الأزهار فى روض المعطار . (مخطوط بدارالكتب المصرية)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن أيبك الدوادار (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداری)

– الدرة الزكية فی أخبار الدولة التركية . (وهو الجزء الثامن من حوليته «كنز الدرر وجامع الغرر») .

– الدر الفاخر فی سيرة الملك الناصر . (وهو الجزء التاسع من «كنز الدرر» ، نشر هانس روبرت رويمر، القاهرة

ابن بسام (محمد بن أحمد بن بسام المحتسب)

– نهاية الرتبة فی طلب الحسبة. (نشره حسام الدين السمرائی ، بغداد ١٩٦٨) .

ابن بطوطة (عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتی ثم الطنجی)

– تحفة النظار فی غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. (طبعة باريس ١٨٨٠م، وطبعة دار التراث ، بيروت ١٩٦٨) .

ابن تغردی بردی (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغری بردی الأتابكی ت ٨٧٤هـ)

– النجوم الزاهرة فی ملوك مصر والقاهرة . (طبعة دار الكتب فی ١٦ جزءاً ، وطبعة كاليفورنيا تحقيق W. Popper

– منتخبات من حوادث الدهور فی مدی الأيام والشهور (٤ أجزاء نشره وليم بوبر، كاليفورنيا

ابن تيمية (تقی الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرانی ت ٨٢٨هـ)

– الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . (أربعة أجزاء فی مجلدين ، القاهرة ١٣٢٣هـ) .

ابن حجر (الحافظ بن حجر العسقلانی ت ٨٥٢هـ)

– إنباء الغمر بأنباء العمر . (مخطوط فی جزئين بدار الكتب المصرية، رقم ٢٤٧٦ تاريخ وجـ١ – جـ٣ تحقيق الدكتور حسن حبشی ، المجلس الأعلی لرعاية الشئون الإسلامية ، القاهرة ٦٩– ١٩٧٢م) .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـ) .

– المقدمة (المطبعة الأميرية ببولاق، ١٣٢١هـ) .

ابن دقماق (صارم الدين الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائی ت ٨٠٩هـ) .

– الانتصار لواسطة عقد الأمصار . (الجزءان ٤ ، ٥ نشرهما فولر ، بولاق ١٣١٤هـ) .

ابن زين (أبو محمد عبد الله بن أحمد بن زين القاضی، القرن التاسع الهجری) .

– شروط النصاری. (مخطوط بدار الكتب ، رقم ١٢٠٩ تيمور)

ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين بنخليل بن شاهين الظاهرى ت ٨٢٧هـ)

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . (باريس ١٨٩٤م)

ابن طلحة (أبو سالم محمد بنطلحة القرشى الوزير ت ٦٥٢هـ) .

- العقد الفريد للملك السعيد (القاهرة ١٣٠٦هـ)

ابن ظهيرة (غير معروف بالتحديد).

- الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة. (تحقيق ونشر مصطفى السقا وكامل المهندس، القاهرة ١٩٦٩)

ابن عبد الظاهر (محيى الدين بن عبد الظاهر ت ٦٩٢هـ)

- تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور (تحقيق ونشر د. مراد كامل، القاهرة ١٩٦١) .

- الرواض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر (نشره د. عبد العزيز الخويطر (الرياض ١٩٧٦) .

ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين ابن فضل الله العمرى ت ٧٤٩ هـ) :

- التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ١٣١٢ هـ .

- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار

- ممالك مصر والشام والحجاز واليمن (تحقيق أيمن فؤاد سيد) المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٥م .

ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبى بكر- ٧٥١هـ) .

- أحكام أهل الذمة. (نشره د. صبحى الصالح ، دمشق ١٩٦١) .

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ)

- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ ٢ . (تحقيق الدكتور حسنين ربيع ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ - ١٩٧٧م)

أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل ت ٧٣٢ هـ)

- المختصر فى أخبار البشر ، جزء ٣ ، القاهرة ١٣٢٥ هـ .

أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدس ت ٦٦٥هـ)

- الذيل على الروضتين ، القاهرة ١٩٧٤م .

البلاذرى (أحمد بن جهجها بن جابر)

- فتوح البلدان . (نشره M. J. Goyé ليدن ١٨٦٦) .

الخالدى (بهاء الدين محمد بن لطف الله) .

- المقصد الرفيع المنشأ الحاوى إلى صناعة الإنشا (مخطوط مصور بجامعة القاهرة ، رقم ٤٥-٤٢) .

الخطيب الجوهرى (على بن داود الصيرفى) .

- إنباء الهصر بأنباء العصر. (تحقيق الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠) نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان . (تحقيق الدكتور حسن حبشى ، ٣ أجزاء ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤) .

السبكى (تاج أبو نصر عبد الوهاب ت ٧٧١هـ) .

- معيد النعم ومبيد النقم- (ليدن ١٩٠٨) .

السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٣هـ) .

- التبر المسبوك فى ذيل السلوك . (بولاق ١٣١٥هـ) .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن)

- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان . (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ / ١٦٨م) .

العبادى أحمد مختار

- قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، بيروت ١٩٨٦م .

العينى (بدر الدين محمود العينى ت ٨٥٥هـ)

- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٨٤ تاريخ) -
- السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ١٩٦٧ .

القلقشندى (شهاب الدين أحمد بن على ت ٨٢١هـ)

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (١٤ جزءا ، طبعة دار الكتب ابتداء من سنة ١٩١٣)

الكتبى (محمد بن إبراهيم بن يحيى بن على الشهير بالوطواط الكتبى ت ٨١٢هـ) .

- مباهج الفكر ومناهج العبر . (مخطوط فى أربعة أجزاء نسخة مصورة بدار الكتب ، رقم ٣٥٩ علوم طبيعية) . لويس شيخو :- المخطوطات العربية لكتبة النصرانية (بيروت ١٩٢٤م) - ماير ل. أ . الملابس المملوكية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ)

- السلوك لمعرفة دول الملوك . (جـ١ ، جـ٢ نشرهما د. محمد مصطفى زيادة ، جـ٣ ، جـ٤ نشرهما د. سعيد عاشور ، دار الكتب) .

- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ١٨٨٥م) .

- الذهب المسبوك فى ذكر من حج من

النسوى :

- تاريخ السلطان جلال الدين منكويرتى

النويرى (شهاب الدين عبد الوهاب ت٨٣٣هـ)

- نهاية الأرب فى فنون الأدب . (١٨ جزءاً طبعة دار الكتب المصرية ، وابتداء من جـ٢٧ مخطوط بدار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة .

ب . أ : مجموعة وثائق بطريركية الأقباط الأرثوذكس ، نسخة على ميكروفيلم بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

بنيامين التطيلى (الرحالة الربى بنيامين بن يونه التطيلى الأندلسى)

- رحلة بنيامين . (ترجمة وتعليق عزرا حداد ، بغدا ١٣٨٤هـ)

بيبرس الداودار :

- زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، جـ ٩ . (تحقيق زبيدة عطا) .

جمال الدين الشيال (دكتور)

- تاريخ مصر الإسلامية (الجزء الثانى؛ دار المعارف ١٩٦٧) .

حسن ظاظا (دكتور) .

- الفكر الدينى الإسرائيلى - أطواره ومذاهبه (معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧١)

س . ك : مجموعة وثائق دير سانت كاترين ، نسخة على ميكروفيلم بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

سعيد عاشور (دكتور)

- العصر المماليكى فى مصر والشام (القاهرة ١٩٦٥)- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٦٢) .

عادل هلال

- العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامى ، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٩٦م .

فاسيلى فلاديمير وفتش بارتولد :

- تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى(نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم ، الكويت ١٤٠١ هـ/١٩٨١م) .

قاسم عبده قاسم (دكتور) :

- أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (طبعة ثانية ، دار المعارف ١٩٧٩م)

- النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٧٨م)

- الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث (بالأشتراك مع د. أحمد الهوارى ، القاهرة ١٩٧٧) .

قاسم عبده قاسم :

- ماهية الحروب الصليبية ، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٣م .

- دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى - عصر سلاطين المماليك دار الشروق / القاهرة ١٩٩٤م .

قاسم عبده قاسم وعلى السيد على :

- الأيوبيون والمماليك - التاريخ السياسى والعسكرى ، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ١٩٩٥م .

مجموعة وثائق دير سانت كاترين ، أرقام ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

محمد مصطفى زيادة (دكتور)

- حملة لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب ، القاهرة ، ١٩٦١ .

محمود نديم أحمد فهيم :

- الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣م .

مراد فرج

- القرا مون والربانيون (القاهرة ١٩١٨)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المراجع الأجنبية :

Ashtor E ., :

A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages , (Collins, London 1979) .

Atiya (A . S) ,:

The Crusades in the Later Middle Ages, (London 1938) .

Claude Cahen ,:

" The Mongols and the Near East ", in Setton (ed.), A History of the Crusades vol .II.

Hamilton A . R . Gibb , :

The Ayyubids , in Setton (ed.,) A Hist. of the Crusades , II .

Joinville, :

The Life of Saint Louis, (Transl . with an introdaction by M.R.B Shaw O, Penguin 1975 .

Joseph . R. Strayer, :

" The Crusades of Louis IX " in Setton (ed.), A Hist . of the the Crusades II .

Mustafa Ziada , :

" The Mamluk Sultan " , in Setton (ed.), A History of the Crusades , vol . II .

Runciman , S ., :

A History of the Crusades (Cambridge 1957) , III .

Encyclopadia of Islam , Art . Ain Djalit

Ahmed Abd Arraziq :

- La femme au temps des Mamlouks en Egypte (Institut Francais D'Archeologie Orientale du Caire, 1973) .

Bosworth (C. E.) :

"Christian and Jewish religious dignitaries in Mamluke Egypt and Syria" (reprinted from The Journal of Middle East Studies , Jan 1972) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Dopp (P. H.) :

L' Egypt au commencement du quanziéme siécle (Le Caire 1650) .

Giovanni Boccasio :

Decameron (transl. by J. M. Rigg, George Routledge and son , London 1905)

.Ibraham S. Halkine :

The Arab- Jewish Literature , An essay in the book published by Finkelstein titled The Jews : Their history culture and religion . (New York) .

Mann (J.) :

The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid caliphs (2 vols. Oxford 1920)

Norman F. Cantor :

The medievol history (2 nd ed. New York 1969) .

Rabie (H.) :

The Financial System of Egypt (Oxford 1972) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محتويات الكتاب

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رقم الإيداع ٩٨/١٤١٢٩
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 5487 - 97 - 8
مطابع زمزم – مهندس يوسف عمر – العاشر من رمضان


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES